السلسلة البلاغية
للدكتور سعيد جمعه (٣)

الصور المرئية
في البلاغة العربية

الأستاذ الدكتور
سعيد جمعة
أستاذ البلاغة وعميد كلية الدراسات الإسلامية والعربية
بمدينة السادات

دار العلم والإيمان للنشر والتوزيع
دار الجديد للنشر والتوزيع

٤١٤
جمعه ، سعيد أحمد .
ج . س

السلسلة البلاغة للدكتور سعيد جمعه(٣) / سعيد أحمد جمعه.-

ط١.- دسوق: دار العلم والإيمان للنشر والتوزيع، دار الجديد للنشر والتوزيع.

٣٤٠ ص ؛ ١٧.٥ × ٢٤.٥سم .
تدمك : ٢ - ٧٢٤ – ٣٠٨ – ٩٧٧ – ٩٧٨
١. البلاغة العربية .
أ - العنوان.

رقم الإيداع : ٢٤٧٨ .

الناشر : دار العلم والإيمان للنشر والتوزيع
دسوق - شارع الشركات- ميدان المحطة – بجوار البنك الأهلي المركز
هاتف- فاكس : ٠٠٢٠٤٧٢٥٥٠٣٤١ محمول : ٠٠٢٠١٢٧٧٥٥٤٧٢٥-٠٠٢٠١٢٨٥٩٣٢٥٥٣
E-mail: elelm_aleman٢٠١٦@hotmail.com & elelm_aleman@yahoo.com
الناشر : دار الجديد للنشر والتوزيع
تجزءة عزوز عبد الله رقم ٧١ زرالدة الجزائر
هاتف : ٢٤٣٠٨٢٧٨ (٠) ٠٠٢٠١٣
محمول ٦٦١٦٢٣٧٩٧ (٠) ٠٠٢٠١٣ & ٧٧٢١٣٦٣٧٧ (٠) ٠٠٢٠١٣
E-mail: dar_eldjadid@hotmail.com

تنويه:
حقوق الطبع والتوزيع بكافة صوره محفوظة للناشر
ولا يجوز نشر أي جزء من هاذ الكتاب بأي طريقة إلا بإذن خطي من الناشر
كما أن الأفكار والآراء المطروحة في الكتاب لا تعثر إلا عن رأي المؤلف

٢٠٢٠

فهرس العناوين

فهرس العناوين ٣
المقدمـة.. ٦
التـشبيه ١٢
توطئة : ١٢
حد التشبيه في اللغة : ١٤
المعنى الاصطلاحي للتشبيه :...............................١٤
أركان التشبيه ١٨
أقسام التشبيه باعتبار الأركان ٢٣
التشبيه بين الإفراد ، والتعدد ، والتركيب ٣٧
أغراض التشبيه ٥٣
أدوات التشبيه..٦٣
تقسيم التشبيه باعتبار ذكر الأداة وحذفها ٧٢
وجه الشبه ٧٤
تقسيم التشبيه باعتبار وجه الشبه ٧٩
وجه الشبه بين الذكر والحذف (المجمل والمفصل) ٨٠
التشبيه بين القرب والبعد والابتذال ٨٨
التشبيه بين الحسن والقبح...................................٩٤
التشبيه الملفوف والمفروق ١٠١
التشبيه بين التسوية والجمع ١٠٧
التشبيه التمثيلي..١٠٩
ما المقصود بالتأول ؟ ١١٦

رأي الإمام عبد القاهر في التمثيل : ١٢٦
مواقع التمثيل : ١٢٩
غموض المعنى في التمثيل : ١٣٧
تأثير التمثيل وأسبابه ١٣٩
"التشبيه المقلوب" ١٤٥
التشبيه الضمني ١٥١
التشبيه البليغ ١٥٧
صورُ التشبيهِ البليغ ١٦٠
عوامل الجودة في التشبيه ١٦٣
المجــاز ١٩٥
تـوطئة : ١٩٥
المجاز بين الثبوت والإنكار ١٩٦
المجاز العقلي ٢١٢
رحلة المجاز العقلي ٢١٤
تعريف المجاز العقلي : ٢٢٠
علاقات المجاز العقلي ٢٢٢
المجاز اللغوي ٢٣١
توطئة : ٢٣١
الاستعارة ٢٣٦
توطئة : ٢٣٦
أركان الاستعارة : ٢٤٣
تقسيمات الاستعارة ٢٤٥
"الاستعارة المكنيّة". ٢٦٨
الاستعارة المفردة ٢٨٩

الاستعارة المركبة " التمثيلية " ٢٩٢
الاستعارة المطلقة والمجردة والمرشحة ٢٩٧
الاستعارة الوفاقية والاستعارة العنادية ٣٠٣
الاستعارة الوِفاقيَّة : ٣٠٤
"الاستعارة العناديَّة". ٣٠٥
بلاغة الاستعارة ٣١١
المجاز المرسل ٣١٦
علاقات المجاز المرسل ٣١٧
بلاغة المجاز المرسل ٣٣٤
الكناية ٣٣٧
أقسام الكناية ٣٤٢
قيمة الكناية في الأدب : ٣٥٦
التعريض ٣٥٩

المقدمة

الحمد لله ، والصلاة والسلام على رسول الله ، وعلى آله وصحبه ومن والاه اللهم اهدنا وسددنا ،اللهم إنا نسألك الهدى والسداد ... وبعد.

فإن علم البيان لا ينفصل عن حياة الإنسان ، وحين يظن ظان أن البيان همه اللسان وكفى ، أو أنه يوضح مواطن الجمال ، ومواضع القبح فلقد غفل عن طبيعة هذه اللغة ، فاللغة التي تذكرك بعلم البيان فيها هي صورة للإنسان صورة لهمِّه وشغله ، فرحه وترحه ، عزه وذله ، آماله وآلامه ...

ومقصود علم البيان هو كيف يُؤَدَّى المعنى ؟ وصور هذا الأداء ، وطرقه المختلفة في وضوح دلالتها ، هو لبه وحقيقته ، فالفرق بين علم المعاني ، وعلم البيان أن الأخير معني بطريقة الدلالة ، وليس معنيًا بالمعاني نفسها ، وتركيبها وتأليفها ، فعلم المعاني يدرس المعنى ، أما علم البيان فيدرس صورة المعنى وكيف تركب ، وكيف تدل على المراد ، ودرجات الوضوح بين الصور المتنوعة . وحين تتبع كلمة " البيان " في لسان العرب تلحظ أنها تحمل معنى الفصاحة فتقول : كلام بيِّن : أي فصيح ، والبيِّن من الرجال : هو الفصيح الطلق اللسان العالي الكلام ، وتقول : فلان أبين من فلان ، أي : أفصح منه ، وكل ذلك يرجع إلى القدرة على الإبانة ، والكشف عما في النفس ، وكلما كان الكشف أوضح كان البيان أعلى . وكل بيان يحمل في جعبته (معنى يراد توصيله ، وأسلوبا خاصا من الكلام هو كالجسد الذي صب فيه هذا المعنى ، وهذا الأسلوب له درجة من

درجات الوضوح ، تزيد تارة وتقل أخرى ، ثم في الختام هناك أثر انطبع في قلب المتلقي ، يقوى بقوة المعنى والأسلوب، ويضعف بضعفهما تلك عناصر كل بيان (أسلوب ، ومعنى ، ودرجة وضوح ، ودرجة تأثير).

فالأسلوب : هو طريقة تأليف الكلام ، ونظمه ليحمل المعنى المراد إلى ذهن السامع .

والمعنى : هو الفكرة ، والرسالة التي يراد توصيلها .

ووضوح الدلالة : يعني ألا يكون في الرسالة غموض يعيق وصولها كلها أو شيئاً منها .

أما قوة التأثير فيقصد به أن تتحرك المشاعر ،وتنفعل الملكات التي تتلقى الكلام مما يعني اتحاد الإشارة بين المرسل والمستقبِل .

وقد ورد لفظ (البيان) في القرآ ن الكريم كثيرا بتصريفاته المتنوعة ، ومن أشهرها بداية سورة الرحمن ، **حيث قال الله تعالى** :

﴿ٱلرَّحْمَٰنُ ۝١ عَلَّمَ ٱلْقُرْءَانَ ۝٢ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ ۝٣ عَلَّمَهُ ٱلْبَيَانَ ۝٤﴾

[سورة الرحمن:١-٤]

وقال : " هذا بيان للناس وهدى وموعظة للمتقين " وفي الحديث الشريف : " إن من البيان لسحرا ، وإن من الشعر لحكمة " وهذا يعني : أن البيان يترك في نفوس المتلقين من الأثر ما يشبه السحر ، ولذلك إذا صاحبتْ البلاغةَ فحشٌ في اللفظ ، أو بذاءة في التعبير أدى ذلك إلى غضب الله تعالى ، ففي الحديث : الذي رواه الترمذي (عن بشر بن عاصم عن أبيه عن عبد الله بن عمرو : أن رسول الله ﷺ قال إن الله يبغض البليغ من الرجال الذي يتخلل بلسانه كما تتخلل البقرة)

أي يتكلف في الكلام ، ويبالغ فيه . فاللفظ يحمل معنى الكشف والإيضاح ، فهو قرين الفصاحة ، والبلاغة ، وكل ما يؤدي إلى فضل بعض القائلين على بعض ، كما يقول الإمام . والذي استقر عليه أهل البلاغة في **تعريف علم البيان هو** :

(علم يعرف به إيراد المعنى الواحد بطرق مختلفة في وضوح الدلالة عليه .)

ومثال ذلك : لو أنك تريد التعبير عن (كرم محمد) مثلا ، تقول في أسلوب الاستعارة " سلَّمت على البحر ، وجلست على شاطئه ، و منحني محمد من درره ولآلئه ، .... إلخ .

وفي الكناية تقول : بيته دائما مفتوح ، وناره لا تنطفئ ، وبيته لا ينام ، ومطبخه لا ينظف ، وآنيته كثيرة . ونحو ذلك .

وفي التشبيه تقول محمد كالبحر ، وهو مثل الغيث .. فالمعنى واحد وطرق التعبير عنه مختلفة ، وأقصد بالمعنى الواحد أصل المعنى ، أو المعنى العام ، لأن لكل معنى ما يعبر عنه ، وكل زيادة في اللفظ يزيد بها المعنى والذي ينبغي معرفته بعد ذلك أن علم البيان هو علم الصورة ، صورة المعنى ، وهذه الصور، أو الإطار إما أن يكون تشبيها ، أو مجازا ، أو كناية .

وأهمية معرفة ذلك ترجع إلى أن هذا العلم يريك أي الأساليب أكثر وضوحا ، حين تقف في ميدان التنافس ، وأيها أدل على المعنى من صاحبه فالخيط الأهم في علم البيان ، هو الوضوح في الدلالة ، أو عدم الوضوح أو درجة الوضوح - أعنيي وضوح الدلالة على المعنى ، وكلما كان الأسلوب أشد

وضوحا كان أقرب رحماً إلى علم البيان .. كما أنه يريك الحجة في المعاني المرادة من وراء الأساليب ، إذا استحالت المعاني الظاهرة ، ويدفع عنك مذمة الغموض والإبهام ، ولذلك كان علم البيان السفينة التي ركبها من تأولوا للصفات معاني تخرجهم من دائرة الاستحالة (١).

هل مهمة علم البيان إيراد المعنى الواحد بطرق مختلفة ؟

هكذا كتبت الكتب ، وتتابعت المخطوطات ، مع أن أي تغيير في بنية التركيب هو طريق من طرق البيان ، مما يعني أن علم المعاني يدخل في هذه الدائرة ، ولو تابعت ألوان البديع لوجدتها هي الأخرى طرقاً من طرق الإبانة

---

١ - لقد قامت معركة بين السلف والخلف في التأويل وعد التأويل في آيات الصفات مثل:(يد الله فوق أيديهم) (كل شيء هالك إلا وجهه) {بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَآءُ} ... وغير ذلك من الآيات .. ومعتقد أهل الحق أن الله تعالى ليس بجسم ، ولا جارحة له ، ولا يشبه بشيء من خلقه ، ولا يكيف ، ولا يتحيز ، ولا تحله الحوادث ، وكل هذا مقرر في علم أصول الدين. والجمهور على أن هذا استعارة عن جوده وإنعامه السابغ ، وأضاف ذلك إلى اليدين جارياً على طريقة العرب في قولهم : فلان ينفق بكلتا يديه. ومنه قوله :
يداك يدا مجد فكف مفيدة وكفّ إذا ما ضنّ بالمال تنفق
ويؤيد أنّ اليدين هنا بمعنى الإنعام قرينة الإنفاق. ومن نظر في كلام العرب عرف يقيناً أن بسط اليد وقبضها استعارة للجود والبخل ، وقد استعملت العرب ذلك حيث لا يكون قال الشاعر : جاد الحمى بسط اليدين بواب لشكرت نداه تلاعه ووهاده
وقال لبيد : وغداة ريح قد وزعت وقرة قد أصبحت بيد الشمال زمامها ... ويقال : بسط اليأس كفه في صدري ، واليأس معنى لا عين وقد جعل له كفاً. قال الزمخشري : ومن لم ينظر في علم البيان عمى عن تبصر محجة الصواب في تأويل أمثال هذه الآية ، ولم يتخلص من يد الطاعن إذا عبثت به ثم قال : (فإن قلت) : لم ثينت اليد في بل يداه مبسوطتان وهي مفردة في يد الله مغلولة ؟ (قلت) : ليكون رد قولهم وإنكاره أبلغ وأدل على إثبات غاية السخاء له ونفى البخل عنه ، وذلك أن غاية ما يبذله السخي بما له من نفسه ، وأن يعطيه بيديه جميعاً ، فبنى المجاز على ذلك انتهى. وكلامه في غاية الحسن. وقيل عن ابن عباس : يداه نعمتاه ، فقيل : هما مجازان عن نعمة الدين ونعمة الدّنيا ، أو نعمة سلامة الأعضاء والحواس ونعمة الرّزق والكفاية ، أو الظاهرة والباطنة ، أو نعمة المطر ونعمة النبات ، وما ورد مما يوهم التجسيم كهذا. .. وقوله: { لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَىَّ} و{مِمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَآ} و{يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ} و{وَلِتُصْنَعَ عَلَى عَيْنِى } و{تَجْرِى بِأَعْيُنِنَا} و{هَالِكٌ إِلا وَجْهَهُ} ونحوها. فجمهور الأمة أنها تفسر على قوانين اللغة ومجاز الاستعارة وغير ذلك من أفانين الكلام. وقال قوم منهم القاضي أبو بكر بن الطيب : هذه كلها صفات زائدة على الذات ، ثابتة لله تعالى من غير تشبيه ولا تجديد. وقال قوم منهم الشعبي ، وابن المسيب ، والثوري : نؤمن بها ونقر كما نصت ، ولا نعين تفسيرها ، ولا يسبق النظر فيها. وهذان القولان حديث من لم يمعن النظر في لسان العرب ، وهذه المسألة حججها في علم أصول الدين.

مما يعني أن علم البيان ليست مهمته الطرق ، ولكن مهمتـه الاخـتلاف في وضوح الدلالة على المعنى ، فكلما كان الطريق أبين وأوضح كان أعلى في العلم ، ولذلك ختام التعريف الذي صنعه العلماء هو محط الفائـدة ، أعنـي (أن الطـرق مختلفة في وضوح الدلالة عليه) فكـل شيء يضـاف إلى المعنـى يزيـد في وضـوح الدلالة يرفع من قيمة الطريق ، سواء كـان تشـبيها أو مجازا أو كنايـة ، ولـذلك كانت كلمة الجاحظ النفيسة عن البيان هي أنه : (اسم جامع لكـل شيء كشـف لك قناع المعنى ، وهتك الحجب دون الضمير ، حتى يفضي السامع الى حقيقتـه ، ويهجم على محصوله كائنا ما كان ذلك البيان ،ومن أي جنس كان ذلك الـدليل ؛ لان مدار الأمر والغاية التي اليها يجرى القائل والسامع انما هو الفهم والافهـام ، فبأي شيء بلغت الإفهـام ، وأوضـحت عـن المعنـى فـذاك هـو البيـان في ذلـك الموضع)(١).

وراجع هذا التعريف الذي أحاط وأجمل ، وجمع ومنع ، فالبيـان هـو كـل شيء كشف لك قناع المعنى ، ولقد وقفـت أتأمـل هـذا التعبـير (قنـاع المعنـى) ومالذي تقنع به المعنى حتى استبهم على المتلقي ؟

إن المعنى محجوز في النفس ، فالنفس تضمره ، وتغطيـه ، والمعنـى مسـتقر فيها وحين يريد الخروج ، أو يريد صاحب المعنى أن يظهره يكشف عنـه القنـاع فيجتهد في الوسائل التي تهتك هذه الأستار ، ويستجلب من الوسائل كل مـا في وسعه لكشف هذا القناع عن وجه المعنى ، ومهما كان الإنسان بليغا فإنه لا يقوى على هتك كل الحجب دون المعنى [٢] وأخرج كل ما في الضمير ، حتى ينتقل المعنى

١ - البيان والتبيين ١ / ٥٤.
٢ - يستثنى من ذلك رسل الله صلى الله عليه وسلم لأنه أوتي جوامع الكلم .

بكامل هيئته من طرف إلى طرف ، دون أن تتسرب منه أجـزاء لا يسـتطيع الفرد أن يحملها على اللفظ أو غير اللفظ .لأن الهدف والغاية عند الجاحظ ليست سوى الفهم والإفهام ، فكل لفظ تسـتعمله ، وكـل أسـلوب تسـتخدمه ، وكـل وسيلة تستعين بها لتصل إلى حالة الفهم والإفهام فأنت بها مبين .

واعلم أن فصل الصورة عن سياقها يسـئ إليهـا ، وينحـرف بمضـمونها فضلا عن جمالهـا ، فـإن كانـت في القـرآن الكـريم ذهـب بـما فيهـا مـن إعجـاز وانسجام وتناسق ، فقوله سبحانه وتعالى: «عِيشَةٍ راضِيَةٍ» يقوم الإسناد المجازي بتصوير حالة الرضا الثابت والدائم فالعيشة والرضا صارا شيئا واحـدا ، وهـذا لا يوجدفي قولك : عيشة مرضية ، أو مرضي عنها ، حيث يبدو الرضـا منفصـلا عن العيشة ، وبالتالي يبدو قليلا ، وبعد هذا نقف وقفات متأنية مع ألوان البيـان وأعمدته ،وأول ما نقف عليه الآن هو : التشبيه.

التـشبيه

توطئة :

من أكثر الصور استعمالا في اللسان الناطق التشبيه ، فلايكاد يخلو منه لسان ، ولا ينعدم منه بيان ، تراه على شفاه العالم والجاهل ، والصغير والكبير فالكل يلجأ إليه لتقريب الصورة ، وشرح المقصود ، وإبراز المعاني في أبهى صورها ، أو في هيئة تخالف صورتها : يقول قدامة : "وأما التشبيه فهو من أشرف كلام العرب، وبه تكون الفطنة والبراعة عندهم" **ويقول الإمام** ":

وهل تشك فى أنه يعمل عمل السحر فى تأليف المتباينين حتى يختصر ما بين المشرق والمغرب، ويجمع ما بين المشئم والمعرق ، وهو يريك للمعانى الممثلة بالأوهام شبها فى الأشخاص الماثلة ، والأشباح القائمة ، ينطق لك الأخرس ويعطيك البيان من الأعجم ، ويريك الحياة فى الجماد ، ويريك التئام عين الأضداد ، فيأتيك بالحياة والموت مجموعين، والماء والنار مجتمعين ، ولذلك كثر في كل بيان ، **حتى في بيان القرآن كقوله** :

﴿.... ٱلزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوۡكَبٞ دُرِّيّٞ ....﴾ [سورة النور:٣٥]

وقوله : ﴿طَلۡعُهَا كَأَنَّهُۥ رُءُوسُ ٱلشَّيَٰطِينِ ٦٥﴾ [سورة الصافات:٦٥]

وقوله : ﴿كَأَنَّهُنَّ ٱلۡيَاقُوتُ وَٱلۡمَرۡجَانُ ٥٨﴾ [سورة الرحمن:٥٨]

وقوله :

﴿....فَتَرَى ٱلۡقَوۡمَ فِيهَا صَرۡعَىٰ كَأَنَّهُمۡ أَعۡجَازُ نَخۡلٍ خَاوِيَةٖ ٧﴾ [سورة الحاقة:٧]

وغير ذلك كثير كما استحسن العرب كثيرًا من التشبيهات كتشبيه المرأة بالشمس ، والقمر ، والغصن ، والغزال ، والسحابة ، والدرة ، والبيضة والظبي ،ولم يتركوا شيئا من مظاهر الجمال فيها إلا وتناولوه بالتشبيه ، فشبهوا الأنف بحد السيف ، والفم بالخاتم ، والساق بالجمار ، والشعر بالليل والأصابع بالمساويك ، والريق بالخمر ، والعين بعين الظبي وعين البقرة الوحشية **مثل قول الشاعر :**

فعيناك عيناها ، وجيدك جيدها ولكن عظم السق منك دقيق

ولقد حاز التشبيه هذه المنزلة لإلف الناس له ، واحتياجهم إليه ولا تجد صورة في لغة العرب أكثر من الصورة التشبيهية ، ولقد أكثر منه أهل الجاهلية حتى لو قال قائل: هو أكثر كلامهم ، لم يبعد " كما قال المبرد في الكامل فهو أوضح من المجاز ، وأظهر من الكناية ، واللجوء إليه مظهر من مظاهر التمسك بالوضوح في التعبير ، ولقد اتبع البلاغيون هذه الكثرة فجعلوه ثلث علم البيان ، **فعلم البيان ثلاثة أقسام :**

تشبيه ومجاز ، وكناية ، ولو تفحصت الصورة العربية كلها لوجدتها خارجة من رحم التشبيه ، يظهر ذلك جليا في الاستعارة التي تقوم على التشبيه ويخفى في مواطن أخرى لكن التحقيق يعيدك في كل صورة إلى التشبيه ، ومن هنا احتل التشبيه في علم البيان مكانة الرأس من الجسد ، حتى لكأن الصورة البيانية كلها صورة تشبيهية ، وهذا شيء كأنه في الفطرة البيانية عند الإنسان .

حد التشبيه في اللغة :

والتشبيه تفعيل من الشبه ، أي : إخبار بالشبه الحاصل بين طرفين في صفة أو أكثر ، والتشبيه في لغة العرب يعني : التمثيل ، والمماثلة ، تقول : هذا شبه هذا يعني مثله في الحجم ، أو الشكل ، أو اللون ، أو في أي صفة من الصفات ، فهناك شيئان اشتركا في صفة من الصفات ، فالتشْبيه والتمثيل مترادفان لأن المعنى العام في كل منهما واحد ، وهو وجود صفة مشابهة أو اكثر في كل من الطرفين.

المعنى الاصطلاحي للتشبيه :

تنوع مفهوم التعبير عن التشبيه عند علماء العربية ، وصاغ كل واحد منهم المقصود بأسلوب ، وفي كل صياغة ترى التشبيه يدور حول أمرين يراد للأول توضيح صفة فيه من خلال ذكر الأخر المشهور بتلك الصفة ، فترى ابن أبي الأصبع مثلا يعرفه ناظرا إلى غايته فيقول : هو إخراج الأغمض إلى الأظهر . وهذا التعريف يجسد لك غاية التشبيه العامة ، وميزته التي يمتاز بها على سائر الأساليب ، **في حين يراه آخر بأنه** :

اقتران شيئين في وصف ، أو إلحاق شيء بذي وصف في وصفه ، وهذا الإلحاق يكتفي في ربط الأمرين ببعضهما ، ثم يترك للمتلقي أمر الغاية والمقصد من هذا الإلحاق ، في حين يراه فريق ثالث بأنه : الكشف عن المعنى المقصود مع الاختصار ، ويرى فريق رابع أن التشبيه يعني : أن تثبت للمشبه حكما من

أحكام المشبه به ، لكن المدرسة السكاكية استقرت على تعريف اشتهر وصارت به الركبان **وهو** : الدّلالة على مشاركة شيءٍ لشيءٍ في معنىً من المعاني بأداة مخصوصة .

وهذه المعاني كلها تدور في فلك واحد يرمي إلى توضيح أمر بإلحاقه بأمر آخر عن طريق أداة ، وهذا التوضيح يتبعه أنس في النفوس ؛ لأن النفوس تأنس حين تخرجها من خفي إلى جلي ، وحين تقرب لها البعيد ، وتكشف لها الغامض لكن كل ذلك لا يغني عن إبراز تعريف إمام البلاغيين – عبد القاهر الجرجاني حيث يقول : أن تثبت لهذا – يعني المشبه – معنى من معاني ذاك – يعني المشبه به أو حكما من أحكامه ، كإثباتك للرجل شجاعة الأسد ، وللحجة حُكم النور في أنها يفصل بها بين الحق والباطل ، كما تفصل بالنور بين الأشياء ، وهذا التعريف يشير إلى هذا القصد الناشئ من ضم أمرين ، وربط طرفين لغاية إيضاح الأول عن طريق الثاني ، وكشف بعض الصفات في الأول عن طريق ذكر هذه الصفات في الثاني ، المهم أن هناك إثباتاً وقصداً من المتكلم في الربط والجمع فحقيقة التشبيه تكمن في إلحاق الناقص في الصفة بالكامل فيها ، فالمشبه ناقص في صفة من الصفات ، ويراد تكميلها وإتمامها ، فيلحق بالكامل في الصفة لتكتمل صورة المشبه .

ولا يخلو تشبيه من إيضاح ، وإيجاز ، ومبالغة ، فهذه الثلاثة هي الغاية العامة والمقصد الأسمى للتشبيه.

الغاية الأولى : الإيضاح : حيث يصنع التشبيه في المعاني ما لا يصنعه غيره فيجعلها أشد وضوحا ، وأكثر دقة ، ويقربها إلى ذهن المتلقي ، زد على كل ذلك ما فيه من جمال وبهاء لا تجده في غيره ، فإذا أردت وصف زيد – مثلا بالشجاعة ، فإن لك سبيلين للتعبير ، الأول أن تذكر ذلك صراحة فتقول : زيد شجاع ، وهذا التعبير لا يعطيك أكثر من نسبة الشجاعة إلى زيد ، حتى لو أضفت إليه المؤكدات لم تزد على وضع عناصر تثبِّت ما قلت لكنك حين تعدل عن ذلك إلى أسلوب التشبيه فإنك تنتقل من نسبة الشجاعة إلى زيد إلى طريق آخر ترسم للسامع فيه هذه الشجاعة وتظهرها في صورة أكثر وضوحا من قولك زيد شجاع ، فتقول له : زيد كالأسد ، وهنا تكون قد زدت على مرادك وأخرجت هذا المراد في صورة هي أوضح وأبين وأظهر ، فهذه هي الغاية العامة الأولى .

الثانية : هي الإيجاز فإذا قلت: "زيد كالأسد" فأنت في حديث كل صفات المدح المتصلة بالشجاعة ، لأنك تريد أن تقول : إنه كالأسد في الشجاعة التي لا نظير لها ، والشهامة التي لاعدل لها ، والقوة التي لا حدود لها والجراءة التي لا مثل لها ، والقدرة على الافتراس ، والتصميم على الوصول إلى الغاية وغير ذلك كثير مما يتصل بالشجاعة ، فأنت حين تقول : محمد كالأسد استغنيت عن ذكر كل ذلك وأتيت بجملة واحدة وهذا الذي يراد بالإيجاز.

الثالثة : هي المبالغة ، وحاول أنت أن تقارن بين هاتين العبارتين : (زيد شجاع) و (زيد كالأسد) تجد الثانية أعطتك معنى الأولى وزادتك إبلاغا في الوصف ، واستحضرت لك من خيالك مخلوقا يضرب به المثل في الشجاعة فارتبطت شجاعة زيد بشجاعته .

ولن تعدم في كل تشبيه هذه الثمار الثلاثة : وضوح المعنى ، والإيجاز ، والمبالغة ولذلك كثر في القرآن الكريم استعمال هذا الأسلوب ، كما كثر في حديث النبي – ﷺ – ، وفي كلام الحكماء والشعراء ، ولا أظن أن هناك قصيدة تخلو من التشبيه ، مما يعني أن هذا الأسلوب ركيزة من ركائز اللسان – أي لسان – العربي وغير العربي .وفي جعبة التشبيه مالا يمكن حصره من المعاني ، وراجع مثلا قصيدة عنترة (عفت الديار وباقي الأطلال) لترى كيف حمل التشبيه معاني التهويلُ والتفظيع ، **يقول عنترةَ** :

عفتِ الديارَ وباقي الأطلال	**ريحُ الصَّبا وتقلُّبُ الأَحْوَالِ**
وعفا مَغانِيَها فأَخْلقَ رسْمِها	**تردادُ وكفِ العارضِ الهطال**
فلئنْ صَرمْتِ الحبلَ يا ابنةَ مالكٍ	**وسمعتِ فيَّ مقالة العذال**
فَسلي لِكيْما تُخبَري بفعائلي	**عندَ الوغى ومواقفِ الأهوال**
والخيلُ تعثرُ بالقنا في جاحِمٍ	**تهفو به ويجلنَ كلَّ مجال**
وأنا المجربُ في المواقف كلها	**منْ آلِ عبسٍ منصبي وفعالي**
منهمْ أبي شدادُ أكرمُ والدٍ	**والأمُّ منْ حامٍ فهمْ أخْوالي**
وأنا المنيةُ حينَ تشتجرُ القنا	**والطعنُ مني سابقُ الآجال**

نحن الحصى عدداً ونحسبُ قومنا ورجالَنا في الحرْبِ غيرَ رجال
منا المعينُ على الندى بفعالهِ والبذلِ في اللزباتِ بالأموال
إنَّا إذا حَمِسَ الوغى نُرْوي القنا ونعفُّ عند تقاسمِ الأنفال
نأْتي الصَّريخَ على جيادٍ ضُمَّرٍ خمصِ البطونِ كأنهنَّ سعالي
وأنا المُجَرَّبُ في المَواقف كلِّها وسَمِعْتِ فيَّ مقالَة العُذَّال
تَرْدادُ وكفِ العارضِ الهطَّال طَعْناً بكلِّ مثقَّفٍ عَسَّال
يُعْطي المِئينَ إلى المِئينَ مرزّأً ناجٍ منَ الغمراتِ كالرئبال

راجع هذه الطعنات التي تسبق الآجال ، وكأن المطعون بحربته يموت قبل أن يأتيه الموت ، وهذا من المبالغة المحمودة في هذا المقام ، ثم انظر إلى تشبيه قومه بالحصى عددا ، ثم تأكيد العدد بأنهم كالجن ، فهم في الحرب غير رجال يريد أنهم كالمردة من الجن ، لأن السياق لا يحتمل غير هذا ، ثم تشبيه آخر بسرعة النجدة ، وغوث الصارخ حيث يصلون إليه وصول السعالي إلى مرادها ثم تشبيه آخر بأنه ينجو من الغمرات كأنه الرئبال أي الأسد الشديد فالرئبال من الأسد كالقارح من الخيل التي تمت أسنانه .

أركان التشبيه

للتشبيه أربعة أركان تذكر في الجملة التشبيهية ، صراحة ، أو تقديرا **وهي** :

الركن الأول: المشبَّه :

وهو الشيء المراد توضيحه وبيانه ، وجلاء صورته حين يلحق بما هو أوضح منه ، أو يقرن بما يفوقه في الصفة .(مثل النساء في قولك : (نساء كالبَيضِ) ومثل الحجة في قولك : (حجة كالشمس) .

الركن الثاني: المشبَّهُ به .

وهو الشيء الواضح الذي يراد توضيحه وبيان المشبه بذكره مقترنا به على الكلية مثل الورد في قولك : (خد كالورد) ، ومثل الليل في قولك (شعر كالليل) . والحق الذي لا مرية فيه أن باب التشبيه كله قائم على ملاحظة المشبه به ، وتحليله ، فهو النبع الذي يفيض على المشبه من خصائصه ، وهو الركن الذي يرتكن إليه المشبه في بيانه ، وكلما كان المشبه به غزير الدلالة فوار المعاني كان التشبيه جميلا بديعا .

الركن الثالث: أداة التشبيه .

وهي اللفظ الذي يجمع بين المشبه والمشه به ، وهو إما حرف ، أو اسم أو فعل ، فالحرف مثل : الكاف ، وكأن ، والاسم مثل (شبيه ومثيل ومشابه ومماثل ومضارع) فحين تقول هند شبيهة القمر ، وخالد مماثل البحر ، وعلي مضارع الأسد ... فأنت تستعمل أدوات تشبيه من قبيل الأسماء .

الركن الرابع : وجه الشبه .

وهو الوصف المشترك بين المشبه والمشبه به ففي **قول الله تعالى** :

﴿ إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٥٩﴾ ﴾

[سورة آل عمران:٥٩]

تجد أن عيسى عليه السلام هو المشبه ، وآدم عليه السلام هو المشبه به ، والوجه الجامع بينهما مذكور في الآية وهو (خلقه من تراب) أو يكون وجه الشبه هو

قوله (ثم قال له كن فيكون) وكلا المعنيين صالح ليكون وجه شبه ، ومثال آخر في التصريح بوجه الشبه ، **وذلك في قوله تعالى :**

﴿ مَثَلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْلِيَآءَ كَمَثَلِ ٱلْعَنكَبُوتِ ٱتَّخَذَتْ بَيْتًا ۖ وَإِنَّ أَوْهَنَ ٱلْبُيُوتِ لَبَيْتُ ٱلْعَنكَبُوتِ ۖ لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾ ﴾ [سورة العنكبوت:٤١]

يقول البقاعي رحمه الله (اتخذت بيتاً) اي : تكلفت أخذه في صنعتها له ليقيها الردى ، ويحميها البلا ، كما تكلف هؤلاء اصطناع أربابهم لينفعوهم ويحفظوهم بزعمهم ويرفعوهم ، فكان ذلك البيت مع تكلفها في أمره ، وتعبها الشديد في شأنه ، في غاية الوهن ، مع أنها عانت في حوكه ما عانت وقاست في نسجه ما قاست ، فهو لا يكنّ من حر ، ولا يصون من برد ، ولا يحصن عن طالب ، كذلك ما اتخذ هؤلاء من هذه الأوثان ، وهذا الدين الذي لا أصل له فهو أوهن الأديان وأهونها لو كانوا يعلمون) (١).

والأصل أن وجه الشبه معروف للقارئ ، ظاهر للناظر ، لذلك يكثر حذفه ، ويقل ذكره ، كقول النبي ﷺ : (الحمو الموت) هكذا دون تعقيب والمراد : الحمو كالموت ، في إيقاع الهلاك بصاحبه ، ومن وراء هذا الحذف استحضار كل مقدمات الموت وكل معقباته ، وجميع آثاره ، وهذا كله شيء لا يطاق ، لكن وجه الشبه قد يذكر ، مثل قول النبي ﷺ :

(الحِكْمَةُ ضَالَّةُ المُؤْمِنِ، حَيْثُمَا وَجَدَهَا فَهُوَ أَحَقُّ بِهَا)

---

١ - انظر نظم الدرر ٥ / ٥٦٠ بتصرف .

فجملة : " حيثما وجدها فهو أحق بها " حددت الصفة الجامعة بين الحكمة التي ينشدها كل مؤمن ، وصاحب الضالة الذي لا يفتر في طلبها ولا يهم أين وجدها ، ولا متى وجدها ، ولا مع من وجدها ... الأهم أنه وجدها ، فحيث وجدها أسرع في استحواذها ، وإن ادعاها آخرون كان هو أحق الناس بها ، ولذلك خطب الحجاج بن يوسف فقال : إن الله أمرنا بطلب الآخرة وكفانا مؤونة الدنيا ، فليته كفانا مؤونة الآخرة وأمرنا بطلب الدنيا .

فقال الحسن : خذوها من فاسق : الحكمة ضالة المؤمن ، ووجد رجل يكتب عن مخنث شيئا ، فعوتب فقال : الجوهرة النفيسة لا يشينها سخافة غائصها ودناءة بائعها.

وأقل منه حذفا أداة التشبيه ، لأنها رابطة إذا خفيت المعاني ، وغمضت الروابط ، والغالب في اللسان العربي حذف الوجه ، ويكثر حذف الأداة معه لكن أسلوب التشبيه لا بد فيه من ذكر الطرفين صراحة ، أو وضع الكلام على حضورهما ضمنا ، كما في (بدت قمرا) ، تريد أنها تشبه القمر ، فالمشبه لم يذكر صراحة لكنه دل عليه بالضمير الفاعل في الفعل (بدت) ، ومع هذا فإن الأديب قد يعمد إلى الأركان الأربعة فيذكرها صراحة في كلامه لغاية يرمي إليها، **ومن ذلك قول الشاعر** :

أَنْتَ كَاللَّيْثِ في الشَّجَاعَةِ وَالإِقْـ ـدَامِ والسَّيْفِ فِي قِرَاعِ الخُطُوب

ففي هذا البيت تشبيهان لمشبَّه واحد ، فالمشبّه في الصورتين هو الضمير : "أنت" ، والمشبّهُ به في التشبيه الأول هو (اللّيثُ) و في التشبيه الثاني هو (السّيف) ، وأداة التشبيه في الصورتين هي "الكاف" ، ووجه الشبه "الشجاعة

والإِقدام" في التشبيه الأوّل، و "قِرَاع الخطوب" في التشبيه الثاني. ولعل الشاعر حشد هذه الأركان ووضعها في الصورة ليبرهن على تحقق هذه المعاني في الحقيقة دون الادعاء ، وأن هذا مما لا ينكر .

لكن الأكثر في اللسان العربي ، وفي البيان العالي ، بل وفي بيان القرآن الكريم – كما ذكرت – هو حذف الوجه ، **ومن ذلك قوله تعالى :**

﴿ وَلَهُ ٱلْجَوَارِ ٱلْمُنشَـَٔاتُ فِى ٱلْبَحْرِ كَٱلْأَعْلَـٰمِ ﴿٢٤﴾ ﴾ [سورة الرحمن:٢٤]

والجوار جمع جارية مثل قوله : " إنا لما طغى الماء حملناكم في الجارية والجارية كناية عن السفينة لسرعة حركتها في الماء ، وجعلت هذه الحركة السريعة اسما لها فلا يقال لها سفينة ، ولكن يقال لها (جارية) وفي لفظ المنشئات دلالة على الفخامة والصنعة المتقنة ، والارتفاع الشديد ، وهنا بدأت ملاحظة المشبه به لأن الأعلام وهي الجبال فيها هذه الفخامة والقوة والعلو الشديد ، لذلك استعدت النفس لمجيء المشبه به ، فقيل (كالأعلام) فاستقر المراد ، والصورة توضح قدرة الله تعالى في تسخيره لهذه الفلك الجارية على الماء ، كما أن فيه من الرحمة واللطف الكثير ، حيث تحمل من الأثقال ما ينتفع به الناس .

و تقول الخنساء :

وإن صخرا لتأتم الهداة به ... كأنه علم في رأسه نار

فالعَلَم من الشهرة بحيث لايجهله أحد ، فما بالك إذا أوقدت فوقه النار ؟ فأرادت الخنساء أن تجعل شهرة أخيها ، وعلو شأنه في مرحلة الاكتمال ، كما هو حال الجبل الذي يراه الجميع ، وبخاصة عند إيقاد النار فوقه ، ومن ذلك أيضا **قول الله تعالى:**

﴿ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا وَلَّىٰ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا كَأَنَّ فِىٓ أُذُنَيْهِ وَقْرًا ۖ فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٧﴾ ﴾ [سورة لقمان:٧]

فشبه حاله وقت إعراضه عن سماع القرآن الكريم بحال من في أذنيه وقر فلا ينتبه لكلام ، ولا يتعظ لمواعظ ، فالكافر ، والأصم سواء .

أقسام التشبيه باعتبار الأركان

ينقسم التشبيه باعتبار الطرفين إلى أقسام عدة ، **والمقصود بالطرفين** : المشبه والمشبه به ، وهما الركنان الأساسيان اللذان لا يخلو منهما تشبيه ، وهذان الركنان قد يكونان حسيين ، أو عقليين ، وهذا هو التقسيم الأول .

الصورة الأولى : ما كان الطرفان فيها حسيين :

وهما المدركان بالحس (بالبصر ، أو السمع ، اللمس ، أو الشم أو الذوق) ولا حظ هذه النماذج **يقول الله تعالى** واصفا نساء الجنة :

﴿ وَعِندَهُمْ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ عِينٌ ﴿٤٨﴾ كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَّكْنُونٌ ﴿٤٩﴾ ﴾ [سورة الصافات:٤٩]

والعرب يشبّهون النساء بالبيض المصون ، لما فيه من الصفاء ، ولما فيه من اللون المحبب لدى الرجال وهو اللون الأبيض ، حيث يعتقد أغلب الناس أن أجمل ألوان البدن هو اللون الأبيض ، وبخاصة في النساء ، لذلك قال كأنهن بيض مكنون ، والذي يبدو في الآية أن المقصد من التشبيه ليس اللون في المقام الأول ، وإنما الحفظ والصون لذلك قيل بيض (مكنون) وفي سياق آخر قال: (وَحُورٌ عِينٌ كَأَمْثَالِ اللؤلؤ المكنون) فلفظ (المكنون) هو الذي يظهر في الآيتين للإشارة إلى سترهن وحفظهن عن العبث ، **وفي ذلك يقول الشاعر** :

وهي بيضـاء مثـل لؤلـؤة الغـوّا ص ميـزت مـن جـوهرٍ مكنـون

والذي أحاول أن أبينه لك أن المشبه والمشبه بـه مـن عـالم الحـس ، وعـلى شاكلة **ذلك تجد قول الله تعالى في وصف ارتفاع الموج ، وتعانقه ، وتتابعه :**

﴿وَهِىَ تَجۡرِى بِهِمۡ فِى مَوۡجٍ كَٱلۡجِبَالِ ....﴾ [سورة هود:٤٢]

وكأن كل موجة جبل ، وتتابع الأمواج كتتابع الجبال ، وهذا يشعر بطغيان الماء حتى لاينجو أحد إلا من شاء الله ، والتشبيه أيضا من عالم الحس كما ترى .

وراجع قول الشاعر :

قبلتـه فبكـى وأعـرض نـافرا يذري المـدامع مـن كحيـل أدعـج
فكأن سقط الـدمع مـن أجفانـه لمـــا بـــدا في خـــده المتضرـــج
بـــرد تســاقط فــوق ورد أحمـــر من نرجس فسقى رياض بنفسج

تجد عينك تتابع حبات الدمع المتساقط على الخـد المكتسيـ بلـون الحمـرة وهو يتحول في لغة الشاعر إلى حبـات بـرد متسـاقط عـلى أوراق ورد النـرجس الأحمر ويتابع رحلته ليسقي حديقة من البنفسج ، وليس بعـد هـذه الرحلـة مـن حسن لقطرات الدمع الحارة الناشئة من قبلة التوديـع ، أي شيء أرق مـن هـذا؟ !!!

وتعال معي نرصد صورة أخرى من أبدع مالحظته عيون الشعر ، يتصـور فيها الشاعر حديثا رقراقا بين الماء الجاري ، وحصى الأرض والنسيم ، ثلاثـة دار بينهم هذا المشهد **يقول أبو الحكم المالقي :**

وتحدث الماء الزلال مع الحصى ... فجرى النسيم عليه يسمع ما جرى
فكأن فوق الماء وشيا ظاهرا ... وكأن تحت الماء درا مضمرا

فالبداية حديث بين الماء والحصى ، وهو حديث سرٍ ، لا يكاد يسمع ترى الصوت فيه يخفت تارة ، ويعلو أخرى ، ولا يلحظه إلا المتطفل ، وكان التطفل هنا باديا من النسيم ، حيث جرى يسمع ماذا بين الماء والحصى ، وكان جريان النسيم فوق كليهما يحاول أن يفهم كل ما يقال ، فأنتج تعاريج على صفحة الماء الجاري تشبه تعاريج الوشي ، فصار الناظر يرى عجبا ، يرى من الأعلى وشياً جميلا ، ويرى في الأسفل شيئا غير الحصى إنه درٌّ من شدة بياضه وجماله وهنا تنوعت الصورة وتداخلت ، وجمعت مع اللون الصوت والحركة ، فكانت من أبدع ما قيل في وصف هذا الأمر ، ولقد كان العقاد يرى في التصوير اللون والشكل ، والحركة ، بالإضافة إلى المعنى .

وأنا هنا أتابع معك بعض الشواهد لترى بنفسك الصورة التشبيهية وهي تصنع من الألفاظ مشهدا لا تستطيع ريشة الرسام صنعها . وأزيدك هنا قول شاعر آخر هو ابن نباتة السعدي ، يرسم لك صورة فرس أهدي إليه وكيف كانت غرته أثرا من معركة بينه وبين الصباح ، حيث عدا عليه الصباح بأن لطمه على جبينه ، وترك في هذا الجبين بياضا ظاهرا شاهدا على هذه اللطمة وكيف اقتص الفرس لنفسه من الصباح حيث عدا عليه وطرحه أرضا ، ثم قام

بالخوض برجليه في أحشاء الصباح ، فلم نر أثـرا للمعركـة إلا في الفـرس ،لأنه محل الوصف حيث رأينا بياضا في غرتـه وفي أرجلـه ،ومـا أعجـب قولـه (خاض في أحشائه) حيث جعل للصـباح أحشـاءً ، وهـي مـن الاتسـاع بحيـث يخوض فيها الخيل !!!

قد جاءنا الطّرف الـذي أهديتـه	**هاديــه يعقــد أرضــه بســمائه**
أولايـــــةً ولّيتنــــا فبعثتـــه	**رمحـاً سـبيب العـرف عقـد لوائـه**
تختــال منــه عــلى أغـرّ محجّــل	**مــاء الــدّياجي قطــرةٌ مــن مائـه**
وكــأنما لطــم الصــباح جبينــه	**فــاقتصّ منــه فخــاض في أحشــائه**
مــتمهّلاً والــبرق مــن أســمائه	**متبرقعــاً والحســن مــن أكفائـه**
ما كانت النـيران يكمـن حرّهـا	**لــو أن للنــيران بعــض ذكائــه**
لا تعلــق الألحــاظ في أعطافــه	**إلا إذا كفكفــت مــن غلوائــه**

والصور مليئة بما ندر من المعاني ، مفعمة بما حسن مـن الـدلالات وهـي جديرة بالتأمل على حدة . فهـذه الـنماذج جـاء فيهـا المشـبه والمشـبه بـه حسـيين مدركان بإحدى حواس الجسم الخمس ، فهو من باب التشبيه الحسي ، وروعـة وجمال هذه الصور ليس في إدراكها بإحدى الحواس ، ولكن في رؤية ما لا يمكن رؤيته ، وتصور ما لا يستطيع غير الشاعر تصوره ، وضم أشياء لا تضم إلا مـن خلال عالم الفن ، والاستماع إلى أصوات لاتسمعها كل أذن ، هذا ونحوه هو محل البلاغة ، وموطن البراعة ، أما قولك خد كالورد ، وشعر كالليل ، فهـذا يحسـنه من يرى ومن لا يرى .

الصورة الثانية : **ما كان الطرفان فيها عقليين** :

والمراد بالعقلي هنا ما كان وسيلة إدراك الطرفين فيه عقلية ، كما في قولك : العلم كالحياة ، والجهل كالموت ، والضلال كالعمى ، ويدخل في هذا التشبيه الوهمي ،والتشبيه الخيالي وهو ما ليس مدركا بشيء من الحواس ، مع أنه لو أدرك لم يكن مدركا إلا بها ، واسمع **إلى قول الله تعالى** :

﴿طَلْعُهَا كَأَنَّهُۥ رُءُوسُ ٱلشَّيَٰطِينِ ﴿٦٥﴾﴾ [سورة الصافات:٦٥]

وقصة هذه الآية تملأ كتب البلاغة ، وجعلوها سببا من اسباب التأليف في البلاغة العربية ، حين صنع أبو عبيدة معمر بن المثنى كتاب المجاز ، ليفسر مثل هذه الآيات ، وقال : إنما كلم الله العرب على قدر كلامهم ، أما سمعت **قول امرئ القيس** :

أَيَقتُلُنى والمَشرَفِيُّ مُضَاجِعِى ومسنونةٌ زُرق كأَنياب أَغْوال ؟

و هم لم يرو الغول قط ، ولكنهم لما كان أَمر الغول يَهُولُهم أُعدوا به فاستحسن الفضل ذلك واستحسنه السائل ، و كان هذا السؤال سبباً في تأليفه ((مجاز القرآن)) .

وقال الجاحظ: ((وليس أَن الناس رأَوا شيطاناً قط على صورة ، ولكنه لما كان الله تعالى قد جعل في طباع جميع الأَمم استقباح جميع صور الشياطين و استسماجها و كراهتها ، وأَجرى على أَلسنة جميعهم في ضرب المثل على ذلك رجع بالإيحاش و التنفير و بالإخافة و التقريع إلى ما قد جعله الله في طباع

الأَولين والآخرين ، و عند جميع الأَمم ، و هذا التأَويل أَشبه من قول من زعم من المفسرين أَن رؤوس الشياطين نبات ينبت باليمين)) .

وقال الرازي في الآية: ((وأَما تشبيه هذا الطلع برؤوس الشياطين ، ففيه سؤال ، لأَنه قيل : إِنا ما رأَينا رؤوس الشياطين ، فكيف يمكن تشبيه شي بها ؟ وأَجابو عنه من أَن الناس لما اعتقدوا في الملائكة كمال الفضل في الصورة و السيرة ، فكما حسن التشبيه بالملك عند تقرير الكمال و الفضيلة **في قوله** :

﴿.....إِنْ هَٰذَآ إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ ﴿٣١﴾﴾ [سورة يوسف:٣١]

فكذلك وجب أَن يحسن التشبيه برؤوس الشياطين في القبح و تشويه الخلقة)والذي يعنيني هنا أن طلع شجرة الزقوم صورته متوهمة وليست محسوسة ، وكذلك رؤوس الشياطين أمر متوهم لأنه لا يوجد أحد رأى تلك الرؤوس ، فالمشبه متوهم ، والمشبه به متوهم ، فكلاهما أمر عقلي ، صنعت العرب مثله من قبل .

ويدخل في العقلي أيضا ما يدرك بالوجدان ، مثل اللذة والألم ، والسعادة والخوف ، والحب والكره ، والجوع والشبع والري والعطش ، والفرح والحزن كما يدخل فيه الخيالي ، مثل عيون المريخ ، وجبال الزجاج ، وبحار الشهد ... ونحو ذلك ، والفرق بين الخيالي والوهمي ، أن الخيالي أجزاؤه موجودة حقيقة لكن اجتماعها مستحيل ، كأن ترى القلوب يجتمعن في صفحة القمر في حضرة المشترى ، وشهادة الشمس . فالعناصر موجودة ، والجمع بينهما خيال ، لكن المتوهم غير موجود على الحقيقة ، كما قالوا الغول والعنقاء ، وناب الشيطان

ونحو ذلك وهذه الصورة العقلية قليلة الحضور في اللسان العربي ، لأن التشبيه قائم على الإيضاح ، والتبيين ، وإخراج المعقول إلى عالم الحس ، أو نقل الغامض إلى دائرة الضوء ليظهر المراد من صفته ، وهذا كله غير حاضر في الأمور العقلية

وانظر معي إلى قول الشاعر :

رب حي كميت ليس فيه	**أمل يرتجى لنفع وضر**
وعظام تحت التراب وفو	**ق الأرض منها آثار حمد وشكر**

تراه شبه الحياة الخالية عن النفع بالموت فقال في إيجاز شديد وقدرة على الصوغ (رب حي كميت) في الوقت الذي ترى فيه صورة مقابلة حين تجد العظام التى وضعت في التراب وقد انتشرت آثارها ، وصنائعها الجليلة فلهجت الألسنة بالحمد لها والشكر ، ولا شك أن الوجود الذي يشبه العدم ، وعكسه العدم الذي هو كالحياة ، كل من الصورتين تشبيه أمر عقلي بأمر عقلي . وقد مثل الزركشي لهذا النوع **بقوله تعالى :**

﴿ **ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَهِىَ كَٱلْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً** ..... ﴾ [سورة البقرة:٧٤]

فقسوة القلوب أمر عقلي ، وقسوة الحجارة كذلك ، فالمشبه والمشبه به عقليان وهو عدم اللين في كل ، ورفض السيوطي كلام الزركشي- وقال (كأنه ظن أن التشبيه واقع في القسوة وهو غير ظاهر بل هو واقع بين القلوب والحجارة) وهذا منه عجيب ، لأن السياق في القسوة ، وقد صرحت بها الآية من قبل التشبيه ومن بعده فقيل (ثم قست) قبل التشبيه ، وقيل بعده : (أو أشد قسوة) فإذا كانت القسوة هي محل التشبيه فلم العدول عنها ؟ !! وسواء كانت أو بمعنى بل ، أو بمعنى الواو فإن الآية في تشبيه معقول بمعقول .

الصورة الثالثة : **تشبيه المعقول بالمحسوس** :

وهذه الصورة هي الأولى بكل تشبيه ، لأن غاية التشبيه الأولى الإيضاح والبيان ، وحين أشبه معقولا بمحسوس فلقد جئت بالغامض وهو المعقول ووضعته تحت أضواء المحسوس ، وتلك مهمة التشبيه ، ولاحظ هذا مثلا في **قول الله تعالى :**

﴿**مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِى كُلِّ سُنۢبُلَةٍ مِّاْئَةُ حَبَّةٍ.....**﴾ [سورة البقرة:٢٦١]

فالإنفاق ، وتلمس حال المحتاجين ، وأجر ذلك عند الله تعالى وهذا كله أمر عقلي يشبه الحبة الملقاة في الأرض بعناية ، ثم سقيت فأخرجت الحبة الواحدة سبع سنابل ، في كل سنبلة مئة حبة ، والتضعيف مستمر لأنه بيد الكريم .

وهناك صورة أخرى لهذا المعنوي حين يوضح بالمحسوس ، وذلك نحو **قوله تعالى :**

﴿ **مَثَلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْلِيَآءَ كَمَثَلِ ٱلْعَنكَبُوتِ ٱتَّخَذَتْ بَيْتًا وَإِنَّ أَوْهَنَ ٱلْبُيُوتِ لَبَيْتُ ٱلْعَنكَبُوتِ لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾**﴾ [سورة العنكبوت:٤١]

فالمعنى كما يقول الشهيد سيد قطب (إن هنالك قوة واحدة هي قوة الله . وما عداها من قوة الخلق فهو هزيل واهن ، من تعلق به أو احتمى فهو كالعنكبوت الضعيفة تحتمي ببيت من خيوط واهية . فهي وما تحتمي به سواء)

وهذا من تشبيه المعقول بالمحسوس ، المهم في هذا القسم أن المعقول يتضح ، ويظهر من خلال إلحاقة بالمحسوس ، فوضع المعقول في دائرة المشبه هو الأصل ، ووضع المحسوس في دائرة المشبه به هو الأصل ، ومخالفة ذلك عدول عن الأصل ، **وتبين أنت ذلك من خلال قول الشاعر :**

(إنما النفس كالزجاجة والعلم سراج وحكمة الله زيت)

وتدرب على معرفة المشبه المعقول ، والمشبه به المحسوس لتعرف كيف استطاع الشاعر توضيح المبهم بشيء تحسه ، **وراجع أيضا قول الآخر :**

(زعمٌ كمنبلج الصباح وراءه عزم كحد السيف صادف مقتلا)

الصورة الرابعة : تشبيه المحسوس بالمعقول :

الأصل في التشبيه أنه وسيلة إيضاح وبيان ، والغرض العام من كل تشبيه هو توضيح المعاني ، وإبرازها ، وعليه فإن الأصل أن يُشبه المعقول بالمحسوس لأن إدراك المحسوس أقوى ، ولأن المحسوسات أقرب إلى النفوس من المعقولات ، ولأن النفوس تأنس وتهش وتبش حين تعيدها إلى الأمور التي عرفتها أولا ، لكن المتكلم قد يخالف هذه القاعدة فيجعل المعقول هو الأصل ويضع المعنوي مكان الحسي ، ويزعم أنه أظهر وأوضح من الحسي ، **ومن ذلك قول الشاعر:-**

يا من له شعرُ كحظي أسودُ جسمي نحيلٌ من فراقكَ أصفرُ

فالشَعْرُ وسواده شيء حسي تراه العيون ، فالسواد يوجد في المشبه حقيقةً

ولكن لا يوجد في المشبه به لأن وصف الحظ بالسواد يكون على سبيل الادعاء والتأويل لأنه ليس من ذوات الألوان **وقول الشاعر** :

ولقد ذكرتك والظلام كأنه يوم النوى وفؤاد من لم يعشق

فالشاعر توهم أن الفراق أسود ، وأن يوم النوى يوم أسود ، وأن قلب من لم يعشق أسود ، ثم تخيل أن هذا كله أشد سوادا من الظلام ، مما جعله يشبه السواد بيوم النوى ، وفؤاد من لم يعشق . **ومن ذلك أيضا قول الشاعر** :

وأرض كأخلاق الكريم قطعتها وقد كحل الليلُ السماكَ فأبصرا

فإن الأخلاق توصف بالسعة والضيق ، تشبيها لها بالأماكن الواسعة أو الضيقة ، وكذلك تخيل الشاعر أخلاق الكرام شيئا له سعة ، ثم شبه الأرض الواسعة بها ،يقول حافظ إبراهيم في وصف سفينة كان مسافرا عليها ، وقد هبت عليها عاصفة :

عاصف يرمي ، وبحر يُغير أنا بالله منهما مستجير
وكأن الأمواج وهي تَوَالَى محنقاتٍ أشجان نفس تثور

ووجه البلاغة في هذا : الادعاء بأن المعقول فاق المحسوس في الوضوح وكأنه تشبيه محسوس بمحسوس ، وذلك عين الإبلاغ في المعنى لأنه شبه الأمواج حين تعاقبها وتلاطمها ، وارتفاع صوتها الغاضب بنفس غاضبة ثائرة يملؤها الضيق فتحاول التنفيس عنه بهذه الحركات والأصوات ، فالموج وتواليه شيء تراه العيون فهو أمر حسي ، والشاعر جعله مشبها يحتاج إلى توضيح ثم وضحه بالنفس الثائرة الهائجة الغاضبة الحانقة ، فوضح محسوسا بمعقول

ومع أن ذلك عكس طبيعة التشبيه إلا أن حافظ أبدع في الصورة ، لأنـه لم يرد هيئة شكل ، وإنما أراد ثورة غضب ، وهي في النفس أقـرب إلى الحضـور مما في البحر ، فما من نفس إلا وقد غضبت وثارت ، وما من نفـس إلا وقـد أصـابها من الحنق ما أصابها وهنا كان الحضور والظهور والإيضاح في المعقول أعـلى مـن الإيضاح والحضور والظهور في المحسوس .

ولقد ذكر ابن حجة الحمـوي في خزانـة الأدب (أن هـذا القسـم – يعنـي تشبيه المحسوس بالمعقول) عند أهل المعاني والبيان غير جـائز ، ومـا ذاك إلا أن العلوم العقلية مستفادة من الحواس ومنتهية إليها ولذلك قيل من فقد حسا فقـد علما ، ثم قال : ووجه الصواب في تشبيه المحسـوس بـالمعقول أن يقـدر البليـغ المعقول محسوسا ويجعل أصل المحسوس على طريق المبالغة فرعا فيصبح التشـبيه حينئذ **كقول الشاعر** :

(وكـأن النجـوم بـين دجاهـا ... سـنن لاح بيـنهن ابتـداع)

فإنـه لمـا شـاع وصـف السـنة بالبيـاض والإشراق لقـول النبـي أتيـتكم بالحنيفية البيضاء ليلها كنهارها ، واشتهرت البدعة وكل ما ليس بحـق بالظلمـة والسواد ، أقام هذا الشاعر السنن مقام الأجناس التي لها إشراق وبياض والبدع مقام أجناس السواد والظلمة فصار ذلك عنده كتشبيه محسوس بمحسوس فجاز له التشبيه على هذا التقدير، **كقول أبي طالب الرقي** :

ولقـد ذكرتـك والظـلام كأنـه ... يـوم النـوى وفـؤاد مـن لم يعشـق

فإنه لما كانت الأوقات التي تحدث فيها المكاره توصف بالسواد كقول من يغتاله مكروه : اسودت الدنيا في عيني ، جعل هذا الشاعر يوم النوى أشهر بالسواد من الظلام فشبهه وعرفه به ، ثم عطف عليه بفؤاد من لم يعشق تظرفا ؛ لأن ظريف العشاق يدعي قسوة قلب من لم يعشق ،والقلب القاسي يوصف بشدة السواد فصار هذا القلب عنده أصلا في السواد على هذا التقدير فقس على ذلك)(١).

وأكد النويري هذا الكلام فقال في نهاية الأرب في فنون الأدب (فأما ما جاء في الشعر من تشبيه المحسوس بالمعقول فوجهه أن يقدر المعقول محسوساً ويجعل كالأصل المحسوس على طريق المبالغة ، **فيصح التشبيه حينئذ كما قال لبيد** :

(فلا جَزَعٌ إنْ فَرَّقَ الدَّهرُ بيننا ... فكلُّ امرىءٍ يوماً له الدهرُ فاجعُ)
(وما الناسُ إلاّ كالدِّيارِ وأهلِها ... بها يومَ حَلُّوها وبَعْدُ بلاقعُ)
(ويَمضُون أرسالاً ونخلُف بعدَهمْ ... **كما ضمَّ إحدى الراحتينِ الأصابعُ)**
(وما المرءُ إلا كالشِّهابِ وضوئه ... يَحُورُ رَماداً بَعْدَ إذْ هو ساطع)
(وما البرُّ إلا مُضْمَراتٌ من التُّقى ... وما المالُ إلا عارياتٌ ودائعُ)

فإنه لم يشبهه الناس بالديار ، وإنما شبه وجودهم في الدنيا وسرعة زوالهم بحلول أهل الديار فيها ، ووشك رحيلهم منها ، **قال** :

وكلما كانت التقييدات أكثر كان التشبيه أوغل في كونه عقلياً ، وهذا المعنى صرح به الرازي في تفسيره حيث منع جواز **"تشبيه المحسوس بالمعقول"**

١ - خزانة الأدب ١/ ٤٠٢.

" اعتماداً على أن العلوم العقلية مستفادة من الحواس ، فكأن المحسوس أصلاً للمعقول ، فتشبيهه به يقتضى جعل الأصل فرعاً والفرع أصلاً ، وهو محال

وعند مراجعة الخطيب القزويني تراه استعرض الأمثلة دون تعليق مما استدعى الشيخ الصعيدي في البغية إلى **التنبيه فقال** :

(ومن العلماء من ينكر تشبيه المحسوس بالمعقول ؛ لأن المشبه به يجب أن يكون أظهر من المشبه، وقد حمل ما جاء منه على المبالغة ؛ فيكون من التشبيه المقلوب ، ومن العلماء من يستحسنه لما فيه من اللطافة والرقة، فلا يكون عنده دائما من التشبيه المقلوب،وكان من الواجب أن يعنى – يقصد الخطيب – ببيان منزلة تلك الأقسام في التشبيه ؛ لأن سردها من غير بيان ذلك ليس فيه فائدة والمقرر في ذلك أن التشبيه كلما كان أدخَل في باب المعنويات كان أكمل.)(١)

وقد نص على ذلك السعد في مختصره فقال (والوجه في تشبيه المحسوس بالمعقول ان يقدر المعقول محسوسا ، ويجعل كالاصل لذلك المحسوس على طريق المبالغة والا فالمحسوس أصل للمعقول ؛ لأن العلوم العقلية مستفادة من الحواس ومنتهية إليها فتشبيهه بالمعقول يكون من جعل الفرع اصلا والاصل فرعا وذلك لا يجوز)(٢).

وبعد أن ذكرت لك كلام أهل العلم في عدم جواز تشبيه المحسوس بالمعقول دعنا نقف وقفة قصيرة ، فلقد أنكروا بلاغة هذا التشبيه لأنه يشبه الشئ الظاهر بالشئ الخفي ، والأصل في التشبيه عكس ذلك ، مما يعني أن توضيح

١ - بغية الإيضاح ١ / ٢٢٥.
٢ - مختصر السعد ١/ ١٢٩.

الظاهر لا يمكن أن يكون بما هو خفي . كما أن المحسوس أصل للمعقول ولا يشبه الأصل بالفرع ، ولا يمكن مثلا أن تقول : الشمس كالحجة في الظهور وما جاء على مثل ذلك فهو من باب الادعاء ، ليس إلا .. هذا سبب إنكارهم وهو سبب عقلي منطقي .

والذي لا شك فيه أن المنطق والعقل لا ينبغي تحكيمهما في الأدب والفن والجمال ، **ولقد قال البحتري سلفا :**

كلفتمونا حدود منطقكم ... والشعر يغني عن صدقه كذبه

إن عالم الفن – واللغة فن القول – لا ينبغي أن يحتكم إلى الأصول المنطقية ، وكأنها مسألة حسابية ، فلقد فقد الفن روعته حين حبس في القواعد المنطقية ، ولقد ضلت البلاغة طريقها حين تحولت من إبداع عبد القاهر الجرجاني إلى قواعد الإمام السكاكي والخطيب القزويني رحمهم الله ، وقل لي لو سرنا خلف هذه المنطقيات متى يكون الإبداع ، وأين نتلمس البلاغة ؟ وأين الطرافة والظرافة ؟ ، ومتى نفهم المبالغة ؟ ! ومن أين يستحسن الادعاء إن لم يكن في هذا ومثله ؟ !! بل أين نضع **مثلا قول الشاعر :**

ولقد ذكرتُكِ والظلام كأنه ... يوم النوى وفؤاد من لم يعشق ؟

وقول ابي نواس ، يصف فعل الخمر في المفاصل :

فَتَمَشّتْ في مَفاصِلِهِمْ ... كتَمَشّي البُرْءِ في السّقَمِ

إن عالم الفن ، وبخاصة فن القول لا ينبغي تحكيم القواعد العقلية فيه فالأصل ليس في تشبيه المعقول بالمحسوس كيف اتفق ، ولكن الأصل كما أرى –

أن يقنعنا القائل ، أو الشاعر بمنطقه هو لا بمنطقنا نحن ، ومتى اقتدر المتكلم على ذلك فكلامه البلاغة المطلقة ، سواء جعل المشبه أوالمشبه به معقولا أو محسوسا . والمهم هنا أن تشبيه المحسوس بالمعقول شغل النقاد والبلاغيين وتفاوتت آراؤهم فيه ، فأبو هلال العسكري يضع مرتبته ، ولا يستجيده ، لأَنه أَخرج ما يرى بالعيان إلى ما يعرف بالفكر .وكثير من البلاغيين يبطلونه ويجعلونه غير جائز ، ويجري على غير الأصل ، وما جاء على مثل ذلك يؤول في حين أجازه بعض أهل العلم مثل الرماني ووصفه بالقبيح ، إلا ما يجعل منه على سبيل الادعاء ، وهذا الادعاء يعكس كل طرف ، فيجعل المحسوس معقولا والمعقول محسوسا ، أو على الأقل يجعل المعقول محسوسا ، ويكون التشبيه من باب تشبيه المحسوس بالمحسوس **فقوله تعالى في شجرة الزقوم** :

﴿ طَلْعُهَا كَأَنَّهُۥ رُءُوسُ ٱلشَّيَٰطِينِ ﴿٦٥﴾ ﴾ [سورة الصافات:٦٥]

يقال : إنه قد استقر في النفوس قبح الشياطين فصارت معلومة ، وكأنها مشاهدة ، بدليل أن حسن وجوه الحور العين استقر في النفوس حتى صارت معلومة ، وصح تشبيه وجوه الحسان بوجوه الحور العين ، وهكذا ... .

التشبيه بين الإفراد ، والتعدد ، والتركيب .

هذا وجه آخر من أوجه تقسيم التشبيه ، أعني أن يقسم إلى مفرد ومركب أو مفرد وتمثيل ، ويزاحمهما المتعدد ، والذي عليه أهل العلم جميعا أن التشبيه المركب أبلغ من التشبيه المفرد ، ذلك لأنه يلاحظ فيه أكثر من جانب في بناء الصورة ، وكلما كثرت جوانب الصورة كانت أجمل ، ذلك كله عند اتحاد الغرض

والمفاضلة بين صورتين إحداهما مفردة والأخرى مركبة ، لكن إذا كان السياق يستدعي الصورة المفردة فهي أبلغ من غيرها ، وتستطيع القول أن التشبيه المفرد هو الصورة الأولى ، أو بداية الصورة ، والتشبيه المركب هو قمتها وأعلاها ودعنا نبدأ من أول السلم .

التشبيه المفرد :

ينظر بعض أهل العلم إلى الإفراد والتركيب من خلال الطرفين ، فيعدون التشبيه المفرد ما كان طرفاه مفردين ، مثل قول النبي ﷺ :

(الْمُؤْمِنُ مِرْآةُ أَخِيهِ الْمُؤْمِنِ)

فهذه صورة مفردة لا تفصيل فيها ولا أجزاء ، فهي أول درجات التشبيه حيث جاء المشبه مفردا ، وهو لفظة (المؤمن) وجاء لفظ المشبه به مفردا أيضا وهو(مرآة) ، ويراد من التشبيه الإشارة إلى أن المؤمن يرى عيوب أخيه ، فينبهه عليها ، ويحاول إصلاحها ، كما يرى محاسنه فيعرفه إياها ، ويحمده عليها ويعمل على تثبيتها .

ويرى آخرون أن التشبيه المفرد ما كان وجه الشبه فيه مفردا ، **مثل قولك** : قد كالغصن ، وشعر كالليل ، وخد كالورد ، وريح كالمسك ، فإنك في كل ذلك أردت : اللين والسواد ، والحمرة ، وطيب الرائحة ، وهذا التشبيه في الواقع نادر الوجود ، لأنك لا تجد مبدعا يصف لك هذه الأوصاف دون أن يلحق بها ما يضاف إلى الصورة التشبيهية .

وهذه الصورة المفردة نادرة الوجود في اللسان العربي ، بل وفي القرآن الكريم ، حتى قالوا إن القرآن الكريم لم يستخدم التشبيه المفرد مطلقا (١) والقول بغير ذلك يخرج التشبيه المفرد من عالم البيان لأنك لن ترى في الغالب وجه شبه واحداً ، في كل ما يقابلك من صور التشبيه ، فإذا قلت مثلا - خد كالورد ، فلن تكون الحمرة فقط هي وجه الشبه ، بل سيندرج فيه الحسن والاستدارة ولين الملمس ، وغير ذلك مما يجعل التشبيه المفرد خارج الوجود البياني .

---

١ - يقول أبو عبد المعز في تعليقة على الإفراد والتركيب في لمعه على المكتبة الشاملة : لا تعتقدن أن وصف التشبيه بالإفراد أوالتركيب يرجع إلى لفظي الطرفين -أي لفظ المشبه ولفظ المشبه به- بل يرجع إلى وجه الشبه ونهج العقل في مأخذه وانتزاعه..فإن لاحظ العقل في وجه الشبه تعددا وتركيبا ، أو انتزعه من متعدد ومركب، فالتشبيه تمثيلي حقا ولو كانت ألفاظ المشبه والمشبه به ووجه الشبه ألفاظا مفردة..وإن لاحظ العقل في وجه الشبه جهة واحدة أو معنى مفردا فالتشبيه مفرد ولو كان اللفظ الدال على المشبه أو المشبه أو الوجه متعددا...هذا المعنى الذي نقرره هنا استفدناه من المناظرة الشهيرة بين السعد والسيد في مجلس تيمور بصدد قوله تعالى:أُولَئِكَ عَلَى هُدًى مِنْ رَبِّهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ .. ونعتقد أن انتصار السعد التفتازاني لوجه التمثيلية أقرب للحق من انتصار السيد الجرجاني لوجه التبعية..ومن دلائل المنتصرين لمذهب السعد -وهذا محل شاهدنا-أن تعدد المأخذ لا يلزم عنه تعدد اللفظ وهو ما ينكره السيد الذي تمسك فيما يبدو بوجهة نظر منطقية أكثر منها بلاغية..وقد نخصص لهذه المناظرة لمعة من اللمع.

ومما يدلك على أن التمثيل قمة بيانية مرموقة وروده بكثرة في البيان المعجز..بخلاف ندرة التشبيه المفرد.بل إننا نرجح أن القرآن لم يستعمل التشبيه المفرد أبدا ونقصد بطبيعة الحال التشبيه الساذج لشيء أحمر بشيء أحمر لوجود الحمرة في الطرفين..وما جاء في الوحي المعجز من تشبيه أفرد طرفاه فالمأخذ متعدد دائما فيكون التشبيه إفراديا في شكله تمثيليا في حقيقته..منه قوله:{وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيراً مِّنَ الْجِنِّ وَالإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لاَّ يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لاَّ يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لاَّ يَسْمَعُونَ بِهَا أُوْلَئِكَ كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُوْلَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ }الأعراف١٧٩فليس التشبيه مفردا كما يعتقد خطأ أي تشبيه شيئ مفرد (الانس والجن) بشيء مفرد (الأنعام) بل هو تمثيلي ،فالوجه منتزع من متعدد بلا شبهة، فقد شبه الثقلان ،في حال تمتعهم بآلات المعرفة الحسية والعقلية وعدم انتفاعهم بها في الاهتداء، بالأنعام في حال كونها تتوفر ظاهرا على أعضاء السمع والبصر والقلب ولكنها عاجزة عن أن تترقى بها وتهتدي إلى ما فيه حسن العاقبة..فثبت التمثيل في الآية باعتبار الانتزاع من متعدد.ومنه قوله:{طَلْعُهَا كَأَنَّهُ رُؤُوسُ الشَّيَاطِينِ}المشبه هو : شَجَرَةُ الزَّقُّومِالمشبه به: رُؤُوسُ الشَّيَاطِينِ..هو تشبيه مفرد ظاهرا..لكن وجه الشبه متحرك وليس ثابتا فكسب التعددية من هذه الجهة...تفصيله أن يقال:شجرة الزقوم لم يقع عليها الحس ومن ثم يذهب التصور فيها شتى المذاهب..وعندما أدخلت في التشبيه كان المتوقع أن يحصل غرض البيان فيقرب البعيد ويعرف المجهول لكن الآية اتخذت مسارا آخر:فقد شبهت الشجرة الجهنمية برؤوس الشياطين، وهذه الرؤوس ليس مما يقع عليها الحس، وخيالات الناس تذهب في تصورها كل مذهب، فتكون الآية قد فتحت للتصور والتخييل ثلاث مسافات:مسافة من جهة شجرة الزقوممسافة من جهة رؤوس الشياطين...ومسافة من جهة التطابق بين الطرفين.فهل كل هذا تشبيه مفرد !

وتعال نقف على بعض صور التشبيه المفرد في الكلام العالي ، ونعني به ما كان طرفاه مفردين ، **قال تعالى** : ﴿**إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِهِۦ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنْيَٰنٌ مَّرْصُوصٌ ﴿٤﴾**﴾ [سورة الصف:٤]

فالمشبه المقاتلون في سبيل الله ، والمشبه به البنيان المرصوص ، وهذه صورة مفردة لا تجد فيها أجزاء ، ولا تفاصيل ، ولا وجه شبه عقلي ، فهي تشبيه مفرد بمفرد والجامع مفرد . وسأذكر لك نماذج أخرى تؤكد لك معنى التشبيه المفرد **ومنها قوله تعالى** : ﴿**وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ لِبَاسًا ﴿١٠﴾**﴾ [سورة النبأ:١٠]

حيث شبه الليل باللباس ، والجامع بينهما الستر ، والإخفاء لما تحت كل منهما ، **وكذلك قوله تعالى** :

﴿ .... هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ .... ﴾ [سورة البقرة:١٨٧]

وهذا ستر من نوع آخر ، حيث يستر كل من الزوجين الآخر فشبه المرأة باللباس للرجل وشبه الرجل باللباس للمرأة ، **وكذلك قوله تعالى** :

﴿نِسَآؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ ... ﴾ [سورة البقرة:٢٢٣]

أي : نساؤكم تشبه الأرض المعدة للزرع ، وتشبيه المرأة بالأرض كثير في اللسان العربي ، والمهم أن كل نوع من هذه الشواهد خرج في صورة التشبيه المفرد ، ومنه **أيضا قول الشاعر** :

أنت كالليث في الشجاعة والإقدام والسـيف في قـراع الخطـوب

فالمشبه ، والمشبه به كلاهما مفرد ، وراجع ذلك مرة أخرى (هن لباس) (نساؤكم حرث) (الليل لباس) (أنت كالليث)لا تجد إلا كلمتين في كل تشبيه.

وقد يكون المفرد مقيداً ، والتقييد يكون بالحال ، أو الصفة ، أو الظرف أو الإضافة ، أو الجار والمجرور **ومن ذلك الحكمة العربية القديمة** :

(التعليم في الصغر كالنقش على الحجـر) . فلـيس التشـبيه بـين التعلـيم والنقش ، إنما التشبيه قائم بين التعليم حالة كونه في الصغر ، بالنقش حالـة كونـه على الحجر ، فإذا زالت هذه القيود ضاعت قيمـة التشـبيه ، وانتفـت معالمـه ولا يعد هذا من التشبيه المركب ، بل هو من المفرد المقيد ، **ومثله قول الشاعر** :

ولاحت الشمس تحكي حين مطلعها مـرآة تـبر بـدت في كـف مـرتعش

فليس التشيه بين الشمس ، والمرآة .. كـلا ، إنـما التشـبيه للشـمس حـين طلوعها ، بالمرآة حين تكون في كف مرتعش، فملاحظة هذه القيود هي أسـاس التشبيه ، وهي التي بنـي مـن أجلهـا ، وهـذه القيـود لم تخـرج التشـبيه إلى حالـة التركيب ، لأن هناك مرتكزا في التشبيه وهو المفرد السابق على القيد ، ومـا القيـد إلا حالة واصفة لشيء في الجملة التشبيهية ، فالتعليم ، كـل تعلـيم هـو كـالنقش لكنه في الصغر يكون كالنقش على الحجر ، مما يعنـي أن جسـد التشـبيه كـائن في التعليم والنقش ، أما التشبيه المركب فالأمر فيه يختلف حيث تكون الأجزاء كلها من مكونات التشبيه ، وسيأتي بيان ذلك .

وقد يكون المشبه مفردًا مطلقًا ، والمشبه به مفردا مقيدا ، **ومثال ذلك قول الله تعالى :** ﴿ ۞ وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ وَإِن يَقُولُوا۟ تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُّسَنَّدَةٌ .... ﴾ [سورة المنافقون:٤]

فهذه الخشب لما زال نفعها أسندت على الجدر ، و الحوائط ، والأصل في الخشب أن تستخدم فيما ينفع ،بأن تكون حاملة ، أو رافعة ، أو مظللة ، أو غير ذلك ، ولكن هذه لا نفع فيها فألقيت ، وأسندت إلى الجدر .

وقوله تعالى :

﴿ إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ صَيْحَةً وَٰحِدَةً فَكَانُوا۟ كَهَشِيمِ ٱلْمُحْتَظِرِ ﴿٣١﴾ ﴾ [سورة القمر:٣١]

فالمشبه في الجملة هو المشركون ، والمشبه به هو الشجر اليابس المتخذ سقفا للحظائر ، وهذا القيد فيه من التحقير ما فيه ..

وفي قوله تعالى :﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَٰبِ ٱلْفِيلِ ﴿١﴾ أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِى تَضْلِيلٍ ﴿٢﴾ وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ ﴿٣﴾ تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ ﴿٤﴾ فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍۭ ﴿٥﴾ ﴾ [سورة الفِيل:١-٥]

فشبههم بالزرع الذي أكلته الدواب ، ثم خرج في صورة الفضلات وفي هذا من الازدراء والمهانة مالا يحده الوصف .. والنماذج غير هذا كثير .

التشبيه المتعدد :

ينعقد الكلام في التشبيه المتعدد ، على وجود أكثر من تشبيه ، كأن تشبه شيئين بشيئين ، أو ثلاثة بثلاثة ، أو أربعة بأربعة ... إلخ أو تشبه شيئا واحدا بعدة أشياء ، فيكون المشبه واحدًا ، ويكون المشبه به متعددا ، فينتج من ذلك عدة تشبيهات كأن تقول : هو كالليث جراءة ، والقمر جمالا ، والبحر جودا ، فالقصد أن المجموع ليس متداخلا ، ولا مقصودا إلى صورته الكلية ، ولا يبنى فيه تشبيه على تشبيه ، والمثال الأشهر في ذلك **قول امرئ القيس** :

كَـأَنِّي بفَتْخـاءِ الجَنـاحَيْنِ لِقْـوَةٍ ... صَيُودٍ مِن العِقْبانِ طَأْطَأْتُ شِمْلالِي(١)

تَخَطَّفُ خِزَّانَ الأُنَـيْعِمِ بالضُّـحَى ... وقَـدْ جَحَـرَتْ مِنْهـا ثَعالِـبُ أَوْرالِ

كأَنَّ قلُوبَ الطَّيْرِ، رَطْبـاً ويابِسـاً ... لَدَى وَكْرِها، العُنَّابُ والحَشَفُ البـالِي

فلَوْ أَنَّ ما أَسْـعَى لأَدْنَـى مَعِيشَـةٍ ... كَفـانِي، ولَمْ أَطْلُـبْ، قَلِيـلٌ مِـن المـالِ

ولكـنَّما أَسْـعَى لِمَجْـدٍ مُؤَثَّـلٍ، ... وقَـدْ يُـدْرِكُ المَجْـدَ المُؤَثَّـلَ أَمْثـالِي

فامرؤ القيس في هذه الأبيات – كما قال علماؤنا شبه شيئين بشيئين في بيت واحد ، فضم الرطب إلى اليابس من القلوب ، والعناب إلى الحشف البالي وأخرج من كلٍ صورة وحدة مستقلة ، وليس هيئة جامعة ، فوصف قلوب الطير الرطبة بأنها تشبه العناب ، كما وصف قلوب الطير اليابسة بأنها تشبه الحشف البالي ، وأراد من وراء كل ذلك وصف طائر العقاب بكثرة الصيد حتى

١ - يقول ابن قتيبة في كتابه : المعاني الكبير (الفتخاء :هي العقاب سميت بذلك لفتخ في جناحها والفتخ اللين إذا انقضت، وشيمال وشملال خفيفة. قال أبو عبيدة أُراه أراد شمالي فزاد ياء كما قالوا: من يانع الثيمار أراد الثمار، ويقال فلان يطأطئ في ما له أي يسرع، والقلوب أطيب ما في الطير فهي تأتي به فراخها.) ١ / ٦٧.

أنك إذا نظرت في وكره وجدت القلوب على اختلاف أنواعها ، الرطب منها ، هي قلوب الطيور التي صيدت لساعتها ، والجاف منها الذي صيد منذ يوم أو يومين ، وقد أنكر عبد القاهر إرادة الصورة الجامعة للقلوب الرطبة والقلوب اليابسة ، **فقال** :

(إنه لم يقصِد إلى أن يجعل بين الشيئين اتصالاً، وإنما أراد اجتماعاً في مكانٍ فقط، كيف ولا يكون لمضامَّة الرَّطْب من القلوب اليابسَ هيئةٌ يُقصَد ذِكْرُها أو يُعنَى بأمرها، فيودِّيَ ذلك الشبهَ الحاصلَ من مُداخلة أحد المذكورين الآخرَ واتّصاله به، اجتماعُ الحشَف البالي والعُنّاب، كيف ولافائدة لأن ترى العُنّاب مع الحشَف، أكثر من كونهما في مكان واحد، ولو أن اليابسة من القُلوب كانت مجموعةً في ناحيةً، والرطبة كذلك في ناحية أخرى، لكان التشبيه بحاله،.... وكذلك لو فرَّقت التشبيه فقلت: كأنّ الرَّطب من القلوب عُنّابٌ، وكأنّ اليابس حَشَفٌ بالٍ، لم تر أحدَ التشبيهين موقوفاً في الفائدة على الآخر) (١).

وارتضى ابن عاشور هذا الفصل وقاس عليه قول الله تعالى :

﴿ ۞ مَثَلُ ٱلْفَرِيقَيْنِ كَٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْأَصَمِّ وَٱلْبَصِيرِ وَٱلسَّمِيعِ ۚ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٢٤﴾ ﴾ [سورة هود:٢٤]

ثم قال : (والوجه عندي في الداعي إلى عطف صفة الأصم } على صفة { الأعمى } أنه ملحوظ فيه أن لفريق الكفار حالين كل حال منهما جدير بتشبيهه

---

١ ـ أسرار البلاغة ١٣٧ هـ ريتر .

بصفة من تينك الصفتين على حدة ، فهم يُشبهون الأعمى في عدم الاهتداء إلى الدلائل التي طريق إدراكها البصر ، ويُشْبهون الأصم في عدم فهم المواعظ النافعة التي طريق فهمها السمع ، فهم في حالتيْن كلٌّ حال منهما مشبّه به ففي قوله تعالى :

"كالأعمى والأصم " تشبيهان مُفرقان كقول امرىء القيس)(١)وأنا لا أرى وجودا للتشبيه المتعدد في اللسان العربي بله القرآن الكريم ، لأن جمع الصور ، وإن تفرقت في الظاهر ، إلا أن وجودها في التركيب الواحد يرغم الناظر على عقد أواصر الصلة بين أطرافها ، وجمع أجزائها في المشهد ، وضم بعضها إلى بعض ، ولو أنك راجعت شاهد امرئ القيس ، لا بد أن تلحظ رغبته في وصف كثرة قلوب الطير المصيدة ، وتنوعها ، واختلاف حالاتها ، وهذه كلها أوصاف للقلوب الرطبة واليابسة معا ، والشاعر لا يريد – كما أرى – أن يصف قلوب الطير الرطبة بالعناب في معزل عن وصف قلوب الطير اليابسة كالحشف فلا بد إذا عقلت هذا أن تعقل ذاك والعكس ، وإلا فما المغزى من وصف قلوب الطير الرطبة بالعناب في وكر العقاب ، وهل تتحصل من هذا التشبيه –إن أفردته – على فضيلة ؟

إن الفضيلة في إظهار كثرة المصيد ، ووفرة الرزق ، وتنوع المصيد ، فهذا رطب ، وهذا يابس ، وجمع الطرفين هو المراد ، ولذلك قيل إن بشار بن برد قال:

---

١ - التحرير والتنوير ٧ / ١٩٦.

لم أزل منذ سمعت **قول امرئ القيس في تشبيهه بشيئين في بيت واحد حيث يقول:**

كأن قلوب الطير رطبا ويابسا لدى وكرها العناب والحشف البالي

أعمل نفسي في تشبيه شيئين بشيئين في بيت واحد حتى قلت:

كأن مثار النقع فوق رؤوسنا وأسيافنا ليل تهاوى كواكبه

فكأنه قاس بيته على بيت امرئ القيس ، ولم يختلف أحد في أن بيت بشار في التشبيه المركب ، مما يعني أن بيت امرئ القيس في التشبيه المركب ، ولكن الصورة في بيت امرئ القيس تختلف في نسجها عن الصورة في بيت بشار فالصورة في بيت امرئ القيس مبنية على استقلال أجزائها ، واحتفاظ كل جزء بمكوناته ، وثبات الأجزاء ، وهذا عكس الصورة عند بشار حيث ترى الأجزاء تتحرك وتتداخل ، وترسم بحركتها المشهد ، وهذا هو الفرق بين التشبيه المركب والتشبيه المتعدد ، **وأظهر من هذا قول الشاعر :**

النشر مسك ، والوجوه دنانير وأطراف الأكف عَنَم

لا يمكن أن تفصل الريح الطيبة – ريح المسك - عن الوجه الجميلة المستديرة كالدنانير ، عن الأطراف اللينة كأغصان شجر العنم ، فالصورة ليست متعددة ، الصورة واحدة لكنها ذات أجزاء مستقلة في ذاتها ، متداخلة في الصورة الكلية.

وقول أبي الطيب:

بدت قمرا ومالت خُوط بان وفاحت عنبرا ورَنَت غزالا

هل تستطيع أن تنظر إلى بدوها ، منفصلا عن مشيتها ، وهل يمكن فصل الصورتين عن ريحها ، ونظر عينها ، ؟ ! إن المشهد مشهد واحد ، والصورة في مجملها صورة واحدة ، وإن كانت أجزائها مستقلة ، وهذا الاستقلال قد يكون تكلفا لأنه يقسم المنظر إلى أجزاء متناظرة ، لكنه في الوقت نفسه يملؤك بالمعنى ، ويرسم لك حالة الاستيعاب للأطراف ، والنواحي التي تتحرك داخل الإطار العام للصورة ، وهذا التقصي ينم عن قوة الملاحظة ، والقدرة على الإمساك بالشارد من المشهد ، كما أن فيها براعةً في جمع الأشياء ، ونظمها في جمل قصيرة ، لكنه – من حيث هو تشبيه – لا يرقى إلى التشبيه المركب لخلوه من الحبكة التي يحملها التركيب ، ولخلوه أيضا من الخيال الكامن خلف الهيئة الخاصة .

وحاول الشيخ الصعيدي التفريق بين الصورتين وقال : (إن المتعدد يعطف فيه كل تشبيه على الآخر عطف المستقل على المستقل، أما المركب فإنه في الغالب يذكر فيه أحد أجزائه على وجه التبع للآخر؛ كأن يكون في صفته أو صلته أو حالا منه أو معطوفا عليه بالفاء أو ثم) ، وهذا تأكيد من الشخ بأن الصورتين متداخلتان ، حتى احتاج الأمر إلى تفريق بينهما ، وهذا غاية ما أود الإشارة إليه .

التشبيه المركب :

ومعنى التركيب : أن يكون للمشبه والمشبه به صورة مكونة من عدة أجزاء تضامت ، وتعاونت في تكوين كل منهما ، والتَّشبيهُ المركبُ :

- إمَّا أن يكون طرفاهُ مركَّبين ، أي :أن المشبه مركب ، والمشبه به مركب وذلك شاخص في بيت بشار الذي سارت به الركبان في التركيب :

كَأن مُثارَ النَّقْعِ فَوْقَ رُءُوسِنَا   وأسْيَافَنَا لَيْلٌ تَهَاوَى كواكِبُه

ولو تأنيت في تخيل هذه الصورة لوجدت بشارا – وهو البصير – يرسم لوحة تملؤها الحركة المتسارعة ، حركة تهاوي السيوف من أعلى إلى أسفل تحصد الرؤوس في ضباب الغبار الكثيف ، هذه الصورة تشبه الناظر إلى السماء ليلا حيث يفاجأ بالكواكب تتهاوى إلى الأرض في مشهد رعيب ، وهذا كله تشبيه مركب بمركب .

- وإمَّا أن يكون طرفاهُ مُخْتلفين بالإفرادِ والتَّركيب وذلك كما في قول الشعراء يصفون نجم السماء سهيلا (١) :

كأن سهيلا والنجوم وراءه   صفوف صلاة قام فيها إمامها

كأن سُهَيْلاً والنجومُ تؤُمُّه   نوافِرُ وُرْقٍ خِلْنَ قد لاح أجْدَلُ

كأنّ سُهَيْلاً والنجوم أمامَهُ   يعارِضُها راعٍ وراءَ قَطِيع

فقد وضع الشعراء هذا النجم في عدة صور ، وفي كل صورة ترى المشهد والحركة في الطرفين ، وترى تعاون أطراف الصورة في رسم الإطار العام ولا تستطيع ان تفصل جزء عن الآخر ، وهذا ما يميز التشبيه المركب من غيره ففي الصورة الأولى ترى سهيلا يقف في الأمام ، ومن ورائه مجموعة النجوم في صف منتظم فترى المشهد يرسم لك هيئة إمام يصلي والناس خلفه صفوف متراصة

١ - (سهيل) نجم قيل عند طلوعه تنضج الفواكه وينقضي القيظ وهو من النجوم اليمانية وفي المثل (إذا طلع سهيل رفع كيل ووضع كيل) يضرب في تبدل الأحكام.

ولو أنك فككت التشبيه ،وألحقت سهيلا بالإمام لصح ذلك ، ولكن الشاعر لا يريد هذا ، إنما يريد هيئة هذا النجم وهو في الأمام ووراءه النجوم بهيئة الإمام الذي يصلي بالناس .

وفي البيت الثاني شبه الشاعر الآخر النجم نفسه والنجوم تتوجه إليه وتندفع نحوه ، كل يريد السبق إليه ، بمجموعة من الإبل ظهر لها جدول ماء من بعيد وهن عطاش فاندفعن إليه لا يلوون على شيء .

أما البيت الثالث ، فصورة ثالثة ، وهي صورة الراعي الذي يقف أمام قطيعه ، يحجزها عن التقدم إلى ما لا يحمد من المرعى ، ففي كل صورة ترى الحركة والتداخل ، وترى سهيلا في صور متعددة ، لكن الجامع بين المشاهد الثلاثة ، وجود هذا النجم وحوله هذه المجموعة من النجوم ترتبط به ، وتدور في فلكه ، وتتوقف حركتها على حركته ...

وفي عالم آخر ترى التشبيه المركب قادرا على تصوير حركة الكائنات وإلحاقها بحركات أخرى **كقول المتنبي** :

يهز الجيش حولك جانبيه   كما نفضت جناحيها العقاب

فتحرك الجيش بانتظام حول سيف الدولة ، حركة متساوية متتابعة ، فبها من القوة والسرعة ما فيها ، يشبه حركة الجناح الكبير لطائر العقاب حين ينفضه نفضا لتجفيفه من الماء الذي ألم به ، أو لتنظيفه مما علق به من علائق ، والصورة تعتمد على الحركة وملاحظة الأطراف التي تحيط بالرأس ، والقوة والسرعة واتحاد الغاية ، وغير ذلك كثير مما تراه في الصورتين التين اتحدتا في هيئة واحدة ووجه الشبه صورة منتزعة من وجود جانبين لشيء عظيم يتحركان بانتظام .

ومن التشبيه المركب قوله تعالى :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُبۡطِلُواْ صَدَقَٰتِكُم بِٱلۡمَنِّ وَٱلۡأَذَىٰ كَٱلَّذِي يُنفِقُ مَالَهُۥ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَلَا يُؤۡمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۖ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ صَفۡوَانٍ عَلَيۡهِ تُرَابٞ فَأَصَابَهُۥ وَابِلٞ فَتَرَكَهُۥ صَلۡدٗاۖ لَّا يَقۡدِرُونَ عَلَىٰ شَيۡءٖ مِّمَّا كَسَبُواْۗ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡكَٰفِرِينَ ٢٦٤ ﴾

[سورة البقرة:٢٦٤]

فالمعنى : لا تكونوا من الذين يتصدقون ، ثم يؤذون الفقراء بلسانهم ، لأن هذا صفة أهل الكفر ، والنفاق يعطي ليراه الناس ، ويتحدثوا عن عطائه ومعنى رئاء الناس أي يرائي بصدقاته ، ويظهرها ، ويعلن عنها في كل مكان ، فمثل هؤلاء كمثل صفوان ، عليه تراب ، وهنا كلام محذوف لأن الصفوان وهو الحجر الصلد إذا علاه تراب ظهر للناظر على أنه تربة صالحة للزراعة ، مما يستدعيه بذر البذور فيها ، وحين يبذر البذور ينتظر الوابل ليسقيه ، فإذا جاء الوابل ترك الصفوان صلدا ، وظهرت حقيقته وتبين للزارع خيبة أمله ، وضياع جهده ، وانكشاف حقيقة التراب بأنه غشاء على صخر لا ينبت ، ولعلك تدرك هذه التفاصيل حين تسترجع المشهد وما يحمله من أجزاء متداخلة ، يمتزج بعضها ببعض .

وفي صورة مركبة أخرى أحاول أن أقرب لك المشهد الكثير الأجزاء **وذلك في قوله تعالى :**

﴿إِنَّمَا مَثَلُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ ٱلنَّاسُ وَٱلْأَنْعَٰمُ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذَتِ ٱلْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَٱزَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَآ أَنَّهُمْ قَٰدِرُونَ عَلَيْهَآ أَتَىٰهَآ أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَٰهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِٱلْأَمْسِ ۚ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢٤﴾﴾ [سورة يونس:٢٤]

فالصورة التشبيهية هنا ترسم لك هذه الحياة بمباهجها ، وزينتها التي تخدع كل ناظر ثم ما تلبث أن تزول ، هذا كله يشبه حالة الزينة النباتية واجتماع النبات والتفافه ، ونضارته ، وكثرة ثمارة ، وعذوبة مائه ، وانتشار ظلاله كل هذا تراه ثم ما يلبث أن يزول سريعا بأمر من السماء فيحرقها ، أو يدمرها وكأنها لم تكن من قبل ، فالزينة والاغترار بها هنا تشبه الزينة والاغترار بها هناك وسرعة الزوال هنا هي سرعة الزوال هناك ، إنه مشهد تراه واحدا لكنه في الأصل يحمل في تضاعيفة الكثير من التفاصيل التي لا يكفيها إطار واحد .

وهناك في التشبيه المركب ، صور يتبع بعضها بعضا مع أن المشبه واحد لكنه يحتاج لتجلية أمره إلى أكثر من إطار ليظهر حقيقة أمره ، و من ذلك تصوير القرآن حال المنافقين (الذين اشتروا الضلالة بالهدى) مرة (بالذي استوقد نارا فلما أضاءت ما حوله ذهب الله بنورهم وتركهم في ظلمات لا يبصرون صم بكم عمى فهم لا يرجعون) ومرة أخرى بفريق أصحاب صيب من السماء ... وتلاحق صور التشبيه على الشيء الواحد يزيده بيانا على بيان .، **وقد علق الشيخ ابن عاشور على ذلك فقال :**

(شبهت حال المنافقين بحال قوم سائرين في ليل بأرض قوم أصابها الغيث وكان أهلها كائّين في مساكنهم **كما عُلم ذلك من قوله** :

{ كلَّما أضاءَ لهم مشَوْا فيه } فذلك الغيث نفع أهل الأرض ، ولم يصبهم مِمَّا اتصل به من الرعد والصواعق ضُر ، ولم ينفع المارين بها ، وأضرَّ بهم ما اتصل به من الظلمات والرعد والبرق ، فالصيب مستعار للقرآن وهدى الإسلام وتشبيهه بالغَيث وارد .

وفي الحديث الصحيح :

" مَثَل ما بَعثني الله به من الهُدى كمثل الغيث أصابَ أرضاً فكان منها نَقِيَّةٌ ، ولا تَجد حالة صالحة لتمثيل هيئة اختلاط نفع وضر مثل حالة المطر والسحاب وهو من بديع التمثيل القرآني ، **ومنه أخذ أبو الطيب قوله** :

فتى كالسحاب الجَوْن يُرجَى ويُتَّقَى يُرَجَّى الحَيَا منه وتُخْشَى الصواعق

والظلمات مستعار لما يعتري الكافرين من الوحشة عند سماعه كما تعتري السائر في الليل وحشة الغيم لأنه يحجب عنه ضوء النجوم والقمر ، والرعد لقوارع القرآن وزواجره ، والبَرْق لظهور أنوار هديه من خلال الزواجر) (١)، وسيأتي حديث آخر عن هذا النوع في التشبيه التمثيلي ، ليزيد هذا الأمر وضوحا ، لكن المقام هنا مقام ذكر للطرفين ، واعتبار المفرد منهما والمركب .

---

١ - التحرير والتنوير ١ / ٢٢١.

أغراض التشبيه

أغراض التشبيه تعني : المقاصد التي تحمل المتكلم على إلحاق المشبه بالمشبه به ، وهذه الأغراض تعود في الأصل إلى المشبه ، لأن القصد إلى إيضاح الصفة فيه ،وتقويتها ، وتدعيمها **ومن أهم هذه الأغراض** :

١ - بيان الحال :

أي بيان صفة المشبه ، وذلك إذا كانت صفة المشبه غيرمعلومة ، ومن ذلك قول الأعشى:

كأنّ مِشْيَتَها من بيتِ جارتها مرُّ السحابة لاريثٌ ولاعجلُ

مثل قول امرئ القيس :

كأن قلوب الطير رطبا ويابسا لدى وكرها العناب والحشف البالي

فالشاعر ربط قلوب الطير الرطبة بالعناب ، وقلوب الطير اليابسة بالحشف البالي ، فوضَّح القلوب الرطبة بوصفها بالعناب ، ووضح القلوب اليابسة بالحشف البالي ، فالبيان والتوضيح كان هدفا من تشبيه كل طرف بالصفة **ويقول أبو الطيب المتنبي :**

أرى كل ذي جود إليك مصيره كأنك بحر والملوك جداول

الغرض هنا بيان الحال ، والتشبيه بليغ ، أراد أن يبين أن الملوك في عطائهم إنما يستمدون من الممدوح ، أو يصبون فيه ، وكل ذلك بيان لحال الممدوح ، **ومنه أيضا قول الشاعر :**

ما إن في الحريش ولا عقيل ولا أولاد جعدة من كريم

ولا البرص الفقاح بني نمير ولا العجلان زائدة الظليم

أولئك معشر كبنات نعش رواكد لا تسير مع النجوم

يقول المرزوقي في شرح ديوان الحماسة : (يعني بزائدة الظليم الخف، لأنه لا يكون للطير. أي هم زيادة في الناس بمنزلة تلك الزائدة في الظليم ، **وقوله** :

أولئك معشر كبنات نعش ، يريد أنهم لا ينهضون لا كتساب مكرمة ولا يقومون لاجتلاب منقبة ، فهم لا خير فيهم يلزمون مضاجعهم كسلاً وقصر همة، ورضى بأدنى الهمتين وأسقط العيشتين ، والعرب تسمى من كان كذلك ضاجعاً وضجيعاً وضجعة. وبنات نعش ليست من النجوم السيارة فلذلك شبهه بها) (١).

٢ - بيان المقدار :

ويقصد به مقدار الصفة ، قوةً وضعفاً ، زيادة ونقصاً ، ويكون هذا إذا عرفت الصفة إجمالا ، دون أن يدرك مقدارها **ومن ذلك قوله تعالى** :

﴿ وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَٰوَٰتِ وَالْأَرْضِ ۚ وَمَآ أَمْرُ السَّاعَةِ إِلَّا كَلَمْحِ الْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ ۚ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٧٧﴾ ﴾ [سورة النحل:٧٧]

إن الكلمات هنا تصرح بالقرب الشديد لأمر الساعة،حتى إنه لما قيل : كلمح البصر،عطف عليه بما يقربه أكثرفقيل: أو هو أقرب، وهذا بيان للمقدار وفي الشعر ترى عنترة وهو يبين مقدار سواد النوق ، وأن سوادها قارب سواد الغراب الأسحم **فقال** :

---

١ - شرح ديوان الحماسة للمرزوقي ١/ ٤٧٠.

إنْ كُنْتِ أزْمَعْتِ الفِراقَ فَإنَّمَا زَمَّــت رِكَــائِبُكُمْ بِلَيْــلٍ مُظْلِــمِ
مَــا رَاعَنــي إلاَّ حَمولــةُ أَهْلِهَــا وسْطَ الـدِّيَارِ تَسُـفُّ حَـبَّ الخِمْخِمِ
فِيهَــا اثْنَتَــانِ وأَرْبعــونَ حَلُوبَــةً سُــداً كَخافيــةِ الغُـرَابِ الأَسْـحَمِ
إذْ تَسْتَبِيْكَ بِذِي غُروبٍ وَاضِحٍ عَــذْبٍ مُقَبَّلُــهُ لَذيــذُ المَطْعَــمِ
وكَــأَنَّ فَــارَةَ تَــاجِرٍ بِقَسِــيْمَةٍ سَـبَقَتْ عوارِضَـها إليكَ مِـن الفَمِ
أَوْ روْضَــةً أُنُفــاً تَضَــمَّنَ نَبْتَهَــا غَيْـثٌ قليـلُ الـدَّمنِ لـيسَ بِمَعْلَـمِ
جَـادَتْ علَيـهِ كُـلُّ بِكـرٍ حُـرَّةٍ فَــتَرَكْنَ كُــلَّ قَــرَارَةٍ كَالــدِّرْهَمِ
سَـحّاً وتَسْـكاباً فكُـلَّ عَشِـيَّةٍ يَجْـرِي عَلَيهــا المَــاءُ لَمْ يَتَصَرَّــمِ
وَخَلَى الذُّبَابُ بِهَا فَلَيسَ بِبَارِحٍ غَــرِداً كَفِعْــلِ الشَّــاربِ المُــتَرَنِّمِ
هَزِجــاً يَحُــكُّ ذِراعَــهُ بذِراعِــهِ قَـدْحَ المُكَـبِّ عـلى الزِّنَـادِ الأَجْـذَمِ
تُمْسِي وتُصْبِحُ فَوْقَ ظَهْـرِ حَشيَّةٍ وأَبِيــتُ فَــوْقَ سَرَاةِ أدْهَــمَ مُلْجَــمِ

شبه النوق السود بخافية الغراب لبيان مقدار السواد ، فهـي نـوق أصـيلة عالية القيمة ، إنها من النوق السود التي يغلـو ثمنهـا ، وكلـما زاد سـوادها غـلا ثمنها ، ومقدار السواد يقاس بسواد الغراب .

ومنه قول شهاب الدين الحلبي :

وقانــا لفحــة الرمضــاء واد سـقاه مضـاعف الغيـث العمـيم

نزلنا دوحه فحنا علينا حنو المرضعات على الفطيم
وأرشفنا على ظمأ ظلالا ألذ من المدامة للنديم

فالشاعر هنا يبين مقدار الحنو ، وأن حنو الدوحة عليهم قارب وماثل من حنو المرضعات على الفطيم ، وهو حنو مبالغ فيه.

٣ - توكيد الحال :

وذلك حين تعرف الحال والمقدار ، فهنا يأتي التوكيد وترسيخ الصفة في النفس ، ويكثر هذا الغرض في صورة تشبيه المعنويات بالمحسوسات ، ومثال ذلك قول الله تعالى :

﴿لَهُۥ دَعْوَةُ ٱلْحَقِّ وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُم بِشَىْءٍ إِلَّا كَبَـٰسِطِ كَفَّيْهِ إِلَى ٱلْمَآءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَـٰلِغِهِۦ ۚ وَمَا دُعَآءُ ٱلْكَـٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَـٰلٍ ﴿١٤﴾﴾ [سورة الرعد:١٤]

فاستجابة الآلهة المزعومة كاستجابة الماء الذي لايسمع لمن يناديه بالبقاء في كفه المبسوط ، ويقول سيدنا علي رضي الله عنه :

واحرصْ على القلوبِ من الأذى فرجوعُها بعد التنافر يصعبُ
إِن القلوبَ إِذا تنافرَ ودُّها شبه الزجاجةِ كسرُها لا يشعبُ

فالقلوب إذا كسر ودادها ، وانفلق وصالها ، لاتعود صافية تماما ، كما لايعود الزجاج إلى سابق عهده أول الأمر ، ولذلك وجب الحرص عليها حرصك على كل شيء غال من التلف ، ولاحظ هنا أداة التشبيه (شبه) وهي أداة هشة ، ضعيفة ، تكاد تنكسر من فرط ضعفها ، حتى ليخيل للقارئ أنه إذا وقعت على الأرض تهشمت حروفها ، وهذا مناسب جدا للسياق .

وقول آخر :

بـذل الوعـد للأخـلاء سـمحا　　　وأبـى بعـد ذاك بـذل العطـاء

فغدا كـالخلاف يـورق للعيــن　　　ويـأبى الإثـمار كـل الإبـاء

فالمعنى التشبيهي العام ينتهي عند قوله : فغدا كالخلاف ، لكن بيان المقدار يظهر في قوله : يورق للعين ويأبى الإثـمار كـل الإبـاء ، وهـذا يعنـي أن الجملـة الحالية هي التي بينت مقدار هذا الخلاف ،ودرجته .

٤ – إمكانية وجود الصفة في عالم الواقع:

وهو ما يعرف في كتب البلاغة بـ " **بيان الإمكان** " ويكثر هذا الأمر حين يكون المشبه شيئا غريبا ، لا يعهده المخاطب ، **وذلك نحو قول أحمد بن حسين الكاتـب** :

وأرى النّجابـةَ لا يكـونُ تمامُهـا　　　لنجيـبِ قـومٍ لـيسَ بـابنِ نجيـبِ

قمرٌ مـن الفتيـانِ أبـيضُ صـادعٌ　　　لـدُجى الزَّمَـانِ الفـاحمِ الغربيـبِ

وإذا اجْتـداهُ المجتـدونَ فإنَّـه　　　يهـبُ العُـلا في نيلِـهِ الموهـوبِ

دانٍ علَى أيـدي العُفـاة وشاسـعٌ　　　عـن كـلِّ نـدٍّ في العُـلا وضريـبِ

كالبدرِ أفرَطَ في العُلـوِّ وضـوؤهُ　　　للعُصـبةِ السَّـارينَ جِـدُّ قريـبِ

فالقرب والبعد أمران متناقضان ، فشبه ذلك بالبدر الذي يقرب جدا مـن الناس حتى يؤنس ليلهم ، ويبعد جدا عن أن يمسكوه بأيـديهم . وكـذلك قـول المتنبي وهو يصف سيف الولة بأنه فاق الجنس البشري ، مع أنه بشر ، وذلـك في آخر بيت من قصيدته اللامية ، **يقول** :

رماني الدَّهر بالأرزاءِ حتّى … فؤادي في غشاءٍ من نبالِ!
فصرتُ إذا أصابتني سهامٌ … تكسَّرت النِّصال على النِّصالِ
وهَ فما أبالي بالرَّزايا … لأنّي ما انتفعتُ بأن أبالي
وهذا أوّلُ الناعين طرّاً … لأوّل ميتةٍ في ذا الجلالِ
كأن الموتَ لم يفجع بنفسٍ … ولم يخطر لمخلوقٍ ببالِ!
حصانٌ مثلُ ماءِ المزنِ فيه … كتومُ السِّرِّ صادقةُ المقالِ
ولو كان النساءُ كمن فقدنا … لفضِّلت النِّساء على الرِّجالِ
وما التَّأنيثُ لاسم الشَّمس عيبٌ … ولا التذكيرُ فخرٌ للهلالِ
أسيفَ الدَّولة استنجد بصبرٍ … وكيف بمثلِ صبركَ للجبالِ؟
فأنت تعلّمُ النّاسَ التَّعزِّي … وخوضَ الموتِ في الحربِ السّجالِ
وحالاتُ الزمانِ عليكَ شتَّى … وحالكَ واحدٌ في كلِّ حالِ
فإن تفقِ الأنامَ وأنتَ منهمْ … فإنَّ المِسك بعضُ دمِ الغزالِ

يقول أنك متميز و متفرد مع أنك من الأنام لكنك تفوقهم ، وتعلو فوقهم ، والدليل الشاهد على هذا الأمر هو أن المسك – وهو من الدماء التي تستخرج من الغزال – يفوق الدماء ، ويعلو فوقها ، وأين الدماء من المسك ؟

وعلى شاكلته قال البحتري :

خِلالُ النَّيْلِ، في أهلِ المَعالي، … مُفَرَّقَةٌ، وأنتَ لَهَا جُمَاعُ

دَنَوْتَ تَوَاضُعاً، وَبَعدتَ قَدراً، فشَأناكَ انْحِدارٌ، وارْتِفَاعُ
كذاكَ الشّمسُ تَبعَدُ إنْ تَسامى، وَيَدْنُو الضّوْءُ مِنْهَا، والشّعاعُ
وَقَدْ فَرَشَتْ لكَ الدّنيا، مِرَاراً، مَرَاتِبَ، كُلُّهَا نَجْدٌ يَفَاعُ
فَمَا رَفَعَ التّصَفّحُ مِنْكَ طَرْفاً، وَلاَ مَالَتْ بأخْدَعِكَ الضِّيَاعُ

فلو قلت : كيف ينخفض ويرتفع ، وكيف يتواضع ويعلو مجدا؟ إن هذه صفات متضادة ؟ يكون الجواب : لا مانع من ذلك لأن الشمس عالية ، وهي القريبة ، فهي التي لا يصل إليها بشر ، وهي هي التي يداعب ضوؤها بشرة البشر ، وتدخل مساكن الناس كل صباح . فكأن حال الشمس دليل على إمكانية العلو والدنو ، والارتفاع ، والانخفاض .

٥ – التزيين :

وذلك حين يشيع في الذهن صورة قبيحة ، فيأتي التشبيه ليعكس هذه الصورة ، ويبدلها بصورة أجمل ، ويضعها في إطار آخر حيث تحسن ، ومن ذلك قول أبي الحسن الأنباري في ابن بقية لما صلبه عضد الدولة ، والمعروف أن منظر الصلب منظر كريه ، تعافه النفوس ، وتتململ منه الأعين ، لكن الشاعر استطاع أن يرسم هذا المشهد في هيئة محببة لكل ناظر ، **فقال** :

علو في الحياة وفي الممات بحق أنت إحدى المعجزات
ولما ضاق بطن الأرض عن أن يضم علاك من بعد الممات
أصاروا الجو قبرك واستنابوا عن الأكفان ثوب السافيات
كأن الناس حولك حين قاموا وفود نداك أيام الصلات

كأنـــك قـــائم فـــيهم خطيبـــاً وكلـــــه قيـــــام للصـــــلاة
مددت يـديك نحـوهم احتفـاء كمـــــدهما إلـــــيهم بالهبـــات
أسـأت إلى النوائـب فاسـتثارت فأنــــت قتيـــل ثـــار النائبـــات

ومن نماذج تزيين المشبه أيضا قول الشريف الرضي :

أُحِبُّكَ يـا لَـوْنَ الشّـبَابِ، لأنّنـي رَأيــتُكُمَا في القَلْــبِ وَالعَــينِ تَوْأمَــا
سَوَادٌ يَوَدّ البَدْرُ لَـوْ كَـانَ رُقْعَـةً بجِلْدَتِـــهِ، أوْ شُـــقّ في وَجْهِـــهِ فَـــمَا
لَبَغّضَ عندي الصّبْحَ ما كـانَ مُشرِقاً وَحَبّبَ عندي اللّيـلَ مـا كـانَ مُظلِـمَا
سكنت سواد القلب إذ كنت شبهه فلَـم أدرِ مِـنْ عِـزٍّ مَـنِ القَلْـبُ مـنكُمَا
وما كان سهم الطرف لولا سـواده ليَبْلُـــغَ حَبّـــاتِ القُلُـــوبِ إذا رَمَـــى

إنه يشبه حبيبته بحبـة القلـب السـوداء ، وهـي منـاط الحيـاة في الإنسـان وسكناها في القلب جعله يحتـار ، ولا يـدري مـن القلـب ؟ ، أهـي القلـب ، أم القلبُ القلب ؟ !!وكل ذلك من باب تزيين المشبه .

وقال المعري في فضل ونصرة الشيب ، والمشيب على الشباب :

خبريني ماذا كرهت من الشـيب فـــلا علـــم لي بـــذنب المشـــيب
أضياء النهار ، أم وضـح اللؤلـؤ أم كونـــــه كثغـــــر الحبيـــــب
واذكري لي فضـل الشـباب ومـا يجمــع مــن منظــر يــروق وطيــب
غــدره بالخليـل أم حبـه للغـي أم أنـــــه كعـــــيش الأديـــــب

فالمعري هنا ينتصر للمشيب ، فهو النهار ، هو اللؤلؤ ، وهو ثغر الحبيب أما الشباب فيعني في نظر المعري الغدر ، والغي ، والعيش الكدر يقصد عيش الأديب .

٦ – تقبيح المشبه :

بأن يأتي المتكلم بشيء لم يعهد فيه قبحا ، فيرسمه المتكلم في صورة تشبيهية تشمئز منها النفوس ، **ومن ذلك قول أعرابي يصف زوجته :**

لها جسم برغوث وساقا بعوضة	**ووجه كوجه القرد بل هو أقبح**
وتفتح -لا كانت- فما لو رأيته	**توهمته بابا من النار يفتح**
إذا عاين الشيطان صورة وجهها	**تعوذ منها حين يمسي ويصبح**
لها منظر كالنار تحسب أنها	**إذا ضحكت في أوجه الناس تلفح**

وفي الأبيات مجموعة من التشبيهات ، في التشبيه الأول كان المشبه هو الفم والمشبه به : بابا من النار ، وأداة التشبيه جملة : " توهمته " وهذه من أندر السياقات التي تأتي فيها هذه الأفعال لتقوم مقام أدة التشبيه ، أما الصورة التشبيهية الثانية فهي قوله : لها منظر كالنار " وهي صورة غامضة ، لبعد ما بين الطرفين ، لكن الشاعر لم يغفل هذا بل فسرها بصورة تشبيهية ثالثة ، فقال موضحا الجامع بينهما ، " تحسب أنها إذا ضحكت في أوجه الناس تلفح " فجعل ضحكها لفحا من النار ، وهذا من أقبح ما صورت به امرأة .

وقال أبو الطيب :

إن السيوف مع الذين قلوبهم — كقلوبهن إذا التقى الجمعان
تلقى الحسام على جراءة حده — مثل الجبان بكف كل جبان

وحاول أن تردد قوله : " قلوبهم كقلوبهن " لتعلم أن المتنبي يلدغ الرجولة ويقرص كل ما يمدح به الرجال ، وفي البيت الثاني بالغ في الصورة حتى جعل الجبن صفة للحسام ، نعم الحسام يجبن ، ولكن متى ؟ إذا وقع في كف الجبان .

وقال أيضا يهجو :

يمشي بأربعة على أعقابه — تحت العلوج ومن وراء يُلْجَمُ
وجفونُه ما تستقر كأنها — مطروقةُ أو فُتَّ فيها حِصْرِمُ
وتراه أصغرَ ما تراه ناطقا — ويكون أكذبَ ما يكون ويُقسم
وإذا أشار مكلما فكأنه — قرد يقهقه أو عجوز تلطم
يُقْلِي مفارقَةَ الأكُفّ قذالُه — حتى يَكادَ على يد يَتعمم

وراجع التشبيهات وانظر ماذا يفعل الشعر في تقبيح الصورة ، وكيف يصل بها إلى عجب العجب ، فالجفون الراعشة التي لا تستقر تصور بأقبح ما يمكن سماعه ، وتأنف الألفاظ من إعادته ، وراجع أيضا قوله : إذا أشار مكلما ، فهو لا ينطق ، ولكنه يشير ، وحركات كلامه تشبه القرود أو العجائز وفي كل من السخرية ما فيه ، ولا يقتصر الذم وتقبيح الصورة في التشبيه على الناس ، بل قديعمد الشعراء إلى ذم الحيوانات ، والمنازل ، والأحوال ...

ومن ذلك قاله السريّ الرفَّاء في وصف بيته :

لي منـزلٌ كَوِجـارِ الضَّـبِّ أَنزِلُـه	ضَـنْكٌ تَقـارَبَ قُطـراهُ فقـد ضـاقَا
أراه قَالَبَ جسمي حـينَ أَدخُلُـه	فـما أَمُـدُّ بــه رجـلاً و لا سَــاقا
فلسـتُ أعتَـدُّه رِزْقـاً أُسَرُّ بــه	و هـل تُعَـدُّ سُـجونُ النـاسِ أَرزاقـا
أُناشِـدُ الغَيْـثَ أن يَجتـازَه أبـداً	و لامـعَ الـبَرْقِ أن يَغْشـاه إِحراقـا

كل هذه نماذج أريد منها تقبيح المشبه ، والذي أريدك أن تكون على ذكر منه ، أن هذا الذي ذكرته لك من أغراض لا تكمن في التشبيه من حيث هو تشبيه وصورة ، إنما يأتي بها السياق ، ويدل عليها المقام ، وليس للتشبيه فيها من دور إلا أنه الوعاء الذي وضع فيه الغرض فزاده حسنا وبهاءً ، وأضفى عليه روعة وضياءً ، وإطلاق لفظ أغراض التشبيه. إنما هو من التسامح ، لأن التشبيه إطار توضع فيه المعاني فيخرجها من عالم المعقول إلى عالم المحسوس ، فيزيدها بيانا ، ويفيض عليها من أنواره فتظهر بعد خفاء ، ويشتد بيانها بعد خفوت .

أدوات التشبيه

أداة التشبيه هي الآلة الدالة عليه ، وكل ما دل على المماثلة والاشتراك يعد من أدوات التشبيه ، فالأداة هي الخيط الرابط بين الطرفين ، وهذه الأدوات تشمل الحروف ، والأسماء ، والأفعال ، وتختص من بين الحروف في التشبيه الكاف وكأن ، ومن الأهمية بمكان أن تعرف سمات كل أداة ، لتستدعيها دون غيرها عند سياقها الملائم لها ، وأول هذه الأدوات .

❖ الكاف :

حرف الكاف هو أم باب التشبيه ، وهو المرجع ، والمُقدَّر عند حذف أداة التشبيه ، وهذا الحرف في لغة العرب حرف مهموس ، فله صوت عند النطق به وهو حرف شديد ، بمعنى أن الهواء ينحبس معه ثم ينفتح المخرج فيندفع الهواء ليخرج ، (وهذا الحرف – صوته ممطوط ، مخفوتاًبه قليلاً ، ومضغوطاً عليه بعض الشيء – يحاكي صوت احتكاك الخشب بالخشب) .

فهو يجمع بين شئين ، ويحدث بينهما تفاعلا ما ، وهذا هو مضمون التشبيه ، الذي يجمع بين المشبه والمشبه به ، ويُنشئ بينهما علاقة تفيد تلاقيهما عند نقطة محددة ، وانظر مثلا إلى قول الشاعر يمدح رسول الله ﷺ :

أسرى بك الله ليلا إذ ملائكه والرسل في المسجد الأقصى على قدم

لما خطرت بهم التفوا بسيدهم كالشهب بالبدر ، أو كالجند بالعلم

فدلالة الكلام تساندها دلالة الكاف ، في اجتماع الرسل الكرام برسول الله – ﷺ – وحدث هذا التفاعل الجميل، حيث أخذوا منه كما يأخذ الشهاب من البدر ضوءه ، وانضووا تحت لوائه كما ينضوي الجند تحت رايتهم وعلمهم.

وتأتي الكاف في القرآن الكريم بمعنى : مثل ، وشبه ، ويساوي ، ويناظر **وذلك نحو قوله تعالى :**

﴿ فَإِنْ خِفْتُمْ فَرِجَالًا أَوْ رُكْبَانًا فَإِذَآ أَمِنتُمْ فَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ كَمَا عَلَّمَكُم مَّا لَمْ تَكُونُواْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٣٩﴾ ﴾ [سورة البقرة:٢٣٩]

"كما علَّمكم": الكاف هنا بمعنى مثل ، والتقدير : فاذكروا الله ذكرا مثل الذي علمكم ، **ومنه أيضا قوله تعالى :**

﴿..... وَأَحْسِن كَمَآ أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ ..... ﴾ [سورة القصص:٧٧]

ولذلك تدخل في أول الاسم فيقال : زيد كالبحر ، يقول ابن فارس (وأهل العربية يقيمونها مقام الاسم ، ويجعلون لها محلا من الإعراب ، ولذلك يقولون : مررت بكالأسد ، أرادوا بمثل الأسد)(١)وحرف الكاف حرف بسيط ، لذلك كان هو أم باب التشبيه ، والأصل أن يليه المشبه به

❖ **كأن** :

وهي الكاف مضافا إليها حرف التوكيد (إن) على الأرجح ، ولذلك تجمع (كأن) بين التشبيه والتوكيد ، **كما في قول الله تعالى :**

﴿ كَأَنَّهُنَّ ٱلْيَاقُوتُ وَٱلْمَرْجَانُ ۝٥٨ ﴾ [سورة الرحمن:٥٨]

وقوله : (قالت كأنه هو) ، يقول سيبويه : سألت الخليل عن (كأن) فزعم أنها (أن) لحقتها الكاف للتشبيه ، لكنها صارت مع (أن) بمنزلة كلمة واحدة) ، وأكد ابن جني ذلك فقال : في (كأن زيدا عمرو) (اعلم أن أصل هذا الكلام : زيد كعمرو ، ثم إنهم بالغوا في توكيد التشبيه ، فقدموا حرفه في أول الكلام عناية ، وإعلاما بأن عقد الكلام عليه ، فلما تقدمت الكاف ، وهي جارة لم يجز أن تباشر " أن " لأنها ينقطع عنها ما قبلها من العوامل ، فوجب لذلك فتحها ،فقالوا كأن زيدا عمرو) أهـ .

---

١ - الصاحبي لا بنفارس ص ٨٢ .

وتأتي " كأن " لعدة معان ذكرها أهل اللغة ، مثل الظن ، والتحقيق والتقريب ، لكن المعنى الشائع فيها هو التشبيه ، **ومن شواهد ذلك قول الله تعالى** :

﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِهِۦ صَفّٗا كَأَنَّهُم بُنۡيَٰنٞ مَّرۡصُوصٞ ۝٤﴾

[سورة الصف:٤]

حيث شبه الصف المسلم وقت القتال ، والتصاقه ببعضه ، والتحام أجزائه بالبنيان الذي التحمت لبناته حتى صار قطعة واحدة ، وفي ذلك من الصلابة والقوة ما يجعله قادرا على دفع العدوان . **وقوله** :

﴿وَأَلۡقِ عَصَاكَۚ فَلَمَّا رَءَاهَا تَهۡتَزُّ كَأَنَّهَا جَآنّٞ وَلَّىٰ مُدۡبِرٗا وَلَمۡ يُعَقِّبۡۚ يَٰمُوسَىٰ لَا تَخَفۡ إِنِّي لَا يَخَافُ لَدَيَّ ٱلۡمُرۡسَلُونَ ۝١٠﴾ [سورة النمل:١٠]

حيث شبه حركة العصى ، والتوائها بحركة الثعبان ووجه الشبه شدة الاضطراب ، وسرعة الجري ، وقوله :

﴿۞ وَإِذۡ نَتَقۡنَا ٱلۡجَبَلَ فَوۡقَهُمۡ كَأَنَّهُۥ ظُلَّةٞ ....﴾ [سورة الأعراف:١٧١]

وقوله عن الريح :

﴿تَنزِعُ ٱلنَّاسَ كَأَنَّهُمۡ أَعۡجَازُ نَخۡلٖ مُّنقَعِرٖ ۝٢٠﴾ [سورة القمر:٢٠]

وقول الشاعر :

كأنكَ منْ كلِّ النفوسِ مُركبُ فأنتَ إلى كلِّ النفوسِ حبيبُ

تلحظ في كل هذه النماذج مزية التشبيه بـ " كأن " **ومن هذه المزايا** :

- **المبالغة والتوكيد** : فكأن تكون حيث يقوى الشبه حتى يصير المشبه أقرب إلى عين المشبه به .
- **التشبيه من أول الأمر** ، والمسارعة في توصيل دلالة التشبيه إلى ذهن السامع ، **يقول الإمام عبد القاهر** : (إنْ تقصِد تشبيهَ الرجلِ بالأسد تقول : زيدٌ كالأسد ، ثم تريدُ هذا المعنى بعينهِ فتقولُ : كأن زيداً الأسد . فتفيدُ تشبيهه أيضاً بالأسدِ إلاّ أنك تزيدُ في معنى تشبيههِ به زيادةً لم تكن في الأولِ وهي أن تجعلَه من فرطِ شجاعتِه وقوةِ قلبِه وأنه لا يروعُه شيءٌ بحيث لا يتميَّز عن الأسدِ ولا يقصُرُ عنه حتى يُتوهَّم أنه أسدٌ في صورة أدميٍّ ، وإذا كان هذا كذلك فانظرْ هل كانت هذه الزيادةُ وهذا الفرقُ إلاّ بما تُوُخِّيَ في نظمِ اللفظِ وترتيبه حيثُ قدَّم الكافَ إلى صدرِ الكلامِ وركَّبت مع إن) (١).
- أنها تجيء في **التشبيه الغريب** ، **وذلك مثل قول الله تعالى** :

﴿حُنَفَآءَ لِلَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِۦ ۚ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَتَخْطَفُهُ ٱلطَّيْرُ أَوْ تَهْوِى بِهِ ٱلرِّيحُ فِى مَكَانٍ سَحِيقٍ ﴿٣١﴾﴾ [سورة الحج:٣١]

فهذه صورة غريبة لم تألفها العيون ولا الأسماع فكانت الأولى بها كأن لأنها تقربها إلى الأذهان ، وتشفع لها عند التعجب .

١ - دلائل الإعجاز ٢٢٧.

وإذا خفف التشديد في (كأن) ضعفت إفادة التشبيه ، لأن زيادة المبنى تدل على زيادة المعنى ، **ومن ذلك قول الله تعالى :**

﴿ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا وَلَّىٰ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا كَأَنَّ فِىٓ أُذُنَيْهِ وَقْرًا ۖ فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٧﴾ ﴾ [سورة لقمان:٧]

وقوله :

﴿ وَيْلٌ لِّكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ﴿٧﴾ يَسْمَعُ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا ۖ فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٨﴾ ﴾ [سورة الجاثية:٧-٨]

كما تختص " كأن " بأنها تأتي في تشبيه الشيئ بنفسه باعتيارين مختلفين ويكثر ذلك حين تكون مكفوفة بـ " ما " ، أو مخففة من الثقيلة ، أو خبرها فعلا **ومن ذلك قوله تعالى :**

﴿ فَٱصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْعَزْمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِل لَّهُمْ ۚ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوٓا۟ إِلَّا سَاعَةً مِّن نَّهَارٍ ۚ بَلَٰغٌ ۚ فَهَلْ يُهْلَكُ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٣٥﴾ ﴾

[سورة الأحقاف:٣٥]

أدوات التشبيه من الأسماء :

الأصل في الدلالة على المعاني للحروف ، والأصل في الأدوات التشبيهية أن تكون حروفا ، وهذا لا يمنع من مجيء بعض الأسماء حاملة دلالة أدوات التشبيه ، لتحل في بعض التشبيهات محل الحروف ، **ومن هذه الأسماء :**

(مثل – ومماثل – ومشابه – ومحاكي) وما يشتق من هذه الألفاظ ، ومن **ذلك قول الشاعر :**

فَالوَجهُ مثل الصُبحِ مبيضٌ والفَرعُ مِثلَ اللَيلِ مُسوَدٌّ
ضِدّانِ لِما اسْتُجْمِعا حَسُنا وَالضِدُّ يُظهِرُ حُسنَهُ الضِدُّ

في التعبير بالمثل بدلاً من الكاف أو كأن ما يفيد أن المشبه صار متوافقا مع المشبه به في أكثر الصفات ، وأن الصفة المشتركة بينهما وهي البياض بلغت من القوة والاتحاد درجة لا يستطيع الناظر أن يفرق بينهما ، فلفظة " المثل " لا تعنى الشبه العام ، ولكن تعني قوة الوصف ، وهذا شاخص في بياض الوجه والصبح وسواد الشعر والليل ، وقيل إن المثل يكون في تشابه الصفات ، والكاف تكون في تشابه الذوات ، ولذلك لما كان الله تعالى لا يشبهه شيء في ذاته ولا في صفاته جيء بالكاف ، مع المثل ، **وقيل :**

﴿.......لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿١١﴾﴾ [سورة الشورى:١١]

ليدل على انتفاء الشبه في الذات وفي الصفات .

ولعلك تدرك أن اللجوء إلى أدوات التشبيه الأسماء يزيد في قوة الشبه حتى لا تكاد تفرق بين المشبه والمشبه به ، لكن الاسم يزيد على الأداة الثبوت والدوام ، وبقاء الشبه حتى لا ينكره أحد ، **وراجع ذلك في قوله تعالى:**

﴿.....ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوٓا۟ إِنَّمَا ٱلْبَيْعُ مِثْلُ ٱلرِّبَوٰا۟ .....﴾ [سورة البقرة:٢٧٥]

فإنك ترى في الجملة إشارة إلى اعتقادهم أن الأمر مقرر ، وثابت ولا ينكره أحد من الناس ، وهذه أهم دلالات الأسماء ، فكن على ذكر من أن

العدول عن الحروف إلى الأسماء ليس اعتباطا ، أو كيفما اتفق ، وراجع أيضا **قوله تعالى :**

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقۡتُلُواْ ٱلصَّيۡدَ وَأَنتُمۡ حُرُمٞۚ وَمَن قَتَلَهُۥ مِنكُم مُّتَعَمِّدٗا فَجَزَآءٞ مِّثۡلُ مَا قَتَلَ مِنَ ٱلنَّعَمِ يَحۡكُمُ بِهِۦ ذَوَا عَدۡلٖ مِّنكُمۡ هَدۡيَۢا بَٰلِغَ ٱلۡكَعۡبَةِ أَوۡ كَفَّٰرَةٞ طَعَامُ مَسَٰكِينَ أَوۡ عَدۡلُ ذَٰلِكَ صِيَامٗا لِّيَذُوقَ وَبَالَ أَمۡرِهِۦۗ عَفَا ٱللَّهُ عَمَّا سَلَفَۚ وَمَنۡ عَادَ فَيَنتَقِمُ ٱللَّهُ مِنۡهُۚ وَٱللَّهُ عَزِيزٞ ذُو ٱنتِقَامٍ ٩٥ ﴾ [سورة المائدة:٩٥]

تجد أن الأمر ثابت مقرر على الجميع ، ولا فرق بين صيد وصيد ، ولا بين صائد وصائد ، بدليل قوله " ومن قتله منكم " أيا كان .. ثم راجع الأسماء المتتابعة في الآية لتدرك أن الأمر ثابت ، فهو حكم مطبق على الجميع ، ثم قيل : (فجزاء مثل ما قتل) فالمثلية هنا لا تعنى التساوي في القيمة ، بل التساوي في النوع ، والوزن ، والسن ، وغير ذلك مما يحقق المثلية ...

أدوات التشبيه من الأفعال :

قد تحل الأفعال محل أداة التشبيه ، كالفعل (خال – وحسب –) ومن **ذلك قول الله تعالى :**

﴿ ۞ وَيَطُوفُ عَلَيۡهِمۡ وِلۡدَٰنٞ مُّخَلَّدُونَ إِذَا رَأَيۡتَهُمۡ حَسِبۡتَهُمۡ لُؤۡلُؤٗا مَّنثُورٗا ١٩ ﴾ [سورة الإنسان:١٩]

فالمعنى : أنهم كالؤلؤ ، لكن الحسبان هنا يزيد على دلالة الكاف أن صاحبه ينفعل ، ويتعامل معهم على أنهم لؤلؤ ، **ولذلك قيل في قوله:**

﴿قِيلَ لَهَا ٱدۡخُلِي ٱلصَّرۡحَۖ فَلَمَّا رَأَتۡهُ حَسِبَتۡهُ لُجَّةٗ وَكَشَفَتۡ عَن سَاقَيۡهَاۚ .... ﴾ [سورة النمل:٤٤]

وهذا الحسبان نتج عنه ردة فعل أنها كشفت عن ساقيها ، مما يعني

أن الحسبان يستتبع رد فعل ، وحركة من صاحبه ، فلما قيل (حسبتهم لؤلؤا) دل ذلك على أنهم تعاملوا مع الولدان على هذا الحسبان ، وهذه المعاني لاتجدها في الكاف ولا في غيرها .**وترى مثل ذلك في قول الشاعر** :

قومٌ إذا لبسوا الدروعَ حسبْتَها سُحُباً مزرَّرةً على أقمارِ

وفي قول آخر :

إذا غضبت عليك بنو تميم حسبت الناس كلهم غضابا

وقد يقدر الفعل ، حيث لا يصح الكلام إلا بتقدير فعل التشبيه ، ومن ذلك قول هاشم الرفاعي ، وكأنه يصف ثورة مصر العظيمة (ثورة ٢٥ يناير) **حيث يقول** :

إن التصبر دأبنا حتى إذا لم يبق في قوس التصبر منزع

ألفيتنا أسدا يفر أمامها عزم الجبابرة العظام ويركع

أرواحنا يوم الجهاد لك الفدا عن بذلها يامصر لانتراجع

وهناك أدوات أخرى أضافها بعض الشراح ، ، مثل حرف (لعل) في تعليق سيدنا عبد الله بن عباس **على الآية الكريمة** :

﴿وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ ﴿١٢٩﴾﴾ [سورة الشعراء:١٢٩]

قال : معناه : كأنكم . وقال البهاء السبكي : كل ما كان بمعنى مثل وشبهه أداة ، وهذا يعني أن أداة التشبيه تتسع حتى تشمل كل ما دل على معنى التشبيه ، وأفاد دلالة أداة التشبيه .

تقسيم التشبيه باعتبار ذكر الأداة وحذفها .

لاشك أن حضور الأداة في الصورة التشبيهية ، أو غيابها يقف من ورائه دلالات ، وأغراض ، ولقد اعتنى البلاغيون بهذا الأمر ، وقسموا التشبيه على أساس ذكر الأداة أو حذفها ، ووضعوا لكل قسم مصطلحا يعرف به ، وهذه العناية تعني أن ذكر الأداة يرسم صورة تغاير الصورة التي تحذف منها الأداة وليست مهمة الكتاب أن تعرف المصطلح ، ودلالته بقدر اهتمامه بمعرفة الأسرار التي تقف خلف التصريح بالأداة ، وكذا الأسرار التي تقف خلف حذفها .

ودعني أولا أذكرك بأن ذكر أداة التشبيه في الصورة يطلق عليه : التشبيه المرسل .

وحذف الأداة يطلق عليه التشبيه المؤكد .

فالتشبيه المرسل" هو التشبيه الذي ذكرت فيه أداةٌ من أدوات التشبيه والتشبيه المؤكَّد" وهو التشبيه الذي لم تُذْكَرْ فيه أداةٌ من أدوات التشبيه ، وإليك بعض الشواهد التي حذفت منها أداة التشبيه ، ففي الصحيحين من حديث عقبة :

أن رسول الله – ﷺ – قال : « إياكم والدخول على النساء » .

فقال رجل : يَا رسول الله ، أفرأيت الحمو ؟ قال : « الحمو : الموت » .

قال القرطبي في المفهم المعنى أن دخول قريب الزوج على امرأة الزوج

يشبه الموت في الاستقباح والمفسدة أي فهو محرم معلوم التحريم ، وإنما بالغ في الزجر عنه وشبهه بالموت لتسامح الناس به من جهة الزوج والزوجة لإلفهم بذلك حتى كأنه ليس بأجنبي من المرأة ، فخرج هذا مخرج قول العرب الأسد الموت ، والحرب الموت ، أي : لقاؤه يفضي إلى الموت .

وكذلك دخوله على المرأة قد يفضي إلى موت الدين ، أو إلى موتها بطلاقها عند غيرة الزوج ، أو إلى الرجم إن وقعت الفاحشة)[1] فالصورة هنا لا تريد التقريب بين الحمو والموت ، وإنما أرادت الإخبار بأن هذا عين ذلك ، لذلك وضعت الصورة التشبيهية في إطار المبتدأ والخبر ، مع حذف أداة التشبيه ، لتتحد الصورتان في صورة واحدة فالحمو والموت شيء واحد .والعرب إذا أرادت التوحيد بين المشبه والمشبه به جعلتهما في إطار المبتدأ والخبر، **كما قال الشاعر** :

عزماتهم قُضُبٌ، وفيضُ أكفهم سحبٌ، وَبِيضُ وجوههم أقمارُ

وقس عليه قوله تعالى :

﴿نِسَآؤُكُمۡ حَرۡثٞ لَّكُمۡ ....﴾ [سورة البقرة:٢٢٣]

فلفظ " نساؤكم " مبتدأ، والخبر هو المضاف والمضاف إليه (حرث لكم) وتكون أداة التشبيه محذوفة ، والتقدير : كحرث لكم ، وعليه ينبغي تقدير محذوف في المبتدأ أيضا ، أي: وطء نسائكم كالحرث لكم، حيث شبه الجماع بالحرث ، وهذا كثير في اللسان حيث يصور الزواج بالزرع ، وتصور النطفة بالبذرة الملقاة في الأرض ، وتصور الأطفال بالنبت .

١ - تحفة الأحوذي شرح صحيح الترمذي ٤ ٢٨١.

ويذكر وجه الشبه فتتحدد الصفة الجامعة ، حتى لا تـذهب فيهـا العقـول المذاهب فالذكر يحجزك عن التفكير في غير ما يراد كقول زياد بن حَمَل العـدويّ وكان أتى صنعاء فلم يستطبها وحنَّ إلى بلده:

لا حبَّذا أنتِ يا صنعاءُ مِنْ بلدٍ	ولا شعوبُ هوًى منِّي ولا نُقمُ
وحبَّذا حين تُمسي الرِّيحُ باردةً	وادِي أُشيٍّ وفتيانٌ بهِ هُضمُ
الدافعونَ إذا ما جرَّ غيرهمُ	علَى العشيرةِ والكافُونَ ما جرَموا
والمطعمونَ إذا هبَّتْ شآميةٌ	وباكرَ الحيَّ من صُرَّادها صِرَمُ
حتَّى انجلَى حدُّها عنهم وجارهمُ	بنجوةٍ مِن حذارِ الشَّرِّ معتصمُ
همُ البحورُ عطاءً حيث تسألُهم	وفي اللِّقاءِ إذا تلقَى بهمْ بُهَمُ
وهم إذا الخيلُ حالوا في كواثبها	فوارسُ الخيل لا هبْلٌ ولا قزمُ
مُحدَّمونَ ثقالٌ في مجالسهمْ	وفي الرِّجالِ إذا رافقتهم خدمُ
لمْ ألقَ بعدهمُ حيّاً فأذكرَهمْ	إلاَّ يزيدهمُ حبّاً إليَّ همُ

وقد يلزمك السياق أيضا في تحديد الوجه كما في قوله تعالى :

" وترى الجبال تحسبها جامدة وهي تمر مر السحاب " فلفظة الجمود في قوله تحسبها جامدة ، ثم المرور مرور السحاب يلزمك أيضا تقدير وجه الشبه من عالم السرعة ، وهذا يجعلنا ندلف إلى الحديث عن وجه الشبه .

وجه الشبه

المعنى الذي يقصد المتكلم إشراك الطرفين فيه يسمى : وجه الشبه ، سواء ذكر في الكلام ، أو قدّره السامع ، ويكون أمرا واحدا أو أكثر ، والمعلوم أن المشبه

والمشبه به يشتركان في صفة ، أو في عدة صفات ، وكلما دقّ وجه الجمع ، ولطُف علا التشبيه وحَسُنَ في عالم البيان ، فعالم البيان يتودد إلى الغرابة اللطيفة ، التي تثير الذهن وتدفعه إلى العمل والتفكير ، وعالم البيان يستثار بكثرة التفصيلات داخل الصورة لأنها تمثل له غنى في معنى الصورة ، وعلى العكس من ذلك ينفر عالم البيان من الغموض المؤدي إلى العمى ، ومن الابتذال الدافع إلى الضجر ومن الخفاء الذي يسلمك إلى الطلاسم .

المهم هنا أن وجه الشبه هو الوصف الجامع للمشبه والمشبه به ، وهذا الوصف الجامع قد يكون محسوسا ، وقد يكون معقولا ، من الأوصاف المحسوسة **قوله تعالى** :

﴿ وَعِندَهُمْ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ عِينٌ ﴿٤٨﴾ كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَّكْنُونٌ ﴿٤٩﴾ ﴾

[سورة الصافات:٤٨-٤٩]

فالجامع هو البياض ، والبياض شيء تراه العيون ، **وكذلك قوله تعالى** :

﴿ كَأَنَّهُنَّ ٱلْيَاقُوتُ وَٱلْمَرْجَانُ ﴿٥٨﴾ ﴾ [سورة الرحمن:٥٨]

فالجامع الحمرة ، وهي كذلك محسوسة ، لكن الوصف المعقول تراه مثلا **في قوله تعالى**:

﴿ حُنَفَآءَ لِلَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِۦ ۚ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَتَخْطَفُهُ ٱلطَّيْرُ أَوْ تَهْوِى بِهِ ٱلرِّيحُ فِى مَكَانٍ سَحِيقٍ ﴿٣١﴾ ﴾ [سورة الحج:٣١]

حيث ترى تشبيه حال بحال ، ففي الصورة هناك حال المشرك المشتت بين مجموعة من المعبودات ، التي تتنازعه بحال الساقط من السماء تتنازع جسده

وروحه وقلبه الطيور الجارحة ، كل منها ينزع منه جزءا ، فتفرق في حواصلها أو سقط هاويا ممزقا في مكان بعيد سحيق .

وأجمل صور التشبيه ما تستدعي منك التفكر والبحث عن مناطق الوصل بين الطرفين وبخاصة إذا خفيت ، أو تسترت بستائر أسرار الخلق ، ومن أعجب هذه الصور الشبه بين الإنسان وشجرة النخيل ،**فلقد جمع الشاعر بينهما حين قال:**

كنْ كالنخيل عن الأحقادِ مرتفعاً يُؤْذَى برجمٍ فيعطي خيرَ أثمارِ

واصبرْ إذا ضِقْتَ ذرعاً والزمانَ سطا لا يحصلُ اليسرُ إلا بعدَ إعسارِ

وفي الحديث الذي جاء في الصحيحين عن ابن عمر رضي الله عنهما قال : (بينا نحن عند رسول الله ﷺ جلوس إذ أتي بجمار نخلة . فقال النبي ﷺ : إن من الشجر شجرة مثلها مثل الرجل المسلم : لا يسقط ورقها ، أخبروني ما هي ؟ فوقع الناس في شجر البوادي فوقع في نفسي : أنها النخلة فأردت أن أقول : هي النخلة ، ثم نظرت فإذا أنا أصغر القوم سنّا فسكتّ . فقال رسول الله **صلى الله عليه وسلم** : هي النخلة . فذكرت ذلك لعمر .

فقال : لأن تكون قلتها أحب إليّ من كذا وكذا) ونقل ابن حجر عن القرطبي أن وجه الشبه بينهما يدور حول الثبات في كل منهما ، والخير العميم في كل منهما ، والانتفاع بكل منهما حيا وميتا ، وقد جاءت رواية عَنْ اِبْن عُمَر قَالَ : قَالَ رَسُول اللهَّ ﷺ :

" مِثْل الْمُؤْمِن مِثْل النَّخْلَة ، مَا أَتَاك مِنْهَا نَفَعَك " ، وَقَدْ أَفْصَحَ بِالْمَقْصُودِ بِأَوْجَز عِبَارَة . وَأَمَّا مَنْ زَعَمَ أَنَّ مَوْقِع التَّشْبِيه بَيْن الْمُسْلِم وَالنَّخْلَة مِنْ جِهَة كَوْن النَّخْلَة إِذَا قُطِعَ رَأْسهَا مَاتَتْ ، أَوْ لِأَنَّهَا لَا تَحْمِل حَتَّى تُلَقَّح ، أَوْ لِأَنَّهَا تَمُوت إِذَا غَرِقَتْ ، أَوْ لِأَنَّ لِطَلْعِهَا رَائِحَة مَنِيّ الْآدَمِيّ ، أَوْ لِأَنَّهَا تَعْشَق ، أَوْ لِأَنَّهَا تَشْرَب مِنْ أَعْلَاهَا ، فَكُلّهَا أَوْجُه ضَعِيفَة ؛ لِأَنَّ جَمِيع ذَلِكَ مِنْ الْمُشَابِهَات مُشْتَرِك فِي الْآدَمِيِّينَ لَا يَخْتَصّ بِالْمُسْلِمِ ، وَأَضْعَف مِنْ ذَلِكَ قَوْل مَنْ زَعَمَ أَنَّ ذَلِكَ لِكَوْنِهَا خُلِقَتْ مِنْ فَضْلَة طِين آدَم فَإِنَّ الْحَدِيث فِي ذَلِكَ لَمْ يَثْبُت) (١).

والذي يشغلني هنا وينبغي أن يشغلك أيضا أن هناك أوجه شبه بين الأشياء تظهر أحيانا ، وتتخفى أخرى ، والبلاغة العربية تحاول أن تريك أوجه الشبه هذه ، فتراها مرة تظهر في الصورة التشبيهية ، وتراها أخرى تجمع لك المتشابهات في لون آخر مثل مراعاة النظير ، فمراعاة النظير جمع بين المتشابهات والمتناظرات بغير طريق التضاد ، مما يعني أن البلاغة مهمومة بالجمع بين الفروع

---

١ - انظر فتح الباري بشرح صحيح البخاري ١ / ٩٧ قال عبد القادر بن يحيى البصرى فى كتابة "يتيمة العصر فى المد والجزر" أن الله عز وجل لما خلق أدم علية السلام فضلت من خميرة طينتة فضلة فخلق منها النخلة فهى أخت أدم علية السلام وهى لنا عمة وشبهها النبي صلى الله عليه وسلم بالمؤمن ، وقبل الحديث عن هذه الصورة في الحديث الشريف تعال نستطلع بعض ملامح وجه الشبه بين الإنسان والنخلة : فكل منهما منتصب الجذع كل منهما ذكر وأنثى ، ولا تثمر الأنثى إلا إذا لقحت ، ورائحة حبوب لقاحها تشبه رائحة المنى عند الرجال ، وإذا قطعت رأسها تموت مثل الإنسان ، وهذا مغاير لكثير من الشجر ،وإذا قطع سعفها لا تستطيع تعويضه من محله كما لا يستطيع الإنسان تعويض مفاصله ، كما أن النخلة مغطاه بالليف الشبيه بشعر الجسم في الإنسان .

وكل هذا لا يغني عن الوقوف أما حديث النبي صلى الله عليه وسلم ، والذي جاء في الصحيحين عن ابن عمر رضي الله عنهما قال : (بينا نحن عند رسول الله صلى الله عليه وسلم جلوس إذ أتي بجمار نخلة . فقال النبي صلى الله عليه وسلم : إن من الشجر شجرة مثلها مثل الرجل المسلم : لا يسقط ورقها ، أخبروني ما هي ؟ فوقع الناس في شجر البوادي فوقع في نفسي : أنها النخلة فأردت أن أقول : هي النخلة ، ثم نظرت فإذا أنا أصغر القوم سنّا فسكتّ . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : هي النخلة . فذكرت ذلك لعمر . فقال : لأن تكون قلتها أحب إليّ من كذا وكذا).

ذات الجذر الواحد ، أو الجمع بين الهيئات المتشابهة ، أو الجمع بين العناصر المتلاقية في شيء .

إن قضية الجمع ، والضم ، وملاحظة عناصر القربى هم من هموم البلاغة ، لأن علم البلاغة ينطلق من منطلقات الدين ، ومن وكد الدين وهمه الجمع بين الناس ، والربط بين الخلق ، تارة برابطة الجوار ، وأخرى برابطة الرحم ، وثالثة برابطة المصاهرة ، فإن لم يوجد شيء من ذلك جمعهم في الصلاة صفوفا ، وفي الحج جموعا في مكان واحد ، وإلا جمعهم في طاعة من الطاعات ولو كانوا في بيوتهم في وقت واحد مثل الصيام ، وهكذا كان دأب الدين تجميع الخلق ، ومن هنا حرصت البلاغة على صور التجميع ، فجمعت في التشبيه وفي المزاوجة ، وفي الطباق والمقابلة ، وفي مراعاة النظير ، وفي ألوان من البيان كثيرة تحتاج إلى بحث مستقل ، وعين تكشف أوجه الاعتلاق بين هموم الدين وهموم البلاغة ، أو عمل اللسان وعمل القلوب ، فالشجرة واحدة ، والماء الذي يسقيها ماء واحد ، ودعني أضع أمامك نموذجا من هذا الجمع ، وراجع معي **قوله تعالى** : ﴿ **وَٱسْتَعِينُواْ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ ......** ﴾ [سورة البقرة:٤٥]

وقوله :

﴿ **يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسْتَعِينُواْ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّـٰبِرِينَ ١٥٣** ﴾

[سورة البقرة:١٥٣]

حيث جمع القرآن الكريم بين الصبر والصلاة ، في أكثر من موضع فما وجه الشبه بين الصبر والصلاة ؟ وما سر الاقتران بينهما ؟

وأول شيء يخطر على بالك هنا حديث النبي عليه الصلاة والسلام : (الطهور شطر الإيمان..،والصلاة نور ، والصدقة برهان ، والصبر ضياء)رواه مسلم رقم٢٢٣ .

قال ابن رجب رحمه الله :(فهذه الأنواع الثلاثة من الأعمال أنوار كلها لكن منها ما يختص بنوع من أنواع النور ، فالصلاة نور مطلق،أما الصبر فإنه ضياء ، والضياء هو النور الذي يحصل فيه نوع حرارة وإحراق ، كضياء الشمس، بخلاف القمر فإنه نور محض ، فيه إشراق بغير إحراق ، **قال عز وجل:**

﴿ **هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلشَّمْسَ ضِيَآءً وَٱلْقَمَرَ نُورًا** ......﴾ [سورة يونس:٥] (١)

وفي الصلاة راحة للنفس، كما ورد في الحديث (أرحنا بالصلاة يا بلال) وكما في الحديث : (وجعلت قرة عيني في الصلاة)(٢).

وأما الصبر فهو كما ورد في الحديث (الصبر ضياء) والضياء: نور وشيء من الحرارة ، فهو ينير القلب مع ما فيه من ألم ، لكن الصلاة قرة للعين لأنها نور بلا حرارة ، ولابد للمؤمن من صبر خاصة عند البلاء ، ومن أوقات تهدأ فيها نفسه بلا آلام وهي أوقات الصلاة .

تقسيم التشبيه باعتبار وجه الشبه

تتنوع تقسيمات التشبيه باعتبار وجه الشبه إلى أنواع كثيرة ، ولكل منها خصوصيته وجماله ، والبلاغيون ، وهم يتدارسون وجه الشبه التفتوا إلى هذه

---

١ - جامع العلوم والحكم لابن رجب الحنبلي ٢/ ١٦٥.

٢ - صححه الألباني في (صحيح سنن أبي داود :٤١٧١-٤١٧٢).قرة عين للمؤمن ، صححه الألباني في صحيح سنن النسائي رقم ٣٦٨٠.

الأقسام ، ليس رغبة في تكثيرها ، ولكن رغبة في ارتشاف ما وراء كل صورة من سمات تفصلها عن الباقي ، **وأول هذه التقسيمات :**

وجه الشبه بين الذكر والحذف (المجمل والمفصل)

يذكر وجه الشبه فيسمى التشبيه : مفصلا ، ويحذف وجه الشبه فيسمى التشبيه : مجملا ،وبكل قالت العرب ، وحين يحذف وجه الشبه فإما أن يكون الوجه ظاهرا يفهمه كل أحد ، وإما أن يكون خفيا ، يحتاج إلى فكر وتأمل وذلك كقول "فاطمة بنت خرشت الأنمارية" عندما سألها "أبو سفيان" حين قدمت عليه: أي بنيك أفضل ؟ فقالت: الربيع ، لا بل عمارة ، لا بل أنس الفوارس ، ثم قالت في حيرة : ثكلتهم إن علمت أيهم أفضل "هم كالحلقة المفرغة " فتشبيهها الأبناء بالحلقة المفرغة ، يحتاج إلى تأمل وفكر ، لكنها أرادت أنهم متساوون في الأفضلية ، تماما مثل الحلقة المفرغة لاتستطيع أن تفضل جزءًا منها على جزء ، ولا يمكنك أن ترفع شأن بعضها على بعض ، فالأطراف متساوية متعادلة .

وورد في حديث النبي ﷺ ذكر وجه الشبه وحذفه ، ففي حديث (إن من الشجر شجراً مثلها مثل المؤمن) جاء في روايات بدون ذكر لوجه الشبه ، وفي روايات أخرى ذكر النبي ﷺ وجه الشبه فقال : كما في رواية ابن حبان (أصلها ثابت وفرعها في السماء تؤتي أكلها كل حين بإذن ربها) وفي رواية أخرى (لايسقط ورقها) وهذا كله مكونات وجه الشبه .

والذي أريدك أن تقف عنده أن التصريح بوجه الشبه قليل في اللسان العربي ، وذلك لأن الذهن يستحضر عند الجمع بين المشبه والمشبه به وجه الشبه غالبا ، لكن المتكلم قد يعمد إلى التصريح به ليحدده دون غيره مما يشابهه وليمنع المتلقي من استحضار غيره ، مما قد يؤثر على مراده من التشبيه وأوضح لك ذلك في نحو قولهم : إذا علم العالم فلم يعمل كان كالشعلة تضيء للناس وتحرق نفسها .

وحاول أنت أن تقول : إذا علم العالم فلم يعمل كان كالشعلة !!!!

ألا ترى أنه من الممكن فهم غير المراد ؟

إن تشبيه العالم بالشعلة كثير ، وقد يتسلل إلى الذهن المعنى الطيب في الشعلة ، من أنها وسيلة هدى ، وأداة تنوير ، ومصدر هداية ... إلخ .

لكنك حين تنص على وجه الشبه المذكور في العبارة فإنك تحمي المعنى المراد مما يلابسه حتى لا يختلط الأمر على السامع ، فهو كالشعلة ، ليس لأنه ينير للناس فيحمدونه ، ولكن لأنه ينفع غيره ويضر نفسه ، وهذه غاية الحمق ، وكان الصالحون يدعون بدعوة يقولون فيها " **اللهم إني أعوذ بك من أن أكون جسرا يعبر الناس عليه إلى الجنة ثم يرمى به في النار** " ...

ويأتي وجه الشبه في عدة مواقع ، فتارة يأتي في هيئة التمييز ، **مثل قولك** : وجه الحبيب كالقمر صفاء ، و حجة العالم كالشمس وضوحا ، وتارة يأتي مجرورا بحرف الجر ، مثل قولك محمد كالبحر في الجود ، وهو كالأسد في الشجاعة ، **ومن ذلك قول ابن الرومي**:

يا شبيه البدر في الحسـ ـن وفي بعد المنال جُدْ فقد تنفجر الصخـ ـرة بالماء الـزلال

لا حظ هذا التنصيص على وجه الشبه حيث قال(في الحسن وفي بعد المنال) هكذا ، فكأنه يطلب منك عدم الخروج عن هـذا الإطـار في التشـبيه ، إطـار الحسن وبعد المنال ، لأنه لايريد غيرهما هنا ، فالحسناء تشـبه بالبـدر في صـفات أخرى عديدة ، وراجع اللسان العربي في التشبيه بالبدر تجد أغراضا كثيرة **وإليك بعض النماذج :**

كالبدر من حيث التفت رأيته يهـدي إلى عينيك نـوراً ثاقبا

نَهضتْ تَثَنَّى في الكواعبْ كالبَدْر هادَتْه الكواكبْ

فقام مختلفاً كالبدر مطلعاً والظبي ملتفتاً والغصن منعطفا

يا غائباً كالبدر في تمه أما إلى دنياك من مرجع

تَحْمِلُه الناقةُ الأدمَاءُ مُعْتَجِراً بالبُرد كالبدر جَلّى ليلةَ الظُّلَمِ

وَلَدَتْ أغرَّ مُباركاً كالبدر وسْط سمائها

ولا سيما إذ بَراه الإله كالبدر يدعو إليه القلوبا

كالبدر يبدو عليه سكينَةٌ وسكُونُ

وغيرذلك كثير ، لكن شاعرنا ابن الرومي ، ما أراد هذه الأغراض ، إنما أراد فقط ما نص عليه ، وهو الحسن وبعد المنال .

وقد يقتحم الوجه على الطرفين فيخالطهما بحيث لا تحتاج إلى ذكره ،مثل قولك :صفاء المؤمن كصفاء القمر ، وجوده كجود الغيث ... فلفظة الصفاء ولفظة الجود حددت لك وجه الشبه ، وإن لم توضع كل منهما في المكان المعد لوجه الشبه وهكذا .

وقد يكون ذكر وجه الشبه احترازا من تأويل باطل ، أو جنوح عن الحقيقة ومن ذلك آية تشبيه سيدنا عيسى عليه السلام بسيدنا آدم عليه السلام ، يقول العلامة ابن عاشور في تفسيره **لقول الله تعالى** :

﴿ إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٥٩﴾ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴿٦٠﴾ ﴾ [سورة آل عمران:٦٠]

(استئناف بياني : بُيّن به مَا نشأ من الأوهام ، عند النصارى ، عن وصف عيسى بأنه كلمة من الله ، فَضلوا بتوهمهم أنه ليس خالص الناسوت . وهذا شروع في إبطال عقيدة النصارى من تأليهِ عيسى ، وردّ مطاعنهم في الإسلام وهو أقطع دليل بطريق الإلزام ؛ لأنهم قالوا بإلاهية عيسى من أجل أنه خلق بكلمةٍ من الله وليس له أب ، فقالوا : هو ابن الله ، فأراهم الله أنّ آدم أوْلَى بأن يُدّعَى له ذلك ، فإذا لم يكن آدم إلاهاً مع أنه خلق بدون أبوين فعيسى أولى بالمخلوقية من آدمَ ، ومحل التمثيل كون كليهما خُلق من دون أب ، ويزيد آدمُ بكونه من دون أم أيضاً ، فلذلك احتيج إلى ذكر وجه الشبه بقوله : (خلقه من تراب) أي خلقه دون أب ولا أم ، بل بكلمة كن ، مع بيان كونه أقوى في المشبه به على ما هو الغالب) (١).

١ - التحرير والتنوير ٢/ ٢٦٣.

إذن ذكر وجه الشبه في البيان العالي يـراد بـه في الغالـب التنصـيص عليـه وحجز القارئ عن تقدير غيره ، ودفع المعاني الأخرى عـن الخطـور عـلى البـال وكأن الأمر داخل في باب الاحتراس .

أما حذف وجه الشبه من العبارة فيطلق عليه التشبيه المجمل ، ومن أمثلة **ذلك قوله تعالى في سورة القارعة :**

﴿ٱلْقَارِعَةُ ﴿١﴾ مَا ٱلْقَارِعَةُ ﴿٢﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْقَارِعَةُ ﴿٣﴾ يَوْمَ يَكُونُ ٱلنَّاسُ كَٱلْفَرَاشِ ٱلْمَبْثُوثِ ﴿٤﴾ وَتَكُونُ ٱلْجِبَالُ كَٱلْعِهْنِ ٱلْمَنفُوشِ ﴿٥﴾﴾ [سورة القارعة:١-٥]

فالآيات ذكرت المشبه والمشبه به والأداة ، في حين حذفت وجه الشبه فـما الذي يجمع الناس بالفراش المبثوث ؟ وما الذي يجمع الجبال بالصوف المنفـوش ؟ لاشك أن إخراج التشبيهين من سياق السورة يوقع في غمـوض لكـن راجـع السورة كلها ، وانظر عما تتحدث ، إنها تحدثك عن القارعة ، وهي الآلة الضاربة بشدة وبقوة ، حتى تترك ما تضربه مبثوثا ، مطروحا على الطريق أو تذروه كأنـه رماد ، أو تطيح به كأنه صوف منفوش ، أيـا كـان المضرـوب صـخرا أم بشرـا ، صلبا أم رخوا ، الكل يصير من القرع هبابا ، وهنا يأتي حالة الإنسان بعـد القـرع لتصوره الآية كأنه فراش مبثوث ، أي منثور على الأرض وتصوره أيضا بأن مـا به يشبه الاحتراق ، فالقرع أدى إلى الاحتراق ، وحين تمس النار الفراش مالـذي تبقي فيه ؟ وهو الكائن الرقيق ، والعجيب أن الإنسان هو الذي يقدم عـلى هـذا المصير ، **وتذكر حديث رسول الله ﷺ وفيه يقول :**

" مَثَلِي كَمَثَلِ رَجُلٍ اسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهَا جَعَلَ الْفَرَاشُ وَهَذِهِ الدَّوَابُّ الَّتِي فِي النَّارِ يَقَعْنَ فِيهَا وَجَعَلَ يَحْجُزُهُنَّ وَيَغْلِبْنَهُ فَيَتَقَحَّمْنَ فِيهَا قَالَ فَذَلِكُمْ مَثَلِي وَمَثَلُكُمْ أَنَا آخِذٌ بِحُجَزِكُمْ عَنْ النَّارِ هَلُمَّ عَنْ النَّارِ هَلُمَّ عَنْ النَّارِ فَتَغْلِبُونِي تَقَحَّمُونَ فِيهَا. "(١)

لكن الذي يشغلني هنا هو حذف وجه الشبه ، لأن حذف وجه الشبه يُبقي الباب مفتوحا لكثير من المعاني التي تحملها الصورة مثل : الاحتقار والهوان لهذا الانسان ، والاضطراب والتداخل ، والسير على غير هدى ، وأعود إلى سورة القارعة **لنكشف الغطاء عن صورتين من التشبيه** :

- الأولى منتزعة من عالم الناس:"الناس كالفراش المبثوث" .
- والأخرى منتزعة من عالم الطبيعة:"الجبال كالعهن المنفوش" .
- وكلاهما يرسم في النهاية مشهدا واحدا يجمع الإنسان والجماد وقت الرعب الرعيب يوم القيامة ، وماذا يحدث لكل منهما ، لكن اللافت هنا هو اختيار الجبال مع الإنسان ، في تصوير المشهد ، ما الذي يجمع بين الناس والجبال ؟ وأرى أن وجه ذلك أن كلا منهما يتحول إلى شيء متفرق خفيف الوزن ، لا يثبت على قرار ، فالإنسان يتحول إلى فراش مبثوث والجبال تصير كالعهن المنفوش ، وكل منهما يطير في الجو ، ثم يتساقط بلا قيمة ، وهو الذي كان وكان في الدنيا ، وعاود استحضار وزن الجبال

١ - صحيح مسلم ١١/ ٣٩٩.

وشموخها لتعرف قيمة التشبيه ، وماذا فعل بالطرفين ، **و تذكر قول الفرزدق** :

أحلامنـا تــزن الجبــال رزانــة وتخالنــا جنــا إذا مــا نجهــل

فــادفع بكفــك إن أردت بناءنــا ثهــلان ذا الهضــبات، هــل يتحلحــل

وجه الشبه بين التحقيق والتخييل

وجه الشبه إذا وجد في الطرفين حقيقة فهو القسم الأول ، **ومثالـه : قولـه تعالى :**

﴿وَمِنۡ ءَايَٰتِهِ ٱلۡجَوَارِ فِي ٱلۡبَحۡرِ كَٱلۡأَعۡلَٰمِ ٣٢﴾ [سورة الشورى:٣٢]

فالضخامة ، والعظمة صفة متحققة في السفن ، ومتحققـة في الجبـال دون ادعاء أو مبالغة ، ومن هنا كان الوجه تحقيقي ، ولك أن تسأل ، وما وجه البلاغة في ذلك ؟

وأجيبك بأن العظمة هنا أن تستحضر هذه الضخامة فوق الماء ، وأن تنظر إلى هذه العظمة وهي تسير ،وتشق عباب الماء ،وتحمل فوق ظهورهـا مـا تحمـل وتنتقل في يسر وسهولة من بلد إلى بلـد ، والعـين لا تعجـب مـن مسـير الشـئ الصغير ، ولا تلتفت إلى تحرك الشيء الخفيـف ، أمـا أن يتحـرك الجبـل ، وتسـير السفن الضخمة فهذا عجيب ، ويزيدها عجبا أنها تسير فوق الماء ، فكان القصـد إلى التعجيب من هذه الضخامة المتحركة ، لذلك جيء بالمشبه والمشبه به ، ووجه الشبه (كل ذلك في دائرة الحقيقة المنظـورة) فالعجـب في رؤيتهـا مشـاهد عـلى الحقيقة .

أما التخييل في وجه الشبه فيعني أن الصفة لا يمكن وجودها في المشبه به إلا على التأويل ،فالتخييل من الخيال ، ولفظة الخيال تضاد الحقيقة ، والواقع – وأنا في هذا الكتاب أعتمد المثال القرآني كنموذج رئيس لتوضيح القاعدة – أن هذا يؤدي إلى مذلق من مذالق التأليف ،لذلك كان لا بد من وقفة لتمحيص المراد بالتخييل في المثال القرآني أو النبوي .

بداية لا بد من الإشارة إلى أن الصورة في القرآن الكريم صورة حقيقية صورة واقعية ، تحدثنا عن واقع ، وأحداث قد حدثت بالفعل ، لكنها مع هذا صورة فنية تظهر هذا الواقع في أبهى صورة ، **مما** يعني أن الصورة القرآنية تمتاز بالصدق سواء في الواقع أو في الفن ، وأعني بالصدق الواقعي أن كل حدث فيها حقيقي ، وليس فيه اختراع ، وأعني بالصدق الفني أن كل جزء فيها قد حمل من الجمال والدقة والروعة والبيان والإبداع في التصوير والقوة في التأثير ، وهذا عكس ما يدعيه المرجفون من أن الصورة القرآنية فيها صدق فني فقط (١).

ولابد أن تكون على ذكر من أن القرآن الكريم ليس كالشعر ، وليست مهمته الأولى كمهمة الشعر من إمتاع وتأثير، بل القرآن الكريم كتاب هداية ودستور للناس ، ويستتبع هذه التوطئة الحديث عن الخيال فما الخيال ؟

١ - الفن القصصي في القرآن الكريم لمحمد أحمد خلف الله ص ١٣٧.

الخيال قدرة تربط بين الأشياء المتباعدة ، فتريك ما لا يمكن ممكنا وهو طريقة فنية في التعبير ، هدفها التأثير على المتلقي ، ولا مانع من وجوده في في النص المعجز ،وقد جعله الشهيد سيد قطب قاعدة للتصوير الفني في القرآن الكريم ، حيث يثير خيال السامع ليستقبل المعنى بكل ما لديه من حس ووجدان وفكر وشعور ، **وراجع مرة ثانية قول الله تعالى:**

﴿ مَّثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمْۖ أَعۡمَٰلُهُمۡ كَرَمَادٍ ٱشۡتَدَّتۡ بِهِ ٱلرِّيحُ فِي يَوۡمٍ عَاصِفٖۖ لَّا يَقۡدِرُونَ مِمَّا كَسَبُواْ عَلَىٰ شَيۡءٖۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلضَّلَٰلُ ٱلۡبَعِيدُ ١٨ ﴾ [سورة إبراهيم:١٨]

تجد شعورك وفكرك يستحضر هذا الرماد وهو ساكن ثم ينظر إلى ريح قادمة عاتية عاصفة فلا تترك ذرة من الرماد إلا أطاحت به ، وهيجته من مكانه وتجد من وراء هذا المشهد مشهدا آخر مستوراً يرسمه أيضا الخيال ، وهو مشهد صاحب الرماد الذي يأمل في الانتفاع به في زرع أو بناء ، ثم هو بعد هذا لا يجد شيئا مما تأمله، وحاول أن تترك لخيالك مساحة ليعيد رؤية الصورة ، ويضع لها بعض التفاصيل التي لم تذكر ، وسترى عجبا ،واصنع مثل ذلك في باقي الآيات مثل " ومن يشرك بالله فكأنما خر من السماء ...إلخ.

التشبيه بين القرب والبعد والابتذال

وهذا تقسيم آخر لوجه الشبه ، لأن وجه الشه قد يقرب حتى يدركه كل أحد ، فيكون مبتذلا ، وقد يتضح ، ولا يفقد قيمته فيكون قريبا ، وقد يبعد حتى يحتاج إلى تأمل وتفكير شديد مما يؤدي إلى غموضه ، وللمقام دور كبير في القرب والبعد ، فقد يكون المعنى دقيقا ، لكن كثرة الاستعمال تدفعه إلى عالم

الابتذال ، وذلك نحو قول العباسي الصولي هاجياً :

فكن كيف شئت وقل ما تشاء … وأبرق يمينا وأرعد شمالا

نجا بك لؤمك منجا الذباب … حمته مقاذيره أن ينالا

وهناك فرق بين الوجه القريب والوجه المبتذل ، لأن القرب يعني سرعة حضور المعنى إلى العقل عند قراءة الجملة ، سواء كثر استعمال الصورة أم قل لكن الابتذال يعني كثرة الاستعمال إلى الحد الذي تحفظه الألسنة ، كما يقال فلان كحاتم في الكرم ، وهند كالبدر في الجمال .... إلخ ، فالسامع يتحول من المشبه إلى المشبه به دون عناء ، ولا تدقيق فكر ، لأن وجه الشبه باد لكل ذي عينين .

ولكن ما الأسباب الداعية إلى اعتبار التشبيه من التشبيه المبتذل ؟

قد يكون الإجمال وقلة التفصيل هو السبب لأن الوجه يهجم عليك هجوما فلا ترى من ورائه فكرا ، ولا مشقة ، والنفس تنفر من القريب ، وتعتبره خالي القيمة ،لأنه في متناول كل ناظر .

وقد يكون السبب كثرة الاستعمال ، ومروره على كل لسان حتى استهلك وضرب العلماء مثلا لذلك بتشبيه المحبوب بالغزال ، وتشبيه الإنسان الحمول بالحمار ، وتشبيه الوفي بالكلب ، وهذا الابتذال كثير في التراث العربي ، ليس لأن الصورة قريبة ، ولكن لأن القارئ ألفها وأكثر من ترددها ، حتى صارت عنده قريبة مبتذلة ، لكن الأديب الأريب يستطيع بفنه إيجاد طريقة للخروج من هذه الحالة ، فترى القريب بعيدا ، والمبتذل نادرا حسنا وفيه من الدقة والروعة ما يرفعه إلى عالم المفردات .

ومن هذه الوسائل الجمع بين عدة صور في تركيب واحد كقول امرئ القيس يصف فرسه :

لَـهُ أَيْطَـلاَ ظَبْـيٍ وَسَـاقَا نَعَامَـةٍ وَإِرْخَـاءُ سِرْحَـانٍ وَتَقْرِيـبُ تَتْفُـلِ

فالشاعر هنا استطاع أن يخرج من الصورة المكررة بطريقة ماتعة حيث زاد في مساحة الصورة ، فلم يقتصر على الظبي بل ضم إليه النعامة والذئب وولد الثعلب ، فجاءت الصورة التشبيهية مليئة بالألوان ، مما أضفى عليها طرافة ورونقا ، **ويقول آخر :**

عَزَمَاتُـهُ مِثْـلُ النُّجُـومِ ثَوَاقِبـاً لَـوْ لَمْ يَكُـنْ لِلثَّاقِبَـاتِ أُفُـولُ

فأصل الصورة تشبيه عزماته بالنجوم ، في لمعانها وعلو شأنها ، لكنه اشترط شرطا في المشبه به رفع من قيمة التشبيه وأخرجه من عالم الابتذال إلى عالم الفن الماتع الجديد ، وهو أن النجوم الثاقبات يأيها وقت فتغيب عن الأنظار وهذا الغياب والأفول عيب تذم به ، لكن عزمات الممدوح على نقيض ذلك .

البعيد الغريب:

يقال عن التشبيه إنه بعيد غريب إذا جمع بين طرفين يندر الجمع بينهما كأن يكون المشبه من عالم يختلف عن عالم المشبه به ، فيكون الانتقال من الطرف الأول إلى الطرف الثاني شاقا ، أو يكون وجه الشبه لا يتبين للوهلة الأولى فيحتاج إلى فكر وروية ، مما يعني ندرة حضور المناسبة بين الطرفين ، ومن ذلك **قول امرئ القيس :**

حَمَلْـتُ رُدَينيّـاً كَـأَنَّ سِـنَانَهُ سَـنَا لَهَـبٍ لَمْ يَتَّصِـلْ بِـدُخَانِ

وراجع الصورة تجد المشبه من عالم الحديد ، والمشبه به من عالم النيران وهما عالمان مختلفان ، ويندر الجمع بين طرفين منهما ، كما أن الشاعر لم يشبه السيف على الجملة ، وإنما ذكره ليتوصل من خلاله إلى مراده وهو السنان فكأن ذكر السيف مرحلة تمهيدية لذكر التشبيه ، فقال : كأن سنانه سنا لهب وهنا ترى التشبيه بين طرفين طرف السيف وطرف اللهب ، فكأنه تشبيه بين سنان وسنان ، وهذا يعني أننا أمام صورتين ، أضمرت الأولى في النفس ، وهي تشبيه السيف بالنار ، أو الرديني باللهب وهذه الصورة ترك للقارئ استنباطها والبناء عليها ، وصرح بالثانية وهي تشبيه سنان السيف بسنا اللهب ، واعلم أنه لا يمكن التوصل إلى الصورة الثانية إلا باستحضار الصورة الأولى ، وتمكينها في النفس وهذه لفته ماتعة وقدرة فائقة على اختزال المعاني ، ثم زاد شيئا آخر توج به الصورة وهو لون الطرفين ، حيث جعله لهبا خالصا لا شبهة دخان فيه وهذا اللون أضاف إلى المعنى حركة وسرعة وقدرة على التأثير بحيث يكاد السنان يقطع قبل أن يمس المقطوع ، تماما مثل اللهب الذي يحرق قبل أن يصل وهكذا ترى الصورة تكتنز بالمعاني حتى تشبعك .

ومنه قول الشاعر :

زوامل للأشعار لا علم عندهم بجيدها إلا كعلم الأباعر
لعمرك ما يدري البعير إذا غدا بأوساقه أو راح ما في الغرائر

ليست الغرابة في تشبيههم بالأباعر هكذا غفلا ، كلا إنما مكونات الصورة وظلالها هي التي أضفت عليها الغرابة ، **وأول هذه المكونات :**

أنه يشبه علماً بعلم ، وراجع قوله (لا علم عندهم إلا كعلم) فمرتكز الصورة هو تشبيه علم بعلم ، والعلم المراد هنا هو علم الشعر ، وبخاصة تمييز الجيد فيه من الرديئ **والمكون الثاني** : هو مصاحبتهم للأشعار ، ومداومتهم على قراءتها ، وهذا يعيدالقارئ إلى الآية القرآنية **وقول الله تعالى:**

﴿ **مَثَلُ ٱلَّذِينَ حُمِّلُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ ٱلْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًۢا ۚ بِئْسَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ۚ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ** ﴿٥﴾ ﴾ [سورة الجمعة:٥]

ولا تنس أن الشاعر حين يعيدك إلى الآية إنما يعيدك إلى كل ما فيها وراجعها مرة ثانية لتعلم أنه أراد معاني كثيرة محملة بالذم والتشهير ، والمكون الثالث هو إضافة هذا البيت الثاني ، والذي يطيل فيه معنى البلاهة والغباء لهؤلاء ، ويبدؤه بالقسم ، ويعيد لفظ البعير ليؤكد على المعنى ويلح عليه ولا تنس أن البعد والغرابة لا تعني القدح في الصورة ، بل ندرتها ، وكثرة مافيها من ماء التشبيه .

ومن التشبيه البعيد أيضاً قول الفرزدق :-

(يَمْشُونَ فِي حَلَقِ الْحَدِيدِ كَمَا مَشَتْ   جُرْبُ الْجِمَالِ بِهَا الْكُحَيْلُ الْمُشْعَلُ)

يقول ابن الأثير: (شبه الرجال في دروع الزرد بالجمال الجرب وهذا من التشبيه البعيد لأنه إن أراد السواد فلا مقاربة بينهما في اللون لأن لون الحديد أبيض ومن أجل ذلك سميت السيوف بالبيض ومع كون هذا التشبيه بعيدا فإنه تشبيه سخيف) .

ولعلك تدرك أن ابن الأثير ابتعد عن الصورة كثيرا ، لأن الفرزدق لم يشبه الرجال في دروع الزرد بالجمال الجرب !!!

بل شبه مشياً بمشيٍ وراجع (يمشون كما مشت) فالمشبه مشي الرجال والمراد من المشي في حلق الحديد أنهم يمشون في الأمر العظيم بجد ونشاط رغم الصعوبات ، وكأنهم مدفوعون دفعا ، مثل مشي الجمال الجرب ، وهنا يلحظ هيئة الحركة السريعة النافرة ، الرافضة للسكون ، وزاد من تأجج هذه الحركة طلاؤها الكحيل المشعل ، والكحيل مادة كالقطران تطلى بها جلود الإبل اتقاء الجرب ، أو لمعالجة الجرب ، والمشعل أي : المنتشر على أعضائها في كل وجه والعرب يقولون أشعل في إبله القطران ،أي : طلاها به وأكثر ، مما يعني أن هذا الكحيل يؤلمها فتتحرك حركة مضطربة ، وكل هذا يرسم لك صورة حركة الرجال الماشين في حلق الأمر العظيم بجد وتصميم وقوة .

هذا ما تراه في صورة الفرزدق التي أهال التراب عليها ابن الأثير ، وزعم أن التشبيه بين الرجال والجمال ، وهذا خطأ ، ثم جعله تشبيها بعيدا لأن الحديد أبيض ، ولا أدري متى كانت حلق الحديد بيضا ، ثم ختم ذلك كله بأنه سخيف هكذا والسلام !! ولعل من الحسن هنا أن أذكرك بشيء من القصيدة التي ذكر فيها هذا البيت ،والتي استجادها النقاد العرب وراجع في ذلك كتاب الكامل في اللغة والأدب للمبرد وخزانة الأدب للبغدادي ، وشرح ديوان المعاني للواحدي ، وغيرهم ، **يقول الفرزدق :**

إنّ الذي سَمَكَ السّماءَ بَنى لَنَا　　بَيْتاً، دَعَائِمُهُ أعَزُّ وَأطْوَلُ
بَيْتاً بَنَاهُ لَنَا المَلِيكُ، ومَا بَنى　　حَكَمُ السّمَاءِ، فإنّهُ لا يُنْقَلُ

بَيْتـــاً زُرَارَةُ مُحْتَـــبٍ بِفِنَائِـــهِ، وَمُجَاشِـعٌ وَأَبُـو الفَـوَارِسِ نَهْشَـلُ
يَلِجُونَ بَيتَ مُجَاشعٍ، وَإِذا احتبـوْا بـــزُوا كَـــأَنّهُمُ الجِبَـــالُ المُثّـــلُ
لا يَحْتَبِـي بِفِنَـاءِ بَيْتِـكَ مِـثْلُهُمْ أَبـداً، إذا عُـدّ الفَعَـالُ الأَفْضَـلُ
مِنْ عِزِّهِمْ جَحَرَتْ كُلَيبٌ بَيتَها زَرْبـاً، كَـأَنّهُمُ لَدَيْـهِ القُمّـلُ
ضَرَبتْ عَليكَ العنكَبوتُ بنَسْجِها، وَقَضَى عَلَيكَ بِهِ الكِتابُ المُنْزَلُ
أَينَ الّذِينَ بِهِمْ تُسَامي دارماً، أَمْ مَـنّ إلى سَلَفَيْ طُهَيّةَ تَجعَـلُ
يَمْشُونَ في حَلَقِ الحَديدِ كما مَشتْ جُـرْبُ الجِمالِ بها الكُحَيلُ المُشعَلُ
وَالمـانِعُونَ، إذا النّسـاءُ تَرَادَفَـتْ، حَـذَرَ السِّبَاءِ جِمَالُهَـا لا تُرْحَـلُ
يَحمي، إذا اخترُطَ السّيوفُ، نِساءنا ضَرْبٌ تَخِرّ لَهُ السّوَاعِدُ أرْعَلُ

التشبيه بين الحسن والقبح

وقد يصاحب البعد غرابة تسلم إلى القبح ، وتقدح في الصورة رغم صدقها ، وقد يغفل الأديب فيسئ من حيث أراد الإحسان ، ولقد تنوعت أسباب القبح في صور التشبيه ،حتى عدت بعض الصور أمارات على المجالس السمر والتندر ، فتذكر هذه الصور كمثلٍ للقبح والسوء ، وعلى الجانب الآخر تعددت ملامح الحسن في بعض صور التشبيه حتى عدت نموذجا يحتذيه كل مبدع ، ومن النماذج التي سار بها الركبان في القبح **قول الشاعر** :

بل لو رأتني أخت جيراننا إذ أنا في الدار كأني حمار

لقد أراد أنه خادم للكل ، لا يرد لأحد حاجة ، سهل العريكة ، حمال للهموم ، يتجلد للشدائد ، لا يشكو من شيء ، إلى آخر هذه الصفات التي تحمد في الرجال ، لكن الشاعر وضع هذه الصفات كلها في مشبه به يذكره الناس بالبلادة ، والاحتقار ، والرضى بالهوان وهو الحمار ، حتى قال قائلهم وهو المتلمّس :

إنَّ الهوان حمار البيت يألفه ... والحرُّ ينكره والفيل والأسد

ولا يقيم بدار الذُّلِّ يألفها ... إلاَّ الذَّليلان عير الحيِّ والوتد

هذا على الخسف مربوطٌ برمَّته ... وذا يشجُّ فما يأوي له أحد

ومن صور التشبيه القبيح ما نسب إلى علي بن الجهم أنه قدم على المتوكل – و كان بدويًّا جافياً – **فأنشده قصيدة قال فيها:**

أنت كالكلب في حفاظك للود ... وكالتيس في قراع الخطوب

أنت كالدلو لا عدمناك دلواً ... من كبار الدلا كثير الذنوب

وفي البداوة جفاء يعرفه كل عربي ،والبيتين حين تراجعهما ترى فيهما صدقا ، وإن كان اختيار المشبه به يهوي بهما في قاع الصور التشبيهية ، فما رأينا أحدا مدح مثل هذا المدح ، ولا خاطب خليفة بمثل هذا الخطاب ، ولكن ماذا تفعل و " الأعراب أشدكفرا ونفاقا وأجدر ألا يعلموا حدود ما أنزل الله على رسوله " ، المهم أن الخليفة أدرك هذه البداوة ، وصدق الشاعر في مدحه لأنه وصف ومدح بما يعرف ، وهل هناك في عرف البداوة أحفظ من الكلب للوفاء والود ؟ ! ، وهل هناك أشد قوة من التيس عند أهل الصحراء في النزال

وهو الذي يهجم برأسه ،وإن كان عدوه صخرا ؟ ! وهل هناك في عرف الصحراء أكثر خروقا من الدلو العظيم ؟ ! .. إنها جميعا تعبير عن حياة لم ير الشاعر غيرها لذلك قيل إن الخليفة المتوكل أمر له بدار حسنة على شاطئ دجلة فيها بستان يتخلله نسيم لطيف و الجسر قريب منه، فأقام ستة اشهر على ذلك ثم استدعاه الخليفة لينشد، فقال:

وقائع حبّ حاد في كرها فكري	فمن حسدٍ تمشي ومن أدمعٍ تجري
ولاحٍ ثقيلٍ في مليحٍ ممنعٍ	فيا لكَ من أحدٍ لديّ ومن بدر
يظلّ أبا جهلٍ عليّ بجهله	وأمسي بأوصاف السقام أبا ذرّ
وأغيد في فيه المدام ولحظه	وفيّ وفي أعطافه نشوة السكر
تداويت من ألحاظه برضا به	كما يتداوى شاربُ الخمر بالخمرِ
ونزهت فكري في بدائع حسنه	وفي عقلِ عذالي على أنها تغري
تبارك من أنشا بخديه زخرفاً	وسبحان من أنشى عذولي بلا حجر
لعمري لقد قاس الهوى نحو صبوتي	مقاييسَ لم تعبأ بزيدٍ ولا عمرو
وأنفقت عمري في المليح محبة	فان يسلني عذل فيا ضيعة العمر
واني لعذري الصبابة ان روت	حديث الاسى عني الدموع فمن عذري
تسابق بيض المزن حمرُ مدامعي	فتسبقها والسبق من عادة الحمر
ويسهرني ومضُ البروق كأنما	تبسم في لعس السحائب عن ثغر
أما ومليح العصر انك بالبكى	و بالسهد يا إنسان عيني لفي خسر

معنـى بوسـنان اللـواحظ سـارق		كرى مقلني من حيث أدري ولا أدري
يجـرّ بنـون الصـدغ قلبـي للأسـى		و ما خلت أن النون من أحـرف الجـر
يقابــل دمعــي باســماً فكــأنما		يـنظم مـا أملـت جفـوني مـن النثر
ومــا لي لا أبكــي عــلى درّ مبسـم		كما بكت الخنسـاء قـبلي عـلى صـخر
وأجري عيون الدمع فائضـة عـلى		عيـون المهـا بـين الجزيـرة والجسرـ
ظبـاء بشـطي نيـل مصرـ لأجلهـا		يقول حنـين الشـوق آهـاً عـلى مصرـ
خلـيليَ شـابت في النــواظر لمتــي		و شب الأسى نار التذكر في صدري
فـلا تنكـرا تعبـيس وجهـي فـانما		تنقــل ذاك الابتســام إلى شــعري
وزالت بصبح الشيب عني خلني		فكان زوال الشمس للصبح لا الظهر
ويــارب ليــلٍ كــان لي بكؤوســه		و مبســـمه ســـلك يـــنظم بالـــدر
تــولى ووافى بــالهموم كــدملٍ		أكابــده في الحــالتين بــلا فجــر
كــأن النجــوم المــائلاتِ بأفقــه		مفـارق شـيب لا تسرّـ ولا تسرـي
سقى الله أيام الشباب التي خلت		من السحب أحلى ما يسيل من القطر

وظل ابن نباتة يسترسل في شعره حتى قال المتوكل: أوقفوه، فأنـا أخشـى أن يذوب رقة و لطافة ....

ومن نماذج التشبيه القبيح أيضا قول الشاعر :

وأركــب في الــروع خيفانــة		كســا وجههــا ســعف منتشرــ

فالشاعر يحدثنا عن فرس معدة للقتال خاصة ، سريعة الحركة ، لكنه أساء حين جعل الشعر الذي في غرتها مثل سعف النخيل ، وزاد في سوأته حين جعله يكسو الوجه ،حيث شبه شعر الناصية بسعف النخلة ، وشتان بين الأمرين ثم زاد في القبح حين جعل هذا الشعر يغطي الوجه ، وينتشر عليه ،وهذا غير حميد في كرائم الخيل ، لأنه يحجب النظر .

التشبيه الحسن :

يحسن التشبيه إذا حسن الجمع بين الطرفين ، وزاد المشبه وضوحا بالمشبه به ، ورأيت في الربط بينهما أريحية لا تراها في إفراد كل منهما عن الآخر وأضرب لك مثالا ، ترى في الجمع بين شيئين لا يكاد العقل يجمع بينهما ، وهما مدينة الرسول ﷺ ، والكير الذي يوقد على الحديد ، طرفان يصعب على الذهن ضمهما في صورة واحدة ، ولكن اسمع ما قاله النبي ﷺ ، فعن جابر بن عبد الله أن أعرابيا بايع رسول الله ﷺ على الإسلام فأصاب الأعرابي وعك بالمدينة فأتى النبي ﷺ فقال يا رسول الله أقلني بيعتي ، فأبى ثم جاءه فقال: أقلني بيعتي ، فأبى ثم جاءه فقال: أقلني بيعتي ، فأبى ... فخرج الأعرابي فقال رسول الله ﷺ "إنما المدينة كالكير تنفي خبثها وينصع طيبها".

"ينصع": "هو بفتح الياء والصاد المهملة، أي يصفو ويخلص ويتميز والناصع الصافي الخالص، ومنه قولهم ناصع اللون أي صافية وخالصة، ومعنى الحديث: أنه يخرج من المدينة من لم يخلص إيمانه، ويبقى فيها من خلص إيمانه"....

يقول القرطبي في تعليقه على هذا الحديث (هذا تشبية واقع ؛ لأن الكيرَ لشدَّة نفخه ينفي عن النار السخام ، والدخان ، والرَّماد ، حتى لا يبقى إلا خالصُ الجمر والنار . هذا إن أراد بالكير المنفخ الذي ينفخ به النار وإما أراد به الموضع المشتمل على النار ، وهو المعروف عند أهل اللغة ، فيكون معناه : أن ذلك الموضع لشدَّة حرارته ينزعُ خبث الحديد ، والذهب ، والفضة ويخرج خلاصة ذلك . والمدينة كذلك بما فيها من شدة العيش ، وضيق الحال تخلص النفس من شهواتها ، وشرهها ، وقيلها إلى اللذات ، والمستحسنات فتتزكى النفس عن أدرانها ، وتبقى خلاصتُها ، فيظهر سرُّ جوهرها ، وتعم بركاتها ، ولذلك قال في الرواية الأخرى : ((تنفي خبثها ، وينصع طيبها)) .(1) **ومنه قول ابن المعتز :**

كأنا وضوء الصبح يستعجل الدجى ... نطير غرابا ذا قوادم جون

ودعني أضع يدك على الطرفين حتى تشاركني الإحساس بروعة الصورة فالمشبه هنا هو ظلام الليل حين يظهر فيه ضوء الصبح ، والمشبه به هنا هو طيور الغربان التي يظهر في مقدم ريشها بياض ، لكن هناك حركة داخل الصورة وهي حركة الصبح وهو يدفع الظلام دفعا ، بحركة المتعجل خروجه من الساحة ليحل هو محله ، ومن عجيب أن الشاعر وهو يبني الصورة اختار تقديم الفعل في جملة (نطير غرابا) والأصل : غرابا يطير ، لكن تقديم الفعل ، وجعل لفظ

1 - المفهم لما أشكل من صحيح مسلم للقرطبي 11/ 39.

"غرابا " تمييزا أعطى معنى السرعة في الطيران ليتناغى مع قوله من قبل (يستعجل الدجى) ثم راجع المشهد مرة أخرى لتلحظ زوال الموت ومجيء الحياة ، زوال السكون ومجيء الحركة ، زوال الهم ومجيء الفرج والسعد ، وكل هذا في حركة دافعة عازمة على التخلص من الهموم ، وكأنها تجدد الحياة وتبعثها مرة أخرى ، **وهذا البيت من قصيدة لابن واحد من الخلفاء يصف أفعاله وسكره يقول :**

صَحَوْتُ ولكِنْ بَعْدَ أَيِّ فُتونِ ... فَلا تَسْأَلُونِي تَوْبَتِي وَدَعُونِي
وَدَبَّ مَشِيبِي بَعْضُهُ نَحْوَ بَعْضِهِ ... فَأَخْرَجَنِي مِنْ أَنْفُسٍ وَعُيُونِ
وَأُفْرِدْتُ إلاَّ مَنْ تَصَنُّعِ خائِنٍ ... سَرِيعِ شَرارِ الشَّرِّ غَيْرِ أَمِينِ
وَخَمَّارَةٍ يُعْنَى المَسِيحُ بِدِينِها ... طَرَقْتُ وَضَوْءُ الصُّبْحِ غَيْرُ أَمِينِ
فَلَمَّا رَأَتْنِي أَيْقَنَتْ بِمُعَذَّلٍ ... قَلِيلِ بَقاءِ الْوَفْرِ غَيْرِ ضَنِينِ
وَقامَتْ وَفِي أَجْفانِها سَقَمُ الْكَرَى ... تَفُضُّ بِكَفَّيْها خَواتِمَ طِينِ
فَلَمَّا رَآها اللَّيْلُ حَثَّ جَناحَهُ ... مَخافَةَ صُبْحٍ فِي الدِّنانِ كَمِينِ
كَأَنَّا وَضَوْءُ الصُّبْحِ يَسْتَعْجِلُ الدُّجى ... نُطيرُ غُراباً ذا قَوادِمَ جُونِ
فَما زِلْتُ أُسْقاها بِكَفِّ مُقَرْطَقٍ ... كَغُصْنٍ ثَنَتْهُ الرِّيحُ بَيْنَ غُصُونِ
لَوى صُدْغَهُ كالنُّونِ مِنْ تَحْتِ طُرَّةٍ ... مُمَسَّكَةٍ تُزْهِي بِعاجِ جَبِينِ

ولو وقفنا مع الصور التشبيهية البديعة في اللسان العربي لطال بنا الوقوف ويكفي من العطر شذاه .

التشبيه الملفوف والمفروق

يتصرف المتكلم في الصورة التشبيهية فيذكر أكثر من مشبه ، وأكثر من مشبه به ، ويجمع بعضها ويفرق بعض ، ويخلط بين مجموع هنا ومفروق هناك ، أو مفروق هنا ومجموع هناك ، و يُعدُّ كل ذلك من التفنن في الصورة التشبيهية ، لأنها صورة مطواعة ، وكثيرة الحضور على اللسان المبين ، لذلك تجدها تلين في أيديهم ، يقلبونها كيف شاءوا ، ولقد وضع العلماء لكل صورة مصطلحا يعرف به ، **ومن أشهر هذه الأنواع : التشبيه الملفوف :**

وسمي هكذا لأن المتكلم يلف أكثر من مشبه في الكلام قبل أن يأتي بالمشبه به ، فيعدد المشبه في جهة ، ثم يعدد المشبه به بعد ذلك ومن نماذج ذلك **قول الشاعر :**

ليل وبدر وغصن	**شعر ووجه وقد**
خمر ودر وورد	**ريق وثغر وخد**

وفي هذه الصورة تلحظ عدة أمور تزيد من حسنها ، ومنها :

- الإبهام الذي يبدأ به الشاعر ، حين يعدد المبتدأ ، دون أن يأتي بالخبر وهذا يضفي على العبارة نوعا من الغموض الذي يستدعي الشوق إلى معرفة الخبر .
- وأمر آخر ، وهو الجمع بين كلمات غير متناظرة ، فهذا بدر ، وهذا غصن ولا علاقة بينهما حتى يأتي بالخبر ، وهو (شعر ووجه وقد) .

- ولا تنس في خضم الصورة وتنوعها أن تتريث في ترتيب العبارة فالشاعر وضع الخبر في موضع المبتدأ ، والأصل أن الشعر كالليل **وكان ينبغي في غير الشعر أن يقول :**

(شعر ووجه وقد   ليل وبدر وقد)

لكن الشاعر غير ذلك ليزيد من غرابة الصورة ، ويضفي على جمالها لونا آخر .

- ولا تنس أيضا في زحمة الإثارة أن التركيب بني على حذف أداة التشبيه ووجه الشبه ، ليعمق المعنى ويزيد في جذوره ، تماما كما هو متعمق في نفس قائلة .
- وشيء أخير وهو تنكير جميع الأطراف ، فلم يقل : (الليل والبدر والغصن الشعر والوجه والقد) أو (الليل والبدر والغصن شعرها ووجهها وقدها) كلا ، لم يقل هذا بل بنى الصورة على فك الارتباط بين المبتدأ والخبر وترك لك عقد روابط الإسناد بينهما ، وبهذا فإن المخاطب في هذه الصورة يقوم بأكثر من عمل ليشارك الأديب فيرسم ملامح هذا التشبيه ، ومن هنا حسن وملح ، واستعذبه النقاد .

وفي السنة تجد لهذا اللون شاهدا فيما رواه أبو مُوسَى الأشعري ، عَنْ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ:

«مَثَلُ الْجَلِيسِ الصَّالِحِ وَجليس السَّوْءِ كَحَامِلِ الْمِسْكِ وَنَافِخِ الْكِيرِ فَحَامِلُ الْمِسْكِ إِمَّا أَنْ يُحْذِيَكَ وَإِمَّا أَنْ تَبْتَاعَ مِنْهُ وَإِمَّا أَنْ تَجِدَ مِنْهُ رِيحًا طَيِّبَةً، وَنَافِخُ الْكِيرِ إِمَّا أَنْ يُحْرِقَ ثِيَابَكَ وَإِمَّا أَنْ تَجِدَ منه رِيحًا خَبِيثَةً» (١).

راجع هذا الجمع بين المشبهين (الجليس الصالح وجليس السوء) والجمع بين المشبه بهما (حامل المسك ونافخ الكير) وتستطيع بسهولة رد كل طرف إلى صاحبه ، لكن المتعة في ترقب النفس وتوترها وهي تنظر إلى طرفين متناقضين يضرب بهما المثل ، فتشتاق النفس إلى الطرف المكمل للصورة ، وحين يذكر ويقال : كحامل المسك ونافخ الكير ، يأتي التفصيل والشرح ويقال :

فحامل المسك يصنع كذا ونافخ الكير يصنع كذا ، ولاتنس أن من روعة هذا التشبيه أنه يجعلك تشاركه في رسم الصورة ، ومشاركة المتلقي في بناء الصورة يزيدها متعة ، ويرفع من قدرها ، وإن أردت دليلا على ذلك فأعد الصورة إلى هيئتها الأولى ، وهي : مثل الجليس الصالح كحامل المسك ، ومثل جليس السوء كنافخ الكير ترى الحسن الذي وجدته من قبل قد نضب ماؤه وقل رواؤه . **ومن نماذج الشعر أيضا قول الشاعر :**

تَبَسّمٌ، وَقُطوبٌ، في نَدًى وَوَغًى ... كالبرْقِ وَالرّعدِ وَسطَ العارِض البرِدِ

والقصد أن في جمع الأطراف ، ولفها قبل المجيء بالأطراف المتمة الفائدة تحريك الصورة، وفتح عقل المتلقي ، بل وأسره فلا يتلفت حتى يكمل الصورة

١ - أخرجه الشيخان .

ويرغمه على المشركة في بناء المعنى ، وذلك كله من أدوات الحسن والإمتاع . **ومن أروع ماقيل في هذا قول الشاعر :**

(نَشَرَتْ إِلَيَّ غَدَائِراً مِنْ شَعْرِها حَذَرَ الْكَوَاشِحِ والعَدُوِّ الْمُوبِق)

(فَكَأَنَّني وَكَأَنَّهَا وَكَأَنَّهُ صُبْحَانِ بَاتَا تَحْتَ لَيْلٍ مُطْبِق)

وحاول أن تتلمس ما في الصورة من إبداع ، وراجع هذه الثلاثية (فكأنني وكأنها وكأنه) وموقع كل واحد منهما في الشطر الثاني ، وكيف اجتمعا في قوله (صبحان) وكيف فصل العدو الموبق ، المعبر عنه بقوله (وكأنه) كيف فصله في جملة (باتا تحت ليل مطبق) وراجع وصف العزول بالعدو الموبق تارة والليل المطبق أخرى ، وتعجب من قدرة الشاعر على رسم الصورة وإدخالك الميدان معه لوضع ملامحها ، لتدرك قيمة البلاغة في صوغ المعاني .

ولقد ذكرت كل ذلك من أجل مراجعة صاحب معاهد التنصيص لأنه ذكر في حديثه عن هذا النوع، أنه ليس لاجتماع التشبيهين هيئة مخصوصة يعتد بها ويقصد تشبيهها ، وليس فيه إلا اختصار اللفظ ، وحسن الترتيب ، ولا فائدة في الجمع تعود على التشبيه ، وعزى ذلك إلى عبد القاهر [1].

وعبد القاهر إنما ذكر مثل ذلك وهو يفرق بين التشبيه المتعدد والتشبيه المركب ، حيث يقول في الأسرار ((اعلم أنى قد قدمت بيان المركب من التشبيه وههنا ما يذكر مع الذي عرفتك أنه مركب ويقرن إليه في الكتب ، وهو على الحقيقة لا يستحق صفة التركيب ولا يشارك الذي مضى ذكره في الوصف الذي

---

١ - معاهد التنصيص على شواهد التلخيص عبد الرحيم بن أحمد العباسي ت محمد محيي الدين عبد الحميد عالم الكتب ١٣٦٧هـ ١٩٤٧م بيروت ٨٢/٢.

كان له تشبيها مركبا ، وذلك أن يكون الكلام معقودا عـلى تشـبيه شـيئين بشيئين ضربة واحدة ، إلا أن أحدهما لا يداخل الآخـر في الشـبه ، **ومثالـه قـول امرئ القيس :-**

(كأن قلوب الطـير رطبـا ويابسـا لدى وكرها العناب والحشف البالى)

إذا عبد القاهر يفرق فقط بين النوعين (التشبيه المركب،والتشبيه المتعدد) ولم يقصد إلى نزع الفضيلة من المتعدد ، ويؤكد هـذا حديثـه في دلائـل الإعجـاز **حيث يقول عنه :**

(وإذْ قد عرفتَ هذا النمطَ منَ الكلام، وهو ما تتَّحِدُ أَجزاؤه حتى يُوضَعَ وَضْعاً واحداً، فاعلمْ أَنه النمطُ العالي والبابُ الأَعْظم ، والذي لا تَـرى سـلطانَ المزيةِ يَعْظُم في شيءٍ كَعِظَمه فيه، ومِمَّا نَدرَ منه ولطُفَ مأْخذُه ، ودقَّ نظـرُ واضـعِه وجلَّى لكَ عن شأوٍ قد تحسر دونه العِتاقُ، وغايةٍ يعيى من قبلهـا المـذاكي الفـرح الأبيات المشهورة في تشبيه شيئين بشيئين ، **كبيت امرئ القيس:**

كأنَّ قُلوبَ الطـيرِ رَطْبـاً ويابسـاً لَدى وَكْرِها العناب والحشف البـالي)[١]

راجع ذلك ، وكرر قوله : أَنه النمطُ العـالي والبـابُ الأَعْظـم، والـذي لا تَرى سلطانَ المزيةِ يَعْظُم في شيءٍ كَعِظَمه فيه ، ومِمَّا نَدرَ منه ولطُـفَ مأْخـذُه ودقَّ نظرُ واضعِه ، وجلَّى لكَ عن شأوٍ قد تحسر دونه العِتاقُ ، وغايةٍ يعيـى مـن قبلهـا المذاكي الفرح .

تجد الشيخ يرفع هذا النوع من التشبيه إلى الدرجات العلا .

١ - دلائل الإعجاز ت شاكر .

التشبيه المفروق :

يعد التشبيه المفروق نوعا من امتلاء الأديب بالصورة التشبيهية ، فيكثر من وجودها في تركيب واحد فيأتي بمشبَّه ومَشَبَّهٍ به ، ثم يُتْبعُهُ بمشبَّهٍ وَمُشبَّهٍ به ثان ثم ثالث .... إلخ ولقد سبق من هذا النوع أمثلة ، **ومنها قول ابن عبد ربه :**

" النَّشرُ مسكٌ والوجوهُ دَنا نيرٌ وأَطرافُ الأَكفِّ عَنَمْ"

وقول المتنبي :-

(بدت قمرا ومالت خوط بان وفاحت عنبرا ورنت غزالا)

وقول أبي القاسم الزاهي :

(سفرن بدورا وانتقبن أهلة ومسن غصونا والتفتن جآذرا)

وقول بعض الشعراء في مغن عذب الصوت جميل الصورة :

فديتك يا أتم الناس ظرفا وأصلحهم لمتخذ حبيبا)

(فوجهك نزهة الأبصار حسنا وشدوك متعة الأسماع طيبا)

(وسائلة تسائل عنك قلنا لها في وصفك العجب العجيبا)

(رنا ظبيا وغنى عندليبا ولاح شقائقا ومشى قضيبا)

وهذا الضرب كثير في الذائقة التشبيهية ، كثرة التشبيه في اللسان العربي وكأن القلب حين يمتلئ بالصورة يبدأ في تفصيلها ، ويرد كل جزء فيها إلى أحسن ما يعرف ، فترى كل جزء في الصورة وقد انفصل عن الباقي ليكون صورة مستقلة تستحق الوقوف والنظر ، وبخاصة إذا كان الوصف في الجسد

فترى الشاعر يفرد الوجه عن العين ، والعين عن النظر ، والقد عن المشي- ويظل يخلق من الصورة عدة صور حتى يريك كل عضو مستقلا عن الآخر ثم لا تلبث أن ترى الصورة مجتمعة إذا انتهيت منها ، لأن الكل داخل إطار واحد ، ولا يمكن الجمع في هذا الإطار إلا ما كان متناسقا ، متناغما ، متوافقا .

التشبيه بين التسوية والجمع

وهذا مشهد آخر من مشاهد التفنن في الصورة التشبيهية حيث يتعدد المشبه ، ويكون المشبه به واحدا ، وغالبا ما يكون المشبه أمرين ، والمشبه به أمراً واحداً ، **ومن ذلك قول الشاعر** :

صدغ الحبيب وحالي — كلاهما كالليالي

وثغره في صفاء — وأدمعي كاللآلي

وأول ما ينبغي السؤال عنه وجه التسمية بهذا المصطلح (تشبيه التسوية) ووجه ذلك أن المتكلم يسوي بين أمرين ، كل منهما من واد مختلف ، وراجع البيتين تجد الشاعر يسوي بين صدغ الحبيب وحاله ، فصدغ الحبيب يريد به : (مَا بَيْنَ الْعَيْنِ وَالْأُذُنِ. وَيُسَمَّى أَيْضًا الشَّعْرُ الْمُتَدَلِّي عَلَيْهِ صُدْغًا) وهذا شيء حسي- ،أما حاله فشيء معنوي ، وصدغ الحبيب على حقيقته أسود ، لكن سواد حاله أمر مقدر يراد به ضيق العيش ، وقلة الراحة ، وندرة الطمأنينة ، وكلها يعبر عنها بالسواد مجازا ، فالشاعر سوى بين السواد الحقيقي والسواد التقديري وسوى بين صفة للحبيب وصفة منه ، وربط الصفتين بصفة واحدة وهي المشبه به ، وهي قوله : (كالليالي) ، وقل مثل ذلك في البيت الثاني حيث سوى بين ثغر

الحبيب وأدمع الشاعر ، وربطهما برباط واحد وهو قوله : كاللآلي ، ولعل لفظ التسوية خاص باتحاد الصفتين ، صفة الحبيب وصفته ، أو التسوية بين شيء من خصائص الشاعر ، وشيء من خصائص غيره ، وروعة هذه الصورة في ملاحظة الأطراف الثلاثة ، الطرف الأول صفته هو ، والطرف الثاني صفة الحبيب والطرف الثالث المشبه به ، فهذه الأطراف الثلاثة متساوية ، متشابهة ، وقدرة الشاعر في ربط هذه الثلاثة برباط ، وعقد أواصر التشبيه بينها جميعا ، وكأنها شيء واحد ، ولذا أطلق عليه تشبيه التسوية .

تشبيه الجمع :

والجمع وهو أن يتعدد المشبه به مع إفراد المشبه ، ومعنى الجمع أن المتكلم يجمع للمشبه الواحد عديدا من الصفات لتكون مشبهاً بها ، والقرآن الكريم أشار إلى مثل هذه الصورة حين عدد صورة المشبه به لأعمال الكافرين ، فجعل أعمالهم مرة : كسراب بقيعة ، ثم قال : أو كظلمات في بحر لجي ، وهذه الصورة ليست مطابقة لما نحن فيه الآن ، لأن تشبيه الجمع تركيب واحد ، المشبه فيه شيء واحد ، والمشبه به عدة أشياء مجموعة ، بأدوات العطف ، **ومن ذلك قول الصاحب ابن عبّاد في وصْفِ أبياتٍ أَهْدِيَتْ إليه:**

أَتَتْنِي بِالأَمْسِ أَبْيَاتُهُ تُعَلِّلُ رُوحِي بِرَوْحِ الْجِنَانِ
كَبَرْدِ الشَّبَابِ وَبَرْدِ الشَّرَابِ وَظِلِّ الأَمَانِ ونَيْلِ الأَمَانِي
وعَهْدِ الصِّبَا وَنَسِيمِ الصَّبَا وَصَفْوِ الدِّنَانِ وَرَجْعِ الْقِيَانِ

لاحظ هنا المشبه هي الأبيات الشعرية التي أهديت إليه تمدحه ، أما المشبه به فكانت أشياء كثيرة ، وهي (برد الشباب ، وبرد الشراب ، وظل الأمان ونيل

الأماني ، وعهد الصبا ، ونسيم الصبا ، وصفو الدنان ، ورجع القيان) وهذا كله مشبه به لمشبه واحد ، وجميع هذه الصفات تتكامل ولا تتناقض ويجوز الجمع بينها على وجه من الوجوه ، ولكن هناك صورة أخرى يجمع فيها الشاعر للمشبه الواحد عدة أشياء لتكون مشبها به ، مع تناقضها ، **كقول ذي الرمة** :

هي البرء، والأسقام، والهمّ، والمنى، ومـوت الهوى في القلب منّي المبرّح
وكان الهوى بالنأي يمحى فيمّحي، وحبّك عندي يستجدّ ويربح
إذا غيّر النّأي المحبّين لم يكد رسيس الهوى من حبّ ميّة يبرح

فالمشبه قوله (هي) والمشبه به قوله : (البرء والأسقام) معا ؟!! نعم (والهم والمنى) أيضا معا ؟ !! نعم ... ، فجمع لها ما لايجوز جمعه وهو المتناقضات .

التشبيه التمثيلي

تعد الصورة التمثيلية جوهرة التاج لباب التشبيه ، ورابطة العقد ، وزبدة الحديث عن التشبيه ، وتختلف مواطن النظر إلى هذا النوع من التشبيه، فمن أهل العلم من ينظر إليه من خلال الطرفين ، حين يكونان مركبين ، فالتركيب في الطرفين يعني أن التشبيه تمثيل ، سواء أفضى إلى وجه شبه مركب ، أو وجه شبه مفرد ، وآخرون يرون أن التمثيل متعلق بوجه الشبه فالتشبيه التمثيلي (ما لايكون وجه الشبه فيه بينا بنفسه ، بل يحتاج تحصيله إلى تأول وصرف عن الظاهر) ويتحقق هذا إذا لم يشارك المشبه ، وهو الطرف الأول ، المشبه به

وهو الطرف الثاني في صفته الحقيقية ، فيكون الوجـه بعيـدا عـن الحـس ، بعيدا عن الغرائز ، فيحتاج إلى تأول . وحين تراجع كلام أهل العلم في هذا تجـد لكل منهم وجها ورؤية . فالزمخشري يرى أن التشبيه والتمثيل شيء واحد ، بـلا فرق بينهما فيما يرى السكاكي أن التمثيل هو ما كان وجه الشبه فيه غير حقيقي ، بمعنى أنه مركب عقلي ، لكن الخطيب القزويني يرى أن التمثيـل مـا كـان وجـه الشبه فيه هيئة منتزعة من أمرين فأكثر .

والذي استقر عليه المتأخرون من العلماء أن العـبرة في التمثيـل راجعـة إلى وجه الشبه ، فإن كان هيئة منتزعة من أجزاء فهو التمثيل ، ولا يتحقـق ذلـك إلا إذا كان المشبه به مركبا ، سواء ركب المشـبه ، أم لم يركـب ، فيـدخل هنـا تشـبيه المركب بالمركب ، وتشبيه المفرد بالمركب ، ويخرج من التمثيل تشبيه المفرد بالمفرد وتشبيه المركب بالمفرد ، فتشبيه الخد بـالورد ، والشـعر بالليـل ، غـير تمثيـل أمـا تشبيه الثريا بعنقود الملاحية المنور فتمثيل ، وحـين تـرى التشـبيه قـد تحـول مـن صورة جزئية ، ومن طرفين تعلـق أحـدهما بـالآخر إلى صـورة كبـيرة فيهـا مـن التفاصيل ما يجعلك تتأمل مكوناتها ، وتشعباتها ، وأجزائهـا المتشـابكة ، فـاعلم أنك أمام تشبيه تمثيلي .

وانظر مثلا إلى قول الله تعالى :

﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِى كُلِّ سُنۢبُلَةٍ مِّاْئَةُ حَبَّةٍ ۗ وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٦١﴾﴾ [سورة البقرة:٢٦١]

تر الإِنفاق هنا يشبه عملية الزرع ، ونموه ، واستوائه حتـى يكـبر ويشـتد ويتضاعف أكله ، وتتكاثر حباته حتى تبلغ كل سنبلة مائة حبه .

ويحسن التمثيل أحسن ما يحسن حين يتناظر الشعراء في غرض واحد فترى ساعتها للتشبيه رونقا وبهاءا لا تراه في غيره ، ومن أحسن ما جاء في ذلك ما تناقلته كتب الأدب في وصف الأسد بين بشر بن عوانة والبحتري والمتنبي وموضع الشاهد قبل أن أعرض عليك شعرهم **قول المتنبي** :

يطأ الثرى مترفقا من تيهه فكأنه آسٍ يجُسُّ عليلا

والثرى : الأرض ، والتيه : الكبرياء والآس: الطبيب ، والمتنبي لا يشبه الأسد هكذا غفلا بل يحضر نفسه في الصورة ويحضر ترفعه عن الآخرين وراجع هذه الألفاظ وفتش عن كل معنى تحتها فتحت كل لفظة كنز خبأه المتنبي لمن يحسن قراءة شعره ، ولن تستطيع الوقوف على هذه الروعة إلا إذا عرضت عليك قصيدته مع بعض القصائد التي تشابهت معه ، وهذا ضرب آخر من التشبيه غفلت عنه كتب البلاغة ، وهو التشبيه بين القصائد ، ولا يدخل فيه التناص ، أو السرقات الشعرية ،ومما توارد عليه بشر بن عوانة ، وأبو تمام والبحتري ، وأبو الطيب المتنبي وصف الأسد، **ولنبدأ ببشر حيث يقول** :

أفاطُم لو شهدتِ ببطن خَبْتٍ وقد لاقى الهزبرُ أخاكِ بشْراً
إذاً لرأيتِ ليثاً أمَّ ليثاً هِزبْراً أغلباً لاقَى هِزبرا
تقدَم ثم أحجمِ عنه مهري محاذَرةً فقلتُ: عُقرتَ مهرا
أنِلْ قدميّ ظهرَ الأرض إني وجدتُ الأرضَ أثبت منك ظَهرا
وقلتُ له وقد أبدى نِصالا مُحَدَّدة ووَجْهاً مكفهرّا
يُدِلُّ بمِخلَب وبحدّ ناب وباللحظات تحسبِهنَّ جَمرا

وفي يُمناي ماضي الحدّ أبقى بمَضْربه قِراعُ الحرب أُثْرَا
ألم يبلغك ما فعلتْ ظُباهُ بكاظِمة غَداةَ لقيتُ عمرا
وقلبي مثلُ قلبك ليس يَخشىَ مُصاولةً فكيف يخاف ذُعرا؟
وأنت ترومُ للأشبال قُوتا وأطلب لابنة الأعمام مَهْرا
ففيمَ تسومُ مثلي أن يُولّي ويجعلَ في يديك النفسَ قَسْرا
نصحتُك فالتمِسْ يا ليثُ غيري طعاما إن لحميَ كان مُرّا
فلما ظن أن الغِش نصحي وخالفني كأني قلتُ هُجرا
مشى ومشيتُ من أسَدَين وأما مَراما كان إذ طلباه وَعْرا
يُكفكف غِيلةً إحدى يديه ويبسطُ للوثُوب علىّ أخرى
هززتُ له الحُسامَ فخلت أني شققتُ به لدى الظلماء فَجرا
وجُدتُ له بجائشة أرتْهُ بأنْ كَذَبتْه ما مَنتّه غَدْرا
وأطلقتُ المهنَّدَ من يميني فقدّ له من الأضلاع عشرا
فخر مُضَرَّجا بدم كأني هدمتُ به بناء مُشْمَخِرا
وقلت له يَعز على أني قَتَلتُ مناسبي جَلَداً وفخرا
ولكنْ رمتَ شيئا لم يُرمْهُ سواك فلم أطق يا ليثُ صبرا
فإن تَكُ قد قُتلتَ فليس عاراً فقد لاقيتَ ذا طَرَفين حُرّا

وقال أبو تمام:

هزبرُ مشى يبغي هزبراً وأغلبُ ... من القوم يغشى باسل الوجهِ أغْلبا
أدل بِشَغْب ثم هالته صولةُ ... رآك لها أمضى جَنانا وأشْغَبا
فأحجم لما لم يجد فيك مَطْمعا ... وأقدم لما لم يجِدْ عنك مَهربا
فلم يغنه أن كرَّ نحوك مُقبلا ... ولم يُنجه أن حاد عنك مُنكباً
حملتَ عيه السيفَ لا عزمك انثنى ... ولا يَدُك ارتدت ولا حَدُّه نَبا

أما البحتري فقال في وصف الأسد :

وما نَقَمَ الحسادُ إلا أصالة ... لديكَ وفعلا أرْيَحِيَّا مهذَّبا
وقد جربوا بالأمس منك عزيمةً ... فَضَلْتَ بها السيف الحُسام المجَّربا
غداةَ لقيتَ الليث والليثُ مُخْدر ... يُحَدِّد نابا للقاء ومخلَبا
إذا شاء غادَى عانةً أو غدا على ... عقائل سِرب أو تقنص رَبربا
شهدتُ لقد أنصفتَه حين تنبرِي ... له مُصْلِتا عَضْبا من البيض مِقَضَبا
فلم أر ضِرغامَين أصدق منكما ... عِراكَا إذا الهيابةُ النِكسُ كذَّبا

أما المتنبي، فلقد قال قصيدة يمدح بها بدر بن عمار، وهو يهيجه عن بقرة افترسها ، وهذا وقت يجتمع فيه عند الأسد الجوع والغضب والألم من المطاردة مما يزيد في خطورة الموقف يقول :

أمُعَفَّرَ الليث الهزبرِ بسوطه ... لمن ادخرتَ الصارمَ المصقولا؟
وَقَعتْ على الأرْدُنّ منه بَلّيةُ ... َضَدَتْ بها هام الرفاق تُلُولا

وَرْدُ إذا ورد البحـــيرة شـــاربا ورد الفـــراتَ زئـــيرهُ والنـــيلا

متخضّبُ بدم الفـوارس لابسُ في غِبلـــه مـــن لِبدتيـــه غِـــيلا

مـــا قوبلـــتْ عينـــاه إلا ظُنتـــا تحـت الـدُّجى نـارَ الفريـق حُلُـولا

في وحـــدة الرّهبـــان إلا أنـــه لا يعـــرف التحـــريمَ والتحْلـــيلا

يطـأ الثـرى مترّفِقـا مـن تِيهـهِ فكأنـــه آسٍ يجُـــسّ عَلـــيلا

ويَـــردُّ عُفْرتـــه إلى يافوخـــه حتـــى تصـــيرَ لرأســـه إكلـــيلا

وتظنـــه ممـــا يُزَمْجِـــرُ نفسُـــه عنهـــا لِشـــدة غيظـــه مَشْـــغولا

قَصَـرتْ مخافَتُـه الخُطـا فكـأنما ركـــب الكَمـــيُّ جـــوادَه مَشْـــكولا

ألقـــى فريســـتَهُ وَبرْبَـــرَ دُونهـــا وقَرُبْـــتَ قُربـــا خالـــه تَطفـــيلا

فتشـــابه الخُلُقـــان في إقدامـــه وتخالفـــا في بَـــذْلك المـــأكولا

أسد يرى عضـويه فيـك كلـيهما مَتْنـــاً أزلَّ وســـاعداً مفتـــولا

نيالـــةِ الطَّلِبـــات لـــولا أنهـــا تُعطـــي مكـــان لجامهـــا مـــانِيلا

في سرج ظامئةِ الفصوصِ طِمِرةً يـــأبى تفَرُّدُهـــا لهـــا التمثـــيلا

تندَى سـوالِفُها إذا استَحْضَرْتها وتَظـــن عَقَـــدْ عِنانهـــا محلـــولا

مـــا زال يجمـــع نفســـه في زَوْره حتـى حسبت العَـرْض منه الطـولا

ويَـدقُ بالصـدر الحجـار كأنـه يبغـــي إلى مـــا في الحضـــيض ســـبيلا

وكأنـــه غَرّتـــه عـــين فـــادَني لا يُبصرـ الخطـب الجليـل جلـيلا

أَنَفُ الكريم من الدنيئة تاركٌ في عينه العددَ الكثير قليلا

والعارُ مَضّاضُ وليس بخائف | من حتفه مَنْ خاف مما قيلا
سبق التقاءَكهَ يوثبه هاجم | لو لم تصادمه لجازك ميلا
خذلتُه قوتهُ وقد كافحتهَ | فاستنصر التسليم والتجديلا
قبضتْ منيتهُ يديه وعُنْقَه | فكأنما صادفَته مغلولا
سمع ابنُ عمته به وبحاله | فنجا يُهرول منك أمس مَهُولا
وأمرّ مما فر منه فِرارهُ | وكقتلهِ ألا يموت قتيلا
تَلَفُ الذي اتخذ الجراءة خُلة | وَعَظَ الذي اتخذ الفِرار خليلا

وحاول أن تتدرب على الموازنة بين الصور الثلاث ، وتحكم بين الشعراء وتنظر إلى قدرة كل شاعر على إخراج دخائل نفسه ، ووضعها في كلمات مكتوبة ، وحروف مسموعة ، **ولنعد إلى ما كنا فيه وراجع ثانية قول بشّار بن بُرْد وهو البصير :**

كَأَنَّ مُثَارَ النَّقْعِ فَوْقَ رُؤوسِنَا | وَأَسْيَافَنَا لَيْلٌ تَهَاوَى كَوَاكِبُه

حيث ترى في المشهد أولا غبارا ، يندفع من أسفل إلى أعلى بحركة سنابك الخيل التي تندفع لا تدري أين تذهب ، فهي معقودة لجامها بيد فرسان يدفعونها حيث شاءوا ، ثم تتفاجأ بشيء يلمع ويتساقط من أعلى إلى أسفل محدثا صوت قعقعة يتبعه صوت آلام وصياح في كل جانب ، وما يلبث هذا المتساقط حتى يعلو فيتساقط ،فيعلوا فيتساقط في حركة أشبه بأضواء تتهاوى ، وهذا هو المشبه به ، فالمشبه به هنا لمح الليل ليتناسب مع الغبار ، ففي الليل قتامة أشد ورعب

أشد ، وإحاطة أكثر ، ثم لمح الشاعر في صورة المشبه به صورة الكواكب بضيائها وتساقطها في سرعة شديدة وكأنها عقد قد انفرط ، فلا انتظام في تساقطها وجعل هذه الصورة مشبها به ، ولقد أجاد بشار في ذلك أيما إجادة لأنه عقد الأواصر بين عدة أمور ، وكلها أمور تحتاج إلى جمع الأجزاء وربطها ، ولم ينس الإشارة إلى الحركة السريعة ، بل والصوت المفهوم من فعل السيوف بالأعناق وما يتبع ذلك من ضجيج ، **ووازن بين هذا وبين قول أبي طالب الرَّقّي:**

وَكَأَنَّ أَجْرَامَ النُّجُوم لَوَامِعاً … دُرَرٌ نُثِرْتَ عَلى بِسَاطٍ أَزْرَقِ

تجد شاعرا قد تفلتت منه الصورة ، لأنه ما عايشها ، ولا أحسها بل أراد أن يرسم صورة لتراها العيون فقط فأخطأ وأساء ، لأن النجوم تظهر على الصفحة السوداء ، أعني بالليل ،ولا تظهر على الصفحة الزرقاء ، وأساء حين جاء بلفظ (أجرام) وهو لفظ يشعرك بالجماد ، أو بالموت ، ثم كلمة (لوامعا) وكأنها مطلية من الخارج ، ثم كلمة (نثرن) هكذا دون انتظام ، وهذا قبح ثالث وحين تراجع بيت بشار بن برد وبيت أبي طالب الرقي تجد الفرق بين شاعر وشاعر ، وبين موهبة وموهبة ، وبين صورة تحتاج إلى تأول وصورة تفجؤك وتهجم عليك .

ما المقصود بالتأول ؟

اللفظ مأخوذ من (أول)، أو من (وأل) أي الرجوع إلى أول الأمر يقول السعد في المختصر (ومعنى التأول تطلب ما يؤل إليه من الحقيقة أو الموضع الذى يؤل إليه من العقل) فمعنى أولت الشيء أي : طلبت ما يؤول إليه ،أي

بينت ما يراد منه بخلاف الظاهر ، أو طلبت معناه الذي يرشد إليه العقل ، ويحكم بأنه هو المراد ، وهذا التأول درجات فمنه القريب السهل الذي يستطيعه كل قارئ للأدب والكلام العالي ، **مثل قولك** :

أنا كالماء إن رضيت صفاء وإذا ما سخطت كنت لهيبا

ولا جامع حسي بين الإنسان والماء ، لكن الشاعر في قوله (صفاء) حدد وجه الشبه ، لكن الصفاء في الماء محسوس ، والصفاء في الشاعر صفاء نفس وطهارة روح ، وهذا أمر يحتاج إلى تأول كما ترى ، ولا تنس هذا الشرط (إن رضيت) لأنه شرط حاكم في الصورة التشبيهية ، وكذلك الحال في الشطر الثاني (وإذا ما سخطت كنت لهيبا) وكأنه لا يحرق فقط ، بل يمتد سخطه ليطال القريب والبعيد ، وإذا كان الشاعر قد قابل بين الصورتين إلا أن العين الناقدة تراه ساخطا في الأغلب الأعم ، لذلك استعمل (إذا) مع السخط ، في حين استعمل (إن) مع الرضى ، وفرق كبير بين الحالين ...

المهم أن هذا النوع من التأول قريب المأخذ ،سهل المنال ، حتى ليكاد يلامس التشبيه الحسي و يدخل في دائرته ، وقل مثل ذلك في نحو : ألفاظه كالنسيم ، وكلامه كالعسل ، وحجة كالشمس ... إلخ .

والنوع الثاني يحتاج إلى قدر من الفكر ، وقسط من التدبر ، يقل تارة ويكثر أخرى ، ومن ذلك ما رواه الأصفهاني في الأغاني ، عن حوار دار بين الحجاج بن يوسف الثقفي وكعب الأشقري ، حيث سأله الحجاج بعدما أنشده قصيدة طويلة :

قال : أخطيب أنت أم شاعر ؟ فقال : شاعر وخطيب ، فقال له : كيف كانت حالكم مع عدوكم ؟ قال : كنا إذا لقيناهم بعفونا وعفوهم ، فعفوهم تأنيس منهم ، فإذا لقيناهم بجهدنا وجهدهم طمعنا فيهم ، قال : فكيف كان بنو المهلب ؟ قال : حماة للحريم نهارا وفرسان بالليل أيقاظا، قال : فأين السماع من العيان ؟ قال السماع دون العيان . قال : صفهم رجلا رجلا . قال : المغيرة فارسهم وسيدهم ، نار ذاكية وصعدة عالية ، وكفى بيزيد فارسا شجاعا ، ليث غاب وبحر جم العباب ، وجوادهم قبيصة ليث المغار وحامي الذمار ولا يستحي الشجاع أن يفر من مدرك فكيف لا يفر من الموت الحاضر والأسد الخادر ، وعبد الملك سم ناقع وسيف قاطع ، وحبيب الموت الذعاف إنما هو طود شامخ وفخر باذخ ، وأبو عيينة البطل الهمام والسيف الحسام ، وكفاك بالمفضل نجدة ليث هدار وبحر موار ، ومحمد ليث غاب وحسام ضراب .، قال فأيهم أفضل ؟ قال هم كالحلقة المفرغة لا يعرف طرفاها ، قال فكيف جماعة الناس قال على أحسن حال أدركوا ما رجوا وأمنوا مما خافوا وأرضاهم العدل وأغناهم النفل قال فكيف رضاهم عن المهلب قال أحسن رضا وكيف لا يكونون كذلك وهم لا يعدمون منه رضا الوالد ولا يعدم منهم بر الولد(١) .

وراجع هذه التشبيهات التي رسمتها لك بالخط العريض ووازن بينها ثم حاول أن تدخلها جميعا في قوله : هم كالحلقة المفرغة لا يعرف طرفاها ، لتعلم أن هذا الضرب من التصوير يحتاج إلى كثير من الفكر والتلطف .

---

١ - الأغاني ١٤ / ٢٧٤.

ولا شك أن التمثيل متفرع عن التشبيه ، أو أنه أخص منه ، يقول الإمام في أسرار البلاغة : (اعلم أن التشبيه عام والتمثيل أخص منه فكل تمثيل تشبيه وليس كل تشبيه تمثيلا **فأنت تقول في قول قيس ابن الخطيم** :-

(وقد لاح في الصبح الثريا لمن رأى كعنقود ملاحية حين نورا)

إنه تشبيه حسن ولا تقول هو تمثيل وكذلك تقول : ابن المعتز حسن التشبيهات ، بديعها ؛ لأنك تعنى تشبيهه المبصرات بعضها ببعض وكل ما لا يوجد التشبيه فيه من طريق التأول ، فهو تشبيه ، ودرجته في عرف أهل الصنعة أقل من درجة التمثيل ، **ولقد وضح عبد القاهر هذه القضية فقال** :

(إذا استقريت التشبيهات وجدت التباعد بين الشيئين كلما كان أشد كانت إلى النفوس أعجب ، وكانت النفوس لها أطرب ، وكان مكانها إلى أن تحدث الأريحية أقرب ، وذلك أن موضع الاستحسان ، ومكان الاستظراف والمثير للدفين من الارتياح ، والمتألف للنافر من المسرة ، والمؤلف لأطراف البهجة ، أنك ترى بها الشيئين مثلين متباينين ، ومؤتلفين مختلفين وترى الصورة الواحدة في السماء والأرض ، وفي خلقة الإنسان وخلال الروض وهكذا طرائف تنثال عليك إذا فصلت هذه الجملة ، وتتبعت هذه اللمحة **ولذلك تجد تشبيه البنفسج في قوله** :

(ولازوردية تزهو بزرقتها بين الرياض على حمر اليواقيت)

(كأنها فوق قامات ضعفن بها أوائل النار في أطراف كبريت)

أغرب وأعجب ، وأحق بالولوع ، وأجدر من تشبيه النرجس بمداهن در حشوهن عقيق ؛ لأنه إذ ذاك مشبه لنبات غض يرف ، وأوراق رطبة ترى الماء منها يشف ، بلهب نار مستول عليه اليبس ، وباد فيه الكلف ، ومبنى الطباع وموضوع الجبلة على ان الشىء إذا ظهر من مكانه لم يعهد ظهوره منه ، وخرج من موضع ليس بمعدن له ،كانت صبابة النفوس به أكثر ، وكان بالشغف منها أجدر ، فسواء في إثارة التعجب وإخراجك إلى روعة المستغرب وجودك الشىء في مكان ليس من امكنته ، ووجود شىء لم يوجد ولم يعرف من أصله في ذاته وصفته ، ولو أنه شبه البنفسج ببعض النبات ، أو صادف له شبها في شىء من المتلونات لم تجد له هذه الغرابة ولم ينل من الحسن هذا الحظ)(١).

فتشبيه المختلفات المتباعدات هو الذي يثير الحسن في النفوس ، ويحرك قوى العقل لتنشغل به ، وهو الأجدر بأن يسمى : (التمثيل) **أما مثل قوله :**

وعُجنا إلى الروضِ الذي طلّهُ النَّدى ... وللصبحِ في ثوبِ الظلامِ حريقِ

(كان عيون النرجس الغض حولها ... مداهن در حشوهن عقيق)

إذا بلّهنَّ القطرُ خلتَ دموعَها ... دموعَ عيونٍ كحلهنَّ خلوقُ

فإنها من قبيل التشبيه ، لماذا ؟ لأن الشاعر لم يلتفت إلا إلى الشكل ، شكل الورد ولونه وصورته ، وهذا يراه كل أحد ويفطن إليه كل ناظر ، أو أنه لا يجد صعوبة في تحصيلة إن هو نبه إليه .

١ - أسرار البلاغة ص ١١٠ .

ولكن في قول ابن المعتز

(فالنار تأكل نفسها إن لم تجد ما تأكله)

فالأمر مختلف ، لأن الحاجة إلى الفكر والمراجعة شديدة ، ولا يحصلها كل أحد ، لأنها قليلة الحضور في الذهن ، ويا بعد ما بين غيظ القلوب وحنقها وبين نار تشتعل في أعواد الحطب ، لكن الشاعر استطاع أن يجمع في ذهنه بين حاسدٍ ومحسودٍ ، ونارٍ وحطبٍ ، وحركةٍ هنا وحركةٍ هناك ، وربط كل ذلك برباط وثيق استشعر فيه القارئ السرعة والحرارة وضيق الفهم لدى الحاسد لأنه يصيب نفسه ، وسلامة الصابر لأنه يرى المشهد من بعيد ، وبقاء الدرس لكل معتبر يمر على المشهد ويرى أثر النار في الحطب كما يرى أثر الحسد في الحاسد ، وغيرذلك كثير مما لو وقفت أمامه لوجدت عجبا .

هكذا يرى الإمام أن ما يحتاج إلى تأول هو من التمثيل ، وما لا يحتاج إلى تأول يعد من التشبيه ، ثم يتساءل عن وجه القسمة إلى تشبيه وتمثيل ويقول (اعلم أن الذي أوجب أن يكون في التشبيه هذا الانقسام أن الاشتراك في الصفة يقع مرة في نفسها وحقيقة جنسها ومرة في حكم لها ومقتضى) (١).

فوجه الشبه إن كان دقيقا لطيفا يحتاج إلى ترفق وحسن تأتي فهو التمثيل وله ضروب ، ومزايا ، وخصائص ، وتأثير في النفوس ، ولا يتحقق كل ذلك إلا في التشبيه المركب ، أو التشبيه المتعدد ، **إلا أن هناك فروقا بين النوعين ألخصها لك :**

١ - أسرار البلاغة ص ٧٥.

أولا:المركب يمتاز بامتزاج الأجزاء ، وبناء بعضها على بعض حتى تصير شيئا واحدا ، بحيث لا يمكنك فصل جزء عن الصورة الكلية ، وتشبيهه بما يقابله في الطرف الثاني ، وهذا الامتزاج غير موجود في التشبيه المتعدد بل هناك استقلالية يصح معها تشبيه كل جزء بما يقابله ، ويصح معها فصل كل صورة عن أختها .

ثانيا :أن الغاية من التشبيه المركب لا تتأتى إلا بالنظر إلى مجموع الأجزاء ، فإن سقط جزء سقط التشبيه ، لكن التشبيه المتعدد تتعدد غايته بتعدد التشبيهات ، وإن كان الغاية العظمى واحدة .

ثالثا:في التشبيه المركب يراعى ترتيب الأجزاء ،وتنسيقها ، حتى يبنى بعضها على بعض ، أما التشبيه المتعدد فلا يراعى هذا الترتيب ، ويجوز تقديم صورة على صورة ، دون أن يحدث هدم للصورة الكلية .

ثم إن التشبيه المركب يقسم مرة أخرى إلى نوعين :

نوع يمكن فيه فك التركيب ، وتكوين صور متعددة منه ومن ذلك قول الشاعر :

وكأن أجرام النجوم لوامعا   درر نثرن على بساط أزرق

فانت تستطيع ان ترد كل طرف من الصورة إلى الطرف المناسب له **فتقول** : أجرام النجوم كالدرر في اللمعان والبريق ، وكأن السماء بساط أزرق ولكن هل ترى حسنا ومزية تعادل الحسن والمزية في الصورة التي معنا ؟

إن الصورة التي معنا صورة أقرب إلى الآية التي أُمِرنا بالتفكر فيها في قوله تعالى:

﴿ وَجَعَلْنَا ٱلسَّمَآءَ سَقْفًا مَّحْفُوظًا ۖ وَهُمْ عَنْ ءَايَٰتِهَا مُعْرِضُونَ ﴿٣٢﴾ ﴾ [سورة الأنبياء:٣٢]

إنها صورة الروعة في التنسيق بين النجوم التي تشكل المناظر العجيبة على صفحة السماء التي تحتضن هذه التراكيب ، وهذه التفانين من اللآلىء الموزعة توزيع العليم الخبير ، إنها الصورة المركبة بحكمة ، والتي تستدعي التفكر في عظيم خلق الله ، وهذا لا يمنع من ملاحظة الأجزاء لكن الفارق كبير بين الصورتين.

ومنه ما ذكرته لك سابقا من قول امرئ القيس:

(كأن قلوب الطير .... إلخ) حيث يمكنك بسهولة أن تعيد كل جزء إلى ما يناسبه ، فتقول : قلوب الطير الرطبة كالعناب ، وقلوب الطير اليابسة كالحشف البالي ، ولكنك ستفقد ساعتئذ الهيكل العام والمقصد الأسمى للصورة التي جمع من أجلها امرؤ القيس النوعين .

والنوع الاخر : هو ما لايمكن فض تركيبه ولا فك اجتماعه وهذا بارز في جل صور التشبيه التمثيلي ، **ومنه قوله تعالى :**

﴿ مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ ٱلَّذِى ٱسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّآ أَضَآءَتْ مَا حَوْلَهُۥ ذَهَبَ ٱللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِى ظُلُمَٰتٍ لَّا يُبْصِرُونَ ﴿١٧﴾ ﴾ [سورة البقرة:١٧]

فهذا تمثيل يصور هؤلاء المنافقين بعد أن عرفوا القرآن الكريم بصورة رجل أوقد نارا في بيداء مظلمة ليرى الطريق ،وبعد أن أوقد النار واطمأن إليها

وأنارت له السبل ، وعلم من أين ؟ وإلى أين يسير ؟ تنكّب الطريق ، وأبى السير وانطفأت النار ، وأظلمت عليه الدنيا ، وانفض من حوله الجميع ، فصار كالأصم الأبكم الأعمى ، فهذا تشبيه من قسم **"التمثيل"** فوجه الشّبه فيه صورة منتزعة من متعدّد، وهذا التعدد لا يمكن تحويله إلى أجزاء لأن كل جزء داخل في الآخر ، ومترتب عليه ، فالتشبيه قائم على تمثيل صورة ذات عناصر مختلفة بصورة ذات عناصر مختلفة ، والجامع بينهما وجه شبه يمثّل أيضاً صورة منتزعة من عناصر متعدّدة.

ومن هذا القبيل قول الله تعالى :

﴿ مَثَلُ ٱلَّذِينَ حُمِّلُواْ ٱلتَّوْرَىٰةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ ٱلْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًۢا ۚ بِئْسَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ ۚ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٥﴾ ﴾ [سورة الجمعة:٥]

فالمشبه هيئة اليهود وقد أنزل الله عليهم التوراة هداية لهم ، وعزة لشأنهم ومنفعة لحالهم ، والمشبه به هيئة حال الحمار المشهور عنه الغباء ، وقبول الذل وهو يحمل الأسفار الممتلئة بالأفكار وهي ثمار العقول ، ولعلك تدرك مدى الدقة التي تحملها الصورة ، والمعاني التي تحتاج إلى استخراج ، ولا يصح هنا أيضا فض هذا التركيب ، ولا تحويل أجزائه إلى عناصر مستقلة .

ومن الشعر الذي يرسم لك حالة التشابك القوية بين العناصر بحيث لا يمكنك فكها قول صالح بن عبد القدوس الأزدي :

مـا يَبْلُـغُ الأَعْـداءُ مِـن جاهِـلٍ ... مـا يَبْلُـغُ الجاهِـلُ مِـن نَفْسِـهِ
والشَّـيْخُ لا يَـتْرُكُ أَخْلاقَـهُ ... حتَّـى يَـوارَى في ثَـرَى رَمْسِـهِ

إذا ارْعَـــوَى عـــادَ إلى جَهْلِـــهِ ... كـــذِي الضَّـــنا عـــادَ إلى نَكْسِـــهِ

وإنَّ مَـــنْ أَدَّبْتَـــهُ في الصَّـــبا ... كـــالعُودِ يُسْـــقَى المـــاءَ في غَرْسِـــهِ

حتَّـــى تَـــراهُ مُورِقـــاً نـــاضِراً ... بَعْـــدَ الـــذي أَبْصَرْـــتَ مِـــن يُبْسِـــهِ

فـــالْقَ أَخـــا الضَّـــغْنِ بإِيناسِـــهِ ... لتُـــدْرِكَ الفُرْصَـــةَ في أُنْسِـــهِ

شبه المؤدَّب في صباه ، وكونه مهـذب الأخـلاق ، حميـد الفعـال ، بـالعود الذي سقي في ميعاده حتى يرى مونقا ، ناضرا ، ووجه الشبه هو الهيئـة الحاصـلة من النتيجة المرجوة من الشيء حين تعهده ، وترعاه في أوقاتـه المتتابعـة، وهكـذا أغلب صور التشبيه التمثيلي لا يمكن فك تركيبها ، ولا فض أجزائها .

رأي الإمام عبد القاهر في التمثيل :

يرى الإمام أن التشبيه على ضربين :

الأول : بيّن لا يحتاج إلى تأول ، مثل تشـبيه الشيـء بالشيـء مـن جهـة الصـورة والشكل كقول الشاعر :

وفـرع يـزين المـتن أسـود فـاحم ... أثيـث كقنـو النخلـة المتعكـل

غـدائره مستشـزرات إلى العـلا ... تضـل المـدارى في مثنـى ومرسـل

وقول ابن المعتز :

سـقتني في ليـل شـبيه بشـعرها ... شـبيه خـديها بغـير رقيـب

فـما زلـت في ليلـين شَـعْرٍ وظلمـة ... وشمسـين مـن خمـر ووجـه حبيـب

وهكذا كل التشبيهات المدركة بالحواس ، ومـا يكـون مـن قبيـل الغرائـز والطباع ، لا يدخل في دائرة التمثيل ، حيث يسهل إدراكه .

والآخر: ما كان وجه الشبه فيه أمرا عقليا ، وفيه تأول ، لأن حقيقة وجه الشبه غير متحققة في الطرفين ، فحين تقول : **" حجة كالشمس"** ، **" ولفظ كالعسل "** ، فهذا تمثيل عند الإمام لأن وجه الشبه غير متحقق في الطرفين وأُبَيّن لك ذلك .

في قولك : " حجة كالشمس " ، أين وجه الشبه ؟ هل هو الظهور والوضوح ؟ كلا ، إنما وجه الشبه في أن كلا من الحجة والشمس أزال الحجب التي تعيق الوصول إلى المراد ، وهنا يطرح سؤال آخر : هل الحجة وهل الشمس تزيل الحجاب ؟ كلا ، إنما ظهور كل منهما يزيل ما يعيق فالحجة حين تظهر تزيل الشبهة ، وتجلو الأمر حتى لا يبقى غموض وكذلك الشمس حين تظهر تزيل الظلام الحاجب للرؤية ، وكل هذه المعاني إنما هي معان عقلية متأولة ، لذلك عد ذلك من تشبيه التمثيل فلا يشترط في تشبيه التمثيل أن يكون مركبا ، وإن كانت الصورة التركيبية أكثر جمالا من غيرها ،ولذلك تحدث عبد القاهر في أسرر البلاغة عن التمثيل في المفرد والمركب ، واقتصر في دلائل الإعجاز على الصورة المركبة .

واعلم أن الصورة المركبة تحتاج إلى قدرة ولطف لا ستخراج وجه الشبه فيها ، وبخاصة إذا تكاثرت العناصر ، وتنوعت حتى لا يقوى على النفاذ إلى دخائلها إلا من أوتي حظا من الغوص على الخبايا ، ويدلك على ذلك تجربة على نموذج من الكلام المعجز ، حاول أنت أن تتوصل إلى وجه الشبه فيه ، وهو **قول الله تعالى في سورة يونس :**

﴿إِنَّمَا مَثَلُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ ٱلنَّاسُ وَٱلْأَنْعَٰمُ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذَتِ ٱلْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَٱزَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَآ أَنَّهُمْ قَٰدِرُونَ عَلَيْهَآ أَتَىٰهَآ أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَٰهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِٱلْأَمْسِ ۚ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢٤﴾﴾ [سورة يونس:٢٤]

والآية تريك تفاصيل في كلا الطرفين ، لكنها في الطرف الأول جمعت لك كل شيء في لفظ (الحياة الدنيا) ولك أن تجهد في إدخال كل ما في الحياة الدنيا وصلت إليه بإحدى حواسك ، فكل ما تقوى على استحضاره داخل هنا ، هكذا جُمع لك الطرف الأول وهو المشبه ، لكن الطرف الثاني ذكر فيه بعض مافي الحياة الدنيا من " ماء ، ونبات ، وأرض ، وأكل ، وأناس ، وأنعام ، وزخرف ، وزينة وقدرة ،ثم فجأة يأتي أمر الله فيمحق كل ذلك ، وكأن شيئًا لم يكن ، وأنا أعيدك الآن إلى عقلك ، لتحاول استحضار وجه الشبه ... لقد تنوعت الرؤى في ضبط وجه الشبه هنا ،لكنك بعد تفكير تستطيع أن تقول إنها جميعا تصب في دائرة (لا تغتر بشيء فأمر الله أسرع مما تظن) ويؤكد هذا السياق الذي صاحب الآية والذي يوضح صنيع الناس في حال السراء وصنيعهم في حال الضراء ، واسمع

قول الله قبل هذه الآية ، ماذا يقول :

﴿وَإِذَآ أَذَقۡنَا ٱلنَّاسَ رَحۡمَةٗ مِّنۢ بَعۡدِ ضَرَّآءَ مَسَّتۡهُمۡ إِذَا لَهُم مَّكۡرٞ فِيٓ ءَايَاتِنَاۚ قُلِ ٱللَّهُ أَسۡرَعُ مَكۡرًاۚ إِنَّ رُسُلَنَا يَكۡتُبُونَ مَا تَمۡكُرُونَ ٢١ هُوَ ٱلَّذِي يُسَيِّرُكُمۡ فِي ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِۖ حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمۡ فِي ٱلۡفُلۡكِ وَجَرَيۡنَ بِهِم بِرِيحٖ طَيِّبَةٖ وَفَرِحُواْ بِهَا جَآءَتۡهَا رِيحٌ عَاصِفٞ وَجَآءَهُمُ ٱلۡمَوۡجُ مِن كُلِّ مَكَانٖ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمۡ أُحِيطَ بِهِمۡ دَعَوُاْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ لَئِنۡ أَنجَيۡتَنَا مِنۡ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ٢٢ فَلَمَّآ أَنجَىٰهُمۡ إِذَا هُمۡ يَبۡغُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّۗ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّمَا بَغۡيُكُمۡ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمۖ مَّتَٰعَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ ثُمَّ إِلَيۡنَا مَرۡجِعُكُمۡ فَنُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ٢٣﴾

[سورة يونس:٢١-٢٣]

فالناس وقت السعة وبسط الرحمة عليهم يمكرون ، ووقت الباس يجأرون ، فإذا كشف الباس عادوا إلى البغي متواكلين على الدنيا ، لذلك جاءت الآية لتقول لهم : لا تغتروا فأمر الله سريع .

مواقع التمثيل :

إن مما اتفق عليه أهل العلم أن التمثيل من أعظم أركان البلاغة ، ولذلك تخيروا له مواقع تحتاج إليه ، ومواضع يحسن فيها الرجوع إليه ، وتحدثوا عن إمكاناته وتأثيره في المعاني ، وكيف يستولي على النفوس ، ويهز الوجدان وشبهوه بالروح السارية في جنبات الكلام ، والسر الذي به يصل المعنى إلى التمام .

وسواء ذكر المعنى ثم أتبعه التمثيل ، أو تلبس المعنى بالتمثيل فإن أثره يفرض نفسه على الكلام ، ولم يصور هذا الأثر أحد كما صوره الإمام عبد القاهر حيث قال : (واعلم أن مما اتفق العقلاء عليه أن التمثيل إذا جاء في أعقاب

المعانى ، أو برزت هي بإختصار في معرضه ، ونقلت عن صورها الأصلية إلى صورته كساها أبهة ، وكسبها منقبة ، ورفع من أقدارها ، وشب من نارها وضاعف قواها في تحريك النفوس لها ، ودعا القلوب إليها ، واستثار لها من أقاصي الأفئدة صبابة وكلفا ، وقسر الطباع على أن تعطيها محبة وشغفا ، فإن كان مدحا كان أبهى وأفخم ، وأنبل في النفوس وأعظم ، وأهز للعطف ، وأسرع للإلف ، وأجلب للفرح ، وأغلب على الممتدح ، وأوجب شفاعة ، للمادح وأقضى له بغر المواهب والمنائح ، وأسير على الألسن ، وأذكر وأولى بأن تعلقه القلوب وأجدر ،.....

❖ وإن كان ذما كان مسه اوجع ، وميسمه ألذع ، ووقعه أشد ، وحده أحد ، .....

❖ وإن كان حجاجا كان برهانه أنور ، وسلطانه أقهر ، وبيانه أبهر ،....

❖ وان كان افتخارا كان شأوه أبعد ، وشرفه أجد ، ولسانه ألد ،....

❖ وان كان اعتذارا كان إلى القبول أقرب ، وللقلوب أخلب ، وللسخائم أسل ، ولغرب الغضب أفل ، وفي عقد العقود أنفث ، وعلى حسن الرجوع ابعث .....

❖ وإن كان وعظا كان اشفي للصدر ، وادعى إلى الفكر ، وأبلغ في التنبيه والزجر ، واجدر بأن يجلى الغياية ، ويبصر الغاية ، ويبرىء العليل ويشفي الغليل (١).

---

١ - أسرار البلاغة ٩٢-٩٥.

إلى هذا الحد بلغ شأو التمثيل في البلاغة العربية ، والآن أين يقع التمثيل من المعاني ؟

يرى الإمام أن التمثيل يأتي في موقعين :

النوع الأول : يذكر عقب المعنى ، بحيث يذكر المتكلم المعنى أولا ثم يتبعه بالتمثيل ، ليكون كالخاتم الذي تُختم به الوثائق ، والدليل والبرهان على صدق ما ذكر من معنى ومن **أمثلة ذلك** :

دانٍ على أيدي العُفاةِ وشاسعٌ — عن كل ندٍّ في الورى وضريب
كالبدر أفرط في العلوّ وضوؤُه — للعُصبة السارينِ جدٌّ قريبُ

وانظر إلى الصورة ولكن في ثوب آخر ، حيث يقول مادحا :

دنوت تواضعاً، وبعدت قَدْراً — فشأناك: أنحدار وأرتفاعُ
فذاك الشمس تُبعدُ أن تُسامى — ويدنو الضوء مِنْها والشُّعاعُ

إن البحتري صرح بالمعنى أولا ، ثم استدل عليه بالتمثيل ، فجلاه للناظرين ، وأزال ما فيه من شبهة ، وأكد ما فيه من لطائف ، وكأنك في مناظرة تذكر فيها مرادك ثم تتبعه بالدليل ، وتدمغه بالبرهان ، هكذا يفعل التمثيل في أعقاب المعاني .

ومن نماذج ذلك أيضا ما جاء عن أبي تمام : أنه (أنشد أحمد بن المعتصم قصيدته التي مدحه بها:

مَا في وُقُوفِكَ سَاعَةً مِنْ بَاسِ — تَقْضِي ذِمَامَ الأَرْبُعِ الأَدْرَاسِ
فَلَعَلَّ عَيْنَكَ أَنْ تُعِينَ بِمَائِهَا — وَالدَّمْعُ مِنهُ خَاذِلٌ وَمُوَاسِي

والناس يروون هذا – أن تعين بمائها – وهو تصحيف، **فلما قال:**

أَبْلَيتَ هـذَا المَجْـدَ أَبْعَـدَ غَايَـةٍ فِيـهِ وَأَكْـرَمَ شِـيمةٍ ونِحَـاسِ

إِقْـدَامَ عَمْـروٍ في سَـماحَةِ حَـاتِمٍ في حِلْـمِ أَحْنَـفَ في ذَكَـاءِ إِيَـاسِ

قال له الكندي، وكان حاضراً وأراد الطعن عليه: الأمير فوق من وصفت، فأطرق قليلاً، **ثم زاد في القصيدة بيتين لم يكونا فيها:**

لاَ تُنْكِـرُوا ضَرْبِي لَـهُ مَـنْ دُونَـهُ مَـثَلاً شَرُوداً في النَّـدَى وَالبَـاسِ

فـالله قـد ضَرَبَ الأَقَـلَّ لِنُـورِهِ مَـثَلاً مِـنَ المِشْـكَاةِ وَالنِّـبْرَاسِ

قال: فعجبنا من سرعته وفطنته)[1] وراجع من أول قوله (فالله قد ضرب الأقل لنوره ..) بعد أن ذكر أن إقدامه كإقدام عمرو ، وكرمه ككرم حاتم وحلمه كحلم الأحنف بن قيس ...تجد المعاني ذكرت أولا ، ثم جاء التمثيل في عقبها ليختمها بخاتم الحقيقة ، ويوقع عليها بتوقيع القرآن الكريم ، وهل هناك أصدق من الاستشهاد على كلامك بالقرآن الكريم ، هكذا ذكر الشاعر حين أزال الإبهام ، والإغراب بقوله : (فالله قد ضرب الأقل لنوره مثلا من المشكاة والنبراس) وبهذا أسكت الجميع .

لاشك أن هناك فرقا بين المعنى غفلا ، والمعنى إذا تبعته الصورة التمثيلية حتى إن عبد القاهر لم يكتف في توضيح ذلك بمثال أو اثنين ، بل أخذ يلح على هذا الأمر حتى أوهمنا أنه أمر منكور فقال :(تعهد الفرق بين أن تقول فلان يكد

١ -أخبار أبي تمام للصولي ص ٣٤.

نفسه في قراءة الكتب ولا يفهم منها شيئا وتسكت ، وبين آن تتلو الآية ، **وتنشد قول الشاعر :**

(زوامل للاشعار لاعلم عندهم بجيدها إلا كعلم الأباعر)

(لعمرك ما يدري البعير إذا غدا باوساقه او راح ما في الغرائر)

وأخذ يعدد بعض الشواهد ثم قال : (وإن اردت اعتبار ذلك في الفن الذي هو أكرم وأشرف فقابل بين أن تقول إن الذي يعظ ولا يتعظ يضر بنفسه من حيث ينفع غيره ، وتقتصر عليه ، وبين أن تذكر المثل فيه على ما جاء في الخبر **من أن النبي ﷺ قال :**

" مثل الذي يعلم الخير ولا يعمل به مثل السراج الذي يضيء للناس ويحرق نفسه " ويروى : " مثل الفتيلة تضيء للناس وتحرق نفسها " وكذا وازن بين قولك للرجل وأنت تعظه :

(إنك لا تجزى على السيئة حسنه فلا تغر نفسك) ، وتمسك .... وبين أن تقول في أثره : (إنك لا تجنى من الشوك العنب وانما تحصد ما تزرع) وأشباه ذلك ... وكذا بين أن تقول : (لا تكلم الجاهل بما لا يعرفه) ونحوه... وبين أن تقول : (لا تنثر الدر قدام الخنازير) أو (لا تجعل الدر في أعناق الكلاب) **وتنشد نحو قول الشافعي رحمه الله :**

(أأنثر درا بين سارحة الغنم)(١)، وكذا بين أن تقول : (الدنيا لا تدوم ولا تبقى) وبين آن تقول : (هي ظل زائل وعارية تسترد ووديعة تسترجع) وتذكر قول النبي ﷺ : (من في الدنيا ضيف وما في يديه عارية والضيف مرتحل والعارية مؤداة) **وتنشد قول لبيد :-**

(وما المال والأهلون إلا ودائع ولا بد يوما أن ترد الودائع)

وقول الآخر :-

(إنما نعمة قوم متعه وحياة المرء ثوب مستعار)(٢)

ولقد عجبت من هذا الإلحاح وحاولت البحث عن سره في نفس الشيخ لكني لم أتوصل في بادئ الأمر إلى سبب ، حتى راجعت الأمثلة التي استشهد بها فرأيتها في مجملها ترتبط برباط ، ولن أحدثك عنه حتى تراجعها معي ، **فاسمع شواهده : -**

(زوامل للاشعار لاعلم عندهم بجيدها إلا كعلم الأباعر)

(لعمرك ما يدري البعير إذا غدا باوساقه او راح ما في الغرائر)

(في شجر السرو منهم مثل له رواء وماله ثمر)

(فغدا كالخلاف يورق للعين ويأبى الإثمار كل الإباء)

---

١ - تكملة الأبيات في ديوان الشافعي :
أأنثرُ دراً بين سارحةِ البهمَ **وأنظمُ منثوراً لراعية الغنمْ؟
لعمري لئن ضيعتُ في شرِّ بلدةٍ ** فَلَسْتُ مُضَيعاً فيهمُ غرر الكلَمِ
لَئِنْ سَهَّل اللهُ العَزيزُ بِلطفِهِ ** وصادفتُ أهلاً للعلوم وللحكم
بَثَثْتُ مُفيداً واستَفَدْتُ وِدَادَهُمْ ** وإلاّض فمكنونٌ لديَ ومكنتمْ
وَمَنْ مَنَحَ الجهّالَ عِلْماً أضَاعَهُ ** وَمَنْ مَنَعَ المستوجِبين فقدْ ظَلَم
٢ - أسرار البلاغة ص ٩٢.

(فــإن طــرة راقتــك فــانظر فــربما   أمــر مــذاق العــود والعــود أخضرـ)
(إذا أخو الحسن أضحى فعله سـمجا   رأيــت صــورته مــن أقــبح الصــور)
(وهبك كالشمس في حسن ألم ترنــا   نفــر منهــا إذا مالــت إلى الضرــر)
(وإذا أراد الله نشـــــر فضـــــيلة   طويــت أتــاح لهــا لســان حســود)
(لولا اشــتعال النــار فــيما جــاورت   ما كان يعــرف طيــب عــرف العــود)
(ومــن يــك ذا فــم مــر مــريض   يجــد مـــرا بـــه المـــاء الـــزلالا)
(ومــا المــال والأهلــون إلا ودائــع   ولا بـــد يومـــا أن تـــرد الودائـــع)
(إنـــما نعمـــة قـــوم متعـــه   وحيـــاة المـــرء ثـــوب مســـتعار)

هل لا حظت أنت ما لحظته أنا ؟

لاشك أنك لا حظت أن الشيخ كان في حالة هجوم عنيف على من يسفّه رأيه ، ويحقر شأنه ، ويتهمه بالجهل ، ويدعي بأنه أعلم منه ، مع أن علمه كعلم الأباعر التي تحمل الأسفار ، إنه في حالة هجوم على الحاسدين الحاقدين الذين لا يرون في علمه شيئا ذا بال ، ثم يختم هذا الهجوم بذكر الآخرة ، وكأنه يشكوهم إلى الله الذي سيقفون أمامه جميعا يوما ما ، فيأخذ له منهم ، وسيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون .

وهذا الذي قلته الآن ليس إلا استنباطا قد يصيب وقد يخطئ ، دعاني إليه إلحاح الشيخ على مسألة كان يكفيها المثال ، أو المثالان ، .والحق أن في كتب أهل العلم أسرارا ، لا تكتشف إلا بمثل هذه المتابعات .

النوع الثاني : أن تتلبس المعاني بالتمثيل ، وأن ترى المعنى وهو يظهر من أول أمره في الصورة التمثيلية ، وهذا ضرب آخر يختصر لك الكلام ، فهو لا يذكر المعنى ثم يدمغه بالتمثيل ، ولا يجعل التمثيل دليلا ، وبرهانا ، بل يأتيك بالمعنى وقد وضع في إطار التمثيل ، فلا تفرق بينه وبين الشكل والإطار ، وهذا يختصر لك الطريق ، ويسرع بك إلى الصورة التي حملت إليك المراد ، وهذا أغلب الصور التمثيلية ، حيث يلتبس المعنى بالصورة ، ويصير التمثيل جزءا من مكونات المعنى ، **ومن أمثلة ذلك** :

قول الله تعالى في وصف المؤمنين:-

﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلۡكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيۡنَهُمۡۖ تَرَىٰهُمۡ رُكَّعٗا سُجَّدٗا يَبۡتَغُونَ فَضۡلٗا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضۡوَٰنٗاۖ سِيمَاهُمۡ فِي وُجُوهِهِم مِّنۡ أَثَرِ ٱلسُّجُودِۚ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمۡ فِي ٱلتَّوۡرَىٰةِۚ وَمَثَلُهُمۡ فِي ٱلۡإِنجِيلِ كَزَرۡعٍ أَخۡرَجَ شَطۡـَٔهُۥ فَـَٔازَرَهُۥ فَٱسۡتَغۡلَظَ فَٱسۡتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ يُعۡجِبُ ٱلزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلۡكُفَّارَۗ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنۡهُم مَّغۡفِرَةٗ وَأَجۡرًا عَظِيمَۢا ﴿٢٩﴾﴾

[سورة الفتح:٢٩]

فالآيات لم تتخذ الصورة التمثيلية نموذجا ، بل عمدت إلى الوصف مباشرة ، فأصحاب رسول الله ﷺ أشداء في موطن ، ورحماء في موطن آخر أشداء على الأعداء ، رحماء رفقاء على بعضهم ، وهذا شاخص في التوراة ، ثم تنتقل إلى وصف آخر ، وهو وصف حسي ، حيث ترى في وجوههم الوضاءة والنور ، فلا تكاد ترى أحدهم إلا وترتاح نفسك لرؤيته ، وهذا فعل الوضوء بالوجوه ، وهذا أيضا شاخص ماثل في التوراة ، فالصورة التمثيلية لم تذكر لك طرفين ، مشبها ومشبها به ، بل ظهر المعنى في معرض التمثيل ، وهذا مختلف عن

الصورة السابقة ، صورة مجيء المعاني أولا ، ثم إتباعها بالتمثيل .

ولا ينبغي أن تمر علينا هذه الآيات دون وقفة ، فالأمة التي يشتد تراحمها فيما بينها ، ويظهر تعاطفها على بعضها ، أمة منتصرة ، أمة مرحومة ، وحين ترى أمة يشتد بأسها على بعضها ، ويكثر عدوان بعضها على بعض فاعلم أنها أمة قد ضلت الطريق ، وتنكبت السبل ، ولعب برأسها الشيطان ، أقول هذا وأنا أرى في مصرنا من يقتل أخاه بدعوى باطلة ، ويتودد إلى عدوه بدعوى أشد بطلانا ، أقول هذا وأنا أرى البيت الواحد يتفكك وتنحل عراه ، ويكيد بعضه لبعض ، في الوقت الذي تتلمس فيه العيون نظرة رضى من العدو ، أليس في ذلك قلب للأمور ؟! أليس في ذلك ابتعاد عن محمد ﷺ والذين معه ، وإذا لم نكن مع محمد والذين معه فاين موقعنا ياقوم ؟ !!! إن لم تكن في الجنة فأين أنت؟ !! إن لم تكن متصفا بهذه الصفات (أشداء على الكفار رحماء بينهم) فما صفاتك ؟ وأين أنت ، ومن تكون ؟ وإن لم تغظ الكفار فمن تغيظ ؟؟!!

غموض المعنى في التمثيل :

إن التمثيل يجمع لك في الصورة عدة عناصر ، كل منها يحتاج إعمال فكر العنصر الأول هو التركيب في الطرفين ، أو على الأقل في المشبه به ، والعنصر الثاني هو الهيئة المنتزعة من أجزاء في وجه الشبه ، والعنصر الثالث هو التأول وكل هذه العناصر تضفي على الصورة الغموض الذي يزيد المعنى شرفا ولا يُعقّده ، **يقول عبد القاهر** :

(المعنى إذا أتاك ممثلا فهو في الأكثر ينجلي لك بعد أن يحوجك إلى طلبه بالفكرة ، وتحريك الخاطر له ، والهمة في طلبه ، وما كان منه ألطف كان امتناعه عليك أكثر ، وإباؤه أظهر واحتجابه أشد ، ومن المركوز في الطبع أن الشيء إذا نيل بعد الطلب له ، أو الاشتياق إليه ومعاناة الحنين نحوه كان نيله أحلى وبالميزة أولى ، فكان موقعه من النفس أجل وألطف ، وكانت به أضن وأشغف وكذلك ضرب المثل لكل ما لطف موقعه ببرد الماء على الظمأ كما قال :

(وهن ينبذن من قول يصبن به مواقع الماء من ذي الغلة الصادي)

وأشباه ذلك مما ينال بعد مكابدة الحاجة إليه وتقدم المطالبة من النفس به فإن قلت : فيجب على هذا أن يكون التعقيد والتعمية وتعمد ما يكسب المعنى غموضا مشرفا له وزائدا في فضله ، وهذا خلاف ما عليه الناس ألا تراهم قالوا : إن خير الكلام ما كان معناه إلى قلبك أسبق من لفظه إلى سمعك ؟

فالجواب : أنى لم أرد هذا الحد من الفكر والتعب ، وإنما أردت القدر الذي يحتاج إليه في نحو قوله :

(فإن المسك بعض دم الغزال)

وقوله:

(وما التأنيث لاسم الشمس عيب ولا التذكير فخر للهلال)

وقوله:

(رأيتك في الذين أرى ملوكا كأنك مستقيم في محال)

وأشباه ذلك مما يُنال بعد مكابدة الحاجة إليه، وتقدُّم المطالبة من النفس به فإنك تعلم على كل حالٍ أن هذا الضرب من المعاني ، كالجوهر في الصَدَف لا يبرز لكَ إلاّ أن تشُقَّه عنه ، وكالعزيز المُحْتجب لا يُريك وجهه حتى تستأذِن عليه .

ثم ما كلُ فكر يهتدي إلى وجهِ الكَشْفِ عمَّا اشتمل عليه ، ولا كُلّ خاطر يؤذَن له في الوصول إليه ، فما كل أحد يفلح في شقّ الصَدَفة، ويكون في ذلك من أهل المعرفة، كما ليس كلُّ من دنا من أبواب الملوك، فُتحت له ، **وكان:**

مِنَ النَّفَرِ البيضِ الَّذِينَ إذَا اعتَزَوْا وهابَ رجالٌ حَلْقَةَ البَابِ قَعْقَعُوا

وأما التعقيد، فإنما كان مذموماً لأجل أن اللفظ لم يرتَّب الترتيبَ الذي بمثله تحصُل الدَّلالة على الغرض، حتى احتاج السامع إلى أن يطلبَ المعنى بالحِيلة ، ويسعى إليه من غير الطريق) (١).

وهذا الكلام مما لا يزاد عليه ، ولا يحسن معه ، إلا نقله دون زيادة .

تأثير التمثيل وأسبابه

لقد تبين لك أن التشبيه هو جوهرة تاج البلاغة العربية ، وأصل بنيانها وأن التمثيل يقف في القمة من التشبيه ، فهو واسطة العقد ، وزبدة الأمر ، ولقد أفاض في الاستدلال على مكانته الإمام عبد القاهر ، وذكر الشواهد المتنوعة وحدد وجه التأثير ، ومن أين تأتيه البراعة ، **وجمع ذلك كله في أسباب ثلاثة :**

السبب الأول : إخراج المعنوي في صورة المحسوس .

---

١ - أسرار البلاغة ١١٨.

فقال :((وإذا بحثنا عن ذلك وجدنا له أسبابا وعللا ، كل منها يقتضي أن يضخم المعنى بالتمثيل وينبل ، ويشرف ويكرم ، فأول ذلك وأظهره أن أنس النفوس موقوف على أن تخرجها من خفي إلى جلي، وتأتيها بصريح بعد مكني وأن تردها في الشيء تعلمها إياه إلى شيء أخر هي بشأنه أعلم ، وثقتها به في المعرفة أحكم ، نحو أن تنقلها عن العقل إلى الإحساس ، وعما يعلم بالفكر إلى ما يعلم بالاضطرار والطبع ، لأنه العلم المستفاد من طرق الحواسأو المركوز فيها من جهة الطبع وعلى حد الضرورة يفضل المستفاد من جهة النظر والفكر في القوة والاستحكام ، وبلوغ الثقة فيه غاية التمام ، كما قالوا :

(ليس الخبر كالمعاينة ولا الظن كاليقين) فلهذا يحصل بهذا العلم هذا الأنس أعنى الأنس من جهة الاستحكام والقوة.

وضرب أخر وهو ما يوجبه تقدم الألف كما قيل ما الحب إلا للحبيب الأول، ومعلوم أن العلم الأول أتى النفس أولا من طريق الحواس والطباع ثم من جهة النظر والروية ، فهو أذن أمس بها رحما ، وأقوى لديها ذمما ، وأقدم لها صحبة ، وأكد عندها حرمة ، وإذا نقلتها في الشيء بمثله عن المدرك بالعقل المحض وبالفكرة في القلب ، إلى ما يدرك بالحواس أو يعلم بالطبع وعلى حد الضرورة فأنت كمن يتوسل إليها للغريب بالحميم ، وللجديد الصحبة بالحبيب القديم ، فأنت أذن مع الشاعر إذا وقع المعنى في نفسك غير ممثل ثم مثله كمن يخبر عن شيء من وراءه حجاب ثم يكشف عنه الحجاب ، ويقال: هاهو ذا فأبصره تجده على ما وصفت) (١).

---

١ - أسرار البلاغة ص ١٠٢ وما بعدها .

والذي أريد أن أعيده عليك أن التمثيل يحدث في النفس أنساً ، ويمكن فيها المعنى ، ويبعد عنها الشك فيه ، وهذا كله ثمرة إخراج المعنوي في صورة المحسوس .

السبب الثاني : جمعه بين الأمور المتنافرة المختلفة :

وأعني به الجمع بين أمور تظهر للعيان متنافرة مختلفة لكن بينها من الاتصال ما لا يدركه إلا الخبير ، وليس القصد أنك تجمع بين أمور لا رابط بينها وحين ترى ما لايراه غيرك من جهات اتصال بين أمور تبدو متباعدة متنافرة يكون ساعتها الإبداع والعبقرية ، ويكون الحذق والأستاذية ،ولقد روى الأصمعي عن أبي عمرو بن العلاء أن جريرا قال لعدي بن الرقاع : أنشدني **فأنشده قصيدته التي أولها :**

عرف الديار توهما فاعتادها ... من بعد ما شمل البلى أبلادها

فقلت في نفسي : ركب والله مركبا صعبا ، ولعله سيبدع فيه ، فما زال يتخلص **من حسن إلى حسن حتى قال :**

تزجي أغن كأن إبرة روقه ،فرحمته ، وقلت في نفسي : قد وقع ، ما عساه يقول وهو أعرابي جلف جاف ؟ !! فلما قال : قلم أصاب من الدواة مدادها حسدته)(١).

وأنا أقول إن حسده هنا سببه أنه جمع بين أمرين لا يجتمعان في عقل أعرابي ، فالأعراب أبعد الناس عن الدواة والمداد ، وقرن الشاة في دقته لا يمكن

١ - الكامل للمبرد ٣/ ١٠٤.

أن يشبه إلا بمثل هذا ، ولعل هذا الجمع يقدر عليه من عاش بين الدفاتر والكتب ، لكن أن يجتمع الأمران في ذهن أعرابي فهذا من العجب .....

(وإذا استقريت التشبيهات العربية وجدت التباعد بين الشيئين كلما كان أشد كانت إلى النفوس أعجب ، وكانت النفوس لها أطرب ، وكان مكانها إلى أن تحدث الأريحية اقرب ، وذلك أن موضع الاستحسان ومكان الاستظراف والمثير للدفين من الارتياح والمتألف للنافر من المسرة والمؤلف لأطراف البهجة انك ترى بها الشيئين مثلين متباينين ، ومؤتلفين مختلفين ، وترى الصورة الواحدة في السماء والأرض ، وفي خلقة الإنسان وخلال الروض ، وهكذا طرائف تنثال عليك إذا فصلت هذه الجملة ، وتتبعت هذه اللمحة ، ولذلك تجد تشبيه البنفسج ومبنى الطباع وموضوع الجبلة على ان الشيء إذا ظهر من مكانه لم يعهد ظهوره منه وخرج من موضع ليس بمعدن له كانت صبابة النفوس به أكثر وكان بالشغف منها أجدر فسواء في إثارة التعجب وإخراجك إلى روعة المستغرب وجودك الشيء في مكان ليس من امكنته ووجود شيء لم يوجد ولم يعرف من أصله في ذاته وصفته ولو أنه شبه البنفسج ببعض النبات او صادف له شبها في شيء من المتلونات لم تجد له هذه الغرابة ولم ينل من الحسن هذا الحظ وإذا ثبت هذا الأصل وهو أن تصوير الشبه بين المختلفين في الجنس مما يحرك قوى الاستحسان ويثير الكامن من الاستظراف فإن التمثيل أخص شيء بهذا الشان وأسبق جار في هذا الرهان وهذا الصنيع صناعته التي هو الإمام فيها والبادىء لها والهادي إلى كيفيتها وأمره في ذلك أنك إذا قصدت ذكر ظرائفه ، وعدّ محاسنه في هذا المعنى ، والبدع التي يخترعها بحذقه ، والتأليفات التي يصل إليها برفقة

ازدحمت عليك ، وغمرت جانبيك فلم تدر أيها تذكر ولا عن أيها تعبر **كما قال** :

(إذا أتاهـــا طالـــب يســـتامها تكـــاثرت في عينـــه كرامهـــا)

وهل تشك في أنه يعمل عمل السحر في تأليف المتباينين ، حتى يختصر بعد ما بين المشرق والمغرب ، ويجمع ما بين المشئم والمعرق ، وهـو يريـك للمعـانى الممثلة بالأوهام شبها في الأشـخاص الماثلـة والأشـباح القائمـة ، وينطـق لـك الأخرس ، ويعطيك البيان من الأعجم ، ويريك الحياة في الجماد ، ويريك التئـام عين الأضداد ، فيأتيك بالحياة والموت مجموعين ، والماء والنار مجتمعين ، كما يقال في الممدوح : هو حياة لأوليائه ، موت لأعدائه ، ويجعل الشيء من جهة ماء ومن أخرى نارا ، **كما قال** :

(أنا نـار في مرتقـى نظـر الحاسـد مـــاء جـــار مـــع الإخـــوان)

وكما يجعل الشيء حلوا مرا ، وصابا عسلا ، وقبيحا حسنا ، **كما قال** :

(حســن في عيــون أعدائــه أقــبح مــــن ضــــيفه رأتــــه الســــوام)

ويجعل الشيء أسود أبيض في حال كنحو قوله :

(له منظر في العـين أبـيض ناصـع ولكنــه في القلــب أســود أســفع)

ويجعل الشيء كالمقلوب إلى حقيقة ضده **كما قال** :

(غـــرة بهمـــة ألا إنـــما كـــن ت أغـــرا أيـــام كنـــت بهـــيما)

ويجعل الشيء قريبا بعيدا معـا ، كقولـه دان عـلى أيـدي العفـاة وشاسـع وحاضرا وغائبا ، **كما قال** :

(أيـــا غائبـــا حـــاضرا في الفـــؤاد ســـلام عـــلى الحـــاضر الغائـــب)

ومشرقا مغربا كقوله :

(لــه إلــيكم نفــس مشرــقة　　　إن غــاب عــنكم مغربــا بدنــه)

وسائرًا مقيما ، كما يجيء في وصف الشعر الحسن الـذي يتداولـه الـرواة وتتهاداة الألسن **كما قال القاضي أبو الحسن :**

(وجوابــه الأفــق موقوفــة　　　تســير ولم تــبرح الحضرــة)

وكفى دليلا على تصرفه فيه باليد الصناع ، وإيفائه على غايات الابتداع انه يريك العدم وجودا والوجود عدما ، والميت حيا والحي ميتـا ، أعنـى : جعلهـم الرجل إذا بقى له ذكر جميل ، وثناء حسن بعد موته ، كأنه لم يمت ، وجعل الذكر حياة له)(١).

وهذا الذي ذكره الإمام لا أجد عليه مزيدا ، فقط يعاد ليرسخ فيا الأذهان فالجمع بين المتناقضات فضيلة من فضائل التمثيل ، **وعاود هذه العبارات :**

- يريك المعاني الممثلة بالأوهام شبها في الأشخاص الماثلة ، والأشباح القائمة .
- ينطق لك الأخرس ، ويريك البيان من الأعجم .
- يريك الحياة في الجماد .
- يريك التئام الأضداد .
- يجعل الموت حياة مستأنفة .
- يأتيك من الشيء الواحد أشياء عدة .

كل ذلك كامن في السبب الثاني من أسباب تأثير التمثيل في النفس .

١ - أسرار البلاغة ص ١١١ وما بعدها.

السبب الثالث : حاجته إلى إعمال فكر :

لأن الشيء إذا حصلته بعد لأي ، وإذا ظفرت به بعد جهد كان أكثر قربا من النفس ، ولو أنك لاحظت فرح النفس في الدنيا لوجدتها تفرح ، ويزداد فرحها إذا حصلت الشيء بعد طلبه ، والتعب في تحصيله ، فتراها مثلا : تفرح بشربة الماء إذا حصلتها بعد ظمأ ، وتفرح بالوصل إذا كن بعد صد وإعراض وتغتبط بالغنى إذا جاء بعد فقر ، وبالرخاء إذا كان بعد شدة .

وإعمال الفكر شيء والتعقيد والتعمية شيء آخر، إعمال الفكر يعني : أن الصورة لا يحصلها كل من هب ودب ، وليست مطروحة في الطريق يراها كل أحد ، إنما هي من المعاني الخاصة التي لا تكشف لك عن جوهرها إلا بعد أن تدفع لها مهرها من الجهد والتعب .

"التشبيه المقلوب"

من أنواع التشبيه التي يتفنن فيها التصوير التشبيه المقلوب ، وهو : أن يُجعلُ المشبَّهِ مشبَّهاً به ، والمشبه به يجعل مشبها ، وكأن المشبه أتم في الصفة من المشبه به ، فيصير الأصل فرعا ، ويصير الفرع أصلا ، ولقد صور القرآن الكريم هذه الحالة فحكى كلام المشركين حين أرادوا إيهام الناس بحِلّ الربا فجعلوا الربا أصلا في الحِل ، فقالوا :

﴿.... إِنَّمَا ٱلۡبَيۡعُ مِثۡلُ ٱلرِّبَوٰاْۗ ..... ﴾ [سورة البقرة:٢٧٥]

لاحظ هذا ، وأعد قراءة الجملة (إنما البيع مثل لربا) والأصل هو : إنما الربا مثل البيع ، لأننا في حديث الحلال والحرام ، والدين الإسلامي يحرم الربا لأنه استغلال للفقراء ، فرد المشركون ذلك ورفضوه ، وكان عليهم إن أرادوا التعليل لأكلهم الربا أن يقولوا :

إنما الربا تعامل مثل البيع في الحل ، والبيع ليس موطن شك ، أو اعتراض من أحد في أنه حلال ، لكنهم جاوزوا هذا ، وقالوا : إن الأصل في الحل هو الربا ، ويقاس عليه البيع ، وهذا خلط للأوراق ، وادعاء الباطل ، لأنهم اعتمدوا على أن الربا يأتي بالربح الوفير ، فهو أحل من البيع ، ألم أقل لك : إنها حالة من حالات القلب في المفاهيم ، **ومن نماذج التشبيه المقلوب أيضا قول الأصبهاني في المأمون :**

(العُذرُ إن أنصفتَ مُتَّضِحُ ... وشَهِيدُ حُبِّك أدمعٌ سُفُحُ)
(فضَحَت ضَمِيرَك عن وَدائِعِه ... إنّ الجُفُونَ نَواطِقٌ فُصُح)
(وإذا تكلَّمَت العُيون على ... إعجامِها فالسِّرُّ مُفتضِحُ)
(رُبما أَبيتُ مُعانِقي قَمَرٌ ... للحُسْن فيه مخايل تَضِحُ)
(نَشَرَ الجمالُ على محاسِنه ... بِدَعَاً وأذهَبَ هَمَّه الفَرحُ)
(يَختال في حُلَلِ الشّباب به ... مَرَحٌ ودَاؤُك أنه مَرِحُ)
(ما زال يُلثِمُني مراشِفَه ... ويَعُلُّني الإبريقُ والقَدَحُ)
(حتى استرَّد اللّيلُ خِلْعَتَه ... ونَشَا خِلالَ سَوادِه وَضَحُ)
(وَبَدا الصَّباحُ كأن غُرَّتَه ... وَجهُ الخَلِيفةِ حين يُمتَدَحُ)

فوجه الخليفة في نظر الشاعر أصل في الضياء ، ومرجع في البهاء ، يمكن إلحاق الصباح به !!!وقد يستخدم الناس هذا فيقولون : الشمس كالدينار

والقمر كالرغيف ونحوذلك ، ومرادهم المبالغة في اكتمال الصفة في المشبه حتى كأنها الأصل ، والمرجع في الصفة .

ومن ذلك أيضا قول حافظ إبراهيم :

أحـــن إلـــيهم ودونهـــم فـــلاة   كـــأن فســـيحها صـــدر لحلـــيم

فحافظ جعل صدر الحليم أوسع من الفلاة ، وأشهر في الاتساع ، حتى صح عنده أن يلحق به اتساع الفلاة ، وكل ذلك خيال ، وادعاء من الشاعر .

مـــن قـــاس جـــدواك يومـــا   بالســـحب أخطـــأ مـــدحك

الســـحب تعطـــي وتبكـــي   وأنـــت تعطـــي وتضـــحك

وكأنه يقول الأصل أن يشبه عطاء السحب بعطائك ، وليس العكس ، لأن عطاء السحب ناقص معيب ، فهو عطاء مع الضيق والبكاء ، أما عطاؤك فيعلو بالفرح ، ويسمو بالرضى .

والتشبيه المقلوب يمتاز عن غيره بتحريك النفوس ، وإثارة الإعجاب ولا يجوز لكل أحد السير على منواله ، لأنه لا يتقبل من كل متكلم ، كما أنه لا بد من وجود غاية من وراء هذا العدول عن الصورة الأصلية إلى الصورة المقلوبة وإلا كان الأمر من قبيل العبث ، بل إن بعض أهل العلم حفظوا ما جاء منه ورفضوا القياس عليه، **ومن نماذجه في الشعر العربي قول امرئ القيس :**

أصاحِ تَـرى بَرْقـاً أُريـكَ وَمِيضَـهُ   كَلَمْـعِ اليَـدَيْنِ في حَبِـيٍّ مُكَلَّـلِ

وراجع الصورة ليتبين لك وجه العدول ، إن في الصورة طرفين الأول وميض البرق ،والآخر حركة اليدين الصغيرتين ، ولك أن تتصور أيهما أكثر

بياضا ، وأيهما أسرع حركة حتى يشبه طرف بطرف ؟ إن العقل – أي عقل لن يشبه إلا حركة اليدين البيضاوين بحركة البرق الناتج يخرج منبينجنبات السحاب المركوم ، لكن امرئ القيس عكس ذلك ، ليأتيك بالمعنى العجيب القائمعلى الادعاء ، ولأن حركة اليدين لا تنفك عن الظهور للعيان فصارت أكثر حضورا من حركة البرق الذي لا يأتيك إلا بعد عنت وترقب .

وانظر إلى قول ابن المعتز:

وكأن الشمسَ المنيرة دينا ... رٌ جلته حديدةُ الضرَّاب

هل ترى ما يسوغ جعل الشمس – هنا –مشبها ، والدينار مشبها به ؟

إن الذي يسوغه النظر أن الشاعر يريد الاصفرار ، والاستدارة ، وشدة اللمعان والدينار قائم في اليد ، تتلمسه بأناملها ، فهو إلى الحس أقرب وأوضح من الصورة المنظورة للشمس ، كما أنه لا يصح في العقل تشبيه الدينار بالشمس زد على ذلك رغبة الشاعر في تقريب الشمس إلى السامعين حتى يتلمسوها فقربت إليهم في صورةالدينار الذي تتحسسه كل يد .

ولا مجال هنا للحديث عن ناقص وكامل ، بل الحديث هنا عن قريب وبعيد ، فجعل البعيد مشبها ، وجعل القريب مشبها به ، لأن من أغراض التشبيه تقريب المعاني ، فقيل البعيد كالقريب ،وهذا مسوغ تقبله اللغة وتستحسنه البلاغة ، أو أن الأمر خرج على محمل الادعاء ،وعند الادعاء يجوز كل شيء ، والعرب تعكس التشبيه فيشبهون النجوم بالمصابيح كما يشبهون

المصابيح بالنجوم ، ويشبهون الخد بالورد كما يشبهون الورد بالخد ، ويشبهون السيف بالبرق ، كما يشبهون البرق بالسيف ، ويشبهون غرة الفرس بالصبح كما يشبهون الصبح بغرة الفرس .... .إلخ.

ولو أنك راجعت كل صورة لوجدت المشبه به – أيا كان – قد عظم في نفس المتكلم ، وإن كان ناقص في الصفة ، لكنه لما عظم في نفسه حقيقة أو ادعاء ، بالغ في هذا وجعله عمدة في الصفة ، وأسكنه بيت المشبه به ، ليرسم للمتلقي رسوخه واكتماله في الصفة ، فالأديب لا يحكي واقعا يراه كل الناس وإنما يحكي واقعا استقر في ضميره هو ، وعلينا أن نتعامل مع الصورة حيث هي في نفس قائلها ، وليس حيث هي في نفوس الناس ، وأعني بهذا أن التشبيه المقلوب هو في حقيقة الأمر مقلوب عندنا نحن ، وليس مقلوبا عند قائله بل جاء موافقا لما في ضميره ، ولذلك تراه يدافع عنه ، ويعلل له ، ويستشهد على صدقه بكل ما لديه من شواهد ، **مثل ما فعل الشاب الظريف حين قال :**

مـا بـينَ هجـرِكَ والنَّـوى قَـدْ ذُبْـتُ مِـنْ أَلَمِ الجَـوى
وحيـاةِ حُبِّـك لا سـلا قلـبُ المُحـبِّ ولا نَـوى
يـا مَـنْ حَكَـى بقوامِـهِ قـدَّ القضـيبِ مُـذُ التـوى
لِي نـاظِرٌ ظـامٍ إلى لُقيـاكَ بالـدَّمْعِ ارتـوى
يـا أحـوراً عُلِّقتُـهُ أحـوى لرقِّـي قـدْ حَـوَى
يَـا فَـاتِنِي بِمَعَـاطِفٍ سَـجدتْ لَهَـا قُضُـبُ اللِّـوَى
كـمْ لي ديـونٌ عِنـدَ صُـدْ غـكَ قـدْ لَواهَـا والتَـوى

مــن قـــاسَ قــدّكَ بالقضيـــ ـــبِ رشـــاقةً فَلقـــدْ غَـــوَى
مـا أَنْـتَ عِنْـدي والقَضِـيبُ اللَّــ ــــدْنُ في حَـــدٍّ سَـــوَى
هـــذاكَ حَرَّكـــه الهَـــوَا ءُ وأنـــتَ حَرَّكـــتَ الهَـــوى

راجع هذا الاستدلال المنطقي الذي أراد الشاعر العباسي أن يقنعنا بـه ، ولقد فعل .

التشبيه الضمني

للتشبيه طريقة معهودة ، وصورة متفق عليها ، يذكر فيها الطرفان ، ويُربط الطرف الثاني بالطرف الأول عن طريق أداة التشبيه ، كقوله - ﷺ - (لعن المؤمن كقتله) فالحرمة في اللعن كالحرمة في القتل ، فإذا كنت قد تحققت من حرمة القتل وعرفت مدى فظاعتها فاعلم أن حرمة اللعن تشبهها ، وفي ذلك من التفظيع ما فيه ، هكذا درجت الصورة التشبيهية ، وهكذا استقرت في العقل البلاغي ، لكن المتكلم قد يعدل عن ذلك ، ويسير في طريق لا يصرح فيه بالتشبيه ، ولكنه يفيده ، ويستره خلف الكلام ، فيقرن جملة بجملة ، يُفهم من اقترانهما تشبيه إحداهما بالأخرى ، فكأنه تشبيه ، لكنه بعيد عن القواعد المعروفة وفي هذا إثارة للقارئ ، وإيقاظ لكوامن الخيال فيه ، فيقوم ليربط هو ما ترك المتكلم ربطه ، وحين يشارك في هذا كأنه شارك في رسم الصورة ، فيحدث له من الإمتاع ما لا مزيد عليه ، إنه تشبيه ، إن سألت عن نيّة المتكلم ، وليس تشبيها إن فتشت في قواعد بلاغة التشبيه ، ولكن العبارة تدل عليه ، وتخبئه تحت تركيبها وتستره في صياغتها .

ولعلك تستعمله دون قصد ، والناس يتداولونه في كلامهم حين تسمعهم يقولون : هذا أمر أوضح من الشمس ، وهند أجمل من القمر ، وهكذا ، ودعنا نرى نموذجا من القرآن الكريم أولاً :

قـــال الله تعـــالى : ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱجۡتَنِبُواْ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعۡضَ ٱلظَّنِّ إِثۡمٞۖ وَلَا تَجَسَّسُواْ وَلَا يَغۡتَب بَّعۡضُكُم بَعۡضًاۚ أَيُحِبُّ أَحَدُكُمۡ أَن يَأۡكُلَ لَحۡمَ أَخِيهِ مَيۡتٗا فَكَرِهۡتُمُوهُۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ تَوَّابٞ رَّحِيمٞ ١٢﴾ [سورة الحُجُرات:١٢]

فالآية تجعل من يغتب أخاه ، يأكل لحمه وهو ميت ، مع أنها لم تصرح بهذا الوصف ، لكنها نهت عن الغيبة ، ثم تساءلت من يحب أكل لحم أخيه ؟ !!! فارتبط في الذهن أكل لحم الميت والغيبة ، وعقدت الأواصر بين الحالتين ، وهذا أسلوب اعتادته العربية ، ودرجت عليه ، حتى أصبح معلوما لكل قارئ

وراجع أيضا قول المتنبي مادحا الحسين بن على الهمداني :

يَرومُونَ شأوي في الكَلامِ وإنّمَا ... يحاكي الفتى فيها خَلا المَنطقَ القِردُ
فَهُمْ في جُموعٍ لا يراها ابنُ دأيَةٍ ... وهم في ضَجيجٍ لا يُحسّ به الخلدُ
ومني استفادَ النّاسُ كُلَّ غَريبَةٍ ... فازوا بتَرْكِ الذّمّ إن لم يكنْ حمدُ
وجَدْتُ عَليّاً وابنَهُ خيرَ قوْمِهِ ... وهم خيرُ قوْمٍ واستوَى الحُرُّ والعبدُ
وأصْبَحَ شِعري منهُما في مكانِهِ ... وفي عُنُقِ الحَسْناءِ يُستَحسنُ العِقدُ

فهذا أحسن ما سمع في وضع الشيء في موضعه ،(١) أليس تراه يجمع بين الشِعر والعقد ، وبين الممدوح والحسناء ، وبين قول الشعر في مدح الممدوح ووضع العقد في العنق !! ثم الشهرة والصيت وذيوع الخبر بالزينة والبهاء في وضع العقد على العنق ، وهذه كلها روابط يسرع بها العقل ، وإن لم ينطق بها اللسان . **وانظر إلى قول الشاعر :**

---

١ - وعلى نقيضه قالوا أيضا : لم يسمع أحسن من وضع الشيء في غيرموضعه مثل قول أبي الفرج :
(مر مدحي ضائعا في لؤمه ... كضياع السيف في كف الجبان)

سيذكرني قومي إذا جد جدهم وفي الليلة الظلماء يفتقد البدر

حيث تفهم من ذلك أنه يشبه ما حل بقومه بالليل المظلم ، ويشبه نفسه بالبدر ، واحتياج الناس له ليضيء لهم أمور حياتهم ، كاحتياج الليل للبدر وهذا واضح . **وفي قول أبي تمام :**

لا تنكري عطَل الكريم من الغنى السيل حرب للمكان العالي

فالأسلوب نهي وتعليل ، نهي لها عن لومه على فقره ؟ لماذا لأنه كريم عالي الشأن ، لا يبقي على خير في يده بل يجود به على من دونه ، تماما مثل المكان العالي إذا هطل عليه السيل ، أرأيتم قمة جبل تبقي على الماء ؟ هكذا أراد الشاعر أن يبين كرمه مع ذكر الدليل من عالم الطبيعة ، **ويقول أبو العتاهية :**

لا تأمن الموت في طرف ولا نفس وإن تمنَّعت بالحجَّاب والحرسِ
فما تزال سهام الموت نافذةً في جنب مدَّرع منها ومتَّرسِ
أراك ليس بوقَّاف ولا حذر كالحاطب الخابط العشواء في الغلسِ
ترجو النَّجاة ولم تسلك طريقتها إنَّ السفينة لا تجري على يبسِ
أنَّى لك الصَّحو من سكر وأنت متى تصحُّ من سكرة تغشاك في نكسِ
ما بال دينك ترضى أن تدنِّسه الد نيا وعرضك مغسول من الدَّنسِ
لا تأمن الحتف فيما تستلذُّ به لانت ملامسه في كفِّ ملتمسِ
الحمد لله شكراً لا شريك له كم من حبيب من الأهلين مختلسِ

فهو يشبه فعله ، وقلة جدواه بمن يصنع سفينة ليسير بها على اليابسة

ويقول ابن الرومي في رائعته الميمية :

قلبي من الطرفِ السَّقيم سقيمُ	لو أنَّ من أشكو إليه رحيمُ
أضحى يُنَغِّصُني النسيمَ نسيمُه	أفلا يُهنيني النسيمَ نسيم
مِنْ وجهها أبداً نهارٌ واضحٌ	من فرعها ليلٌ عليه بهيم
إنْ أقبلتْ فالبدرُ لاح وإن مَشَتْ	فالغصنُ راح وإنْ رنَتْ فالرِّيم
نعمتْ بها عَينِي فطالَ عذابُها	ولكَمْ عذابٌ قد جناه نعيم
نظرتْ فأقصدتِ الفؤادَ بسهمِها	ثم انثنَتْ نَحْوِي فكِدتُ أهيم
ويْلاهُ إنْ نَظَرتْ وإن هِيَ أعْرضتْ	وقْعُ السِّهام ونَزْعُهُنَّ أليم
وممّا دَهَتْنِي دون عيني عينُها	لكنَّ غِبَّ النظرتيْن وخيم
ولما البليَّةُ من خصيمٍ واحدٍ	مالم يكن للمرء منه خصيم
يا مستحلَّ دمي مُحَرِّم رَحْمَتي	ما أنصفَ التحليل والتحريم

فقد ربط بين النظر ورمي السهام ، كما ربط بين الإعراض ونزع السهام وكل ذلك محاط ومشمول بالألم ، وهذا من أعجب صور التشبيه الضمني .

ويقول ابن المعتز :

اصْبِرْ عَلَى مَضَضِ الْحَسُو	دِ فَإِنَّ صَبْرَكَ قَاتِلُهْ
فالنَّارُ تأَكُلُ بَعْضَهَا	إِنْ لَمْ تَجِدْ مَا تَأْكُلُهْ

حيث شبه فعل الصبر على غيظ الحسود بفعل النار في بعضها إن فني الحطب منها ، وكل ذلك مفهوم من الكلام دون أن ينص عليه ، فالتشبيه الضمني (لا يوضعُ فيه المشبَّهُ والمشبَّهُ به في صورةٍ من صورِ التشبيهِ المعروفةِ بل يلمحُ المشبَّهُ والمشبَّهُ به ، ويفهمانِ من المعنَى، ويكونُ المشبَّهُ به دائماً برهاناً على إمكانِ ما أُسندَ إلى المشبَّه ، **كقول المتنبي** :

لا افْتِخارٌ إلاّ لِمَنْ لا يُضامُ ... مُدْرِكٍ أوْ مُحارِبٍ لا يَنَامُ

لَيسَ عَزْماً مَا مَرّضَ المَرْءُ فيهِ ... لَيسَ هَمّاً ما عاقَ عنهُ الظّلامُ

واحتِمالُ الأذَى ورُؤيَةُ جانِيهِ ... غِذاءٌ تَضْوَى بهِ الأجسامُ

ذَلّ مَنْ يَغْبِطُ الذّليل بعَيشٍ ... رُبّ عَيشٍ أخَفُّ منْهُ الحِمامُ

كُلُّ حِلْمٍ أتَى بغَيرِ اقْتِدارٍ ... حُجّةٌ لاجىءٌ إلَيها اللّئَامُ

مَنْ يَهُنْ يَسْهُلِ الهَوَانُ عَلَيهِ ... ما لجُرْحٍ بمَيّتٍ إيلامُ

ضاقَ ذَرْعاً بأنْ أضيقَ بهِ ذَرْ ... عاً زَماني واستكرَمَتْني الكِرامُ

واقِفاً تحتَ أخْمَصَيْ قَدْرِ نَفسي ... واقِفاً تحتَ أخْمَصَيّ الأنَامُ

أقَراراً ألَذُّ فَوْقَ شَرارٍ ... ومَراماً أبْغي وظُلْمي يُرامُ

دونَ أنْ يَشرَقَ الحِجازُ ونَجْدٌ ... والعِراقانِ بالقَنَا والشّامُ

أيْ أنَّ الذي اعتادَ الهوانَ، يسهلُ عليه تحمّلُه، ولا يتألمُ له، وليس هذا الادعاءُ باطلاً ،لأنَّ الميتَ إذا جرِحَ لا يتألمُ، وفي ذلك تلميحٌ بالتشبيهِ في غير صراحةٍ ، وليس على صورةٍ من صورِ التشبيهِ المعروفة.

ولا شك أن هذه الصورة تبرز وجها جديدا من أوجه التشبيه بحيث تريك التشبيه دون أن تصرح به ، فهي صورة تخاطب شعورك وإحساسك وفي الوقت نفسه تخاطب فطنتك وعقلك الذي يربط بين أمري ، ويجمع بينهما بأداة التشبيه ، ودعني أذكرك بجمال هذا الفن من القول ، إن التشبيه الضمني يذكر لك المعنى مع دليله وبرهانه ، ويقرب لك البعيد ،بل والمستحيل حتى تراه دانيا ، ويترك لك التصريح حتى لا تمل ، ويأتيك بالمعنى عليه غلالة ، ويدعوك لتشاركه في إنتاج المعنى فيزيدك شغفا ، وحبا وإثارة ، وهذا كله يرفع من قيمة هذه الصورة .

التشبيه البليغ

حين تزداد صفات الاتحاد بين المشبه والمشبه به ، تتخلص الصورة من كل شيء يشعرك بأن هناك فروقا بين الطرفين ، فتجد الصورة تكاد تلامس باب الاستعارة ، وتجد الصورة قد احتلت أولى درجات الاتحاد بين الطرفين ، فلا تجد أداة رابطة ، كيف ولا فرق بين المشبه والمشبه به ؟ ، ولا تجد وجه شبه بين الطرفين مذكورا ، كيف والأول عين الثاني ؟، ومن هنا تعلو المشابهة حتى تصل إلى عتبات التوحد بين المشبه والمشبه به ، وهذا ما يقال له التشبيهُ البليغُ .فالتشبيه البليغ : هو الذي حُذفتْ فيه أداةُ التشبيهِ ووجهُ الشبَّهِ .

وهذا الحذف إنما هو تخلص من عوامل البعد بين الطرفين ، وراجع معي **قول الله تعالى:**

﴿ ....**هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ** .... ﴾ [سورة البقرة:١٨٧]

هل تحس بأن الكلام على التشبيه ؟ إن الكلام هنا كأنه على الحقائق ، فلقد تحول الزوج إلى لباس لزوجه ، وتحولت الزوجة إلى لباس لزوجها ، واللباس هنا يعنى الستر ، وهذا التحول استدعى حذف الأداة والوجه ، حتى لا يقال هن كاللباس في ستر ما تحته ، لأنه لو قيل هذا ، لتخيلنا ضعف هذا الستر وتهرأه وانكشاف جل ما تحته ، لكن حذف الأداة والوجه قلب كلا منهما إلى لباس وستر وغطاء على الحقيقة ، **وانظر إلى قول علي بن محمد التهامي** :

حكمُ المنيَّة في البريَّة جارِ ... ما هذه الدنيا بدار قرارِ

بينا يُرى الانسانُ فيها مخبراً ... حتى يُرى خبراً من الاخبار

طُبعت علـى كـدرٍ وأنـت تريـدُها | صـفواً مــن الأقــذاء والأكــدار
ومكلّـف الأيّـامِ ضـدَّ طباعهـا | متطلّـــبٌ في المـــاءِ جـــذوة نـــار
وإذا رجـوتَ المسـتحيل فـإنما | تبنــي الرَّجــاء عــلى شــفيرٍ هــار
فــالعيشُ نــوم والمنيّــة يقظــة | والمــرءُ بيــنهما خيــالٌ ســار
والنفسُ إن رضيت بذلك أو أبت | منقـــادةٌ بأزمـــة المقـــدار
فاقضُـوا مـآربكم عجـالاً إنـما | أعماركــم ســفرٌ مــن الأســفار
وتراكضوا خيل الشباب وبـادروا | أن تســـتردَّ فـــإنهن عـــوار
فالـدّهر يخـدعُ بـالمنى ويغـصّ إن | هنّـــا ويهـــدم مـــا بنـــى ببـــوارِ
ليس الزمانُ وإن حرصـتَ مسـالماً | خُلــق الزمــان عــداوةُ الأحــرارِ

تجد أن الصورة التشبيهية تتوارى خلف الحقيقة التي تبرز الأعمار سفر من الأسفار ، فليس ههنا صورة تشبيه الأعمار بالأسفار ، إنما تحولت الأعمار إلى أسفار أو كادت ، وهذا ما يفعله حذف الوجه والأداة ، إنه ينسيك أن هناك ادعاءً ، ينسيك أن هناك تشبيهًا ، ويخبرك بأن هذا هو ذاك .، وراجع قبل هذا البيت هذه التشبيهات السريعة (فالعيش نوم) كذا حقيقة وليست تشبيهًا هكذا يراها الشاعر ، ثم يؤكد هذا بمعنى آخر ، وهو (والمنية يقظة) ثم معنى ثالث (والمرء بينهما خيال) ، إنه الإلحاح على أن مايراه حقيقة وإن كان الناس يرون غير هذا ، **وفي قول أبي طالب المأموني يمدح أبا الحسن المزني** :

(أراؤه بـيض الظبـى وحديثـه روض الربـى ويمينـه تيـار)
(ضمت على الـدنيا بـدائع لفظـه فكأنهـا زنـد وهـن سـوار)
(وإذا العلوم اسـتبهمت طرقاتها فـذووه أعـلام لهـا ومنـار)
(عزماتهم قضب وفـيض أكفهـم سـحب وبـيض وجـوههم أقـمار)
(خـتم الرياسـة بـالوزارة فـيهم أسـد لـه السـمر الـذوابل زار)

تجد الأبيات وقد قامت على التشبيه البليغ ، فالآراء سيوف قاطعات يعني أنها آراء جادة تفصل الحق عن الباطل ، وكذلك في حـديث تـراه متنوعـا غضـا طريا كأنه روض الربا ، والشاعر لم يقل : كأنه ، بل قـال (حديثـه روض الربـا) وتابع هذه النحيزة من بناء التشبيه لترى قيامها على المبتدأ والخبر ، فيمينـه تيـار ، وذووه أعلام ، وعزماتهم قضب ، وفيض أكفهم سحب ، وبيض وجوههم أقمار ، فالشاعر جهد في التأكيد على أن كلامه يكاد يخـرج مـن إطـار التشـبيه ليلحـق بإطار الوصف الحقيقي .ولو سألت عن وجه هذا لقيل لك إن وجه الشـبه كلـما كان قليل الظهور ، اهتزت النفس للصورة ، واقتربت من عالم الوصف الحقيقي ، فالمعنى في كون الشيء مثل الشيء لا يرقى إلى المعنى في كون الشي هـو الشيـء ، فذكر الطرفين فقط يقربك من اتحادهما ، وأن المشبه صار هو المشبه به ، وفي هـذا من المبالغة ما فيه ، فالبليغ من المبالغة في اعتبار المشبه عين المشبه به ، **نحوقوله** :

﴿ إِنَّمَا ٱلۡمُؤۡمِنُونَ إِخۡوَةٞ فَأَصۡلِحُواْ بَيۡنَ أَخَوَيۡكُمۡۚ ...... ﴾ [سورة الحُجُرات:١٠]

وقوله : ﴿ وَجَعَلۡنَا ٱلَّيۡلَ لِبَاسٗا ١٠ ﴾ [سورة النبأ:١٠].... **إلخ**

صورُ التشبيهِ البليغ

للتشبيهُ البليغُ صور عدة وهي :

أولا : أنَ يقعَ المشبَّهُ والمشبه به مبتدأ وخبراً ، كقول الزهاوي :

وكنّا نجوما أنت زهرة روضها وكنّا نجوما أنت من بينها البدرُ

ففي هذا البيت أربع صور تشبيهية قامت كلها على جعل المشبه والمشبه به متحدين ، لأنهما مبتدأ وخبر، أو أصلهما المبتدأ والخبر ، وأهل النحو يقولون المبتدأ عين الخبر ، والخبر عين المبتدأ ، وراجع بيت الشاعر لتعلم كيف بنى البيت على جملتين ، وكل جملة مكونة من كان واسمها وخبرها ، ثم رتب على كل جملة ثمرة ونتيجة من مبتدأ وخبر ، وجاء في المبتدأ بكلمة (أنت) وجاء الخبر الأول (زهرة) والخبر الثاني (البدر) وهذا الإحكام في التركيب ، وهذه الصنعة المتقنة هي التي رفعت من قدر الصور التشبيهية ، وارتقت بها إلى مصاف الصور البديعة ، فليس الفن والإبداع في التشبيه البليغ منفردا ، بل في إحكام الصورة وحبكها ، وروعة بنائها .

ومنه قول الشاعر :

شاع بؤسُ الأطفالِ و البؤسُ داءٌ لو أُتيحَ الطبيبُ غيرُ عضال

ثانيا : قصر المشبه على المشبه به : كقول الرصافي:

اذا ما عق موطنهم أناسٌ ولم يبنوا به للعلم دورا

فإن ثيابهم أكفان موتى وليس بيوتهم إلا قبورا

راجع هذه الصورة ، (وليس بيوتهم إلا قبورا) تجد أن الشاعر جاء بالتشبيه البليغ ، وسكب عليه من عوامل التوكيد أقواها ، وأشده تأثيرا وهو القصر ، وهو أشبه بقصر القلب ، حتى لا يظن أحد أن في بيوتهم معنى غير القبور ، فإن شك أحد في ذلك ، فليراجع نفسه ، فليست بيوتهم إلا قبورا .

ثالثا : إضافة المشبه به إلى المشبه كقول الشاعر:

لله نَهْرٌ سال في بَطْحاءِ — أَحْلَى وُرُودًا مِن لَمَى الحَسْناءِ
مُتعطِّفٌ مِثلُ السِّوَار كأنَّهُ — والزهْرُ يكنُفُه مجرُّ سماءِ
(قد رق حتى ظن قرصا مفرغا — من فضة في بردة خضراء)
(وغدت تحف به الغصون كأنها — هدب تحف بمقلة زرقاء)
(ولطالما عاطيت فيه مدامة — صفراء تخضب أيدي الندماء)
(والريح تعبث بالغصون وقد جرى — ذهب الأصيل على لجين الماء)

والشاهد في البيت الأخير ، حيث وصف فعل الريح حين تهب فتتمايل الغصون ، وتتشابك وتضطرب ،وكأن الريح تعبث بها ، وهذا الأمر يجري في وقت محدد ، وهو بعيد العصر إلى ما قبل المغرب ، حيث تتساقط أشعة الشمس ، وتسمى وقتئذ شمس الأصيل ، تتساقط أشعة الشمس هذه على صفحة الماء الصافي النقي الذي يشبه في نقائه وصفائه الفضة (اللجين) . والشاعر هنا أضاف المشبه به (اللجين إلى المشبه (الماء) ليشعرك أنهما صارا شيئا واحدا ، لأن المضاف والمضاف إليه كالشيء الواحد.

رابعا : أن يكون المشبه به مفعولا مطلقا .

ومثال ذلك قوله تعالى :

﴿ وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ ..... ﴾ [سورة النمل:٨٨]

فكلمة (مر السحاب) مفعول مطلق أضيف إلى كلمة السحاب والمعنى : وهي تمر بسرعة وخفة ، وتبعثر تماما مثل السحاب ،وهذه كلها صورة مرئية ، ولذلك بدأ الصورة مخاطبا كل ناظر بقوله (وترى) ولا تنس أن الجبال جاءت في القرآن الكريم موصوفة بأنها كالعهن المنفوش ، وتسير سيرا ، ودكت دكا ، وهذه كلها معان متآزرة ، وترسم مشهد السرعة الذي معنا يوم القيامة .

و قال الشاعر:

إنَّ بنيَّ ضرجوني بالدم   من يلق آسادَ الرجالِ يُكْلَم

لاحظ قوله (آساد الرجال) أي الرجال الذين يشبهون الأسود ، فأضاف المشبه به إلى المشبه ، وهذا من أعلى صور التشبيه البليغ ، لأنه جمع الطرفين في كلمة واحدة .

خامسا : أن يكون المشبه به حالا من المشبه : تقول مثلا (حمَلَ القائدُ على أعدائِه أسدًا) تريد بـ (أسد) أنه يشبه الأسد في حمله على فريسته ، ومن ذلك الضرب قول ابن المعتز :

وبيضٍ بألحاظِ العيونِ كأنَّما   هَزَزْنَ سُيوفاً واستَلَلْنَ خَناجِرا

تَصدَّيْن لي يوماً بِمنعرَجِ اللِوى   فغادرْنَ قلبي بالتصبُّر غادِرا

سفَرْن بُدوراً، وانْتقبْنَ أهلَّةً ... مِسْنَ غُصوناً والتفتْنَ جآذِرا
وأطلعْنَ في الأجيادِ للوردِ أنجُماً ... جُعِلْن لحبَّاتِ القلوبِ ضَرائرا

ففي البيت الثالث أربعة تشبيهات جاء المشبه به على صورة الحال من المشبه ، مما يعنى توحده معه ، وقوة الشبه التي جعلت المشبه به حالة من حالات المشبه ، وهذا لا يصح معه المجيء بأداة التشبيه .

وأخيرا لعلك تستطيع الآن التفريق بين التشبيه البليغ والتشبيه المجمل في نوع المحذوف ، فإن كان المحذوف وجه الشبه فقط فالتشبيه من المجمل وإن كان المحذوف هو الوجه والأداة فالتشبيه تشبيه بليغ .

عوامل الجودة في التشبيه

اهتمت كتب البلاغة بذكر مواطن الجودة والحسن في التشبيه ، فلا يذكرون صورة تشبيهية إلا وعلقوا عليها بمدح أو بقدح ، مما يعني أن اهتمام البلاغة وأهلها إنما كان في البحث عن عوامل الجودة في الصورة ، وإلقاء الضوء على علة الحسن ،أو علة القبح ، وهذا الكتاب يحاول جمع هذه العوامل لتكون على ذكر منك إذا استحسنت صورة ، أو استقبحتها ، وأنا اذكر لك عوامل الحسن في الصورة التشبيهية

أولا : الجمع بين المتنافرات :

إن الأصل في الشرع ، وكذلك في العقل عدم الجمع بين المتنافرات لأن لكل شيء روحاً ، وما تناكر من الأرواح اختلف ، كما أن ما تعارف منها ائتلف ، وللتشبيه قدرة على جمع ما لايسوغ جمعه ، وربط ما لايمكن ربطه

وتقريب ما لم تعتد العين على التآلف ، أو التعالق ، أو التآخي بينه ، تلك هي قدرة التشبيه ، وإذا كان الذهن يستغني عن التشبيه في الجمع بين الأشياء فما قيمة التشبيه ؟

إن قيمة التشبيه تعلو وترقى كلما قويت على جذب ما لم تتعود القريحة على النظر إليه مجتمعا ، وربط المتنافرات التي لها أصل في العقل ، ولكنها خفية لا يدركها إلا الخواص ، والشيء إذا خرج من غير معدنه يلفت الانتباه ، وتفغر له الأفواه ، ويسحر العيون ، وتنصت له الآذان ، لأنها تحدث في النفس الدهشة والاستغراب والإعجاب يقول الإمام : «إذا استقريت التشبيهات وجدت التباعد بين الشيئين كلما كان أشد، كان إلى النفوس أعجب، وكانت النفوس لها أطرب ، وكان مكانها إلى أن تحدث الأريحية أقرب» زد على ذلك ما يفعله الجمع بين المتنافرات من معلومة جديدة تزيد العقل علما وخبرة لم تكن من قبل **وانظر إلى قول ذي الرمة :**

كأن مطايانا بكل مفازة ... قراقير في صحراء دجلة تسبح

والقراقير هي السفن الصغيرة ، والشاعر وصف سيرها في الصحراء بالسفن السابحة ، وأين ؟ في صحراء دجلة . وهذا من العجب لأن النفس حين تسمع " **دجلة** " تتذكر النهر ، ولا تتذكر الصحراء ، لكن الشاعر جعل السباحة هنا في الصحراء فجمع بين سير الإبل والسباحة في الصحراء ، وهذه أول درجات البعاد ، والشاعر حين يقرن بين الأشياء المتباعدة إنما يأسرك بقوة خياله وقدرته على رؤية ما لا يراه غيره ، فيأتي بالصورة الغريبة ؛ لتكون غرابتها أول

مراحل حسنها .ولقد ذكر صاحب الأغـاني قصـيدة للمنخـل اليشـكري يقولها في المتجردة ، وفيها :

(إن كنــتِ عــاذلتي فسـيري	نحــوَ العــراق ولا تَحــورِي)
(لا تســألي عــن جُــلّ مــا	لي واذكــري كرَمــي وخِـيري)
(وإذا الريــاح تناوحَــتْ	بوانــب البيــت الكســير)
(ألفيتِنــي هــشّ النــديِّ	بِمــرّ قــدِحي أو شــجيري)
(ونَهَــى أبــو أفعــى فقلّــدنِي	أبــو أفعــى جريــري)
(وجُلالــة خطّــارة	هوجــاءَ جائلــةَ الضُّــفور)
(تعــدو بأشــعثَ قــد وهَــى	سِرِبالُــه بــاقي المســير)
(فُضُــلا عــلى ظهــر الطريــق	إليــك علقمــةَ بــنَ صــير)
(الواهــب الكــومِ الصّــفايا	والأوانــس في الخُــدور)
(يُصــفيك حــين تجيئــه	بالعَصْــب والحَــلْي الكثــير)
(وفــوارسٍ كــأّوار حــرِّ	النــار أحــلاسِ الــذَّكور)
(شــدُّوا دوابــرَ بيضــهم	في كــلّ محكمــةِ الفتــير)
(فاســتلأموا وتَلبَّبُــوا	إن التلبّــب للمغــير)
(وعــلى الجيــاد المضــمَرات	فــوارسٌ مثــل الصــقور)
(يَخــرجن مــن خَلَــل الغبــار	يَجِفْــن بــالنَّعَم الكثــير)
(فشــفيتُ نفسيــ مــن أولئــك	والفــوائح بــالعبير)

(يــــرفُلن في المســك الـــذكيّ وصـــائكٍ كـــدَمِ النّحـــــير)

(يعكُفــن مثــل أســاود التَّنُّـــومِ لم تُعكَـــــــف لِــــــزور)

(ولقــد دخلــتُ عــلى الفتــاة الخـــدرَ في اليـــوم المطـــير)

(الكاعـــبِ الحســـاء تـــر فـــل في الـــدّمَقْس وفي الحريـــر)

(فــــدفَعتُها فتـــدافعتْ مشيَــــ القطـــاة إلى الغـــدير)

(ولثمتُهـــــا فتنفّسَـــــتْ كتــــنفّس الظبـــي البَهـــير)

(فــدنّتْ وقالـــت يـــا منخّـــل مــــا بجســـمك مـــن حَـــرور)

(مــا شــفّ جســمي غــيرُ حبّــك فاهــــدئي عنّـــي وســـيري)

(ولقـــد شرِبـــتُ مـــن المُدامـــة بالصـــــغير وبـــــالكبير)

(ولقــد شرِبــتُ الخمــر بالخيــل الإنــــــاث وبالــــــذّكور)

(ولقد شرِبتُ الخمر بالعبد الصحيح وبالأسير)

(فــــإذا ســـكِرتُ فـــإنني ربُّ الخَوَرْنَـــــق والســـــدير)

(وإذا صـــــحوتُ فــــإنني ربّ الشّـــــوَيهة والبعـــــير)

(يا رُبَّ يوم للمنخّل قد لها فيه قصير)

(يـــا هنـــد هـــل مـــن نائـــل يـــــا هنـــد للعـــاني الأســـير)

(وأُحبّهــــا وتُحبّنــــــي ويحـــــبّ ناقتَهـــــا بعـــــيري)

وفي هذه القصيدة من التشبيهات ما يقترب من السامع ولا يرى فيه بعداً كتشبيه (الفوارس بالصقور) ، وتشبيه (مشيتها بمشية القطاة وهي مقبلة على الماء العذب في الغدير) ، وكذلك (تشبيه تنفسها عند لثمه إياها بتنفس الظبي المبهور) ، .... إلخ .

كل هذه تشبيهات لا يوجد فيها غرابة ، ولا جمع فيها بين متباعدات لكن حين تنظر إلى تشبيهه الفوارس بأوار حر النار ، تجد الصورة غير حاضرة حضور الصور الأخرى ، وتجد كل طرف من عالم مختلف ، لكنه تشبيه يعكس مدى اشتعال الحماسة في نفوسهم ، ورغبتهم في إهلاك عدوهم ، وقدرتهم على إلحاق الأذى بهم ، وهذا من أبدع الصور .

ويرى الشيخ أبو موسى أن كثيرًا من التشبيهات الشائعة المبتذلة يرجع أصلها إلى هذا الضرب من الجمع بين المتباعدات ، ولكن الذي أطفأ تأثيرها هو الشيوع ، وكثرة تردادها ، وقد يكون هذا الشيوع نفسه الذي أطفأها دليلا من وجه آخر على قوتها وجمالها ، فإن الناس لا يرددون إلا ما يحبون ، ولو كانت مستكرهة ثقيلة لما كان لها أن تشيع ، فتشبيه الحسناء بالشمس شائع ،ولكنه من هذ النوع اللطيف)(١).

والذي ينبغي الإشارة إليه أن قدامة بن جعفر يعكس هذا الفهم ، ويرى أن أساس الجودة في التشبيه يرجع إلى قرب الطرفين ، وليس إلى تنافرهما ، يقول في كتابه نقد الشعر :

١ - التصوير البياني ص ١١٠.

(من الأمور المعلومة أن الشيء لا يشبه بغيره من كل الجهات، إذ كان الشيئان إذا تشابها من جميع الوجوه ولم يقع بينهما تغاير البتة اتحدا ، فصار الاثنان واحداً ، فبقي أن يكون التشبيه إنما يقع بين شيئين بينهما اشتراك في معان تعمهما ويوصفان بها ، وافتراق في أشياء ينفرد كل واحد منهما عن صاحبه بصفتها ، وإذا كان الأمر كذلك ، فأحسن التشبيه هو ما وقع بين الشيئين ، اشتراكهما في الصفات أكثر من انفرادهما فيها، حتى يدنى بهما إلى حال الاتحاد.

واستشهد على ذلك بقول الشاعر :

فعبَّ دخالاً جرعُه متواترٌ كقْع السحابِ بالطراف الممددِ

حيث شبه صوتا بصوت ، ومنه تشبيه صوت حلب عنز بصوت الكير إذا نفخ في **قول الشاعر :**

كأنَّ أجيجَ الكيرِ إرزامُ شخبها إذا امتاحهَا في محلبِ الحيِّ مائحُ

وكذا تشبيه صوت الحرب ، وهي تعلو وتنخفض .. بصوت المرأة التي تتعنى في الولادة **في قول الشاعر :**

لنا صرخةٌ ثم إسكاتةٌ كما طرقتْ بنفاسٍ بكرْ)(١)

وهذا الخلاف يجعلنا نقف لنتبين شيئا لا ينبغي إغفاله ، وهو موطن الحسن ، ومناط المزية فيما نحن فيه ، هل الحسن يكمن في قرب الشبه ، وكثرة الصفات الرابطة بين الطرفين ؟

---

١ ـ نقد الشعر لقدامة بن جعفر ص ١٩.

أو أن الحسن يكمن في الجمع بين المتنافرات ، وملاحظة الخفايا بين المتباعدات ؟

يقول الشيخ ابوموسى : (الشعراء وأهل البلاغة يعجبون بهذا الضرب من التشبيه الذي يعظم فيه الشبه ويقوى بين الطرفين حتى كأنهما يصيران شيئا واحدا ، وقالوا إن أبا تمام لما سمع البحتري ينشد بين يدي محمد بن يوسف قصيدته ، **وبلغ قوله** :

في منزل ضنك تخال به القنا بين الضلوع إذا انحنين ضلوعا

نهض أبو تمام فقبل بين عينيه سرورا به وتحفيا بالطائية ، ثم قال : أَبَى الشعر إلا أن يكون يمنيا([1])، ويتابع الشيخ قائلا : وهذا التشبيه الذي استجاش به أبو تمام من هذا الضرب الذي يستحسنه قدامة ، لأن الشبه بين القنا التي غرزت في ضلوع الأعداء ثم انحنت لقوة الطعنة تصير وهي في مغرزها وعلى حال الانحناء أشبه بالضلوع فالطرفان متباعدان ولكن الشاعر كشف ما بينهما من علاقة أدنتهما إلى حال القرب والاتحاد .

ويقرر البلاغيون أن هذا الأصل أصل في النفس والفطرة ، فالأشباه والنظائر حين تنكشف بين الأشياء المتباعدة ، او المتناقضة تبعث الارتياح والشعور بالألفة ، **يقول عبد القاهر** :

---

١ - الموازنة ٢/ ٩.

" ومبنى الطباع وموضوع الجبلة على أن الشيء إذا ظهر من مكان لم يعهد ظهوره فيه ، وخرج من موضع ليس بمعدن له كانت صبابة النفوس به أكثر وكان بالشغف منها أجدر ، فسواء في إثارة التعجب وإخراجك إلى روعة المستغرب وجودك الشيء في مكان ليس من أمكنته ،ووجود شيء لم يوجد ولم يعرف من أصله في ذاته وصفته (١)، يقرر عبدالقاهر في هذا النص ظهور الأشياء المعروفة من حيث لا يتصور وجودها برؤية الأشياء الجديدة ، فكلا الأمرين مما يثير ويحرك لأن في كليهما ضربا من المفاجأة ، والمفاجأة عامل مهم في إثارة النفوس وتحريكها وبعث صورها وأحلامها ومرجع المفاجأة هنا أن النفس ترى في الحالين شيئا لم تكن تتوقعه . وهذا هو السر في تنويه البلاغيين بالمركبات الخيالية **من أمثال** :" در نثرن على بساط أزرق ، وأعلام ياقوت نثرن على رماح من زبرجد ، إلى آخر هذه الصور التي هي من توليدات الشعراء فللشعراء عيون ليست كعيون الناس يرون بها ما لا يراه الناس ، ثم يصوغونه في أطر وقوالب قادرة على تحريك النفوس ، وهز المشاعر ، فتنتج من ذلك كله لذة لا يصفها إلامن ذاقها ، ومن ذاق عرف .

ولكن هنا احتراسًا لا بد من كشفه ، وهو أن الجمع بين المتنافرات لا يعني التنافر في الحس ، وإنما يعني الجمع بين ما له صلة خافية ، لا يراها كل أحد ، فإن لفت إليها لافت ، وجدت حسنا وقبولا .

---

١ ـ دلائل الإعجاز ص ١٠٢.

أما إذا كان المتنافرات لا يحسن الجمع بينهما في الحس ، فإن الصورة تقبح عند الجمع بينهما ، حتى وإن كان الشكل مناسبا للشكل ، **فخذ مثلا قول الشاعر** :

كأن شقائق النعمان فيه ... ثياب قد روين من الدماء

هل ترى حسنا في الجمع بين الزهر الجميل ، والثوب الملطخ بالدماء ؟

لا شك أنك تنفر من هذه الصورة ، وإن كانت الحمرة صفة جامعة ، لكن النفس تعرض عن ذلك إعراضا شديدا لأن الأنس بالشقائق لا يتوافق في النفس مع النفور من الدماء ، أقول هذا في زمان كانت الدماء فيه تبعث على النفور لكننا اليوم في زمان أمست فيه النفوس تلغ في الدماء ، زمان انقلبت فيه النفوس من نفوس بشرية إلى نفوس ضباع وذئاب ، لا ترى في القتل ما ينفرها ،وحسبنا الله ونعم الوكيل .

ثانيا : إخراج المعنوي في صورة المحسوس :

من عوامل جودة التشبيه أنه يخرج المعنوي في صورة المحسوس فينقلك من عالم الغموض إلى عالم الظهور والبيان ، ومن سراديب المعاني إلى ساحات المباني ، وانظر مثلا إلى الإخلاص في النفقة ، وتصور هذا الإخلاص وثمرته وكيف يجازى عليه العبد ، وتنامي هذا الجزاء ، ثم انتظر بعض الوقت لتحصل ما جمعه عقلك ، وحصلته نفسك ، ثم ضعه أمام ناظريك ، وقل ما تشاء في وصفه، ثم عاود النظر ، ولكن بطريقة التشبيه التي أبدعها القرآن الكريم **حيث قال** :

﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنۢبُلَةٍ مِّاْئَةُ حَبَّةٍ ۗ وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٦١﴾﴾ [سورة البقرة:٢٦١]

وانظر ماذا ترى ؟ ! وتابع هذه الحبة في نموها ، وتكاثرها إلى سنابل ، ثم تابع هذه السانبل واحدة واحدة ، وقف عند حباتها وعدها حبة حبة ، ثم اترك لعقلك المجال ليتصور لو أن كل حبة من هذه السنابل غرست مرة أخرى كيف يكون الحال ؟ ...

إن الأرض قد توارت تحت ظلال هذه السنابل ، وهكذا حال الصدقة التي تخرجها طاعة لله تعالى ، إن الذي ملأ هذه المعاني هو التشبيه ، وإخراجه للمعنوي من دائرة العقل إلى عالم النظر والعيان ، وتلك قيمة لا تدري ماذا تفعل بالنفوس ؟؟

وتابع مثل ذلك في قوله تعالى أيضا:

﴿لَهُۥ دَعْوَةُ ٱلْحَقِّ ۖ وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُم بِشَيْءٍ إِلَّا كَبَٰسِطِ كَفَّيْهِ إِلَى ٱلْمَآءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَٰلِغِهِۦ ۚ وَمَا دُعَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَٰلٍ ﴿١٤﴾﴾ [سورة الرعد:١٤]

وانظر إلى هذا الذي يسأل غير الله ، وكيف يعود بالخسارة والندم من عدم استجابتهم له ؟ كيف وهم لا يملكون لأنفسهم نفعا ولا ضرا ؟ !

ثم انظر إلى هذا المشهد لتتحقق من هذا اليأس ، مشهد من وقف على حافة بئر يريد شرب الماء ، وجلس جلسة الشارب من البئر الفوار ، وفتح فاه

ليبلغه الماء ، ترى هل سيبلغه شيء ؟! هل لاحظت كيف صور التشبيه هذا الشقي ، وكأننا ننظر إليه ينتظر وصول الماء وهو باسط كفيه على الأرض ، يريد

صعود الماء إلى فيه ، ولكن هيهات .

وفي قوله تعالى:

﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْلِيَآءَ كَمَثَلِ ٱلْعَنكَبُوتِ ٱتَّخَذَتْ بَيْتًاۖ وَإِنَّ أَوْهَنَ ٱلْبُيُوتِ لَبَيْتُ ٱلْعَنكَبُوتِۚ لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾﴾ [سورة **العنكبوت:٤١**]

راجع الصورة ، ووازن بينها وبين قولك مثلا : من يعبد الأصنام لن تنفعه عبادته ، ماذا ترى ؟ إن الفرق كبير بين ذلك وبين الصورة التي معنا صورة من بنى بيتا من نسيج العنكبوت يريد أن يحميه من برد الشتاء ، ومن حر الصيف !!!!

وفي قصة سيدنا الخضر مع سيدنا موسى عليهما السلام ، أراد الخضر ـ أن يوضح مقدار علمه بالنسبة إلى علم الله تعالى ، وكان من الممكن أن يقول : مثل علمي وعلم الله تعالى كمثل عصفور شرب من البحر ، لكن القصة تروي أن الله تعالى أرسل عصفوراً ، ووقف على حافة السفينة ، ومد منقاره وشرب من البحر ، فقال الخضر : ما علمي وعلمك في علم الله إلا كما أخذ هذا العصفور من هذا البحر. مالفرق ؟

الفرق أن المعنى تجسد أمام سيدنا موسى عليه السلام فرآه حيا ، واستقر في نفسه أيما استقرار ، لأنه لم يحصل المعنى من خلال اللغة ، ولا من خلال الصورة التشبيهية ،وإنما من خلال الفعل المتحرك .(١)

يقول عبد القاهر (إذا قلت للرجل أنت مضيع للحزم في سعيك ، ومخطىء وجه الرشاد ، وطالب لما لا تناله إذا كان الطلب على هذه الصفة ومن هذه الجهة ثم عقبته بقولك : وهل يحصل في كف القابض على الماء شيء مما يقبض عليه فلو تركنا حديث تعريف المقدار في الشدة والمبالغة ونفي الفائدة من أصلها جانبا بقى لنا ما تقتضيه الرؤيه للموصوف على ما وصف عليه من الحالة المتجددة مع العلم بصدق الصفة ، يبين ذلك أنه لو كان الرجل - مثلا - على طرف نهر في وقت مخاطبة صاحبه وإخباره له بأنه لا يحصل من سعيه على شيء فادخل يده في الماء وقال انظر هل حصل في كفي من الماء شيء فكذلك أنت في أمرك ، كان

---

١ - تحدث البلاغيون عن إخراج المعنوي في صورة المحسوس ، وذلك في باب البيان عن طريق التشبيه أو الاستعارة ، أو التعبير بالمضارع ، وغير ذلك. لكن الإشارة كما أرى أقوى أثراً من كل ذلك لأن الإشارة لا تكتفي بإخراج المعنوي في صورة المحسوس ، وإنما تقوم بتصويره وتجسيده ، فيتحول الأمر إلى صور حية مشاهدة تراها العيون ، ومن ثم يتفاعل معها المتلقي؛ فيرسخ المعنى في القلب رسوخاً لا مزيد عليه.، روى عبد الله بن عمر ، قال: كأني أنظر إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم يحكي نبياً من الأنبياء ضربه قومه ، وهو يمسح الدم عن وجهه، ويقول: " رب اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون " فجملة " يمسح الدم عن وجهه " فهم منها المراد ، لكن قيام النبي صلى الله عليه وسلم بتجسيد هذه الحركة زادت المعنى شخوصاً؛ لأنها عمدت إلى المتلقي ، ونبهت عينه إلى أن ينظر إلى المعنى وهو يتحرك أمامه.

كما أن في هذه الإشارة بعضاً من التخفيف والترويح عن الصحابة الذين ضاقوا بتعذيب الكفار لهم ، فكان في هذه الصورة التي حكاها النبي تأنيساً وترويحاً عنهم من شدة ما لاقوه. فالأمر كما قال ابن حجر كان [تطييباً لقلوب الصحابة] (٨٩).

ومن هذا الباب أيضاً ما رواه أبو هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " إذا خرجت روح المؤمن تلقاها ملكان يصعدانها ، قال حما: فذكر من طيب ريحها ، وذكر المسك ، قال ، ويقول أهل السماء: روح طيبة جاءت من قبل الأرض ، صلى الله عليك ، وعلى جسد كنت تعمرينه ، فينطلق به إلى ربه عز وجل ، ثم يقول: انطلقوا به إلى آخر الأجل ....

قال: وإن الكافر إذا خرجت روحه ، ذكر حماد ، وذكر من نتنها ، وذكر لعناً ، ويقول أهل السماء: روح خبيثة جاءت من قبل الأرض ، قال فيقال: انطلقوا به إلى آخر الأجل ...

قال أبو هريرة: فرد رسول الله صلى الله عليه وسلم ريطة كانت عليه على أنفه ... (٩٠)

لذلك ضرب من التأثير زائد على القول والنطق بذلك دون الفعل ، ولو أن رجلا أراد أن يضرب لك مثلا في تنافي الشيئين فقال : هذا وذاك هل يجتمعان ؟ وأشار إلى ماء ونار حاضرين وجدت لتمثيله من التأثير مالا تجده إذا أخبرك بالقول فقال : هل يجتمع الماء والنار وذلك الذي تفعل)[1]

ولقد أثار الشيخ أبو موسى فكرة الفعل الحسي ،وذكر أن هناك ثلاث مستويات لإبراز المعنى ، ثم إدراكه والتأثر به :

فالأول : الإدراك الذهني من خلال اللغة المجردة والتعبير المباشر .

والثاني : إدراك المعنى من خلال الصور التي تمثلها الكلمات .

والثالث : إدراك المعنى من خلال الأفعال والحركات التي تراها العين وهي تقع

وهذا المستوى هو الأعلى والأقدر على بث المعاني وإقناع النفوس .

وذكر أن البلاغيين لم يشتغلوا بهذا المستوى الثالث الذي يتجاوز الكلمة إلى الحركة ، وأنبه هنا إلى وجود بحث علمي تناول هذه الحركات المصاحبة للفظ وعنوانه : بلاغة الإشارة بين النظرية والتطبيق ، وهو منشور على شبكة الانترنت ومسجل في المكتبة الشاملة .

ويعنيني هنا أن التشبيه حين يخرج بالمعنى إلى ساحات التمثيل الحركي فأنت أمام أعلى مستويات البيان ، وأقدر الوسائل على الإقناع ، يقول عبد القاهر (وكذا تقول فلان إذا هم بالشيء : لم يزل ذاك عن ذكره وقلبه ، وقصر خواطره على إمضاء عزمه ، ولم يشغله شيء عنه ، فتحتاط للمعنى بأبلغ ما يمكن ثم لا

---

١ - أسرار البلاغة ١ / ١٠٦.

ترى في نفسك له هزة ، ولا تصادف لما تسمعه أريحية ، وإنما تسمع حديثا ساذجا وخبرا غفلا حتى إذا قلت :

(إذا هم ألقى بين عينيه عزمه ونكب عن ذكر العواقب جانبا)

امتلأت نفسك سرورا وأدركتك طربة - كما يقول القاضي أبو الحسن - لا تملك دفعها عنك ولا تقل إن ذلك لمكان الإيجاز فإنه وإن كان يوجب شيئا منه فليس الأصل له ، بل لأن أراك العزم واقفا بين العينين ، وفتح إلى مكان المعقول من قلبك بابا من العين)(١)، وراجع قوله (أراك) و (بابا من العين) يقول أبو موسى : (فالمغزى من التعبير ، وأصل المزية هو هذا التصوير الذي أحال العزم - وهو معنى قلبي - إلى صورة ماثلة بين العينين ، فأصبحت تراه بعينك وتعقله بقلبك)(٢).

ويستعرض الشيخ كلام الإمام ، ويطرح السؤال المنطقي :

لماذا كان تشكيل المعاني في الصور المحسوسة مما تستحسنه النفس ؟

يقول أبو موسى وعبد القاهر كما يبدو من الذين يتعشقون تصيد البحث في العلل كما يفعل الفلاسفة ، هو لا يكتفي بالقول بأن هذا الضرب من التشبيه حسن ، لأنه تصوير للمعاني المعقولة في صور محسوسة ، وإنما يتابع تحليل المسألة فيسأل عن علة العلة ،فالصور والمحسوسات عامة كانت هي الوسيلة الأولى للإدراك ، ولم يكن للإنسان طريق إلى المعرفة سواها فليس وراء المحسوسات شيء ، الإنسان في هذه المرحلة كان يعانق الأشياء التي يحسها فقط ، ولا يتسع

---

١ - أسرار البلاغة ص ١٠٨.
٢ - التصوير البياني ص ١٣٣.

ذهنه إلى شيء غير ما يراه ويحسه ، حتى الخرافة كان لا يستوعبها إدراكه ، ثم بعد ذلك بدأ ينساب شعاع المعرفة من وراء هذه المحسوسات ، ويشق طريقه في إعياء شديد إلى عقل الإنسان ، وبعد زمن متطاول بدأ الإنسان يجرد المعاني ويستخلصها من الأشياء ، وبدأ الإدراك الذهني وسيلة ثانية من وسائل المعرفة وبدأت اللغة المجردة في أثر ذلك ، وانتزعت الكلمات من الصور والأجسام لتتمحض للدلالة الذهنية ، وحين تتأمل أكثر كلمات اللغة ،وتراجع أصولها واستعمالاتها تجد الدلالة الحسية كامنة هناك ، وهذا باب جليل جدا وممتع جدا .....

والمهم أن هذا الطريق الذي هو التعبير عن المعقول بالمحسوس عودة إلى طبيعة اللغة الأولى حين كانت تلتبس بالمحسوسات التباسا لا انفكاك منه الشعر والأدب في هذه الصورة رجعة إلى اللغة المصورة ، رجعة إلى طفولة الإنسان في حسه ، وشعره ولغته .

يقول عبدالقاهر في حديثه عن تأثير التمثيل :

(أن أنس النفوس موقوف على أن تخرجها من خفي إلى جلى وتأتيها بصريح بعد مكنى ، وان تردها في الشيء تعلمها إياه إلى شيء آخر هي بشأنه أعلم وثقتها به في المعرفة أحكم ، نحو أن تنقلها عن العقل إلى الإحساس وعما يعلم بالفكر إلى ما يعلم بالاضطرار والطبع ، لأن العلم المستفاد من طرق الحواس أو المركوز فيها من جهة الطبع وعلى حد الضرورة يفضل المستفاد من

جهة النظر والفكر في القوة والاستحكام ، وبلوغ الثقة فيه غاية التمام كما قالوا : ليس الخبر كالمعاينة ، ولا الظن كاليقين ، فلهذا يحصل بهذا العلم هذا الأنس أعنى الأنس من جهة الاستحكام والقوة وضرب آخر من الأنس وهو ما يوجبه تقدم الألف **كما قيل**:

(ما الحب إلا للحبيب الأول)

ومعلوم آن العلم الأول آتى النفس أولا من طريق الحواس والطباع ثم من جهة النظر والرويه فهو إذن أمس بها رحما وأقوى لديها ذمما وأقدم لها صحبة وآكد عندها حرمة وإذا نقلتها في الشيء بمثله عن المدرك بالعقل المحض وبالفكرة في القلب إلى ما يدرك بالحواس أو يعلم بالطبع وعلى حد الضرورة فأنت كمن يتوسل إليها للغريب بالحميم ، وللجديد الصحبة بالحبيب القديم فأنت إذن مع الشاعر وغير الشاعر إذا وقع المعنى في نفسك غير ممثل ، ثم مثله كمن يخبر عن شيء من وراء حجاب ثم يكشف عنه الحجاب ويقول : ها هو ذا فأبصره تجده على ما وصفت) (١).

ثالثا : التفصيل والتحليل .

هذا هو الوجه الثالث من أوجه الجودة في التشبيه ، وهو أن تنظر في أكثر من وصف ، وأن تلحظ أكثر من صفة ، وأن ترى في الصورة التشبيهية تفصيلات كثيرة تتشابك وتتداخل لتكون الصورة العامة ، ولكل جزء من هذه التفصيلات دور في تكوين المشهد العام **ففي قول الشاعر** :

---

١ - أسرار البلاغة ص ١٠٢.

حَمَلْتُ رُدَينيّاً كَأَنَّ سِنَانَهُ سَنَا لَهَبٍ لَمْ يَتَّصِلْ بِدُخَانِ

تجد الشاعر قد أثبت جزءا في الصورة ، وأخرج جـزءا آخـر ، أثبـت سـنا اللهب لحد السيف وفي الوقت نفسه عزل الدخان عنه لأنه لا يدخل في الصورة التي يريدها ، ولما كان كل لهب يتصل بدخان ، والشاعر يلحظ في الدخان معنـى الصدأ في السيف ، عزل ذلك ونفاه ليظل حد السـيف يتلهـب باللهـب الصـافي فجمع في الصورة الشكل ، واللون ، واللمعان ، وأسقط مـن الصـورة الـدخان فكان التفصيل والتحليل سببا من أسباب الحسن في الصورة ، لأنـه يبـين مقـدار قوة المتكلم وقدرته على الوصول إلى جميع التفاصيل ، وملاحظة الخيوط الرفيعـة التي تتوارى بين الأجزاء ، ولقد أعجب عبد القاهر بالشاعر حين وصف حركـة الشمس واهتزازها ، **يقول ابن المعتز** :

مُوَلَّـعٌ يَقْـرُو صَرِيـماً قـد بَقَـلْ صُـبَّ عَلَيْـه قـانِصٌ لَمّـا غَفَـلْ
والشَّمْسُ كالمِرْآة في كَـفِّ الأَشَـلّْ مُقَلَّـدَّاتِ القِـدِّ يَقْـرُونَ الـدَّغَلْ

ذلك لأن ملاحظة هذه الصورة من الندرة بمكان ، وراجع نفسـك : هـل مرت بك يوما مرآةً في يد أشل ؟ هذه صورة نادرة جـدا لكنهـا موجـودة وذات تفاصيل حيث ترى الاطّراب ، والارتجاف باديين من يد الأشـل وهـي صـورة الشمس في أول ظهورها ، ووجه الشـبه ، يتكـون مـن اسـتدارة ولمعـان وإشرق وسرعة حركة ، وتموج ، وأشياء أخرى قد تلحظها عند النظر ، وهذه التفاصـيل الكثيرة هي عبقرية الشاعر في صيدها وإخراجها للقارئ .

وهذا التفصيل تجده في تشبيهات القرآن الكريم في نحو قول الله تعالى :

﴿ مَّثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمْۖ أَعۡمَٰلُهُمۡ كَرَمَادٍ ٱشۡتَدَّتۡ بِهِ ٱلرِّيحُ فِي يَوۡمٍ عَاصِفٖۖ لَّا يَقۡدِرُونَ مِمَّا كَسَبُواْ عَلَىٰ شَيۡءٖۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلضَّلَٰلُ ٱلۡبَعِيدُ ﴿١٨﴾ ﴾ [سورة إبراهيم:١٨]

وقوله تعالى :

﴿ وَٱلۡقَمَرَ قَدَّرۡنَٰهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَٱلۡعُرۡجُونِ ٱلۡقَدِيمِ ﴿٣٩﴾ ﴾ [سورة يس:٣٩]

وكل شيء زدت فيه عن الأصل يعد من التفصيل الذي يستحسن (والبلاغيون يفاضلون بين صور التشبيهات فأحسنها ما أحاط بالشيء وفصل أحواله وألوانه وأشكاله ، والمسألة ليست ذكر صفة في المشبه به تزيده لونا ، أو تحدد فيه شكلا ليطابق المشبه من هذه الناحية أو تلك ، وإنما المسألة هي ما وراء ذلك من حس بهذا الشيء الموصوف ، ووعي به ، ومحاولة تجليته كما أحسته النفس ، وبصرت به ، والتفصيل عبارة جامعة ومحصولها على الجملة أن معك وصفين أو أوصافاً فأنت تنظر فيها واحداً واحداً وتفصل بالتأمل بعضها من بعض وقد أرتك في الجملة حاجة إلى أن تنظر في أكثر من شيء واحد وأن تنظر في الشيء الواحد إلى أكثر من جهة واحدة ثم إنه يقع على أوجه أحدها وهو الأول والأحق بهذه العبارة أن تفصل بأن تأخذ بعضاً ، وتدع بعضا ، كما فعل في اللهب حين عزل الدخان عن السنا وجرده)(١).

١ - التصوير البياني لأبي موسى ص ١٤٦.

ولا شك أن البليغ كلما كانت له عين صيادة ، وقلب حي يقظ كان اقتناصه للدقائق أشد وإحساسه بالدفائن أقوى ، وقدرته على رسم ما يحس به أعلى ، كما أنه لا يدع فرصة تمر إلا واقتنصها ، وبخاصة مع قلة الفرص ، يقول عبد القاهر (والعبرة الثانية أن مما يقتضى كون الشيء على الذكر وثبوت صورته في النفس أن يكثر دورانه على العيون ، ويدوم تردده في مواقع الأبصار وأن تدركه الحواس في كل وقت ، أو في أغلب الأوقات وبالعكس وهو أن من سبب بعد ذلك الشيء عن أن يقع ذكره بالخاطر وتعرض صورته في النفس قلة رؤيته وأنه مما يحس بالفيئة بعد الفيئة ، وفي الفرط بعد الفرط ، وعلى طريق الندرة وذلك أن العيون هي التي تحفظ صورة الأشياء على النفوس ، وتجدد عهدها بها وتحرسها من أن تدثر ، وتمنعها أن تزول ولذلك قالوا من غاب عن العين فقد غاب عن القلب وعلى المعنى كانت المدارسة والمناظرة في العلوم وكرورها على الاسماع سبب سلامتها من النسيان والمانع لها من التفلت والذهاب)(١).

رابعا : الغرابة والندرة :

من عوامل جودة التشبيه أن يكون نادرا غريبا ، فالوضوح والقرب يصرف النفس عن المتابعة ، ويزهدها في بذل الجهد ، ولكن ما حد الغرابة ؟ وهل الادعاء بالغرابة يطلقه كل أحد ، فإذا غاب عنه المعنى زعم أن التشبيه غريب ؟ إن الإمام عبد القاهر وضع لذلك إطارا فقال : (والمعنى الجامع في سبب الغرابة أن يكون الشبه المقصود من الشيء مما لا ينزع إليه الخاطر ولا

---

١ - أسرار البلاغة ١٤٣ ، ١٤٦.

يقع في الوهم عند بديهة النظر إلى نظيره الذي يشبه به بل بعد تثبت وتذكر وفكر للنفس في الصور التي تعرفها وتحريك الوهم في استعراض ذلك واستحضار ما غاب منه .

بيان ذلك انك كما ترى الشمس ويجرى في خاطرك استدارتها ونورها تقع في قلبك المرآة المجلوة ويتراءى لك الشبه منها فيها وكذلك إذا نظرت إلى الوشى منشورا ، وتطلبت لحسنه ونقشه واختلاف الأصباغ فيه شبها حضرك ذكر الروض ممطورا مفترا عن أزهاره متبسما عن أنواره ، وكذلك إذا نظرت إلى السيف الصقيل عند سلة وبريق متنه لم يتباعد عنك أن تذكر انعقاق البرق وإن كان هذا أقل ظهورا من الأول .

وعلى هذا القياس)(١)ويوضح ذلك بالأمثلة التي يرى فيها أن الخاطر لا يستحضر سريعا المشبه به عند ذكر المشبه **ومنها قول ابن المعتز** :

عَرَفَ الدَّارَ فَحَيَّا وَنَاحَا ... بَعْدَ ما كانَ صَحَا وَاسْتَرَاحا
ظَلَّ يَلْحَاهُ الْعَذولُ وَيَابَى ... فِي عِنانِ الْعَذْلِ إلاَّ جِماحَا
عَلِّمُونِي كَيْفَ أَسْلُوُ وَإِلاَّ ... فَخُذُوا عَنْ مُقْلَتَيَّ الملاَحَا
مَنْ رَأَى بَرْقاً يُضيءُ الْتِماحا ... ثَقَبَ اللَّيْلُ سَناهُ فَلاَحَا
وَكَأَنَّ الْبَرْقَ مُصْحَفُ قارِى ... فانْطِباقاً مَرَّةً وَانْفِتاحا
فِي رُكامٍ ضَاقَ بالْمَاءِ ذَرْعاً ... حَيْثُما مالَتْ بِهِ الرِّيحُ ساحَا
لَمْ يَزَلْ يَلْمَعُ باللَّيْلِ حَتَّى ... خِلْتُهُ نَبَّهَ فيه صَبَاحا

١ - أسرار البلاغة ص ١٣٥.

وَكَــأَنَّ الرَّعْــدَ فَحْــلُ لِقــاحٍ كُلَّـــمَا يُعْجِبُـــه الْـــبَرْقُ صَـــاحَا
لَمْ يَـــدَعْ أَرْضـــاً مِـــنَ المَحْـــلِ إلاَّ جـــادَ أوْ مَـــدَّ عَلَيْهَـــا جَناحـــا
وَسَـــقَى أَطْـــلالَ هِنْـــدٍ فَأَضْـــحَتْ يَمْـــرَحُ الْقَطْـــرُ عَلَيْهَـــا مِراحَـــا

فحين تذكر البرق وما يعتوره من انبساط ، وانقباض ، والتماع ، وائـتلاق وتريد أن تجد مشبها به يرسم لك هذه اللوحة فإن الذهن لا يستحضر المصحف وانطباقه ، ومن هنا كانت الغرابة .

وفي قول ابن المعتز

(بلفـــظ يأخـــذ الحـــرف المحـــلى كـــأن ســـطوره أغصـــان شـــوك)

لا يرد على الفكر أغصان الشوك حين تذكر حروف الكتاب ، مما يعني أن الأديب حين يقتنص هذه الصورة إنما سبق إلى شيء لا يستطيعه كل أحد ، أو كما **يقول الإمام** :

(أحرز غاية لا ينالها غير الجواد ، وقـرطس في هـدف لا يصـاب إلا بعـد الاحتفال والاجتهاد) لا يكتفي عبد القاهر في هذا التحديد بـترك الأمـر لكـل ناظر يقول فيه برأيه ، ويزعم أن المشبه به هنا قريب ، والمشـبه بـه هنـاك بعيـد لا ينال إلا بعد جهد ، كلا ، بل يثير سؤالا آخر يرسم فيه الطريق الذي لا ينبغي أن يترك وهو : (لم وجب أن يكون بعض الشبه على الذكر أبـدا وبعضـه كالغائـب عنه ، وبعضه كالبعيد عن الحضرة لا ينال إلا بعد قطع مسافة إليه وفضل تعطف بالفكر عليه) .

وهذا التناول الذي يسير عليه عبد القاهر ينبغي مراجعته ، ومراجعة كلام من زعم أنه لم يحفل بالتقعيد ، وأن البلاغة عند عبد القاهر اهتمت بالإبداع وأن التقعيد صنيعة السكاكي ومدرسته ، فهذا التناول يدحضه ، ولعل الفارق الوحيد هو طريقة العرض ، فعبد القاهر يبدع في تحليل نظرية النظم التي أنشأ عليها كتابيه ، وفي الوقت نفسه يضعها في قواعد وأطر لكنه دمج هذه القواعد والأطر في تحليله ، وصاغها صوغ الناقد التي يفند الشبه التي تعترض الطريق ولم يتناولها تناول الدرس المكتبي ، فظن القارئ أنها غير موجودة .

وأعود إلى السؤال : لم وجب أن يكون بعض الشيء على الذكر ، وبعضه كالغائب ، وبعضه كالبعيد ؟ **ولكي يجيب عن هذا السؤال يقول** :

(إن ههنا ضربين من العبرة يجب أن تضبطهما أولا ثم ترجع في أمر التشبيه فإنك حينئذ تعلم السبب في سرعة بعضه إلى الفكر، وإباء بعض أن يكون له ذلك الإسراع.

فإحدى العبرتين : أنا نعلم أن الجملة أبدا أسبق إلى النفوس من التفصيل ، وإنك تجد الرؤية نفسها لا تصل بالبديهة إلى التفصيل ، ولكنك ترى بالنظر الأول ، والوصف على الجملة ، ثم ترى التفصيل عند إعادة النظر ولذلك قالوا : النظرة الأولى حمقاء ، وقالوا : لم ينعم النظر ، ولم يستقص التأمل.

وهكذا الحكم في السمع وغيرة من الحواس ، فإنك تتبين من تفاصيل الصوت بأن يعاد عليك حتى تسمعه مرة ثانية ما لم تتبينه بالسماع الأول ، وتدرك من تفصيل طعم الذوق بأن تعيده إلى اللسان ما لم تعرفه في الذوقة الأولى

وبإدراك التفصيل يقع التفاضل بين راء وراء ، وسامع وسامع ، وهكذا .

فأما الجمل فتستوى فيها الأقدام ، ثم تعلم أنك في إدراك تفصيل ما تراه وتسمعه ، أو تذوقه كمن ينتقى الشيء من بين جملة ، وكمن يميز الشيء مما قد اختلط به ، فأنك حين لا يهمك التفصيل كمن يأخذ الشيء جزافا وجرفا .

وإذا كانت هذه العبرة ثابتة في المشاهدة ، وما يجرى مجراها مما تناله الحاسة فالأمر في القلب كذلك،تجد الجمل أبداً هي التى تسبق إلى الأوهام ، وتقع في الخاطر أولا ، وتجد التفاصيل مغمورة فيما بينها ، وتراها لا تحضر إلا بعد إعمال الروية ، واستعانة بالتذكر ، ويتفاوت الحال في الحاجة إلى الفكر بحسب مكان الوصف ، ومرتبته من حد الجملة وحد التفصيل ، وكلما كان أوغل في التفصيل كانت الحاجة إلى التوقف والتذكر أكثر ، والفقر إلى التأمل والتمهل أشد.)(١)،ويكاد عامل التفصيل يتشابك مع عامل الغرابة في تحسين الصورة التشبيهية .

المهم أن التشبيه الغريب يأتيك بالمعنى الذي لا تتوقعه ، ويكشف لك ما لا تستطيع كشفه من علاقات ، ويجمع لك ما لاتتوهم الجمع بينه في عالم الناس ، ولا شك أن كل هزا يهز النفوس الحية هزا عنيفا حتى يأسرها ...

---

١ - أسرار البلاغة ١٣٥.

يقول مسلم بن الوليد :

وإني وإسماعيل يوم وفاته　　لكالغمد يوم الروع فارقه النصل
فإن أغش قوماً بعده أو أزورهم　　فكالوحش يدنيها من الأنس المحل

لاحظ وجه الحسن هنا في غرابة هذا التشبيه ، حيث جعله نصلا ، وجعل نفسه غمدا ، فصار يوم الروع قريبا بعيدا ، مع أنهما في غير هذا اليوم لايفترقان ولقد استحسن ابن المعتز هذين البيتين لأنه شبه نفسه عند وفاة الممدوح بالفارس يوم الروع يكون غمده فارغا من السيف ، وهما اللذان لايفترقان أبدا .ثم يشبه اقترابه من الناس بعد فقده باقتراب المضطر ، فإنه لايقترب منهم إلا مثل اقتراب الوحش حين يريد الطعام .

وسواء كان التشبيه بالأشياء الرفيعة المقام ، أو بالمحقرات من المخلوقات فالحسن ليس في رفعة المشبه به ،وإنما الرفعة في التقاط الصور التي لا تلتقط في العادة ، ولقد جاء في القرآن الكريم التشبيه بالحمار ، وبالعنكبوت ، وبالكلب كما جاء التشبيه بالجبال ، والماء ، والظلمات

خامسا : **تجديد الصور القديمة** :

عني البلاغيون بالتشبيهات القديمة ومحاولة نفخ الروح فيها من قبل المجددين ، ليتحول التشبيه العامي المبتذل إلى خاصي بديع ، ويتحول ما ألفته العيون إلى صورة جديده ، ويكون ذلك إذا أعمل فيه المبدع موهبته ، وأضاف إليه من براعته ما يزينه ويحسنه ، ولا يعد هذا من باب السرقة ، لأن القدرة والتفوق ليست فقط في إخراج الدفين ، والكشف عن اللآلىء التي في قاع

النفوس ، وإنما القدرة والتفوق أيضا تكون في هضم القديم ثم تشكيله من جديد ، فيضاف إليه مالم يضف ، ويعدل في مناحيه ، ويحذف منه ما لا حاجة إليه ويقدم فيه أشياء ، وتؤخر فيه أشياء ، وغير ذلك من عوامل الصياغة التي تجعلك ترى الصورة وكأنك لم ترها من قبل ، بل إن بعض أهل العلم من يرى في النوع الثاني مقدرة أعلى من النوع الأول ، **وانظر مثلا إلى قول عبد الصمد بن المعذلِ** :

رأتْ منه عيني منظرينِ كما رأتْ   من الشمسِ والبدرِ المنيرِ على الأرضِ
عشيةَ حياني بوردٍ كأنه   خدودٌ أضيفتْ بعضهنَّ إلى بعضِ
ونازعني كأساً كأنَّ رضابها   دموعِيَ لما صدَّ عن مقلتِي غمضي
وولَّى وفعلُ السكرِ في حركاتهِ   من الراحِ فعلُ الريحِ بالغصنِ الغض

إن الناس تشبه الخدود بالورد ، ويشيع بينها قولهم : خد كالورد في الحمرة وأصبح هذا كأنه معلوم من التشبيهات بالضرورة ، وأصبحت النفوس إذا سمعت قائلا يقول : خد كالورد ، لا تلتفت ، وقد لا تسمع ، لكن الشاعر في البيات السابقة لم يشبه الخد بالورد كما ترى ، بل شبه الورد بالخدود ، ثم جعل هذه الخدود حية تمارس التحايا للأحبة ، ثم زاد على ذلك بأن جعل الخدود متراصة متلاصقة كما نرى الورد المجموع بعضه إلى بعض فقال (خدود أضيفت بعضها إلى بعض) وهذه الإضافات ، وهذه الصياغة أحيت صورة عفا عليها الزمان ، وملها الناس ، واستطاع الشاعر أن ينفخ فيها من روحه الشعرية حتى أصبحت صورة جديدة ، وهذا الإخراج الجديد ، لا يعد من باب السرقة

لأن الشاعر نفث في الصورة من روحه ، وصبغها بأحاسيسه ، فصارت جديدة بعد أن رمت ، وصارت حية بعد أن ماتت ، وعلاها الحسن بعد أن غيبها الإلف والرتابة .

يرى القاضي الجرجاني في الوساطة أن هذا التجديد أمارة من أمارات القدرة البيانية ، وأنه لا يعد من باب السرقة ، يقول : (ولستَ تعدّ من جهابذة الكلام، ونُقّاد الشعر، حتى تميّز بين أصنافه وأقسامِه، وتحيط علماً برُتَبه ومنازله فتفصل بين السرق والغصْب، وبين الإغارة والاختلاس، وتعرف الإلمام من الملاحظة، وتفرِق بين المشترك الذي لا يجوز ادّعاء السّرَق فيه، والمبتذل الذي ليس أحدٌ أولى به، وبين المختصّ الذي حازه المبتدئ فملكه، وأحياه السابق فاقتطعه ، فصار المعتدي مُختلساً سارقاً ، والمشارِك له محتذياً تابعاً ، وتعرف اللفظ الذي يجوز أن يقال فيه: أُخذ ونقل ، والكلمة التي يصح أن يقال فيها: هي لفلان دون فلان.

فمتى نظرت فرأيت أن تشبيه الحسَن بالشمس والبدر، والجواد بالغيث والبحر، والبليد البطيء بالحجر والحمار، والشجاع الماضي بالسيف والنار،حكمتَ بأن السرقة عنها مُنتَفية ، والأخذ بالاتباع مستحيل ممتنع وفصلتَ بين ما يشبه هذا ويباينُه ، وما يلحق به وما يتميز عنه ، ثم اعتبرت ما يصح فيه الاختراع والابتداع ؛ فوجدتَ منه مستفيضاً مُتداوَلاً متناقلاً لا يعدّ في عصرنا مسروقاً ، ولا يُحسَب مأخوذاً ، وإن كان الأصل فيه لمن انفرد به ، وأوّله للذي سبق إليه ، كتشبيه الطّلل المُحيل بالخطّ الدارس وبالبُرد النّهج والوشْم في المِعصم ، إن حُسن الشمس والقمر، ومضاء السيف ، وبلادة الحمار وجوْد

الغيث ، وحيرة المخبول ، ونحو ذلك مقرر في البداية ، وهو مركّب في النّفس تركيبَ الخِلقة ، وصنْفٌ سبق المتقدّم إليه ففاز به، ثم تدوول بعده فكثُر واستُعمل ؛ فصار كالأول في الجلاء والاستشهاد ، والاستفاضة على ألسُن الشعراء ، فحمى نفسه عن السَّرق ، وأزال عن صاحبه مذمّة الأخذ ، كما يُشاهد ذلك في تمثل الطّلل بالكتاب والبُرد ، والفتاة بالغزال في جيدها وعينيها ، والمَهاة في حُسنها وصفائها.

وقد يتفاضل متنازعو هذه المعاني بحسب مراتبهم من العلم بصنعة الشعر؛ فتشترك الجماعة في الشيء المتداوَل، وينفردُ أحدهم بلفظة تُستعذب أو ترتيب يُستحسَن، أو تأكد يوضع موضعه ، أو زيادة اهتدى لها دون غيره ؛ فيريك المشترَك المبتذل في صورة المبتدَع المخترع ، **كما قال لبيد:**

وجَلا السّيولُ عن الطّلولِ كأنها ... زبُرٌ تجِدّ متونَها أقلامُها

فأدى إليك المعنى الذي تداولته الشعراء، **قال امرؤ القيس:**

لَمن طللٌ أبصرتُه فشجاني ... كخطّ زَبورٍ في عسيبِ يماني

وقال حاتم:

أتعرِفُ أطلالاً ونؤياً مهدّما ... كخطّك في رقٍّ كتاباً مُنَمنَما

وقال الهذلي:

عرفتُ الديار كرسْم الكتا ... بِ يزْبُره الكاتب الحِميَري

وأمثال ذلك مما لا يحصى كثرة ، ولا يخفى شُهرة ، وبين بيت لبيد وبينهما ما تراه من الفضل، وله عليه ما تشاهد من الزيادة والشّف. ولم تزَل العامّة والخاصة تشبّه الوردَ بالخدود ، والخدود بالورد ، نثراً ونظماً ، وتقول فيه الشعراء

فتُكثِر ، وهو من الباب الذي لا يمكن ادّعاء السّرقة فيه إلا بتناول زيادة تُضمّ إليه ، أو معنى يُشفَع به، ومتى جاءت السرقةُ هذا المجيء ، لم تعدّ مع المعايب ولم تُحْص في جملة المثالب وكان صاحبها بالتفضيل أحق ، وبالمدح والتزكية أولى)(١).

ويعلق الشيخ أبوموسى على بيت لبيد فيقول : (وإذا حاولنا أن نتعرف على هذا الفضل الذي ظن بنا الجرجاني خيرا فحسبه واضحا عندنا – رأيناه ربما كان في أن لبيدا لم يصف الطلل الذي وصفه الشعراء المذكورون ، وإنما وصف جلاء السيول عن الطلول ، وصف حالة من أحواله فيها تجديد لهذه الآثار والسيول تحدث في الأطلال ما يشبه تجديد الأقلام للسطور الباهتة ، لأن السيول تزيل ما عفته الرياح على الآطلال من هبوات وتراب ، فتبرز كأنها منكشفة متجددة ،وهذه ملاحظة لحالة خاصة من أحوال الطلول ، ثم إن الشاعر كان دقيقا في إدراكها وتصويرها ، لأنه لما ذكر حالة جلاء السيول لحظها في المشبه به ، وقال : " تجد " أي : تجدد ، فليس المشبه به خط زبور قد خُط وفرغ منه وإنما خطوط تجددها الأقلام ، كما تجدد السيول الطلول ، هنا فعل وحركة وتجديد ، وفي البيت نغمة إيقاعية لا نجدها في الأبيات الأخرى ، تلك التي وراءها كلمة الطلول وملاءمتها لكلمة السيول ، ويقال : إن الفرذدق سمع أعرابيا ينشد هذا البيت فسجد ، فقيل له : ما هذا يا أبا فراس ؟ !! فقال دعوني أنتم تعرفون سجدة القرآن ، وأنا أعرف سجدة الشعر .

١ ـ الوساطة بين المتنبي وخصومه للقاضي الجرجاني بتصرف ص ٥٤ .

سادسا : **بناء الصورة على الإقناع بالقياس الأدبي** :

ولا يكون إقناع إلا إذا كانت هناك مبالغات ، والمبالغات منها ما هو محمود في الشعر ، ومنها ما هو مذموم ، والذي يعنينا هنا هو قدرة الشاعر على الإقناع بما يراه ، وهذا قد يكون بإقامة الحجة البرهانية ، **كما في قول الشاعر** :

فإن تفق الأنام وأنت منهم فإن المسك بعض دم الغزال

لكن الماء الشعري في هذه الصور يتوارى خلف حجب القياس العقلي وللشعر سراديب أخرى تدلف منها إلى النفوس فتحكم قبضتها عليها ، وتقنعها بما لا يقتنع به ، **ومن ذلك قول ابن نباتة السعدي يصف فرسا أهدي إليه** :

(قد جاءنا الطرف الذي اهديته هاديه يعقد أرضه بسمائه)

(أولاية وليتنا فبعثته رمحا سبيب العرف عقد لوائه)

(نختال منه على اغر محجل ماء الدياجى قطرة من مائه)

(فكأنما لطم الصباح جبينه فاقتص منه وخاض في احشائه)

(متمهلا والبرق من أسمائه متبرقعا والحسن من اكفائه)

(ما كانت النيران تكمن حرها لو كان للنيران بعض ذكائه)

وراجع هذا الصراع بين الفرس وبين الصباح ،وكيف اقتص كل منهما من الآخر ، فهاذ يلطم ، وهذا يخوض في الأحشاء ، والنتيجة ظهور أثر ذلك على وجه الفرس وقدميه . وكأنك حين تنظر إلى بياض الوجه والقدمين في الفرس تستحضر هذه المعركة التي كانت !!

وأجمل من هذا وأرق ما أبدعه الشاعر اللبناني بشارة الخورى(الأخطل الصغير) في القصيدة المعروفة بـ (هند وأمها) ، وفيها يقول :

أتتْ هندُ تشكو إلى أمها ... فسبحان من جمع النيّرَيْنْ
فقالت لها: إن هذا الضحى ... أتاني وقبَّلَني قُبلتينْ
وفرَّ، فلما رآني الدجى ... حباني من شَعره خصلتينْ
وما خافَ يا أمُّ بل ضمَّني ... وألقى على مَبْسَمي نجمتينْ
وذوَّبَ من لونِهِ سائلاً ... وكحَّلَني منه في المقلتينْ
وجئتُ إلى الروضِ عند الصباح ... لأحجبَ نفسيَ عن كل عينْ
فناداني الروضُ يا روضتي ... وهمَّ ليفعلَ كالأوَّلَيْنْ
فخبأتُ وجهي ولكنَّه ... إلى الصَّدْرِ يا أمُّ مَدَّ اليدينْ
ويا دهشتي حين فتَّحتُ عيني ... وشاهدتُ في الصدرِ رمانتينْ
ومازال بي الغُصْنُ حتى انحنى ... على قَدَمي ساجداً سجدتينْ
وكان على رأسِهِ وردتانِ ... فقدَّمَ لي تَيْنِك الوردتينْ
وخِفْتُ من الغصن إذ تمتمتْ ... بأُذْنيَ أوراقُهُ كِلْمَتَينْ
فرُحْتُ إلى البحر للإبتراد ... فحمَّلَني ويحه موجتينْ
فما سرت إلا وقد ثارتا ... برد في كالبحر رجراجتينْ
هو البحرُ يا أمُّ كمْ من فتىً ... غريقٍ وكم من فتى بين بينْ

فهـا أنـا أشـكو إليـك الجميـع فبـــالله يـــا أمُّ مـــاذا تـــريْنْ؟
فقالــت، وقــد ضــحكت أمهــا وماســت مــن العُجــب في بُــردتينْ
عـــرفتُهُمُ واحـــداً واحــــداً وذقـــتُ الــــذي ذقتِـــهِ مـــرتين

وقبل أن تراجع الصور الجزئية انظر أولا في هذه اللوحة البديعة ، التي استطاع الشاعر أن يرسمها لهذه الفتاة التي تنتقل من عالم الطفولة إلى عالم الأنوثة الكاملة ، وما يصحبها من خيفة وتوجس ، وحَذَرٍ من كل شيء ، وانظر إلى عالم الخرافة التي رسمته هذه الفتاة من كون الصانع بها هذه الشياء هو الضحى والليل ، والروض ، والغصن ، والبحر ، وهو يرسم بذلك عالم الخرافة الذي يملأ قلوب الكواعب الصغار ، ثم تابع هذا بسؤالها لأمها : ماذا ترين ؟ وهذا السؤال يصرفك عن عالم تشكيل الكواعب إلى عالم اللهو ، الذي يلزم منه حدوث هذه المتغيرات في الجسم ، وهنا ينصرف الذهن إلى شيء آخر ، ينصرف إلى التمتع ،وتجاريها أمها ، وتتوافق معها وتفتح لها الباب ، بأن التمتع بهذا العالم لا يكفيه المرة الواحدة ، فلقد سبقتها إليه مرتين ، وهذا الإيغال في الخيال لا يقوى عليه إلا خيال شاعر ، أي شاعر ، وقد استطاع الشاعر أن يقنعك بهذه الأحداث رغم الخيال الذ ي يملؤها وهذا الإقناع ناتج من امتداد الرحلة واشتراك أكثر من طرف فيها ، ثم توقيع أمها على صدقها بخوضها هذه التجربة مرتين ، وهنا امتزج الخيال بالحقيقة حتى تحول دون أن ندري إلى حقيقة يقرها الواقع فزاد الحسن ، وتنوعت جوانب الإمتاع .

أما الصور الجزئية ، وبخاصة التشبيهية منها فإنها داخلة في النسيج الكلي دخولا يكاد يخفيها ، مثل قوله : وهم ليفعل كالأولين ، وقوله عن صنيع الموج بأردافها ، وما سرت إلا وقد ثارتا بردفي كالبحر رجراجتين ، حيث التقريب من عالم اللهو يزداد عمقا ، باستخدام لفظة " ليفعل " ولفظة " الأولين " حيث تناسينا صورة الجسد وتذكرنا : التقبيل ، والضم ، ومد اليدين إلى الصدر وهذا المزج في التصوير قصد إليه الشاعر ، ليوصلك إلى أن هذه المعالم الجسدية إنما كانت من أجل هذه الأفعال ، وياويح الشعر ماذا يصنع باللغة ، وماذا يصنع بالناس ؟!!!!

المجــاز

تـوطئة :

حين يذكر مصطلح المجاز لا بد أن تستحضر مـا يضـاده ، وهـو الحقيقـة وحين تريد معرفة المجاز فاعرف أولا المراد من الحقيقة ، والحقيقة في لغة العرب تعني : الشّيء الثابت يقينا ، وتعني أيضا : ما استعمل في معناه الأصلي ، وحقيقة الشيء خالصه وكنهه ، وحقيقة الأمر يقين شأنه ، والجمع حقـائق ، والحـق ضـد الباطل ، والحاقة : يوم القيامة ، لأن فيها حواق الأمور ، والحقيقة ضد المجاز .

وفي اصـطلاح البلاغيـين تعنـي : اللّفـظ المسـتَعْمَل فـيما وُضِـع لـه مـن مسميات .

وتتجاوز الحقيقة ميدان اللغـة لتخـرج إلى ميـادين أخـرى ، مثـل الحقيقـة الشرعية ، والحقيقة العرفية ، فالحقيقة الشرـعية يتغـير فيهـا مـدلول اللفـظ مـن الدلالة الوضعية إلى الدلالة الشرعية، لا على سبيل المجاز، بل على سبيل الحقيقة أيضا ، فمثلا حين تعرف الصلاة بأنها : أقوال وأفعـال مفتتحـة بـالتكبير مختتمـة بالتسليم ، هذه الدلالـة ليسـت هـي الدلالـة الوضـعية للصـلاة ، لأن الدلالـة الوضعية للصلاة هي الدعاء ، ومـع ذلـك نقـول إن دلالتهـا الشرـعية :حقيقـة شرعية ، وكذا في الحقيقة العرفية يسـتعمل اللفـظ في معنـى غيرالمعنـى اللغـوي ومع ذلك يكون حقيقة ، فقولك مثلا : الدابة هي : ذوات الأربع ، هـذه ليسـت دلالة لغوية ، بل هي دلالة عرفية ،لأن الدلالة اللغوية للدابة هـي : مـا دَبَّ مـن الحَيَوانِ على الأرض ، ويطلق اللفظ في العرف على ما يركب ، سواء كان مـذكرا أو مؤنثا ، وهي حقيقة أيضا في العرف .

المهم أن الحقيقة : هي الكلمة المستعملة فيما وضعت له من غير تأويل في الوضع .

أما المجازُ فهو مُشتقٌّ من : جازَ الشيء يَجوزُه إذا تَعَدَّاهُ ، فقولك : جزت المكان ،إذا انتقلت منه إلى مكان آخر ، واستعمله العلماء في اللفظ الذي انتقل من معناه الأصلي ليدل على معنى آخر مرتبط به .

والمجازُ من أجمل الأساليب التي تصور المعنى ، وتبرزه في أحسن هيئة ، وتزيده وضوحا وبهاء ،لأنها تخرجه من حالة المعاني إلى حالة المحسوسات حتى تراه العيون ، وتسمعه الآذان ، وتتلمسه الأيادي ، لهذا عُنيت العربُ باستعمالِ المجاز لما فيه من الدِّقةِ في التعبيرِ ، وإثارة للنفوس .

المجاز بين الثبوت والإنكار

تعرضت ساحة المجاز إلى طعون كثيرة داهمة ، وبخاصة من أئمة متبوعين وصار المجاز في الدرس البلاغي محلا للأخذ والرد ، وعرض الشبهات وتفنيدها فتغير الطريق ، وقل الماء ، ونضبت القرائح لأننا تحولنا من عالم الإبداع إلى عالم الحجاج ، وأمسك بزمام هذا الرأي المنكر إماما جليلان ، وهما الإمام الجليل ابن تيمية ، وتلميذه العَلَم الفذ ابن قيم الجوزية ، حيث استعرضا المواضع التي قال فيها القائلون بالمجاز ، وجعلاها من الحقيقة .

وعرض لذلك الشيخ الجليل عبد العظيم المطعني في كتابه : المجاز عند ابن تيمية وتلاميذه بين الإنكار والإقرار ، وبين بالدليل أن الإمامين يقران بالمجاز ، وأن الإشكال في المصطلح ، وفي الألفاظ ، وأنا هنا أحاول أن ألخص

لك ما عرضه الشيخ المطعني لتعرف أبعاد هذه القضية التي صارت باب فتنة عند بعض الناس (وذلك بسبب دخول المجاز في مباحث العقيدة والتوحيد وتعلقه بصفات الباري عز وجل ، ودخول المجاز في هذا المجال الخطير بعد أن كان قضية بلاغية نقدية ، ولغوية جمالية هو الذي أسعر نار الثورة على المجاز عند الإمام، لأنه رأى في مثل تأويل "يد الله " بالقدرة تعطيلا لصفة من صفات الله)(١).

ثم إن من علماء الخلف من تجاوز فرمى علماء السلف بقلة الفهم والإيمان بالألفاظ دون فهم ، وهذا كله دعا الإمام ابن تيمية إلى إنكار المجاز في كتابه " الإيمان " **واستند إلى عدة أمور** :

١ – أن سلف الأمة لم يقولوا به .

٢ – ليس للغة وضع أول ، ثم تفرع عنه وضع ثان .

٣ – أن المجاز نشأ في بيئات المعتزلة والجهمية ومن وافقهم .

٤ – ناقش النصوص التي قيل فيها بالمجاز وأخرجها من المجاز .

وعلى هذه الدعائم نفي المجاز ليس في القرآن الكريم فقط بل في اللغة أيضا ، وشاع ذلك بين طلاب العلم ، وسار على الطريق نفسه تلميذه ابن القيم في كتابه الصواعق المرسلة ، ولقد تتبع الشيخ المطعني كتب الإمامين واستخلص مذها آخر لهما يقران فيه بالمجاز وحصل على أدلة **تؤكد ذلك ومنها** :

- رضاهما بتأويلات مجازية نقلاها عن غيرهما ، وارتضياها .

---

١ - المجاز عندابن تيمية وتلاميذه بين الإنكار والإقرار لعبد العظيم المطعني ص ٧ ، ٨.

ومن ذلك قوله نقلا عن الإمام أحمد في قوله تعالى :

" إلا هو معهم أينما كانوا "

قال : علمه ، عالم الغيب والشهادة محيط بكل شيء ......

فلقد أقر بالتأويل ، وإن لم يسمه مجازا ، وحلل نصوصا شرعية على التأويل مثل **قوله تعالى :**

﴿ رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ .... ﴾ [سورة إبراهيم:٣٦]

وقول النبي ﷺ :

" أهلك الناس الدرهم والدينار ، وأهلك النساء الأحمران : الذهب والحرير "

حلل كل ذلك على التأويل وإسناد الفعل إلى سببه .

ويقول في قوله تعالى :

﴿......وَيَجْعَل لَّكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِۦ...... ﴾ [سورة الحديد:٢٨]

(إن الله ضرب مثل إيمان المؤمنين بالنور ، ومثل أعمال الكفار بالظلمة)

وهذا يتضمن لزوما استعارة النور للإيمان ، واستعارة الظلمة للكفر .

- **ورود المجاز باللفظ والمعنى في كتبهما .**

يقول ابن تيمية : (النزاع بين مجوزي المجاز ومانعيه لفظي)

وهذه العبارة صريحة في أن القضية قضية مصطلح ، وأن قوله مثلا : (ألف سنة إلا خمسين عاما) هي هي : تسعمائة وخمسين عاما) والخلاف بينهما لفظي ، مما يعني أنه تراجع عن إنكره للمجاز في كتاب " الإيمان " ، بل إنه قال :

لم يعرف لفظ المجاز في كلام أحد من الأئمة إلا في كلام الإمام أحمد ، فإنه قال في الرد على الزنادقة والجهمية: هذا من مجاز اللغة ، وأول من قال ذلك مطلقا أبو عبيدة ، فهو مشتق عندهم من الجواز ،الذي هو العبور من معنى الحقيقة إلى معنى المجاز ، ثم إنه لا ريب أن المجاز قد يشيع ويشتهر حتى يصير حقيقة .

ومن ذلك : تسمية الضيافة نزلا ، فالضيافة ما يقدم للضيف مما يشرب ويؤكل **كما في قوله** :

﴿فَنُزُلٌ مِّنْ حَمِيمٍ ﴿٩٣﴾﴾ [سورة الواقعة:٩٣]

والضيافة سميت نزلا لأن العادة أن الضيف يكون راكبا فينزل في مكان يؤتى إليه بضيافة فيه ، فسميت الضيافة نزلا لأجل نزوله) ويصرح في أكثر من موضع بأن من دلالات اللغة الحقيقة والمجاز .

ويترتب عل كل ذلك أن الإمام ابن تيمية له مذهبان في المجاز :

الأول : في الجدل والحجاج وهذا ينكر فيه المجاز حتى يمنع فوضى التأويل وهذا من باب سد الذرائع.

والآخر : في العمل والسلوك وتحليل النصوص ،وهذ يقول فيه بالمجاز ، الذي هو فن من فنون القول زخرت به اللغة العربية ، والقرآن الكريم وكادت الأمة تجمع عليه لولا الشبهات .

أما الإمام ابن القيم فإنه سار على خطى شيخه ، حتى صار له مذهبان في المجاز ، الأول : متعارف مشهور ، وهو الإنكار ، والآخر : غير مشهور وهو الإقرار .

والدليل على إقراره للمجاز تأويلاته المستفيضة التي وردت في كتابه الصواعق المرسلة ، وورود المجاز صريحا في كلامه .

ومن تأويلاته المجازية في المجاز العقلي قوله في آية :

" خلق من ماء دافق " (الدافق : فاعل بمعنى مفعول ، كقوله : سر كاتم وعيشة راضية ، وهذا عند البلاغيين مجاز عقلي علاقته المفعولية .

وفي الإماتة قيل :

﴿ **ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا** ...... ﴾ [سورة الزُّمَر:٤٢]

وقيل : " قل يتوفاكم ملك الموت "وقيل : "توفته رسلنا "

يقول ابن القيم : الإسناد إلى الله تعالى لأنه الخالق المنشيء ، وإلى ملك الموت لأنه الذي ينزع الروح من الجسد ، وإلى الملائكة لأن ملك الموت له أعوان وهذا كله ما يقوله المجوزون للمجاز ، والفرق بينهم وبين ابن القيم أنهم يسمونه مجازا ، وهو يسكت عن هذه التسمية .

ومن تأويلاته في المجاز المرسل :

في قوله تعالى :

﴿ **فَمَا لَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ** ﴿٢٠﴾ ﴾ [سورة الانشقاق:٢٠]

يقول : (إنكارا على من لم يؤمن بعد ظهور الآيات .

وفي قوله تعالى :

﴿وَقِيلَ مَنۡۜ رَاقٖ ٢٧﴾ [سورة القيامة:٢٧]

يقول : (إن مثل هذا يراد به النفي والاستبعاد .....

ولا شك أن خروج الاستفهام إلى معنى الإنكار والنفي معدود عند علماء البيان من صور المجاز المرسل الذي علاقته الإطلاق والتقييد ...

ويقول في مجيء الخبر في :

﴿ ۞ وَٱلۡوَٰلِدَٰتُ يُرۡضِعۡنَ أَوۡلَٰدَهُنَّ .... ﴾ [سورة البقرة:٢٣٣]

وقوله :

﴿ وَٱلۡمُطَلَّقَٰتُ يَتَرَبَّصۡنَ .... ﴾ [سورة البقرة:٢٢٨]

أن (الخبر في معنى الأمر) وهذا أيضا من باب المجاز المرسل الذي علاقته الإطلاق والتقييد .

ومن شواهد الاستعارة عنده :

يقول في قوله تعالى :

﴿فَلَا ٱقۡتَحَمَ ٱلۡعَقَبَةَ ١١﴾ [سورة البلد:١١]

قال مقاتل : (هذا مثل لأن المعتق والمطعم يقاحم نفسه وشيطانه : أي يغالبها ، كمن يتكلف صعود العقبة ، فشبه المعتق رقبة في شدته عليه بالمتكلف صعود العقبة) وهذا التأويل يعني أن هناك مجازا لغويا من قبيل الاستعارة التمثيلية ، شبه فيه هيئة المشقة الناتجة من العتق والإطعام ، بالمشقة

الناتجة من صعود الجبل . ومن شـواهدها الصريحة عنـده : يقـول دون تعليق أو اعتراض : **قال السهيلي** :

(إذا علمت هذا فاعلم أن العين إذا أضيفت إلى الباري **من قوله** :

﴿....وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِيٓ ﴿٣٩﴾﴾ [سورة طه:٣٩]

حقيقة لا مجازا كما توهم أكثر الناس ، لأنه صفة في معنى الرؤية والإدراك وإنما المجاز في تسمية العضو – العين – بها .

ويقول : في إثبات اليد لله تعالى : (ورب مجاز كثر واستعمل حتى نُسي أصله) مما يعني تسليمه للمجاز وأنه موضع اتفاق بين العلماء ، لكن الخلاف في أين يقع ؟ هل المجاز في العضو (الجارحة) أم في لازم معناه وهو القدرة أو النعمة ، فاليد حقيقة في القدرة والنعمة والقوة ، مجاز في العضو .

ولقد رد العلامة بدر الدين الزركشي على منكري المجاز فقال :

من أسقط المجاز من القرآن أسقط شطر الحسن، ولقد ظل السكوت عن إنكار المجاز طوال خمسة قرون ونصف القرن من وفاة ابن القيم إلى أن وضع الشيخ الشنقيطي في : منع المجاز في القرآن الكريم رسالة سماها : منع جواز المجاز في المُنَزَّل في التعبد و الإعجاز ، فأنكر فيها المجاز في القرآن الكريم بل في اللغة كلها .وعرج على الشواهد التي قال فيها العلماء بالمجاز ونفاها، ومن بينها آية " **واسأل القرية** " وكان من ردود الشيخ المطعني عليه أنه قال: أن لفظ القرية إن كان مستعملا في معناه الحقيقي ففي الكلام مجاز عقلي في الإسناد ، وإن كان اللفظ مستعملا في معناه المجازي ففي الكلام استعارة بالكناية حيث شبهت القرية بمن يسأل ، وعلى كلا التقديرين ففي الكلام مجاز فأين المفر ؟

كما أن الشيخ يـؤول بعـض لآيـات تـأويلا مجازيـا ، وإن لم يصرـح بلفـظ المجاز، **مثل قوله تعالى :**

﴿فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ﴿٢١﴾﴾ [سورة الحاقة:٢١]

أي : مرضية ، ثم قال : والبيانيون يسـمون مثـل ذلـك الإطـلاق : مجـازا عقليا ،**وفي قوله :**

﴿وَءَاتُواْ ٱلْيَتَـٰمَىٰٓ أَمْوَٰلَهُمْ ....﴾ [سورة النساء:٢]

قال: وتسميتهم يتامى إنما هي باعتبار يتمهم الي كـانوا يتصـفون بـه قبـل البلوغ ، وهذا كما ترى من قبيل المجاز المرسل ، وعلاقته اعتبار ما كان، ولكنه لا يصرح بالمجاز ، ثم يختم الشيخ المطعنى كتابه بقوله : (صفوة القول : أن الشـيخ الشنقيطي –رحمه الله – **له في المجاز مذهبان :**

❖ مذهب جدلي نظري ، انتهـى فيـه إلى منـع المجـاز ، وإنكـاره في أخريـات حياته .

❖ ومذهب عملي سلوكي : نحـى فيـه منحـى مجـوزي المجـاز ، أو رأى لـه ضرورة لا غنى عنها في استجلاء المعاني ، وكشف أسرار البيان ، وبعد كل ما تقدم نقول :

إن إنكار المجاز في اللغة بوجه عام ، وفي القرآن الكريم بوجه خاص إنما هو مجرد دعوى بنيت على شبهات واهية ،كتب لها الذيوع والانتشار والشهرة ولكن لم يكتب لها النجاح (١).

والذي يوجز لك القضية أن تعلم :

أن من أنكر المجاز ذهب إلى أن المعنى للفظ يُعيَّن بالسياق والمقام وأن الكلمات تفهم من خلال السياق ، فإذا تعيَّن المعنى بالسياق فهذا هو الحقيقة لأن المعاني عندهم تعينها السياقات والقرائن ، فمثلا :إذا قلت : رأيت بحرا يقف على باب المسجد ، لا يمكن للعقل أن يتصور البحر إلا أنه الرجل الكريم فقرينة السياق دلت على أنه الكريم ، فالاستعمال حقيقي بدلالة السياق ، فإذا حذفت هذا السياق ، وقلت رأيت بحرا ، فأنت في حديث الماء الجاري بين شاطئين ، لأنه لا سياق يصرفه ، فالاستعمال في كل من الجملتين حقيقة ، لكن **الحقيقة الأولى** حملها السياق وألجأك إليها ، **والحقيقة الثانية** جاءتك من الوضع اللغوي للبحر .، ويبقى سؤال يفرضه هذا العدول ، **وذاك التنوع ، وهو :**
لماذا المجاز ؟ ولم العدول عن الحقيقة إليه ؟

وهنا نقف مع النفس البشرية ، وما يعتريها من أحوال تتطلب التصريح تارة ، والمواراة أخرى ، أحوال تجعلها تجابه الأمور بما هي عليه في حين وتغمزه في أحيان أخرى ، ليست كل أحوال النفس أحوال مكاشفة ، ومصارحة

---

١ - هذا ملخص شديد لما تبه الشيخ الفاضل عبد العظيم المطعني في كتابه المجاز عند الإمام ابنتيمية وتلاميذه بين الإنكار والإقرار – مكتبة وهبة الأولى ١٩٩٥ م .

ومواجهة ، وإذا لم تستطع النفس أن تجد في اللغة التي تعبر بها ما يساعدها على التستر ، والمراوغة لاستطاعته هي ، هذه واحدة .

الثانية : أن أسلوب الحقيقة قد يؤثر في النفس تارة ، لكنه في غالب الأحوال لا يستطيع امتلاكها ، أو إخضاعها ، أو النفاذ إلى دخائلها ، وهذا ما يقوم به أسلوب المجاز ، إن القضية الأم في المجاز هي التأثير على هذه النفس وإقناعها بما لا تقنعها به الحقائق ، لأنه ليس كل كلام الناس حقائق ..

الأمر الثالث : أن المخاطبين ليسوا على هيئة واحدة ، فهذا يحتاج إلى أسلوب ، وهذا يحتاج إلى غيره ، وهذا التنوع هو الذي أوجد الصور المختلفة للمعنى الواحد ، فكان منها الحقيقي وكان منها المجازي .

زد على ذلك أن المتكلمين أيضا ليسوا على درجة واحدة في فهم المعاني والتعبير عنها، والناس في هذا درجات متفاوتة ، ولا يمكن أن تعرف درجة كل واحد إلا بتنوع الأسلوب الذي يعبر به ، ومن هنا نشأت أيضا قضية الحقيقة والمجاز ، وهذا أمر لا تقتصر عليه اللغة العربية وحدها بل هو أمر في اللسان البشري أيًا كانت لغته ، فلا توجد لغة من اللغات إلا ترى فيها هذا التنوع بين الأسلوب الحقيقي والأسلوب المجازي ، وحين تراجع لغة العرب قبل الإسلام تعرف أن اللغة العربية التي صارت بضاعة يتكسب بها الناس من خلال الشعر والنثر وصلت إلى قمة عنفوانها ، بتنوع أساليبها ،ارتفاع بعض المتكلمين بها على بعض ، حتى صار للشعر سوق ، وللخطابة والحكمة سوق ، وأصبح من عوامل

العز عند القبائل وجود شاعر أو خطيب ينتمي إليهم ، وهذا يعني أنه يرتقي في مراتب القول ، ويجيد أساليب التفنن فيه ،كل ذلك يوضح لك أن المجاز حاجة بشرية ، وطبيعة نفسية ، وضرورة إنسانية ، بعيدا عن إنكار المنكرين ، ودفاع المثبتين .

وحين تتبع حديث أهل العلم عن المجاز فإنك تجدهم يتحدثون عن لغة العرب ، ودلالة هذه اللغة ، **فالجاحظ مثلا يقول :**

(وإذا قالوا : أكله الأسد ، فإنما يذهبون إلى الأكل المعروف ، وإذا قالوا : أكله الأسود ، فإنما يعنون النهش واللدغ والعض فقط ، **وقد قال الله عز وجل :**

﴿....أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ﴾

[سورة الحُجُرات:١٢]

ويقولون في باب آخر : (فلان يأكل الناس ، وإن لم يأكل من طعامهم شيئا ، **وكذلك قول همان النهري :**

سألتني عَن أُناسٍ هَلكوا ... شَرِبَ الدّهرُ عليهم وَأَكلْ

فهذا كله مختلف ، وهو كله مجاز)(١)

وراجع أنت هذه الجمل لتعلم استحالة إرادة الحقيقة فيها،حتى في قول الله تعالى :(يأكل لحم أخيه ميتا) فهذا كله يبين لك أن في الكلام حقيقة ، وفي الكلام مجازاً ، بل إن الجاحظ عقد لذلك العناوين ، مثل (المجاز والتشبيه بالأكل) وكرر هذا العنوان مرتين ، وقال :

---

١ - الحيوان ٥ / ٢٨ .

وهو قول اللهّ عزّ وجلّ :

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلْيَتَٰمَىٰ ....﴾ [سورة النساء:١٠]

وقوله تعالى : ﴿....أَكَّٰلُونَ لِلسُّحْتِ ....﴾ [سورة المائدة:٤٢]

وقد يقال لهم ذلك وإن شربوا بتلك الأموال الأنبذة ولبسوا الحُلَل وركبوا الدوابَّ ولم ينفقوا منها دِرْهَماً واحداً في سبيل الأكل .

وقد قال اللهّ عزّ وجلّ :﴿.....إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا ...﴾ [سورة النساء:١٠]

وهذا مجازٌ آخر .

وقال الشاعر في أخذ السِّنِينَ من أجزاء الخمر :

(أكَلَ الدَّهْرُ ما تجسَّمَ منها   وتَبَقَّى مُصَاصَهَا المكنونا)

وغيرذلك كثير لا يحصى .

والذي أريد أن أؤكد عليه هو حضور هذا المعنى ، وهذا المصطلح في لغة كبار العلماء قديما ، ممن نأخذ عنهم ، ومنهم ابن رشيق الذي رد على المنكرين للمجاز بدعوى أنه كذب فقال تحت عنوان : باب المجاز (العرب كثيراً ما تستعمل المجاز، وتعده من مفاخر كلامها؛ فإنه دليل الفصاحة، ورأس البلاغة، وبه بانت لغتها عن سائر اللغات، ومعنى المجاز طريق القول ومأخذه وهو مصدر جزت مجازاً كما تقول " قمت مقاماً " ، وقلت مقالاً "، والمجاز في كثير من الكلام أبلغ من الحقيقة، وأحسن موقعاً في القلوب والأسماع، وما

عدا الحقائق من جميع الألفاظ ثم لم يكن محالاً محضاً فهو مجاز؛ لاحتماله وجوه التأويل، فصار التشبيه والاستعارة وغيرهما من محاسن الكلام داخلة تحت المجاز، إلا أنهم خصوا به أعني اسم المجاز باباً بعينه؛ وذلك أن يسمى الشيء باسم ما قاربه أو كان منه بسبب، **كما قال جرير** :

إذا سقط السماء بأرض قوم رعيناه وإن كانوا غضابا

أراد المطر لقربه من السماء ، ويجوز أن تريد بالسماء السحاب ؛ لأن كل ما أظلك فهو سماء، وقال " سقط " يريد سقوط المطر الذي فيه، وهذا أكثر من أن يحصره أحد، ومثله في كتاب الله عز وجل كثير، **من ذلك قوله تعالى**: ....

﴿ **وَسْئَلِ ٱلْقَرْيَةَ** .... ﴾ [سورة يوسف:٨٢]

" ومثله " :

﴿ .....**وَأُشْرِبُوا۟ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ** ..... ﴾ [سورة البقرة:٩٣]

يعني حبه، **ومنه**:

﴿ ..... **فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ ﴿١٤﴾** ﴾ [سورة المؤمنون:١٤]

وهو الخالق حقاً وغيره خالق مجازاً، وقوله: والله خير الماكرين وإنما سمي ذلك مكراً لكونه مجازاة عن مكر، **وكذلك قوله**:

﴿ **فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢٤﴾** ﴾ [سورة الانشقاق:٢٤]

والعذاب لا يبشر به، وإنما هو أنه مكان البشارة) (١)، فالمجاز في ختام هذه الجولة أسلوب عربي ، لا يخلو منه نص غالبا ، في شعر أو في نثر ، في كلام

---

١ - العمدة ٨٧/١.

البشر أو في كلام رب البشر سبحانه ، ويبق أن ندخل إلى عالمه ، **ونتعرف عليه عن قرب :**

ما المجاز ؟

يعرف المجاز في اللغة بأنه : عبور الطريق ، تقول جاز بمعنى : عبر وانتقل من جهة إلى جهة ، فهو انتقال من جهة إلى جهة مقابلة ،ولذلك جعله الأصوليون ضد الحقيقة ،والحقيقة ما وضعه العرب من دلالة للفظ ، فإذا تغيرت هذه الدلالة لهذا اللفظ في تعبيرات أخرى كانت هذه الدلالات مجازية وانظر مثلا لكلمة (ضرب) التي تعني إيقاع جسم على جسم بقصد الإيلام فيقال : ضرب خالد زيدا ، هذا هو الاستعمال الحقيقي ، لكن لفظ الضرب حين تسمعه في نحو : ضرب مثلا ، وضرب بكلامه عرض الحائط ، وضرب الأرز وضرب الجرس ... تجد للضرب دلالات أخرى تسمى : دلالات مجازية وكأن اللفظ تجاوز ما وضع له من المعنى ،وكل لفظ تجاوز ما وضع له من المعنى يسمى مجازا.

أما في اصطلاح البلاغيين فهو : استعمال اللفظ في غير ما وضع له العلاقة بينهما ، وقرينة صارفة عن الحقيقة .

وهذا يعني أن المجاز يشترط وجود علاقة بين المعنى المجازي والحقيقي ووجود قرينة صارفة من الحقيقة إلى المجاز، وإلا خرج من دائرة المجاز . ويعرف الإمام عبد القاهر المجاز **فيقول :**

(إنه : كلّ جملة أَخرجت الحكم المُفَادَ بها عن موضعه من العقـل لضر ـبٍ من التأوُّل) ،أو بأسلوب آخر : هـو اللّفـظ المسـتعمل في غـير مـا وُضِـع لـه في اصطلاح التخاطب، مع قرينة عدم إرادة مَا وُضِع له ، **وهذا التعريف يشمل** :

١- اللَّفظ المستعمل .

٢- الاستعمال في غير مَا وُضِع له .

٣- وجود قرينة صارفة عن المعنى الحقيقي .

٤- وجود علاقة رابطة بين المعنى الحقيقي والمعنى المجازي .

وكل كلام لا يحمل هذه الأمـور الأربعـة يخـرج مـن دائـرة المجـاز ،فـإذا استعمل اللّفظ في مجالات الاستعمالات اللّغوية العامة بمعناه الذي وضع لـه في اللّغة، كان حقيقة لُغَوية،وإذا اسـتعمل في هـذه المجـالات في غـير معنـاه الـذي وُضِع له في اللّغة، لعلاقة من علاقات المجاز، كان مجـازاً لغويّـاً ، **فحـين تقـول** : سمعت الأسد يخطب الجمعة ، هناك لفظ (الأسد) وهو لفظ مستعمل في غير ما وضع له ، لأن لفظ الأسد موضوع للحيوان المعـروف ، لكنـك اسـتعملته في معنى الرجل الشـجاع ، وهنـاك علاقـة بـين الأسـد والرجـل الشـجاع ، وهـي الشجاعة والجرأة ، أما القرينة المانعة من إرادة المعنى الحقيقي فهي كونـه يخطـب الجمعة .

فالعلاقةُ : هي المناسبةُ بين المعنَى الحقيقيِّ والمعنى المجازيِّ ، وقـد تكـونُ هذه العلاقة (المشابهَة) بين المعنيـينِ ، وقـد تكـونُ غيرَهـا ، فـإذا كانـتِ العلاقـةُ (المشابهَة) فالمجازُ استعارةٌ ،وإذا كانت غير المشابهة فالمجاز مرسلٌ.

أما القرينةُ : فهي المعنى الملفوظ ، أو الملحوظ ، والذي يمنع من إرادة المعنى الحقيقيِّ ، فهي الصارف عن الحقيقة إلى المجاز ، إذِ اللّفظ لا يَدُلُّ على المعنى المجازيّ بنفسه دون قرينة .

أقسام المجاز

١ – المجاز الغويُّ :

وهو استعمال الألفاظ في غير معانيها اللغوية ، كاستعمال البحر للكريم واستعمال الأسد للشجاع ، والإِصبع للأنامل ، والعين للجاسوس ... إلخ .

٢ - المجاز العقلي:

وهو المجاز الذي يكون في الإِسناد بين مُسْنَدٍ ومُسْندٍ إليه ، والتجوّز في هذا القسم لا يكون في اللفظ ، فاللفظ على حقيقته إنما التجوز في العلاقة بين المسند والمسند إليه وهي الإسناد ، بشرط وجود قرينة صارفةٍ عن إرادة كون الإِسناد على وجه الحقيقة، مثل قولك : (بنى الوزير القصر) ، والوزير لا يبني إنما يكلف ، أو يطلب من العاملين البناء ، وقولك : نزل الرزق من السماء والنازل هو الماء ، أو قولك : سبَّ زيد أباه إذا كان سببا فيه.. إلخ **كما ينقسم المجاز أيضا إلى :**

*** مجاز مفرد :**

أي في اللفظ المفرد كاستعمال (البحر) في معنى الكريم ، و(الليث) في معنى الشجاع ، و(اليد) في معنى النعمة ، حيث تلحظ في كل ذلك أن التجوز في الكلمة المفردة .

* **ومجاز مركب :**

وهو اللفظ المركّب المستعمل بهيئته المركبة في غير المعنى الذي وضع له مثل قولك : (أراك تقدّم رجلاً وتؤخّر أخرى) ، فهذا التركيب لا يقصد منه أن رجلا وقف على قارعة الطريق يحرك رجلا إلى الأمام ورجلا إلى الخلف لكنه تركيب قصد منه أنه متهيب ، ومتردد في الفعل وعدم الفعل ، والمتردد دائما ما يتقدم خطوة ، ويتراجع مرة ثانية عنها ، فاستعملت هذه الهيئة : أعني هيئة الذي يقدم رجلا ويؤخر أخرى لتصوير حال كل إنسان متردد في أمره **وقولك** : (أنت تنفخ في رماد) ، أي: حالُكَ كحال من ينفخ في رماد ويضيع جهده ، **وإليك كل قسم بالتفصيل :**

المجاز العقلي

ذكر أهل اللغة أن الجملة تحوي ثلاثة أركان ، ولا توجد جملة عربية إلا فيها هذه الأركان الثلاثة ، وهي المسند ، والمسندإليه ، والإسناد ، والذي يجمع بين المسند والمسند إليه إنما هو رابط داخلي يسمى الإسناد ، وهذا الإسناد قد يكون حقيقة ، وقد يكون مجازا ، فإذا كانت الجملة فعلية ، فإن الإسناد هو الفاعلية ، وإذا كانت الجملة اسمية ، فإن الخبرية هي الإسناد ، فنسبة المسند إلى المسند إليه هي ما يعبر عنه بالإسناد ، وهذه النسبة إذا طابقت الواقع والحقيقة فالإسناد حقيقي ، كقول المسلم: الله خالق كل شيء ، والموت حق....إلخ.

أما إذا أسند المتكلّم فعلا إلى غَيْرِ ما يَعْتَقِد أنّه هو لَهُ في الواقع ، مع وجود علاقة مصححة ، فهو إسنادٌ مجازيٌّ ، ويُسمَّى هذا : " مجازاً عقليّاً " لأنّه وقَعَ في الإِسناد ، لا في المُسْنَدِ ، ولا في المُسنَدِ إليه.

فلو قلت مثلا (ربحت تجارة خالد) تكون قد أسندت الربح للتجارة مع أن الرابح خالد ، وأنت تعلم ذلك ، لكنك بالغت في الربح حتى صارت التجارة من كثرة الزيادة فيها صارت هي الرابحة ، ولو قلت : (قتلت السرعة فلانا) فأنت تسند القتل إلى السرعة ، لأنها السبب في القتل ، وهكذا .

وهذا النوع من المجاز سمي " عقليا " لأنه مرتبط بالعقل وحركة الذهن وربط الأمور ببعضها ، بإسناد معنىً من المعاني إلى غير الموصوف به في اعتقاد المتكلّم ، لوجود علاقة ، أو ملابسة تصحح هذا الربط الجديد ، والإسناد الجديد دون أن ننسى القرينة الصارفة عن إرادة كون الإِسناد على وجه الحقيقة.

وتأتي القرينة في المجاز العقلي - غالبا - غير لفظية ، تُفهم من السياق ،أو يهدي إليها العقل أو الحال .

وهنا سؤال : ماالحكمة من هذا العدول عن الإسناد الحقيقي إلى الإسناد المجازي ؟

إن هذا العدول يلفت انتباهك إلى قيام ما أسند إليه الفعل بدور رئيس في الجملة ، وانعقاد الكلام عليه ، بحيث لا يتم الفعل بدونه ، .. ترى ذلك مثلا في **قوله سبحانه:**

﴿ **إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ ۚ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ** ﴿٤﴾ ﴾ [سورة القصص:٤]

فالذبح أسند إلى فرعون ، وهو لا يذبح ، إنما فقط يأمر ، ولولا أمره ما فعل الجنود شيئا ، ولا قتل الناس في الساحات ، وهذا لا ينفعهم ، ولو قالوا

" إنا أطعنا سادتنا وكبراءنا فأضلونا السبيلا "، وما الجند المنفذون سوى آلات مسخرة ، تفعل ما تؤمر به ، فيقتلون ويعذبون !!!..

رحلة المجاز العقلي

عبد القاهر الجرجاني :

قال صاحب الطراز: «واعلم أن ما ذكرناه في المجاز العقلي هو ما قرره الشيخ النحرير : عبد القاهر الجرجاني ، واستخرجه بفكرته الصافية ، وتابعه على ذلك الجهابذة من أهل الصناعة كالزمخشري وابن الخطيب الرازي وغيرهما»(١) فالباب فتحه عبد القاهر ، وفرق من خلاله بين نوعين من المجاز : المجاز في اللفظ ، والمجاز في الإسناد ، ثم تابعه من بعد العلماء ، وعلى رأسهم المفسرون وفي طليعتهم الزمخشري الذي أخذ علم عبد القاهر وطبقه على كتاب الله فأخرج تفسير الكشاف الذي تتلمذ عليه كل من كتب في التفسير بعد ذلك ، ثم أخذ هذا العلم أيضا السكاكي ، وصنع منه شيئا آخر ، صنع منه قواعد وأصول يهتدى بها طلاب العلم .

ويطلق الإمام عبد القاهر على هذا النوع من المجاز اسم : المجاز الحكمي وسماه حكمياً ؛ لأن المجاز ليس في ذوات الكلم وأنفس الألفاظ ، ولكن في أحكام أجريت عليها ، **ففي قوله تعالى:**

﴿....فَمَا رَبِحَت تِّجَٰرَتُهُمۡ ....﴾ [سورة البقرة:١٦]

تجد المجاز في إسناد الربح إلى التجارة ، مع أن الربح في الحقيقة للتاجر

---

١ - الطراز للعلوي ٣ / ٢٥٧.

ولو سألت : ماالمقصود بكل لفظة ؟ لقيل لك : معناها الحقيقي ، فالمقصود من الربح هو الربح ، والمقصود من التجارة : هي التجارة ، فأين المجاز إذا ؟ الجواب : المجاز في إسناد الربح إلى التجارة ، والتجارة لا تربح ، وإنما يربح صاحبها ، هكذا أدار الشيخ عبد القاهر كلامه ، ولم يترك القارئ حتى بين له حكمة ذلك ، وأن من شأن هذا العدول عن الحقيقة إلى هذه الصورة من المجاز أن المعنى بهذا التصوير ينبل ، ويشرف ، أو بتعبيره هو (مِنْ شأنِه أنْ يفْخُمَ عليه المعنى وتحدُثَ فيه النباهةُ) فتفخيم المعنى ونباهته غاية كل متكلم ، وهذا المجاز طريق من طرق تفخيم المعاني ، ورفعة شأنها .

ويقف الإمام عند شيء قد يعرض أثناء التحليل ، وهو : حين تسند الفعل أو ما في معناه إلى غير ما هو له متأولا ، هل يشترط أن يكون للفعل فاعل في الحقيقة ؟

يقول الإمام : ليس بواجبٍ في هذا أن يكونَ للفعل فاعلٌ في التقدير ، إذا أنتَ نَقَلْتَ الفعلَ إليه عدْتَ به إلى الحقيقة، **مثلَ أَنَّكَ تقول في:**

{رَبِحَتْ تِجَارَتُهُمْ} [البقرة: ١٦] "ربحوا في تجارتهم" .....

فإِنَّ ذلك لا يتأَتَّى في كلِّ شيءٍ. ألا تَرَى أنه لا يُمكِنُكَ أن تُثْبِتَ للفعل في قولك: "أقدَمني بلدَك حقٌّ لي على إنسان" فاعلاً سوى الحقِّ، وكذلك لا تستطيعُ **في قولِهِ:**

وصيَّرني هَواكِ وَبي　　　لِحَيني يُضْرَبُ المَثَلُ

وقوله:

يزيدُكَ وجْهُهُ حُسْناً إذا ما زِدْتَه نَظَرا

أنْ تزعُمَ أنَّ "الصيَّرني" فاعلاً قد نُقِلَ عنه الفعلُ، فجُعِلَ "للهوى" كما فُعِلَ ذلك في "ربحت تجارتهم" و "يحمي نساءنا ضَرْبُ"، ولا تستطيعُ كذلك أن تُقدِّر "ليزيد" في قوله: "يزيدُك وجهُه" فاعلاً غيرَ "الوجهِ"، فالاعتبار إذنْ بأنْ يكونَ المعنى الذي يرجِعُ إليه الفعلُ موجوداً في الكلام على حقيقته.

معنى ذلك أن "القدوم" في قولك: "أقدمني بلدَك حقٌّ لي على إنسان" موجودٌ على الحقيقة ، وكذلك "الصيرورةُ" في قوله: "وصيَّرني هواك" و "الزيادة" في قوله: "يزيدُك وجهُه" موجودتان على الحقيقة، وإذا كان معنى اللفظِ موجوداً على الحقيقةِ، لم يكُنِ المجازُ فيه نَفْسَه، وإذا لم يكنِ المجازُ في نفسِ اللفظِ، كان لا مَحالة في الحُكْم. فاعرفْ هذه الجملةَ، وأَحْسِنْ ضبْطَها، حتى تكونَ على بصيرةٍ من الأمر.

ووضح الإمام عبد القاهر صعوبة هذا الباب ، وأن الصورة فيه تحتاج إلى تهيئة وتقدمة حتى تدخل على النفس دخول المأنوس به يقول : واعلمْ أنَّ مِن سبَب اللطفِ في ذلك أنَّه ليس كلُّ شيء يَصْلُح لأن يُتعاطى فيه هذا المجازُ الحُكْمي بسهولةٍ، بل تَجدُك في كثيرٍ من الأمر، وأنتَ تحتاجُ إلى أن تُهيِّئَ الشيءَ وتصلِحَه لذلك ، بشيءٍ تتوخاه في النظْم ، وإنْ أرَدْت مثالاً في ذلك فانظْر إلى قوله:

تنـاسَ طِـلابَ العامِريَّـة إذْ نـأتْ بأسْجَحَ مِرْقالِ الضُّحَى قَلـقِ الضَّـفْرِ
إذا مـا أحسَّـتْهُ الأفـاعي تحيَّـزتْ شـواةُ الأفـاعي مِـنْ مُثَلَّمـةٍ سُـمْرِ
تجـوبُ لـه الظَّلْـماءَ عـينٌ كأنَّهـا زجاجةُ شَرْبٍ غـيرُ مَـلأى ولا صِـفْرِ

يَصِفُ جَملاً، ويريد أنه يهتديَ بنورِ عينِه في الظلْماءِ، ويُمكنه بهـا أن يَخْرُقَهـا ويمضيَ فيها ، ولولاها لكانتِ الظلماءُ كالسدِّ والحاجزِ الذي لا يجد شيئًا يفرجـه به، ويجعل لنفسه فيه سبيلًا ، فأنت الآن تعلم أن لولا أنه قال: "تجوبُ له":

فعلَّق " له " بـــــــ " تجوب " ، لَمَا صلحَتْ "العَينُ" لأن يُسْنَد "تجوب" إليها، ولكان لا تَتبَيَّنُ جهةَ التجوُّز في جعْل "تجوب" فعَلاً للعين كما ينبغي.

وكذلك تَعْلم أنه لو قال مثلاً: "تجوبُ له الظلماءَ عينُـه"، لم يكـنْ لـه هـذا الموقعُ، ولاضطْرَبَ عليه معناهُ، وانقَطَع السِّلْكُ من حيثُ كـان يَعيبـه حينئـذٍ أن يَصِفَ العينَ بما وصفَها به الآنَ.

فتأملْ هذا واعتَبِرْهُ. فهذه التهيئةُ وهذا الاستعدادُ في هذا المجاز الحُكْمـي نظيرُ أنك تَراك في الاستعارةِ التي هي مجازٌ في نفسِ الكلمةِ وأنتَ تحتاجُ في الأمـر الأكثرِ إلى أنْ تُمَهِّد لها وتُقدِّم أو تؤخِّر ما يُعْلَمُ بـه أَنـكَ مسـتعيرٌ ومُشـبِّهٌ، ويُفـتَحُ طريقُ المجاز إلى الكلمة.

أما السكاكي :

فلقد عرف المجاز العقلي بأنه : الكلام المفاد به خلاف ما عند المـتكلم مـن الحكم فيه ، لضرب من التأويل ، إفادة للخلاف لا بوساطة وضع،كقولك

"أنبت الربيع البقل "و"شفى الطبيب المريض" و"كسا الخليفة الكعبة" و"هزم الأمير الجند" و"بنى الوزير القصر" ....).

ولقد أحسن السكاكي بقوله :"ما عند المتكلم" و "لضرب من التأويل" فهما قيدان مهمان ، وقاطعان في أن الأمر في المجاز العقلي **لا بد فيه من شرطين** :

الأول : أن المعتبر في التجوز هو ما عند المتكلم ، فالعبارة الواحدة قد تكون حقيقة عند متكلم ، ومجاز عند متكلم آخر ، فجملة"أنبت الربيع البقل "-مثلا- لو قالها مؤمن بالله ، فهي مجاز ، لأنه يعتقد أن الله هو الفاعل الحقيقي ، وإن قالها جاهل ، أو كافر فهي حقيقة ، لأنها موافقة لما يعتقده .

وكذلك جملة "الرحمن على العرش استوى "فهي مجاز عند من يؤول آيات الصفات ، وحقيقة عند من ينفي المجاز ، ويعتقد بأنه استوى حقيقة ، واستواؤه يليق بجلاله وكماله .

والآخر : أن التجوز لمن يجيزه مصحوب بتأول ، فليس كل من نطق يُعَدّ كلامه مجازا ، ما لم يكن عامدا إلى التأول ، وإلا فكلامه على الحقيقة .

المهم أن السكاكي يؤكد على اعتقاد المخاطب ، فاللفظ الواحد مجاز عند مخاطب حقيقة عند آخر ، **ويقول** :

(وإنما قلت خلاف ما عند المتكلم من الحكم فيه دون أن أقول خلاف ما عند العقل لئلا يمتنع طرده بما إذا قال الدهري عن اعتقاد جهل ، أو جاهل غيره " أنبت الربيع البقل " رائيا إنبات البقل من الربيع ، فإنه لا يسمى كلامه ذلك مجازا وإن كان بخلاف العقل في نفس الأمر **ولذلك لا تراهم يحملون نحو:**

أشـــاب الصــغير وأفنــى الكبــي ر كـــر الغـــداة ومـــر العشي

على المجاز ما لم يعلموا أو يغلب في ظنهم أن قائله ما قاله عن اعتقاد أو ما تراهم كيف استدلوا **لقول أبي النجم:**

قــد أصــبحت أم الخيــار تــدعى عــلي ذنبــا كلــه لم أصــنع

من أن رأت رأسي كرأس الأصلع ميــز عنــه قنزعــا عــن قنــزع

جذب الليالي أبطئي أو أسرعي

حين نسب انحسار الشعر عن الرأس على الزمان قائلا : (ميز عنه قنزعا عن قنزع جذب الليالي) **لكونه مجازا بما أتبعه من قوله:**

أفنــاه قيــل الله للشــمس اطلعــي حتــى إذا واراك أفــق فــارجعي(1)

أما الخطيب القزويني :

فإن الحقيقة والمجاز عنده وصف للإسناد ، في حين أنهما عند السكاكي وعبد القاهر وصف للكلام ، ولهذا قال تعريف الخطيب رحمه الله للحقيقة العقلية إسناد الفعل أو معناه إلى ما هو له عند المتكلم في الظاهر ، **كقول المؤمن :**

أنبت الله البقل ، وقول الجاهل – أي الدهري : أنبت الربيع البقل وقولك: جاءني زيد ، وأنت تعلم أنه لم يجيء . وهذا الخلاف وإن ظهر أنه لا جدوى منه إلا أنك تعلم عند التدقيق ، أن هناك معركة كانت قائمة في زمانه باعتبار المجاز نوعا من الكذب ، فأراد الخطيب أن يبين أن التجوز هو صنع النفس المتكلمة ، وليس وصفا للكلام ، وهذا أمر دقيق فانتبه له .

---

1 - مفتاح العلوم للسكاكي ص ١٧٢.

تعريف المجاز العقلي :

يرى أهل البلاغة أن المجاز العقلي هو : إسناد المتكلّم الفعلَ أو ما في معناه كاسم الفاعل و المفعول ،والمصدر – إلى غير ما هو له في اعتقاده ، لملابَسَةٍ بين المعنى الحقيقي والمعنى المجازي ، مع قرينةٍ صارفة عن إرادة الحقيقة .

❖ **ما الملابَسَة ؟**

هي العلاقة التي تربط الفاعل الحقيقي بالفاعل المجازي ، من جهة وقوع الفعل عليه ، أو فيه ، أو به .

وقيل إن الملابسة ليست بين الفعل والفاعل المجازي ، بل بين الفاعل الحقيقي والفاعل المجازي ، ولك أن تتخيل هذا حين أقول – مثلا – :

(جرى النهر) فالملابسة في الرأي الأول كائنة بين الفعل (جرى) والفاعل (النهر) ، وفي الرأي الآخر كائنة بين الفاعل الحقيقي(الماء) والفاعل المجازي (النهر) ، فالجري يلابس الماء من جهة قيامه به ، ويلابس النهر من جهة كونه واقعا فيه .

والذي أراه أن المجاز هنا يأخذ في اعتباره الأركان الثلاثة ، وإن كان المعتمد في علاقاته ، الملابسة بين الفعل والفاعل ، لكنه حين يلحظ هذه الملابسة يرى في خلفية الصورة الفاعل الحقيقي .

وليس بلازم في المجاز العقلي كما قال عبد القاهر" أن يكون للفعل فاعل في التقدير إذا أُسْنِد إليه كان الكلام وارداً على وجه الحقيقة ، إذْ لا يتأَتّى هذا في كلّ شيء ، فمن الممكن أن تقول :

دعاني إليك كرمك ، وأتي بي جودك ، وأخضعني لطفك .... إلخ وحين تصف متعبّداً يقومُ اللّيل ويصوم النهار ، فتقول :"عبدُ الله ليلُهُ قائم، ونهارُهُ صائم"... تجد كلَّ لفظة فيه مستعملة في معناها الأصليّ، بحسب الوضع اللّغوي، لم يحدُث فيها تجوّزٌ ما ، فالمراد بـ عبد الله : هوعبد الله ، والمراد بالليل : هو الليل ، والمراد بالصيام : هو الصيام ، لكِنَّ الذي يحصل هو التجوُّز في الإِسناد، فبَدَل أنْ يُسْنَدَ القيامُ والصيامُ إلى المتعبِّد ، فيُقَالَ: "عبدُ الله قائِمٌ كُلَّ اللَّيْلِ ، وصائمٌ كُلَّ النَّهار" أُسْنِدَا إِلى اللَّيْل والنّهار، لملاحظة أن عبد الله يصوم في النهار ، ويقوم في الليل ، فالفعل منه كائن في هذا الظرف ، فتخطى الفعلُ الفاعلَ ، والتصق بالظرف .وفي ذلك ما فيه من رغبة المتكلم في إيصال معنى زائدٍ على صيام عبد الله وقيامه ، وهو أن عبد الله يستغرق ليلَه بالقيام متعبّداً أو هو بمثابة المستغرق له ، ويستغرق نهاره بصِيامٍ مستوفٍ لشروطِه ، وهذا التجاوز صُنعُ العقل ، وعَملُ الفكر ، ونتيجةٌ وثمرةٌ من ثمار الذهن ، ولهذا كان جديراً بأنْ يُسَمَّى "مجازاً عقليّاً" أو "مجازاً فكريّاً" أو مجازاً في الإِسناد" أو "مجازاً حُكْمِيًّا" ، أي: في الحكم ، ونحو هذه العبارات ، وقد اشتهر عند البيانيّين أنه مجاز عقليّ.

❖ **أما القرينة :**

فأعني بها العلاقة المصححة للتجوز ، وقد تكون لفظية ، مثل قولك : (بنيت بيتا جميلا ، واستأجرت له أمهر البنائين) ،فالجملة الأخيرة قرينة لفظية تدل على أنني لم أبن البيت بيدي ، وأن قولي : بنيت بيتا " كان على سبيل المجاز في الإسناد ، وهذا واضح .

وقد تكون قرينة غير لفظية ،كقولك : اسرتني محبتك ، وقيـدني إحسـانك فالحب لا يقيد التقييد الحسي ، وإنما يخضع قلبك فالمحبة باعثة،والإحسان مثـير وكل ذلك مفهوم بالعقل .

علاقات المجاز العقلي

أولا : إسناد الفعل إلى سببه الذي أدى إليه :

يطلق لفظ الملابسة على العلاقة المجوزة للمجاز ، وهي تقابـل المشـابهة في الاستعارة ، ويعد السبب أقوى ملابس للفعل ، فلا يخلو فعل من سبب وإسناد الفعل إلى سببه يقترب به إلى عالم الحقيقة ، وتسمى العلاقة حينئذ :

السببية ، وانظر إلى قولك : (أهلك الناسَ الدّينارُ) ، تجد أنّـك أسـندت الفعل " أهلك " إلى الدينار، وهو لم يُهلك الناسَ حقيقة، بـل هـو سـببُ الفتنـة التي تؤدي إلى الهلاك، فالمجاز عقلي، والعلاقة سببيّة.

وفي قوله الله تعالى :

﴿ قَالَ إِنَّمَآ أَنَا۠ رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَٰمًا زَكِيًّا ﴿١٩﴾ ﴾ [سورة مريم:١٩]

تجد قول سيدنا جبريل : (أهب) وفيه أسند الهبـة إلى نفسـه ، لأنـه سـببه المباشر ، فهو الذي باشر النفخ، والمعنى: إنما أنا رسول ربك لأهـب لـك غلامـا بأمر ربك .

ومنه قوله تعالى :

﴿وَعَلَّمْنَٰهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ .....﴾ [سورة الأنبياء:٨٠]

أسند الإحصان إلى الصنعة . وإسناد الفعل إلى «الصنعة» إسناد مجازي من إسناد الفعل إلى سببه.

وفي قوله سبحانه :

﴿ ۞ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَتَ اللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ ﴿٢٨﴾ جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا ۖ وَبِئْسَ الْقَرَارُ ﴿٢٩﴾ ﴾ [سورة إبراهيم:٢٩]

فهم السبب في دخول قومهم جهنم ، لأنهم أغووهم . وفي قول الله تعالى :

﴿ إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ ۚ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ ﴿٤﴾ ﴾ [سورة القصص:٤]

تجد فعل الذبح مسندا إلى فرعونَ ، وفرعون لا يذبح ، ولا يستطيع ، إنما يأمر هؤلاء الأتباع الذين لا يفكرون ، فيمتثلون رغبة ورهبة ، فهو الآمر والمباشرة لهم مما يعني أن هناك علاقة بين الفعل ومن يقوم به ، وأنهم السبب فالعلاقة هي السببية ، والقرينة مفهومة من السياق ومن واقع الناس حين يأمر الطواغيت بالسوء ، فيطيع الجنود والحراس .

وفي قوله تعالى:

﴿ وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِي فَأَوْقِدْ لِي يَا هَامَانُ عَلَى الطِّينِ فَاجْعَل لِّي صَرْحًا لَّعَلِّي أَطَّلِعُ إِلَىٰ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ مِنَ الْكَاذِبِينَ ﴿٣٨﴾ ﴾

[سورة القصص:٣٨]

وهامان لا يبني ، ولكنه الوزير المختص ، والمساعد المطيع للطاغية والسبب المؤدي إلى بناء البنائين ، فهو الذي يأمرهم ويوجههم ، فكأنه الباني .

ثانيا : **إسناد الفعل إلى الزمان** :

وللزمان قيمة عالية في الفعل ،ولأهميته يصح إسناد الفعل إليه لبيان هذا الدور الذي يمثله ، والناس يقولون : حضر رمضان ، وأقبل الفجر والعرب تقول : نهاره صائم ، وليلة قائم ، **وفي القرآن الكريم قوله تعالى** :

﴿وَٱلضُّحَىٰ ۝١ وَٱلَّيۡلِ إِذَا سَجَىٰ ۝٢﴾ [سورة الضُّحى:١-٢]

فقوله : "اذا سجى " اى سكن وانتشر ظلامه ، والليل لايسكن إنما يسكن الناس فيه ، لكن الإبلاغ في السكون نقل المعنى من الناس إلى الليل ليشير إلى ديمومة السكون فيه ، وأن الناس ينتظرونه ليسكنوا فيه ، ويخلدوا للراحة والسبات ، وهذا كله من قبيل المجاز العقلي .(١)

ومن نماذج المجاز العقلي أيضا قوله تعالى :

﴿فَكَيۡفَ تَتَّقُونَ إِن كَفَرۡتُمۡ يَوۡمٗا يَجۡعَلُ ٱلۡوِلۡدَٰنَ شِيبًا ۝١٧﴾ [سورة المزَّمل:١٧]

ففي قوله : "يوما يجعل الولدان شيبا " أُسنِد جعل الولدان شيبا لهذا اليوم واليوم زمن يُصنع فيه ، ولا يَصْنَع ، ويُفعل فيه ، ولا يفعل ، فإسناد الفعل إلى اليوم مجاز عقلي من باب إسناد الفعل إلى الزمان ، **وفي قول زهير** :

ستبدي لك الأيام ما كنت جاهلا ويأتيك بالأخبار من لم تزود

فالأيام يتبدى فيها الأمور ، ولكن الشاعر حولها إلى فاعل ، وأسند إليها الفعل على أنها التي تبدي وتظهر ، وتخبر وتعلم ، ولقد ترسخ في العقل البشري منذ القدم إسناد الأحداث إلى الأيام والليالي ، فأسندوا لها الحزن والسرور

١- قال الراغب (ت : ٥٠٢ هـ) « وهذا إشارة الى ما قيل : هدأت الأرجل » ،(١) والقصد إلى هدوء الناس عن الحركة في الليل.

والإحياء والإماته ، حتى قال أهل الجاهلية (وما يهلكنا إلا الدهر) وقالوا : من سره زمن ساءته أزمان ، ليوصلوا رسالة توارثوها أن الزمن له قدرة على الفعل وتحويل الأحداث ، وفي شعر الصَّلَتَان العَبْدي **يقول** :

أَشَابَ الصَّغِيرَ وَأَفْنَى الْكَبِيـــ ـــرَ كَرُّ الْغَدَاةِ وَمَرُّ الْعَشِيّ

وهذا واضح في التجوز ، حيث أسند الفعل (أشاب) والفعل (أفنى) إلى تتابع الليل والنهار المعبر عنهما بقوله :" كر الغداة ومر العشي " وتتابع الغداة والعشي لا يفني حقيقة ، ولا يشيب ، إنما هما زمانان للفعل ، تتغير فيهما النواصي لمن طال عمره ، وتنحني فيهما الظهور ، لكن الشاعر جعلهما فاعلين ،ليصل إلى حقيقة ثابتة ، هي أن كل من تتابعت عليه الأيام حصل له ذلك .

ثالثا : **إسناد الفعل إلى المكان** :

إذا كان للزمان أهمية في الفعل ، بحيث لا يكون فعل إلا في زمان ، فإن للمكان أهمية لا تقل عن ذلك ، لأنه لا فعل إلا في مكان ، ومن هنا صح إسناد الفعل إلى مكانه لأنه ملابس له **ومن ذلك قوله تعالى**

﴿ **أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَالَتۡ أَوۡدِيَةُۢ بِقَدَرِهَا** : ......﴾ [سورة الرعد:١٧]

حيث أسند الفعل (سال) إلى الأودية ، والأودية لا تسيل ، إنما يسيل الماء فيها ، ووجه ذلك أن هذا الإسناد يشعرك بكثرة الماء ، وامتلاء الأودية به ،حتى ظن الناظر إلى الماء أن الذي يسيل هو الوادي وليس الماء ، وفي ذلك من المبالغة ما فيه .

وعلى شاكلة ذلك قوله تعالى :

﴿ ......وَجَعَلْنَا ٱلْأَنْهَٰرَ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمْ ...... ﴾ [سورة الأنعام:٦]

فقد أسندَ الجريَ إلى الأنهار، وهي أمكنةٌ للمياهِ ، وليستْ جاريةً بل الجاري ماؤُها.وكذلك في الأبيات المشهورة عند الإمام عبد القاهر ، وفيها :

وَلمَّا قَضَيْنَا مِنْ مِنًى كُلَّ حَاجةٍ ومَسَحَ بِالأَرْكانِ مَنْ هُوَ مَاسِحُ
وشُدَّتْ على حُدْبِ المَهَارِى رحَالُنَا ولا يَنْظُرُ الغَادِي الذي هُوَ رَائحُ
أَخَذْنَا بِأَطْرافِ الأَحَادِيثِ بَيْنَنَا وسَالَتْ بِأَعْنَاقِ المَطِيِّ الأَبَاطِحُ

حيث أسند السيلان إلى الأباطح ، لامتلائها بأعناق المطي ، حتى إذا نظر الناظر فلا يرى إبلا تسير في الأباطح ، بل يرى أباطح تسيل بالإبل ، وفرق بين الصورتين كبير .

رابعا : إسناد الفعل إلى المفعول :

الأصل أن يسند الفعل إلى فاعله الحقيقي ، فإذا ترك ذلك وأسند الفعل إلى المفعول ، بحيث يصير المفعول فاعلا ،ففي الكلام مجاز عقلي علاقته المفعولية ومن ذلك قوله تعالى:

﴿فَيَوْمَئِذٍ وَقَعَتِ ٱلْوَاقِعَةُ ﴿١٥﴾ وَٱنشَقَّتِ ٱلسَّمَآءُ فَهِىَ يَوْمَئِذٍ وَاهِيَةٌ ﴿١٦﴾ وَٱلْمَلَكُ عَلَىٰٓ أَرْجَآئِهَا ۚ وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَٰنِيَةٌ ﴿١٧﴾﴾ [سورة الحاقة:١٥-١٧]

ففي الآيات الثلاث أسندت الأفعال إلى المفعول به ، وراجع الأفعال

(وقعت) (انشقت) (يحمل) تجد أن الفاعل للأفعال جميعا في الأصل مفعول به ، وفي قول الله تعالى مصورا تخوف المنافقين من أن ينزل قرآن يوجب عليهم القتال :

﴿... فَأَوْلَىٰ لَهُمْ (٢٠) طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَّعْرُوفٌ ۚ فَإِذَا عَزَمَ الْأَمْرُ فَلَوْ صَدَقُوا اللَّهَ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ (٢١)﴾ [سورة محمد: ٢٠-٢١]

والعزم على القتال من خصوصيات الرسول ﷺ وأولياء الأمر بعد ذلك مع مجالس الشورى ، لكن الآية جعلت العزم ، وإرادة القتال للأمر نفسه فأسندت العزم إلى الأمر وقالت (عزم الأمر) ، على طريق المجاز العقلي والعلاقة هنا هي المفعولية ، والغاية من ذلك تصوير الأمر على أن له اليد العليا في اتخاذ القرار ، لاتحاد الناس عليه ، حاكما كان أو محكوما ، ووضوحه عند الجميع ، فالوالي لا يعزم ، ولا يتخذ قرارا إلا وهو قرار الجميع ، وباتفاق الجميع ولا يختلف عليه أحد ، وعندها لا يتخذ الأمير قرارا ، ولا يتخذ غيره قرارا فالقرار واحد ، والأمر واحد ، وساعتها حين يتخذ القرار كأن الذي اتخذه هو الأمر نفسه ، والقرار نفسه لاتحاد الجميع عليه ، لاحظ كيف أوجزت العبارة القرآنية المعنى حتى أنك لا تكاد تحيط بدلالاتها ، فالغرض البيانيّ هو الإِيجاز الشديد ، والإشعار بأنّ الضرورة أو المصلحة الشديدة لجماعة المسلمين هي الّتي تجعل وليَّ الأمر يَعْزِمُ على الأمر بِالقتال إلزاماً، حتَّى كأنَ أَمْرَ المُسْلِمين العامَّ هو صَاحِبُ العزم، وهذا معنى دقيق قد أدّته العبارة القرآنية بأبلغ إيجاز.

ومن هذا السبيل أيضا قوله تعالى :

﴿ وَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ حِجَابًا مَّسْتُورًا ﴿٤٥﴾ ﴾

[سورة الإسراء:٤٥]

أي ساتراً ، وكلمة مستورا اسم مفعول ، وكان ينبغي أن ترفع ضميرا نائب فاعل يعود على المفعول ، لكن الضمير الذي رفعته كلمة (مستورا) يعود على الحجاب ،والحجاب ساتر ، فعاد ما ينبغي أن يعود على المفعول إلى الفاعل وهذا يشبه تماما إسناد الفعل إلى المفعول على سبيل المجاز العقلي .

خامسا : إسناد ما حقه للمفعول إلى الفاعل :

إسناد ما بني للفاعل إلى المفعول ، وهذا كثير نحو: {عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ} و {مَاءٍ دَافِقٍ} و {إنما توعدون لصادق } {سِرٌ كاتم } أي : مكتوم. وفي كتاب الله جلّ ثناؤه: " لا عاصم اليومَ من أمر الله " أي لا معصوم و " جعلنا حرماً آمِناً " أي مأموناً فيه .

وأصل الكلام في (عيشة راضية) رضي المرء عيشته ، فأسند الفعل للمفعول من غير أن يبنى له فصار: رضيت العيشة، ثم أخذ من الفعل المبني للفاعل اسم فاعل وأسند إلى ضمير العيشة ، فآل الأمر إلى أن صار المفعول فاعلا ، ووراء كل هذا من المبالغة الكثير ، بحيث ترى الرضى يشمل كل مكونات العيشة ، وتشعر في الماء المدفوق قوة تنسيك الفاعل الحقيقي فلا ترى إلا الماء فاعلا ، وكأنه من شدة اندفاعه يدفع غيره ، وتجد في الوعد لزوما يصدق نفسه ، مع أن الصدق لصاحبه، وقس على ذلك ما بقي .

سادسا : **إسناد الفعل إلى الآلة** :

استدل القائلون على هذه العلاقة بقول الشاعر يَصِفُ عين ناقته بأنّها تجوبُ في اللَّيْلِ الدّامِسِ الظلماء فيهتدي **بهَدْيها**:

تَجُوبُ لَهُ الظَّلْمَاءَ عَيْنٌ كَأَنَّهَا زُجَاجَةُ شَرْبٍ غَيْرُ مَلأَى ولا صِفْرِ

فأسند إلى العين الفعل (تجوب) فهي التي تتحرك لتظهر المخبوء من الطرقات الوعرة ، والعين آلة النظر ، وإسناد الفعل إليها من قبيل الإسناد المجازي العقلي ، ووجه الجمال في هذه الصورة ما فيها من تعظيم لشأن هذه العين ، حتى صارت ذات ملكات خاصة تكشف المستور ، وتظهر المكنون وتميط اللثام عن كل خبيء .

سابعا : **إسناد الفعل إلى مصدره** :

وغالبا ما يكون هذا الإسناد للمبالغة في الفعل كما قول الشاعر :

سيذكرني قومي إذا جد جدهم وفي الليلة الظلماء يفتقد البدر

فأنت لا تقول :جد الجد إلا إذا وصل الجد بالناس إلى منتهاه ، بحيث إنك لا ترى قوما يجدون ،بل ترى الجد يجد ، **ومنه قوله تعالى :**

﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي ٱلصُّورِ نَفۡخَةٞ وَٰحِدَةٞ ﴿١٣﴾﴾ [سورة الحاقة:١٣]

فالقصد إلى التهويل ، وبث الخوف في قلوب الغافلين ، فأراك الفعل وقدقام به نائب الفاعل من لفظه ، فكأن الذي نفخ هو النفخ ، وهذا يشعرك بالهول الذي يصيب الناس ساعتها ، وأن القادم لا يعلمه إلا الله تعالى ولا تتوهم أن القرآن الكريم حين يذكر هذا الأسلوب ينظر إلى هذه العلاقات كلا

كلا ، إنه يجري على سنن العرب في الكلام أولا ، ويخاطب الطبيعة الإنسانية التي تتأثر بمثل هذا الأسلوب ثانيا ، والعرب تقول : يأبى عليه إباؤه وجن جنونه ، وسكن سكونه ....إلخ فيسندون الفعل إلى المصدر لضرب من المبالغة **قال أبو فراس:**

وما حاجَتي بالمالِ أبْغي وُفُوره ُ إذا لمْ أَفْر عِرضي فلا وفَرَ الوفرُ

سيذكُرني قَومي إذا جدَّ جدُّهمْ وفي اللَّيلةِ الظَّلماءِ يُفتقدُ البدرُ

وراجع قوله (وَفَر الوفرُ) وقوله : (جد جدهم) لتعلم ماذا يريد الشاعر من تصوير ؟ وأن الفعل تحول من حدث منسوب للإنسان إلى حدث منسوب للمصدر المأخوذ من الفعل ليصور نهاية الإبلاغ في الأمر .

المجاز اللغوي

توطئة :

هذا باب آخر ، بل عالم آخر غير الذي مضى في عالم التشبيه ، أو عالم المجاز العقلي ، ففي عالم التشبيه كنا في عالم الحقائق ، فكل طرف قائم على حقيقته فلو قلت مثلا كما قال ذو الرمة :

هِيَ البُرْءُ، والأسقامُ، والهمُّ، والمُنى، ومَوتُ الهَوى في القَلْبِ مِنّي المبرِّحُ

فالمحبوب على حقيقته ، (هي هي) (والبرء هو البرء) وكذا (الأسقام والهم والمنى) كل ذلك على حقيقته ، وإن كان الشفاء والسقم والهم والأماني للنفوس ، لكن هذه الأشياء جميعا على حقيقتها ، فالكلام كله على الحقيقة وهذا شأن التشبيه ، وراجع ما تشاء من نماذج تجد ماذكرته لك كذلك ، حتى وإن جئت بالصورة على سبيل التشبيه البليغ ، بل حتى في تشبيه المعاني بعضها ببعض كما قال الشاعر :

يريدُ الملوكُ مَدى جَعفَر ولا يَصنعون كما يَصنعُ
وكيفَ ينالون غاياتِه وهم يَجمعون ولا يَجمعُ
وليسَ بأوسعِهم في الغِنى ولكن مَعْروفه أوسع
فما خَلْفَه لامرىءٍ مطلبٌ ولا لامرىء دونَه مَطمعُ
بَدِيهَتُهُ مثلُ تدبيرِه إذا أجبتَه فهو مُستجمِعُ

(فالبديهة) على حقيقتها ، (والتدبير) على حقيقته ، غاية ما في الأمر أن الشاعر ربط بينهما برباط التشبيه ، وهو الوجه والأداة ، فأخرج لك من وراء هذه الروابط معاني تفعل في النفس ما تفعله .

لكن الباب الذي معنا الآن تتبدل فيه الحقائق ، وتتحول فيه الأشياء من عالم إلى عالم ، ويتغير عالم الإنسان ،كما تتغير العوالم من حوله ، وهذه روعة المجاز اللغوي الذي ينقلك إلى عوالم أخرى ، لترى فيها الحقائق التي درجت عليه وقد تغيرت ، **واسمع إلى أبي نواس في وصفه للمغتسلة يقول :**

نضت عنها القميص لصب ماء ... فورد خدها فرط الحياء

وقابلت الهواء وقد تعرت ... بمعتدل أرق من الهواء

ومدت راحة كالماء منها ... إلى ماء معد في إناء

فلما أن قضت وطراً وهمت ... على عجل إلى أخذ الرداء

رأت شخص الرقيب على التداني ... فأسبلت الظلام على الضياء

وغاب الصبح منها تحت ليل ... وظل الماء يقطر فوق ماء

فسبحان الإله فقد براها ... كأحسن ما تكون من النساء

ولقد أحسن أبو نواس حين بدأ بالتشبيه ، وصعد به رويدا رويدا حتى رأينا الماء يقطر فوق ماء .

لقد بدأ الحديث بالحقائق ، فظل الهواء هواء ، وظل الجسد المعتدل جسدا وإن كان أرق من الهواء ، لكنه ظل على حاله ، ثم تابع في رسم الصورة المتحركة وانتقل بالحركة من نزع الثياب إلى أخذ الماء بالراحة ، لكنه أبقانا في عالم الحقيقة فظلت راحتها هي راحتها ، وإن كانت راحة كالماء ، لاحظ هذا التصعيد في الصورة ، والانتقال بها رويدا إلى عالم المجاز ، لقد ظلت الحقيقة قائمة حتى

عجلت إلى أخذ الرداء ، ورأت شخص الرقيب ، هنا تحولت الحقائق إلى خيال فلم يعد الشَعْر شعرا ، بل تحول إلى ظلام ، ولم يعد وجهها وجها بل صار ضياءً وتحول إسدال الشعر على الوجه إسدالا للظلام على الضياء ، ليصور لك كمال الستر مع كمال الأنوثة ، وظلت هذه الصورة حاضرة في عين الشاعر فلم يبرحها بل لم يستطع أن يبرحها حتى أعادها مرة أخرى فقال ، وغاب الصبح منها تحت ليل ، وهي هي صورة إسبال الظلام على الضياء ، لكن إسبال الظلام على الضياء ملاحظ فيه حركة الشعر ، وسرعة انسيابه ، **لكن في قوله** :

(غاب الصبح) شيئًا آخر ، وهو زوال الصبح ، ودخوله تحت جنح الليل وكأن كلا منهما قام بما ينبغي عليه من حياء ، فالليل سارع بالإسبال ،والصبح شاركه حياء بحياء فسارع بالغياب ، وكانت هذه الصورة هي الممهدة لصورة ثالثة ، لم يرها أحد من قبل ، وهي تقاطر الماء النازل من الشعر ، ولكن ينزل على ماذا ؟ لقد غاب الصبح فتقاطر الماء على الجسد المبلل فصار الماء يقطر فوق ماء .

قلت إن عالم المجاز اللغوي تتحول فيه الأشياء عن حقائقها وهو استعمالُ اللفظ في غير ما وضع له لعلاقةٍ بين المعنى الحقيقي ، والمعنى المجازي ، مع قرينة مانعةٍ من إرادةِ المعنى الحقيقيِّ ، وهذه القرينة قد تكون لفظيّةً بحيث تذكر في الكلام وينص عليها **كما في قول أبي النجم يتحدث عن زوجته (أم الخيار)** :

قَدْ أصبحَتْ " أمُّ الخِيارِ" تَدَّعي   عليَّ ذَنْباً كلُّه لم أَصْنعِ

مِن أنْ رأت رأسِي كرأسِ الأصْلعِ   مَيَّزَ عنه قُنْزُعًا عن قُنْزُعِ

مرُّ الليالي أبْطئي أو أسرعِي

حيث جعل فناء شَعْرِه ، وتمـايزه فعـلا لمـرور الليـالي ، وهـذا مجـاز عقـلي والقرينة قرينة لفظية ذكرها الشاعر **بعد ذلك في قوله** :

أَفْنَـاه قِيـلُ اللهّ للشـمس اطلُعـي حَتَّـى إذا واراكِ أُفْـقٌ فـارجعي

فجعل الفعل (ميَّز) والفعل (أفناه) منسوبا لإرادة الله تعـالى ، وقدرتـه وقوله ، ومشيئته ، وهذا معبر عنه بقوله : قيلُ الله للشمس اطلعي ..، أي تعاقب النهار والليل ، ومرور الأيام يوما بعد يوم .

وقد تكون القرينة حاليّةً ، فلا تذكر في الكلام ، ولكنها تفهم مـن خـلال السياق ، وهذا تراه في أغلب أنواع المجاز .

وأكثر الشواهد قرينته حالية ، **ومن ذلك قول الله تعالى لرسوله** :

«إنك ميِّتٌ» والنبـي ﷺ كـان مـا زال حيّـاً ، بمعنـى أن كلمـة «مَيِّـت» خوطب بها الحي ، فاسـتعملت في غـير معناهـا الحقيقـي ، والقرينـة هنـا حـال المخاطب ، فحياته دليل على أن اللفظ جاء على جهة المجاز ، أمـا علاقتـه فهـي اعتبار ما سيكون عليه الرسول ﷺ ، وغيره من النـاس ، فكـل الأنـام إلى زوال في المستقبل ، وهذا الاستقبال هو الذي سوغ خـروج لفـظ (ميـت) مـن معنـاه الحقيقي إلى معناه المجازي باعتبار ما سيكون،**ومنه قول الشاعر** :

إذا جـاءَ موسـى وألقـى العصـا فقـد بطـلَ السِّـحرُ والسـاحرُ

وقال المتنبي :

ومَـنْ يَـكُ ذا فَـمٍ مُـرٍّ مَـرِيضٍ يَجِـدْ مُـرّاً بـهِ المَـاءَ الـزُّلالا

فكل من البيتين مجاز قرينته حالِيَّة، وعلاقته المشابهة ، فالقرينة الحالية هـي الغالبة على المجاز سوء كان لغويا ، أو عقليا .

وينبغي أن تعلم أن المجاز صورة تلفت انتباهك ، وتثير اهتمامك وتوقفك حتى تتأملها ،أما ما يمر مرورا دون ذلك فلا يعد منه ، أقول هذا لإيقاف هذا التثريب في اعتبار كل ما يخرج من اللسان مجازا ، فأنت لا تتكلم وإنما يتكلم لسانك ، ولا تمسك شيئا إنما تمسك كف يدك .... إلخ حتى قالوا في **قوله تعالى :**

﴿إِذْ دَخَلُوا۟ عَلَيْهِ فَقَالُوا۟ سَلَـٰمًا قَالَ إِنَّا مِنكُمْ وَجِلُونَ ﴿٥٢﴾﴾ [سورة الحِجر:٥٢]

مجاز ، لأن الوجل للقلب ،فهذا مجاز لإطلاق الكل وإرادة الجزء **وفي قوله تعالى:**

﴿ ۞ وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ.....﴾ [سورة المنافقون:٤]

كذلك ، وفي قوله تعالى:

﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَـٰشِعَةٌ ﴿٢﴾﴾ [سورة الغاشية:٢]

قالوا : مجاز من إطلاق الجزء وإرادة الكل لأن الجسد كله يخشع .... وهذا يحول الكلام العربي كله إلى مجازات ويبعد بنا عن الصورة التي تؤثر على المتلقي ، لذلك لا أعتبر مثل هذه النماذج من المجازات ، ولنقف على القسم الأول من المجاز اللغوي ، وهو الاستعارة .

الاستعارة

توطئة :

يُعدُّ التشبيه أساساً لكل الصور البيانية ، وبخاصة الاستعارة ، فالتشبيه يقوم على عقد علاقة بين طرفين اجتمعا في صفة فصارا مثلين ، ومهما كان التشبيه قويا ، فإن العقل لا يزال يرى طرفين ، مشبهاً ومشبهاً به ، وكل منهما قائم ظاهر ، شاخص ، وهناك علاقة تربط الأول بالثاني .

لكن هذه العلاقة حين تطغي فإنك لا تجد طرفين ، بل تجد طرفاً اندمج فيه الطرف الآخر ، فأنت لا ترى محمدا بل ترى أسدا ، ولا تشاهد عليا بل تشاهد بحرا ، وحين تجد طرفا تنازل ،وذاب في الطرف الآخر فالأمر هنا يخرج من باب التشبيه إلى باب الاستعارة ، فالاستعارة لا ترى فيها شيئا مشبها بشئ وإنما ترى فيها الشيئ قدصار شيئا آخر ، فحين تقول : محمد كالأسد ، أو محمد أسد ، فما زال محمدٌ محمداً ، وما زال الأسدُ أسداً ، لكنك حين تقول ، أعطيت الأسد ، وسمعت الأسد ، فأنت لا ترى هنا محمدا ، لأنه صار والأسد شيئا واحدا ، وهذه قمة التصوير البياني ، ولذلك تعد الاستعارة رأس البيان العربي ودرة تاجه ، تلك طبيعة الاستعارة التي ينبغي أن تكون على ذكر منها وأن تستحضرها عند النظر في أقسامها ، وأنواعها .

حد الاستعارة :

تدور هذه المادة حول منح الشيء فترة من الوقت ، ويقولون : (أعاره) الشيء إعارة : أعطاه إياه عارية ، و (عاوره) الشيء أعطاه إياه عارية . و(اعتوروا) الشيء تداولوه فيما بينهم ، فالمعنى اللغوي يعني : أخذ المستعار زمنا دون مقابل ، ثم إرجاعه إلى صاحبه .

أما ما انتهى إليه أهل البيان في تعريفها فيقولون فيه : إنها استعمال لفظٍ ما في غير ما وُضِع له في اصطلاحٍ به التخاطب، لعلاقة المشابهة، مع قرينة صارفةٍ عن إرادة المعنى الموضوع له .

ومن أوائل كتب العلم التي دونت لفظة " **الاستعارة** " ، ومشتقاتها بين دفتيها كتب أبي عثمان عمرو بن بحر الجاحظ (ت : ٢٥٥ هـ) ،وبخاصة كتابه (الحيوان) **فقد ذكر شعر أبي زُبَيد الطائي وقوله :**

(تـذبُّ عنـهُ كـفٌّ بهـا رَمـقٌ طـيراً عكوفـاً كـزُوَّرِ العُـرُسِ)

(إذا ونـى ونْيَـة دَلَفـنَ لـه فهـنَّ مِـنْ والـغٍ ومُنْـتَهِسِ)

ثم قال : والطّير لا تلغ وإنما يلغ الذباب ، وجعله من الطّير وهو وإن كان يطير فليس ذلك من أسمائه فإذ قد جاز أن يستعير له اسم الطائر جاز أن يستعير للطير ولْغ السِّباع فيجعَل حسْوها ولْغاً)(١).

فهذه الإشارة تعد أول ما كتب في كتب أهل العلم عن الاستعارة ، بل إنه أول من أشار إلى المجاز عامة ، وجعله مقابلا للحقيقة ، وصورة الاستعارة في ذهن الجاحظ هي : تسمية الشيء باسم غيره إذا قام مقامه ،وهذا التعريف يظهر فيه جانب اللغة متفوقا على ما اصطلح عليه البلاغيون من بعد ، ولقد تبعه في ذلك جمع من النقاد ،مثل ابن قتيبة (ت : ٢٧٦ هـ)، وثعلب (ت:٢٩١ هـ) و ابن المعتز (ت : ٢٩٦ هـ) ، والقاضي الجرجاني (ت : ٣٦٦ هـ) ، وعلي بن عيسى الرماني (ت : ٣٨٦ هـ)، حيث ارتفعت عندهم الدلالة اللغوية

---

١ - الحيوان للجاحظ ٣ / ٣١٩.

لمصطلح الاستعارة ، لكن أبا هلال العسكري (ت : ٣٩٥ هـ) فصل القول وضرب المثل من القرآن الكريم ، ومن الشعر العربي ، وشرح ، وأضاف ، وعلل للعدول عن الحقيقة إلى هذا النوع من المجاز فقال : (الاستعارة : نقل العبارة عن موضع استعمالها في أصل اللغة الى غيره لغرض ، وذلك الغرض إما أن يكون : شرح المعنى وفضل الإبانة عنه ؛ أو تأكيده والمبالغة فيه ، أو الإشارة اليه بالقليل من اللفظ ؛ أو تحسين المعرض الذي يبرز فيه، وهذه الأوصاف موجودة في الاستعارة المصيبة ، ولولا أن الاستعارة المصيبة تتضمن ما لا تتضمنه الحقيقة من زيادة فائدة ، لكانت الحقيقة أولى منها استعمالا ، والشاهد على أن للاستعارة المصيبة من الموقع ما ليس للحقيقة أن قول الله تعالى : (يوم يكشف عن ساق) أبلغ ، وأحسن ، وأدخل مما قصد له من قوله لو قال : يوم يكشف عن شدة الأمر ، وإن كان المعنيان واحدا ، ألا ترى أنك تقول لمن تحتاج إلى الجدة في أمره : شمر عن ساقك فيه ، واشدد حيازيمك له ، فيكون هذا القول منك أوكد في نفسه من قولك : جد في أمرك ، **وقول دريد بن الصمة :**

(كَمِيشُ الإزارِ خارجٌ نصفُ ساقه صبورٌ على العزَّاء طَلاَّعُ أنجدِ)

وقال الهذلي :

(وكَنتُ إذا جارِي دعا لِمَضُوفَةٍ أشّر حتى ينصُفَ الساقَ مئزَرِي)

ومن ذلك قوله تعالى !﴿....وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا ....﴾ [سورة النساء:١٢٤]!! ﴿....وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا ﴿٧١﴾﴾ [سورة الإسراء:٧١]! وهذا أبلغ من قوله سبحانه!

﴿....وَلَا يُظْلَمُونَ شَيْـًٔا ﴿٦٠﴾﴾ [سورة مريم:٦٠] (١)، وإن كان في قوله ولا يظلمون شيئا أنفى لقليل الظلم وكثيره في الظاهر وكذا قوله تعالى ! ﴿....مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ ﴿١٣﴾﴾ [سورة فاطر:١٣] (٢).

ونتقل إلى عبد القاهر الجرجاني (ت : ٤٧١ هـ) لننظر إلى طبيعة الاستعارة عنده فنجده يقول :

(موضوعَها على أنك تثبت بها معنى لا يعرف السامع ذاك المعنى من اللفظِ ولكنَّه يَعرفُه من معنى اللفظ..) ثم يشرح ذلك فيقول : (بيانُ هذا، أَنَّا نَعْلم أَنَّك لا تقولُ، "رأيتُ أسداً"، إلاَّ وغَرضُكَ أَن تُثْبِتَ للرجُل أَنه مساوٍ للأَسد في شجاعته وجُرْأته، وشدَّة بطْشه وإقدامه، وفي أنَّ الذعْرَ لا يُخامرُه، والخوف لا يعرف له. ثم تَعْلم أَنَّ السامعَ إِذا عَقَل هذا المعنى لم يَعقِلْه من لفظِ "أَسَد" ولكنَّه يَعقِلُه من معناه، وهو أنه يَعْلم أَنه لا معنى لجعله "أسداً"، مع العلم بأنه "رجُل" إلاَّ أنك أردْتَ أنه بلغَ من شدة مشابهته للأسد ومساواته إِياه، مبْلغاً يُتوهَّم معه أَنه أَسدٌ بالحقيقة، فاعرفْ هذه الجملة وأحسن تأملها)(٣).

ويعرفها فيقول: (الاستعارة: أن تُريدَ تشبيهَ الشيءِ بالشيءِ، فَتَدعَ أنْ تُفْصحَ بالتشبيهِ وتُظْهرَه، وتجيءَ إلى اسمِ المشبَّه بهِ فتعُيرَه المِشبَّةَ وتُجْرِيَه عليه. تُريدُ أن تَقول: رأيتُ رجلاً هو كالأسدِ في شجاعتهِ وقوةِ بطشِه سَواء"، فتَدَعُ ذلك وتقولُ: "رأيتُ أسداً") (٤).

---

١ - يقصد بالأبلغ هنا : الإبلاغ في المعنى ، والتوافق معهذا السياق ، ولا يقصد.
٢ - الصناعتين (الكتابة والشعر) لأبي هلال العسكري ص ٢٦٨.
٣ - دلائل الإعجاز ص ٤٣١.
٤ دلائل الإعجاز ص ٦٧.

وما قاله عبد القاهر قال مثله فخر الدين الرازي (ت : ٦٠٦ هـ) وأبو يعقوب السكاكي (ت : ٦٢٦ هـ) حيث يقول : (هي أن تذكر أحد طرفي التشبيه وتريد به الطرف الآخر مدعيا دخول المشبه في جنس المشبه به دالا على ذلك بإثباتك للمشبه ما يخص المشبه به كما تقول في الحمام أسد وأنت تريد به الشجاع مدعياً أنه من جنس الأسود ، فتثبت للشجاع ما يخص المشبه به وهو اسم جنسه مع سد طريق التشبيه بإفراده في الذكر)(١).

وقال مثله أيضا ابن الأثير (ت : ٦٣٧ هـ) حيث يقول:(حد الاستعارة : نقل المعنى من لفظ إلى لفظ المشاركة بينهما مع طي ذكر المنقول إليه)(٢)و ابن أبي الأصبع (ت : ٦٥٤ هـ) ،وابن مالك (ت : ٦٨٦ هـ) والخطيب القزويني (ت : ٧٣٩ هـ) واتفقوا جميعا على أن هناك لفظا وضع مكان لفظ ، لغرض التشبيه ، وهذا مقيد بادعاء أن المشبه من جنس المشبه به ، كادعائك أن محمدا من جنس الأسود ،وهذا واضح في الأسماء ، لكن الأفعال قد يغمض فيها ،ولذلك أوضح لك في مثال كانت الاستعارة فيه في الفعل ، **مثل قول الله تعالى** :

﴿ وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلَّيۡلُ نَسۡلَخُ مِنۡهُ ٱلنَّهَارَ.... ﴾ [سورة يس:٣٧]

فالفعل (نسلخ) مستعار لكشف الليل عن النهار ، وأصل السلخ نزع جلد الحيوان عن لحمه ، وفي هذا الفعل من التصوير ما يشبه إخراج النهار من عباءة الليل ، أو نزع الليل عن رابعة النهار ، حيث الحركة البطيئة ، وإزاحة الغطاء ، والرغبة في المخبوء تحت الستور ، معان كثيرة في الصورتين ، واستعيرت

---
١ - مفتاح العلوم ص ١٦٣.
٢ - المثل السائر ١/ ٣٥١.

صورة السلخ من عالم الحيوان إلى عالم الليل والنهار ،وكلا العالمين مشاهد منظور للكافة .

ولقد حازت الاستعارة المنزلة العظيمة عند أهل البيان ، فقدروها قدرها حتى قال ابن رشيق القيرواني في العمدة : (الاستعارة أفضل المجاز ، وأول أبواب البديع ، وليس في حلي الشعر أعجب منها ، وهي من محاسن الكلام إذا وقعت موقعها ، ونزلت موضعها)(١).

ويقول : (والاستعارة إنما هي من اتساعهم في الكلام اقتداراً ، وليس ضرورة لأن ألفاظ العرب أكثر من معانيهم ، وليس ذلك في لغة أحد من الأمم غيرهم ، فإنما استعاروا مجازاً واتساعاً (٢).

وكان ابن المعتز يفضل ذا الرمة كثيراً ، ويقدمه بحسن الاستعارة والتشبيه لا سيما بقوله:

فلما رأيت الليل والشمس حية ... حياة الذي يقضي حشاشه نازع

لأن قوله : (والشمس حية) من بديع الكلام ،وهو تعبير جاء في اللسان العربي وعلى ألسنة الصحابة حيث : **كَتَبَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ إِلَى أَبِي مُوسَى الأَشْعَرِيِّ** :

أَنْ صَلِّ الظُّهْرَ حِينَ تَزُولُ الشَّمْسُ ، وَصَلِّ الْعَصْرَ وَالشَّمْسُ حَيَّةٌ ، بَيْضَاءُ نَقِيَّةٌ ، وَصَلِّ الْمَغْرِبَ حِينَ تَغِيبُ الشَّمْسُ - أَوْ حِينَ تَغْرُبُ الشَّمْسُ - وَصَلِّ

١ - العمدة ص ٨٨.
٢ - السابق٩٠.

الْعِشَاءَ حِينَ يَغِيبُ الشَّفَقُ إِلَى نِصْفِ اللَّيْلِ الأَوَّلِ ، وَأنَّ ذَلِكَ سُنَّةٌ ، وَأَقِمْ بِسَوَادٍ - أَوْ بِغَلْسٍ أَوْ بِالسَّوَادِ - وَأَطِلِ الْقِرَاءَةَ)(١)، فقول سيدنا عمر (والشمس حية) فسره بقوله : (بيضاء نقية) وهنا تلحظ الفارق بين حياة الشمس و الموصوف بالبياض والنقاء ، وما يخالف ذلك من احمرار ، أو كدر ، وحياة الشمس صورة مستعارة لبقاء حرارتها ، ولونها ، وشبهت هذه الحالة بحالة الإنسان الحي ، حين تبدو على سيماه نضرة الحياة ونعيمها ، واستعار لفظ الحياة المخصوص به الإنسان ، للشمس على سبيل الاستعارة المكنية .

والاستعارة كثيرة في كتاب الله عز وجل وكلام نبيه ﷺ: ومن ذلك قوله تعالى: ﴿إِنَّا لَمَّا طَغَا ٱلْمَآءُ ...﴾ [سورة الحاقة:١١]وقوله: " فلما سكت عن موسى الغضب " وقوله:﴿...سَمِعُواْ لَهَا شَهِيقًا وَهِىَ تَفُورُ ۝٧﴾ [سورة المُلك:٧]، تكاد تميز من الغيظ " وقوله تعالى: ﴿ وَقِيلَ يَٰٓأَرْضُ ٱبْلَعِى مَآءَكِ...﴾ [سورة هود:٤٤]، وقول النبي ﷺ: **" الدنيا حلوة خضرة "**

وقوله لحالب ناقة: " دع داعي اللبن " يريد : دع شيئا من اللبن في الضرع ولا تحلبه كله ، وقوله: " تمسحوا بالأرض فإنها بكم برة " وقوله: " رب تقبل توبتي ، واغسل حوبتي "فإن ذهبت إلى الشعر وجدت البحر مملوءًا ، ويكفي أن تعيد على أذنك قول امرئ القيس :

وليل كموج البحر أرخى سدوله   علي بأنواع الهموم ليبتلي

---

١ - إتحاف الخير المهرة ١/ ٤٢٧.

فقلــت لــه لمــا تمطــى بجــوزه وأردف أعجـــازاً ونـــاء بكلكـــل

ألا أيّهـا اللّيـلُ الطّويـلُ ألا انْجَـلي بصُـبْحٍ ومـا الإصْـباحَ مِنـك بأمثَـلِ

فيـا لـكَ مـن ليـلْ كـأنَّ نجومـهُ بكـل مغـار الفتـل شـدت بيـذبلِ

كـأن الثريـا علِّقـت في مصـامها بـأمْراسِ كتّـانٍ إلى صُـمّ جَنـدَلِ

حيث جعل لليل استارا تسدل ، وجعل له صلبا يمتطى ، ومن وراء الصلب أعجازا يجرها ، وحملا ينوء به

وبعد .. فإن الاستعارة في تعريفها الأخير عند مدرسة الشراح هي : استعمال اللفظ في غير ما وضع له لعلاقة المشابهة ، ويرى بعض العلماء أن الاستعارة : اللفظ المستعمل في غير ما وضع له لعلاقة المشابهة، فجعل الاستعارة في اللفظ وليس في الاستعمال ، لأن وصف الاستعارة ينطبق على اللفظ ، ولا ينطبق على الاستعمال ، فإذا أطلقت الاستعارة على الاستعمال فهذا تجوز ، أو توسعة ، وعند التقسيم تقول : الكلام إما مجاز ، وإما حقيقة ، والمجاز إما استعارة أو مجاز مرسل ، فهذا كله وصف للكلام ، وليس وصفا للاستعمال .

أركان الاستعارة :

لكي تمسك بأركان الاستعارة عليك أن تعرف أن أصلها تشبيه حذفت أركانه ، واكتفي فيه بأحد الركنين الرئيسين (المشبه أو المشبه به) داخل العبارة وهذا يجعلك تستحضر في خلفية الاستعارة التشبيه الذي قامت عليه ، أما أركان الاستعارة فتشمل :

- المستعار منه ، وهو المشبّه به.

- المستعار له، وهو المشبه، ويقال لهذين: (طرفا الإستعارة).
- المستعار ، وهو اللفظ المنقول.
- القرينة المانعة من إرادة المعنى الحقيقي ، وهي إما في الكلام وتسمى لفظية أو مفهومة من سياق الكلام ، ففي قولك مثلا : (رأيت الأسد يخطب الجمعة) فالمستعار منه: الحيوان الشجاع ، والمستعار له: محمد أو غيره من الأسماء ، والمستعار: لفظ أسد ، والقرينة قولك : يخطب الجمعة ، تلك أركان الاستعارة التي اتفق عليها أهل العلم .

تقسيمات الاستعارة

الاستعارة القريبة والبعيدة :

القرب والبعد في الاستعارة يراد بهما القرب من المعنى الحقيقي أو القرب من فهم الاستعارة ، وسرعة الإحاطة بمرادها ، وكل من المعنيين يوصل إلى الآخر ، فالقرب من الحقيقة قرب من الفهم ،والعكس ، ولذلك استعمل الإمام عبد القاهر القرب في الاستعارة بمعنى القرب من الحقيقة **فقال** :

(ومن الاستعارة القريبة من الحقيقة قولهم أثرى فلان من المجد وأفلس من المروءة **وكقوله** :

(إن كان أغناها السلو فإنني   أمسيت من كبدي ومنها معدما)

وذلك أن حقيقة الإثراء من الشيء كثرته عندك ، ووصف الرجل بأنه كثير المجد أو قليل المروءة كوصفه بأنه كثير العلم أو قليل المعرفة ، في كونه حقيقة ، وكذلك إذا قلت أثرى من الشوق أو الوجد أو الحزن **كما قال** :

(وفي الركاب حريب   من الغرام ومثرى)

فهو كقولك كثر شوقه وحزنه وغرامه ، وكذا معنى أعدم من المال : انه خلا منه ، وأن المال يزول عنه ، فإذا أخبر أن كبده قد ذهبت عنه فهو في حقيقة من ذهب ماله وعدمه ، والعدم في المال وفي غير المال بمنزلة واحدة لا تتغير له فائدة ، والمعدم موضوع لمن عدم ما يحتاج إليه ، فالكبد مما يحتاج إليه ، وكذلك المحبوبة فإنما تقع هذه العبارة في نفسك موقع الغريب من حيث إن العرف جرى في الإعدام بأن يطلق على من عدم ما جنسه جنس المال ..

ويؤنسك بما قلت أنك لو قلت : " عدم كبده " ، لم يكن مجازاً ، ولم تجد بينه وبين : خلا من كبده ، وزالت عنه كبده كبير فرق ، ألا تراك تقول : الفرس عادم للطحال ، تريد ليس له طحال ، وهذا كلام لا استعارة فيه ، كما أنك لو قلت الطحال معدوم في الفرس كان كذلك)(١).

وهذا القرب ، أو البعد إنما أشرت إليه لتعلم أن من أهل العلم من يستحسن الاستعارة القريبة ، ويرفعها على غيرها ، ومنهم من يستحسن الاستعارة البعيدة ، ويراها أدخل في معنى المبالغة ، ومقاييس القرب والبعد ليست محل اتفاق ، لكن المتفق عليه أن هناك من الاستعارات ما تألفه الأذواق وتهش له وتبش ، وأخرى تنفر منه الطباع العربية الأصيلة ، وسبب الألفة والبشاشة مناسبة المستعار للمستعار له ، وامتزاج اللفظ بالمعنى بحيث تشعر بالألفة ، وعدم التنافر .

ومن الذين يستحسنون الاستعارة القريبة ابن رشيق ، حيث يقول في كتابه العمدة عن النقاد : (إنهم إنما يستحسنون الاستعارة القريبة ، وعلى ذلك مضى جلة العلماء ، وبه أتت النصوص عنهم ، وإذا استعير للشيء ما يقرب منه ويليق به كان أولى مما ليس منه في شيء ، ولو كان البعيد أحسن استعارة من القريب لما استهجنوا قول أبي نواس:

بح صوت المال مما ... منك يشكو ويصيح

---

١ - أسرار البلاغة ص ٤٤.

فأي شيء أبعد استعارة من صوت المال؟

فكيف حتى بح من الشكوى والصياح مع ما أن له صوتاً حين يوزن أو يوضع؟ ولم يرده أبو نواس فيما أقدر؛ لأن معناه لا يتركب على لفظه إلا بعيداً **وكذلك قول بشار:**

وجدت رقاب الوصل أسياف هجرها   **وقدت لرجل البين نعلين من خدي**

فما أهجن "رجل البين" وأقبح استعارتها ، ولو كانت الفصاحة بأسرها فيها، وكذلك " رقاب الوصل .

قال القاضي الجرجاني: الاستعارة ما اكتفى فيها بالاسم المستعار عن الأصلي، ونقلت العبارة فجعلت في مكان غيرها ، وملاكها بقرب التشبيه ومناسبة المستعار للمستعار له ، وامتزاج اللفظ بالمعنى حتى لا يوجد بينهما منافرة ، ولا يتبين في أحدهما إعراض عن الآخر.

وقال قوم آخرون منهم أبو محمد الحسن بن علي بن وكيع: خير الاستعارة ما بعد، وعلم في أول وهلة أنه مستعار، فلم يدخله لبس ، **وعاب على أبي الطيب قوله:**

وقد مدت الخيل العتاق عيونها   إلى وقت تبديل الركاب من النعل

إذ كانت الخيل لها عيون في الحقيقة.(١)

المهم أن أهل البلاغة يستهجنون الاستعارة البعيدة ، كما صرح بذلك ابن سنان في سر الفصاحة ، وهو يستعرض قول بعض الشعراء مثل تأبط شرا **حيث قال :**

١ ـ العمدة ص ٨٨.

نخز رقابهم حتى صدعنا وأنف الموت منخره رثيم

فقال (جعل للموت أنفا ومنخرا رثيما ، من قولهم رثمتم أنف الرجل فهو رثيم إذا ضربته فدمى .

وقال ذو الرمة :-

يعز ضعاف القوم عزة نفسه ويقطع أنف الكبرياء من الكبر

فاستعار للكبرياء أنفا أو لعله أراد أنف صاحب الكبرياء ، وحذف المضاف وأقام المضاف إليه مقامه ، **وقال معقل بن خويلد الهذلي :-**

تخاصم قوما لا تلقى جوابهم وقد أخذت من أنف لحيتك اليد

يريد قبضت على طرف لحيتك كما يفعل المهموم فجعل للحية أنفا **وقال سلم الخاسر :-**

لولا المقادير ما حط الزمان به لكن تولى بأنف كلمه دام

فجعل للزمان أنفا داميا وقال الحسين بن مطير :

فلما مضى معن مضى الجود وانقضى وأصبح عرنين المكارم أجدعا

وكل هذا من الاستعارة البعيدة الذميمة ، وقد حمل بعض المفسرين قول ذي الرمة أنف الكبرياء على أنه أراد أوله والمقدم منه، **كما قال امرؤ القيس :**

قد غدا يحملني في أنفه لاحق الإطلين محبوك ممر

أي في أول جريه أو في أول الغيث الـذي ذكـره قبـل هـذا البيـت وهـذا التأويل على بعده ليس يسوغ في جميع الأبيات المذكورة ، لأن المعنـى فيهـا مبنـي على الأنف الذي هو العضو) [1].

فالبعد في جميع هذه الاستعارارت ناشئ من المجيئ بصورة غير مستساغة في الذائقة العربية ، مثل أن تجعل للموت أنفا ،أو للّحية أنفا ، وهذا مرفـوض في الذوق قبل اللسان ، أوكما سبق من أنه جعل للمعروف كبدا ، أو للموت فريصا ، كما ذكر الحاتمي في تنبيهاته على سرقات المتنبي[2]، والعـرب لا تستسـيغ مثـل هذه الصور ، لأنها بعيدة حتى عن الخيال .

الاستعارة الأصلية والاستعارة التبعية

الأصل في الاستعارة أن تستعير الاسم ، **مثل**: "البحر – الأسد – الليل – البدر – الشمس – الظبي" ، أو الجود ، البراءة ، الحلم ...وهذا النوع يطلق عليه الاستعارة الأصلية ، **يقول ابن عاشور: في قوله تعالى:**

﴿....هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ ....﴾ [سورة البقرة:١٨٧]

(جملة مستأنفة كالعلة لما قبلها أي أحل لعُسر الاحتراز عن ذلـك ، ذلـك أن الصوم لو فرض على الناس في الليل وهو وقت الاضطجاع ، لكان الإمسـاك عن قربان النساء في ذلك الوقت عنتاً ومشقة شديدة ليست موجودة في الإمساك عن قربانهن في النهار ؛ لإمكان الاستعانة عليه في النهار بالبعد عن المرأة ، فقوله

١ - سر الفصاحة ص ١٣٩.
٢ - الرسالة الموضحة على سرقات المتنبي للحاتمي ص ٢٢.

تعالى : (هن لباس لكم) استعارة بجامع شدة الاتصال حينئذٍ وهي استعارة أحياها القرآن ، لأن العرب كانت اعتبرتها في قوله : لابَسَ الشيءُ الشيءَ إذا اتصل به ، لكنهم صيروها في خصوص زِنَة المفاعلة حقيقةً عُرفية ، فجاء القرآن فأحياها وصيَّرها استعارة أَصلية جديدة ، بعد أن كانت تبعية منسية وقريبٌ منها **قول امرىء القيس** :

وَإنْ تكُ قد ساءتكِ مني خَليقَةٌ فسُلّي ثيابي من ثيابِكِ تَنْسُلِ) (١)

الذي أريد أن أذكرك به أن الاستعارة الأصلية تكون للأسماء الجامدة أو ما يطلق عليها اسم الجنس فتقول : سلمت على البحر ، ونازلت الأسد في الميدان ، وغطت وجهها بالليل .... إلخ .

ومنه قوله تعالى :

﴿ .... **قَالُواْ رَبَّنَآ أَفۡرِغۡ عَلَيۡنَا** .... ﴾ [سورة البقرة:٢٥٠]

تريد : أفرغ علينا مايثبتنا في المعركة ، فجعلت الصبر ماء ينزل على القلوب فيثبت فرائصها ويقوي دعائمها فلا تهتز للنوازل ، ولا تفزع تحت ظلال السيوف.

ومنه قوله تعالى :

﴿ **أَفَمَنۡ أَسَّسَ بُنۡيَٰنَهُۥ عَلَىٰ تَقۡوَىٰ مِنَ ٱللَّهِ وَرِضۡوَٰنٍ خَيۡرٌ أَم مَّنۡ أَسَّسَ بُنۡيَٰنَهُۥ عَلَىٰ شَفَا جُرُفٍ هَارٖ فَٱنۡهَارَ بِهِۦ فِي نَارِ جَهَنَّمَۗ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ١٠٩** ﴾

[سورة التوبة:١٠٩]

١ - التحرير والتنوير ١/ ٧٨.

فهذه الآية وإن كانت تتحدث عن بناء مسجد الضرار ، لكنها في الحقيقة تهدف إلى بناء الإيمان ، وبناء الكفر ، فالأول بناء بني على تقوى من الله ورضوان والآخر بناء بني على شفا جرف هار ، فلفظة البناء هنا مستعارة للعقيدة الصحيحة الراسخة القوية ، ومن بنى مسجدا على عقيدة صحيحة بناه على أصول متينة ، لا تنهار أبدا ، أما من بنى مسجدا على كفر ونفاق وإضرار بالمسلمين ، فكأنما بنى بناءه على شفا جرف هار ، ومن أحكم القواعد سلمت له الجدران .**ومنه قوله تعالى :**

﴿وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلۡإِيمَٰنَ.....﴾ [سورة الحشر:٩]

فلفظة الإيمان فيها استعارة أصلية حيث جعل الإيمان مكانا للسكنى ودارا للإقامة الهنيئة ، يقول الكشميري في فيض القدير(والمعنى عندي: الذين جعلوا الإيمان مبوأهم، ومقعدهم، كأن الإيمان أحاط بهم، وهؤلاء قاعدون فيه كقوله:

﴿إِنَّ ٱلۡمُتَّقِينَ فِي جَنَّٰتٖ وَنَهَرٖ ٥٤ فِي مَقۡعَدِ صِدۡقٍ عِندَ مَلِيكٖ مُّقۡتَدِرِۭ ٥٥﴾

[سورة القمر:٥٤-٥٥]

فالإيمان ظَرْفٌ، وهؤلاء مَظْرُوفُون، وهو كناية عن كمال دينهم ، وفيه ترغيب للمهاجرين بحبهم، ولذا جعله الحديث من علامة الإيمان وفيه تنبيه على أن حب أهل ود الرجل، والخلص من أحبائه ، أيضًا ضروري وإن كانوا أجانب ، فإن حبَّ أقاربِ النبي ﷺ مما فُطِرَ عليه كل مسلم يعلمه من فطرَتِهِ أما حبُّ الأنصار الذين فدَوْه من أموالهم وأنفسهم ، لكونهم أجانب قد يَذْهَل

الذهنُ عن حبهم ، فنبَّه على أن حبَّهم أيضًا من علامات الإيمان، لكونهم حَلُّوا منه محلَّ أهلِ البيت من الرجل ، وفي الحديث:

«من بر الولد إكرام أهل ود أبيه»(١)

ومنه حديث عبد الله ابْن عُمَرَ قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ - ﷺ - قَالَ:

«بَيْنَا أَنَا نَائِمٌ أُتِيتُ بِقَدَحِ لَبَنٍ فَشَرِبْتُ حَتَّى إِنِّي لأَرَى الرِّيَّ يَخْرُجُ فِي أَظْفَارِي، ثُمَّ أَعْطَيْتُ فَضْلِي عُمَرَ بْنَ الْخَطَّابِ» قَالُوا: فَمَا أَوَّلْتَهُ يَا رَسُولَ اللهِ؟ قَالَ: «الْعِلْمَ» ، فلفظة (الري) فيها استعارة أصلية ، ويراد بها أثر العلم من فهم للواقع ، وتقدير الأمور ، ووضع الأشياء في مواضعها استنادا إلى الفهم العميق الناتج عن العلم ، والجامع بين العلم واللبن هو النفع العام ، فاللبن نافع للأجساد ، والعلم نافع للعقول والقلوب ، وقول النبي ﷺ :(حتى إني لأرى الري) جعل الري مرئيًّا وهذا من باب الاستعارة الأصلية .

ومن خطبة عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: (يا أيها الناس، عليكم بالطاعة والجماعة، فإنها حبل الله الذي أمر به، وما تكرهون في الجماعة خير مما تحبون في الفرقة) فلفظة (الحبل) مستعارة للدين ، أو لأوامر الدين ، فالدين يأمر بالجماعة حتى وإن شابها ما شابها ، ويا ليت أهل مصر في هذه الأيام يجتمعون ، فلقد انقسمت مصر في هذه الأيام إلى فريقين ، وياويلها إن لم تسارع إلى الاتحاد ، حتى على ضلال ، لأن الفرقة شر ، وانقسام المجتمع ينذر بعواقب

---

١ - فيض الباري على صحيح البخاري لمحمد أنور شاه بن معظم شاه الكشميري الهندي ثم الديوبندي (المتوفى: ١٣٥٣هـ).
المحقق: محمد بدر عالم الميرتهي، أستاذ الحديث بالجامعة الإسلامية بدابهيل (جمع الأمالي وحررها ووضع حاشية البدر الساري إلى فيض الباري)الطبعة: الأولى، ١٤٢٦ ١/ ١٥٩

وخيمة ، والذين ينفثون في نار الفرقة ، إنما يحرقون البلاد وهم يشعرون أو لا يشعرون .

فالاستعارة الأصلية هي ما كان اللفظ المستعار فيها اسما جامدا مثل : الأسد حين تستعيره للرجل الشجاع ، والقتل حين تستعيره للذل والمهانة وحاتم حين تستعيره للرجل الكريم ، وكذلك القمر ، والنجم ، والنهر .... إلخ.

ومثال ذلك قول الشاعر :

يا كوكبا ما كان أقصر عمره وكذاك عمر كواكب الأسحار

وهذا البيت قيل في الرثاء ، حيث رثى الشاعر ولده ، فشبهه بالكوكب ثم استعار المشبه به (الكوكب) للولد حيث يجمعهما الرفعة ، وعلو الشأن على سبيل الاستعارة التصريحية الأصلية ، لأن كلمة الكوكب لفظ جامد غير مشتق ، **ومن الأمثلة أيضا قول شوقي في رثاء سعد زغلول :**

شيعوا الشمس ومالوا بضحاها وانحنى الشرق عليها فبكاها

جلل الصبح سوادا يومها فكأن الأرض لم تخلع دجاها

فشوقي هنا يستعير الشمس لزعيم مصر فجعله مشبها ، والشمس مشبها به ، والمستعار هنا اسم جامد ، وتشييع الشمس ، والميل بالضحى ، تعبير عن فراقها ، مما استدعى الشرق إلى الانحناء ليبكي هذا الفقيد ، والذي يرفع من قيمة هذه الصورة هذا التناسب بين الشمس والضحى ، والصبح والشرق ، ثم الدجى وهذا العالم عالمٌ يراه كل إنسان مما يعطيك شعورا بأن سعد زغلول ملأ

الأرض نورا !!! والمجيء بهذه الأسماء لتشارك في هذا الموكب الجنائزي يرسم لك صورة الوداع الأخير الذي خلف الأرض مكسوة بالدجى الأبدي .

أما الاستعارة التبعية :

فهي استعارة الفعل أو الحرف ، وذلك مثل قوله تعالى :

﴿ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ .... ﴾ [سورة هود:١١٤]

فإقامة الصلاة استعارة تبعية ، لأن الفعل " أقم " إنما يطلق على البناء أو المحسوسات ، فيقال أقم الجدار ، أقم البناء ، وهو فعل يحمل معنى العناية والاهتمام بالمُقام ، فكأن المعنى : واظب على الصلاة ، وأدها في أتم وجه فجعلت العناية بالصلاة شبيهة بالشيء القائم المعتدل .

ولكي تجري هذه الاستعارة التبعية راجع معي قول القائل :

"عَضَّنَا الدّهْرُ بِنَابِه" ، فالمعنى هو : أن الدهر أصابنا بالرزايا والمصائب وحينئذ يكون الإصابة بالمصائب مشبها ، والعض مشبها به ، ووجه الشبه الجامع بينهما هو الألم الناتج عن كل ، ثم استعير (العض) لفعل الدهر ، واشتق من العض المصدر فعلا من لفظه وهو (عضَّ) مما يعني أن الفعل ليس هو المستعار ، إنما هو تابع للمصدر المستعار ، فالاستعارة لا تكون للأفعال لأنها لا تستعار إنما تتبع مصادرها المستعارة ، وكل ما كان شبيها بذلك يقال له : استعارة تبعية وقل مثل ذلك في نحو:

وآيـة :﴿ وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ ٱلنَّهَارَ .... ﴾ [سـورة يـس:٣٧] ونحـو : ﴿.... فَرَجَعْنَٰكَ إِلَىٰٓ أُمِّكَ كَىْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ .... ﴾ [سورة طـه:٤٠] وكـذلك رأوا في استعارة الحرف للدلالة به على معنى ليس موجودا فيه ، فحين تـاتي بحـرف وتُحِّمله معنى لم يوضع له ، فأنت تستعير هذا المعنى له ، ومن ذلك قوله تعالى :

﴿ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ﴿٤﴾ ﴾ [سورة النحل:٤]

(فالإتيان بحرف (إذا) المفاجأة استعارةٌ تبعيـة ، حيـث اسـتعير الحـرف الدال على معنى المفاجأة لمعنى ترتّب الشيء على غير مـا يظـن أن يترتـبَ عليـه . وهذا معنى لم يُوضع له حرف ، ولا مفاجأةَ بالحقيقة هنـا لأن الله لم يفجـأه ذلـك ولا فَجَأ أحداً ، ولكن المعنى أنّه بحيث لو تدبر النّاظر في خلق الإنسـان لترقـب منه الاعتراف بوحدانية خالقه وبقدرته على إعادة خلقه ، فإذا سمع منه الإشراك والمجادلة في إبطال الوحدانية وفي إنكار البعث كان كمن فجأه ذلك . ولمـا كـان حرف المفاجأة يدل على حصول الفَجْـأة للمـتكلم بـه تعـيّن أن تكـون المفاجـأة استعارة تبعية .

فإقحام حرف المفاجأة جعل الكلام مفهماً أمرين هما : التعجيب من تطـوّر الإنسان من أمهن حالة إلى أبدع حالة وهي حالة الخصومة والإبانة الناشئتين عن التفكير والتعقل ، والدلالة على كفرانه النعمة وصرفه ما أنعم به عليه في عصيان المنعِم عليه . فالجملة في حدّ ذاتها تنويه ، وبضميمة حـرف المفاجـأة أدمجـت مـع التنويه التعجيب ، ولو قيل : فهو خصيم أو فكان خصيماً لم يحصـل هـذا المعنـى البليغ)(١).

١ - التحرير والتنوير ١٤ / ١٠٣.

وفي قوله تعالى :

﴿فَالْتَقَطَهُۥٓ ءَالُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا ۗ إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا۟ خَٰطِـِٔينَ ﴿٨﴾﴾ [سورة القصص:٨]

(واللام) في (ليكون لهم عدواً) لام التعليل وهي المعروفة عند النحاة بلام كي وهي لام جارة مثل كي ، وهي هنا متعلقة ب (التقطه) . وحق لام كي أن تكون جارة لمصدر منسبك من (أن) المقدرة بعد اللام ومن الفعل المنصوب بها فذلك المصدر هو العلة الباعثة على صدور ذلك الفعل من فاعله . وقد استعملت في الآية استعمالاً وارداً على طريقة الاستعارة دون الحقيقة لظهور أنهم لم يكن داعيهم إلى التقاطه أن يكون لهم عدوّاً وحزناً ولكنهم التقطوه رأفة به وحباً له لما أُلقي في نفوسهم من شفقة عليه ولكن لما كانت عاقبة التقاطهم إياه أن كان لهم عدوّاً في الله ومُوجب حزن لهم ، شبهت العاقبة بالعلة في كونها نتيجة للفعل كشأن العلة غالباً فاستعير لترتب العاقبة المشبهة الحرف الذي يدل على ترتيب العلة تبعاً لاستعارة معنى الحرف إلى معنى آخر استعارة تبعية ، أي استعير الحرف تبعاً لاستعارة معناه لأن الحروف بمعزل عن الاستعارة لأن الحرف لا يقع موصوفاً ، فالاستعارة تكون في معناه ثم تسري من المعنى إلى الحرف فلذلك سميت استعارة تبعية عند جمهور علماء المعاني خلافاً للسكاكي .

وضمير (لهم) يعود إلى آل فرعون باعتبار الوصف العنواني لأن موسى كان عدواً لفرعون آخر بعد هذا ، أي ليكون لدولتهم وأمتهم عدواً وحزناً فقد كانت بعثة موسى في مدة ابن فرعون هذا .

ووصفه بالحزن وهو مصدر على تقدير متعلق محذوف ، أي حزناً لهم لدلالة قوله لهم السابق ، وليس هذا من الوصف بالمصدر للمبالغة **مثل قولك** : فلان عدل ، لأن ذلك إذا كان المصدر واقعاً موقع اسم الفاعل فكان معنى المصدر قائماً بالموصوف . والمعنى هنا : ليكون لهم حزناً . والإسناد مجاز عقلي لأنه سبب الحزن وليس هو حزناً) (1).

المهم أن الاستعارة التبعية تكون في المشتقات ، والحروف ، وأن وجه التسمية راجع إلى أنَّ الاستعارة فيها تابعٌ لوجودها في الأسماء الجامدة ، فكأنها سميتْ تبعيةً لتبعيتِها لاستعارةِ أخرى.

الاستعارة التصريحية

تنقسم الاستعارة باعتبار ما يذكر من الطرفين إلى استعارة تصريحية واستعارة مكنية ، ولقد سبق أن علمت أن الاستعارة في أصلها تشبيه حذف منه أحد الركنين ، فإن حذفت المشبه وصرحت بالمشبه به ،فالاستعارة تصريحية لأنك صرحت بالعمدة ، وهو المشبه به ، أما إذا حذفت المشبه به ، وأبقيت المشبه في العبارة فالاستعارة حينئذ استعارة مكنية ، فالأساس الذي يدور عليه التقسيم هو المشبه به ، إن ذكرته فلقد صرحت بالأساس ، فالاستعارة تصريحية وإن حذفته وأبقيت المشبه وشيئا من لوازم المشبه به فأنت تكني عنه ،فالاستعارة مكنية .

إذا الاستعارة تعتمد على المشابهة ، ولكن هذه المشابهة لا يظهر فيها الطرفان ، وإنما ينصهر فيها المشبه ،ويذوب في المشبه به ، فيظهر عندنا طرف

1 - التحرير والتنوير ٢٠ / ٧٦.

واحد ، فتقول : استمعت إلى البدر ، وجلست في ضوئه ، وهاتفت البحر واستمعت إلى هديره ، إذا دعنا نتفق ، ونكرر ، حتى لا ننسى .

الاستعارة التصريحية : هي ما صرح فيها بلفظ المشبه به ، والاستعارة المكنية هي ما حذف فيها المشبه به ودل عليه بلازم من لوازمه ، **فحين تقول** : سلمت على البحر ، تريد أنك سلمت على الرجل الكريم ، فهذه استعارة تصريحية ، وحين تقول جلست على شاطئ محمد ، فأنت في شأن استعارة مكنية ، حيث حذفت البحر ، ورمزت إليه بالشاطئ .

ونقف سريعا على بعض شواهد الاستعارة التصريحية ، **واستمع إلى قول الله تعالى :**

﴿الٓرۚ كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ لِتُخۡرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ .... ﴾

[سورة إبراهيم:١]

فلفظة الظلمات ، قصد بها الضلال والكفر، فالضلال كالظلمات فعبر عن الضلال بلفظ الظلمات ، وكذا في كلمة النور ، أراد منها الهدى والإيمان وبينهما أيضا علاقة المشابهة ، والقرينة في كل ذلك قرينة حالية تفهم من الكلام .

ومن ذلك قوله تعالى :

﴿ فَٱصۡدَعۡ بِمَا تُؤۡمَرُ ...﴾ [سورة الحِجر:٩٤]

يقول ابن أبي الإصبع المصري : (المستعار منه الزجاجة ، والمستعار الصدع ، وهو الشق ، والمستعار له عقوق المكلّفين ، والمعنى : صرّح بجميع ما أوحي إليك، وبيّن كل ما أمرت ببيانه ، وإن شقّ ذلك على بعض القلوب

فانصدعت ،والمشابهة بينهما فيما يؤثره التصديع في القلوب، فيظهر أثر ذلك على ظاهر الوجوه من التقبّض والانبساط، ويلوح عليها من علامات الإنكار والاستبشار، كما يظهر ذلك على الزّجاجة المصدوعة المطروقة في باطنها)(١).

وحين تعود إلى الصورة الأصلية تجد الآية تلحق تبليغ الدعوة – وإن فعلت ما فعلت – بالصدع الذي يصيب الزجاجة نتيجة مؤثر ما ، والتعبير بالصدع عن التبليغ يشير إلى بقاء أثر الدعوة في القلوب ، وكأن الدعوة تكسر هذه العوائق التي رانت على القلوب ، وحجبتها زمنا عن سماع الخير ، فجاءت الدعوة لتكسرها .

ومن ذلك أيضا قول المتنبي وهو يصف زوار سيف الدولة ، حين جاؤوه من بلاد الروم :

فَلَـمّا دَنَـا أخْفَـى عَلَيْـهِ مَكانَـهُ ... شُـعَاعُ الحَديـدِ البـارِقِ المُتَـألّقِ
وَأقْبَلَ يَمشِي في البِسـاطِ فَما درَى ... إلى البَحرِ يَسعى أمْ إلى البَـدْرِ يرْتَقـي
ولَمْ يَثْنِكَ الأعْداءُ عَنْ مُهَجاتِهِمْ ... بمِثْـلِ خُضُـوعٍ في كَـلامٍ مُنَمَّـقِ
وَكُنْـتَ إذا كاتَبْتَـهُ قَبْـلَ هـذِهِ ... كَتَبْـتَ إليْـهِ في قَـذالِ الدّمُسْـتُقِ
فـإنْ تُعْطِـهِ مِنْـكَ الأمـانَ فَسـائِلٌ ... وَإنْ تُعْطِـهِ حَـدّ الحُسـامِ فـأخلِقِ
وَهَلْ تَرَكَ البِيضُ الصّوارِمُ منهُمُ ... حَبيسـاً لِفَـادٍ أوْ رَقيقـاً لُمعْتِـقِ
لَقَـد وَرَدوا وِرْدَ القَطَـا شَـفَرَاتِهَا ... وَمَـرّوا عَلَيْهـا رَزْدَقـاً بعـدَ رَزْدَقِ

---

١ - بديع القرآن لابن أبي الصبع ص٢٢ .

بَلَغْتُ بسَيْفِ الدّوْلَـةِ النّـورِ رُتْبَـةً		أنَـرْتُ بهـا مَـا بَـينَ غَـرْبٍ وَمَشرِـقِ
إذا شـاءَ أنْ يَلْهُـو بلِحيَـةِ أحْمَـقٍ		أراهُ غُبَـاري ثـمّ قـالَ لَـهُ الحَـقِ
وَمـا كمَـدُ الحُسّـادِ شيءٌ قَصَـدْتُهُ		وَلكِنّـهُ مَـن يَـزْحَمِ البَحـرَ يَغـرَقِ

وراجع هذا المشهد ، وكيف رسم المتنبي صورة لسيف الدولـة ، فجعلـه تارة بدرا منيرا ، وجعله تارة بحـرا زاخـرا ، ليرسـم لـه صـورة الجـود الكاملـة والبهاء التام ، والمتنبي يقنعك بكل صورة ، وحين يأخذ في الحديث عنها ينسيك الصورة الأخرى .

وفي مشهد مغاير يقول دعبل الخزاعي :

أَيـنَ الشَّـبابُ؟ وأَيَّـةً سَـلَكَا		لاَ، أَيـنَ يُطْلَـبُ؟ ضَـلَّ بَـلْ هَلَكـا
لا تَعجَبـي يـا سَـلمُ مِـنْ رَجُـلٍ		ضـحكَ المشـيبُ برأسـهِ فبكـى
قـدْ كـانَ يضـحكُ في شـيبتهِ		وَأَتَـى المشـيبُ فقلَّـما ضَـحِكَا
يـا سـلمَ مـا بالشَّـيبِ منقصـةٌ ،		لا سُـوقَةً يُبْقِـي وَلاَ مَلِكـا
قَصرَـ الغَوايـةَ عَـنْ هَـوَى قَمَـرٍ		وجـدَ السَّـبيلَ إليـهِ مشـتركا
وَعْـداً بـأُخْرَى عَـزَّ مَطلبُهـا		صَـبا يطـا مـنْ دونهـا الحَسـكا
يـا ليـتَ شِـعري : كيـفَ نـومكما		يـا صـاحبيَّ إذا دمـي سُـفكا ؟

فانتشار الشيب في الرأس يراه الشاعر ضـحكاً ، وكـأن الشـيب يضـحك فيزداد انتشارا في رأس المرء ، وهذا الضحك يترك صورة عكسـية لصـاحبها إذ إنه يخلف البكاء والحسرة على ما فات من أيام الشباب ، تلك الأيام التي

كانت وكانت ، وتملؤها ضحكات الفتوة والشباب ، لقد جاء عليها الزمان فضحكت منها أيام المشيب ، فخلفت لصاحبها البكاء ، **وقوله** : " ضحك المشيب " استعارة تصريحية تبعية ، حيث جعل الانتشار ضحكا ، واستعار الضحك للانتشار ، والصورة مكتنزة بالألم المخلوط بالمرار ، ولا يدرك ذلك إلا من شابت نواصيه ، **وفي قول الحريري**:

سَأَلْتُهَا حِينَ زَارَتْ نَضْوَ بُرْقُعِهَا الْـــ ... قَـانِي وإِيـدَاعَ سَـمْعِي أَطْيَـبَ الْخَـبَرِ

فَزَحْزَحتْ شَفَقاً غَشَّـى سَـنَا قَمَـرٍ ... وسَـاقَطَتْ لُؤْلُـؤاً مِـنْ خَـاتَمٍ عَطِـرِ

فاستعمل كلمة الشفق قاصدا ما وصفه من قبل " بالقاني " ، وهو البرقع الأحمر حين زحزحته عن وجه القمر ، وفي كل من الشفق والقمر استعارة تصريحية ، وكذلك الحال في قوله " ساقطت لؤلؤا " ، حيث أراد كلامها المنضود ، أما " الخاتم " فاستعارة رابعة لأنه أراد به الفم الصغير ، والشاعر في كل ذلك يطلق اللفظ ويريد به عضواً من أعضاء حبيبته ، وهذا مستحسن عند بعض النقاد ، لكني لا أستحسنه ، لأن الصورة جمعت بين خليط لا رابط له فهذا قمر ، وذاك خاتم ، ولا جامع هنا ، فالصورة الكلية فيها من العشواء ما فيها ، ولو جمع لها من الحسن أصنافا من عالم واحد ، سواء عالم السماء أو عالم الجواهر واللآلئ لأحسن وأجاد .

وَأَمْطَرَتْ لُؤلُؤاً منْ نَرْجِسٍ وَسَقَتْ ... وَرْداً وَعَضَّـتْ عَـلَى العُنَّـابِ بِـالبَرَدِ

فقد استعارَ: اللؤلؤَ، والنرجسَ و الوردَ، والعنابَ، والبرَدَ للدموعِ والعيونَ، والخدودَ، والأناملَ، والأسنانَ.

وانظر إلى قصيدة يزيد بن معاوية :

نَالَتْ عَلَى يَدِهَا مَا لَمْ تَنَلْهُ يَدِي ... نَقْشاً عَلَى مِعْصَمٍ أَوْهَتْ بِهِ جَلَدِي
كَأَنهُ طَرْقُ نَمْلٍ فِي أَنَامِلِهَا ... أَوْ رَوْضَةٌ رَصَّعَتْهَا السُّحْبُ بِالبَرَدِ
كأَنَّهَا خَشِيَتْ مِنْ نَبْلِ مُقْلَتِهَا ... فَأَلْبَسَتْ زَنْدَها دِرْعاً مِنَ الزَّرَدِ
مَدَّتْ مَواشِطَهَا فِي كَفِّهَا شَرَكاً ... تَصِيدُ قَلْبِي بِهِ مِنْ دَاخِلِ الجَسَدِ
وَقَوْسُ حَاجِبِهَا مِنْ كُلِّ نَاحِيَةٍ ... وَنَبْلُ مُقْلَتِهَا تَرْمِي بِهِ كَبِدِي
وَخَصْرُهَا نَاحِلٌ مِثْلِي عَلَى كَفَلٍ ... مُرَجْرَجٍ قَدْ حَكَى الأَحْزَانَ فِي الخَلَدِ
أُنْسِيَّةٌ لَوْ رَأَتْهَا الشَّمْسُ مَا طَلَعَتْ ... مِنْ بَعْدِ رُؤيَتِهَا يَوْماً عَلَى أَحَدِ
سَأَلْتُهَا الوَصْلَ قَالَتْ لاتُغَرَّ بِنَا ... مَنْ رَامَ منَّا وِصَالاً مَاتَ بالكَمَدِ
فَكَمْ قَتِيلٍ لَنَا بالحُبِّ مَاتَ جَوًى ... مِن الغَرَامِ وَلَمْ يُبْدِي وَلَمْ يَعِدِ
فَقُلْتُ : أَسْتَغْفِرَ الرَّحْمنَ مِنْ زَلَلٍ ... إِنَ المُحِبَّ قَلِيلُ الصَّبْرِوَالجَلَدِ
قَالَتْ وَقَدْ فَتكَتْ فِينَا لَوَاحِظُهَا ... مَا إِنْ أَرَى لِقَتِيلِ الحُبِّ مِنْ قَوَدِ
قَدْ خَلَّفَتْنِي طَرِيحاً وَهي قَائِلَه ... تَأَمَّلُوا كَيْفَ فِعْلَ الظَبْيِ بالأَسَدِ
قَالَتْ لِطَيْفِ خَيَالٍ زَارَنِي وَمَضَى ... بِاللهِ صِفْهُ وَلاَ تَنْقُصْ وَلاَ تَزِدِ
فَقَالَ : خَلَّفْتُهُ لَوْ مَاتَ مِنْ ظَمَأٍ ... وَقُلْتِ : قِفْ عَنْ وَرُودِ المَاءِ لَمْ يَرِدِ
قالت: صدقت الوفى في الحب شيمته ... يابرد ذاك الذي قالت على كبدي
وَاسْتَرْجَعَتْ سَأَلَتْ عَنِّي فَقِيْلَ لَهَا ... مَا فِيهِ مِنْ رَمَقٍ ، دَقَّتْ يَداً بِيَدِ
وَأَمْطَرَتْ لُؤلُؤاً منْ نَرْجِسٍ وَسَقَتْ ... وَرْداً وَعَضَّتْ عَلَى العُنَّابِ بِالبَرَدِ

وَأَنْشَـدَتْ بِلِسَـانِ الحَـالِ قَائِلَـةً مِـنْ غَـيْرِ كَـرْهٍ وَلاَ مَطْـلٍ وَلاَ مَـدَدِ
وَاللهِ مَـا حَزِنَـتْ أُخْـتٌ لِفَقْـدِ أَخٍ حُـزْنِي عَلَيْـهِ وَلاَ أُمٌّ عَـلَى وَلَـدِ
فَأَسْرَعَتْ وَأَتَتْ تَجْرِي عَلَى عَجَلٍ فَعِنْـدَ رُؤْيَتِهَـا لَمْ أَسْـتَطِعْ جَلَـدِي
وَجَرَّعَتْنِـي بِرِيـقٍ مِـنْ مَرَاشِـفِهَا فَعَادَتْ الرُّوحُ بَعْدَ المَوْتِ فِي جَسَـدِي
هُمْ يَحْسِدُونِي عَلَى مَوْتِي فَوَا أَسَفِي حَتَّى عَلَى المَوتِ لاَ أَخْلُـو مِـنَ الحَسَـدِ

لاحظ لقد استعار اللؤلؤ للدموع ، واستعار النرجس للعيون ، واستعار الورد للخدود ، واستعار العناب للأنامل ، ثم استعار البَرَد للأسنان وكل ذلك من ميدان واحد وهو ميدان البساتين ،فالمطر ، والنرجس ، والورد والعناب ، والبرد ،كل ذلك في عالم الحدائق والأزهار مما جعل الصورة لوحة متكاملة تتناغم فيها الألوان ، وتتشابك فيها الخطوط .

وفي قول الله تعالى:

﴿ وَٱخۡفِضۡ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحۡمَةِ وَقُل رَّبِّ ٱرۡحَمۡهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرٗا ﴿٢٤﴾ ﴾

[سورة الإسراء:٢٤]

ترى الصورة هنا تحول الإنسان إلى طائر يرتفع جناحه تارة ، وينخفض أخرى ،وهي صورة ترمز إلى حركة الحياة ، وتقلب الأحوال فيها ، لكن هذا الجناح المتقلب مع الناس لابد أن يلزم حالة واحدة ، وهي حالة الانخفاض وانخفاض الجناح هنا – كما أرى – لا تعني الخضوع والانكسار للوالدين فقط ولكن تعني الملازمة وعدم البعاد ، فالطائر إذا ارتفع جناحه طار وابتعد ، وترك

العش للبحث عن الرزق ، لكن الصورة هنا تحمل من دلالة الملازمة في الخفض ودلالة الانكسار والتذلل في لفظة " الذل " الصريحة ، والصورة صورة استعارية حيث شبَّه الذلَّ بالطائرِ ، وحذف المشبَّه به ورمزَ إليه بشيءٍ من لوازمهِ وهو الجناحُ .

وكذلك في قوله تعالى :

﴿ **وَلَمَّا سَكَتَ عَن مُّوسَى ٱلۡغَضَبُ** ... ﴾ [سورة الأعراف:١٥٤]

جعل الغضب إنسانا يتكلم ويسكت ، يتكلم بالأمر فيثير حفيظة الغاضب، ويسكت فيهدأ الإنسان ، وتسكن حفيظته ، وهذا يشعرك بأن في الغضب قوة خارج الإنسان تدفعه وتسيره ، بل تأمره وتنهاه ، فإذا سكت هذا الآمر بالغضب سكن الإنسان واطمأن ، المهم أن في جملة :

"سكت الغضب " تشبيها للغضب بإنسان وحذف المشبه به ، ورمز إليه بالسكوت على سبيل الاستعارة المكنية .

ومن المكنية أيضا قول النبي ﷺ :(الخيل معقود في نواصيها الخير) لأن الصورة تريك ملازمة الخير للخيل ، فأينما حل الخيل حل الخير ، إلا أن الخير شبه بعقد يعقد على نواصي الخيل كما يفعل العرب حين يربطون حلية على ناصية الخيول ، فشبه الخير بشيء يربط على النواصي ، وحذف المشبه به ،وجيء بلازمه وهو لفظة (معقود) وهي اسم مفعول فالاستعارة مكنية تبعية ، **ويقول المتنبي:**

ضُرُوبُ النّاسِ عُشّاقٌ ضُرُوبَا فأعذَرُهُمْ أشَفُّهُمُ حَبِيبَا

وما سَكَني سِوَى قَتْلِ الأعادي فهَلْ مِن زَوْرَةٍ تَشفي القُلوبَا
تَظَلّ الطّيرُ منها في حَديثٍ تَرُدّ بهِ الصّراصِرَ والنّعيبَا
وقد لَبِسَتْ دِماءَهُمُ عَلَيْهِمْ حِداداً لم تَشُقّ لَهُ جُيُوبَا
أدَمْنا طَعْنَهُمْ والقَتْلَ حتى خَلَطْنا في عِظامِهِمِ الكُعُوبَا
كأنّ خُيولَنا كانَتْ قَديماً تُسَقّى في قُحُوفِهِمِ الحَليبَا
فَمَرّتْ غَيرَ نافِرَةٍ عَلَيْهِمْ تَدوسُ بنا الجَماجِمَ والتّريبَا
يُقَدّمُها وقد خُضِبَتْ شَواهَا فَتًى تَرْمي الحُرُوبُ بهِ الحُرُوبَا
شَديدُ الخُنْزُوانَةِ لا يُبَالي أصابَ إذا تَنَمّرَ أمْ أُصِيبَا
أعَزْمي طالَ هذا اللّيلُ فانْظُرْ أمِنْكَ الصّبْحُ يَفْرَقُ أنْ يَؤوبَا
كأنّ الفَجْرَ حِبٌّ مُسْتَزارٌ يُراعي مِنْ دُجُنّتِهِ رَقِيبَا
كأن نُجُومَهُ حَلْيٌ عَلَيْهِ وقد حُذِيَتْ قَوائِمُهُ الجَبُوبَا
كأنّ الجَوّ قاسَى ما أُقاسِي فصارَ سَوادُهُ فيهِ شُحُوبَا
كأنّ دُجاهُ يَجْذِبُها سُهادي فَلَيسَ تَغيبُ إلاّ أنْ يَغيبَا
أُقَلّبُ فيهِ أجْفاني كأنّي أعُدّ بهِ على الدّهرِ الذّنُوبَا
وما لَيْلٌ بأطْوَلَ مِنْ نَهارٍ يَظَلّ بلَحظِ حُسّادي مَشُوبَا
وما مَوْتٌ بأبْغَضَ مِنْ حَياةٍ أرَى لَهُمُ مَعي فيها نَصيبَا
عَرَفْتُ نَوائِبَ الحَدَثانِ حتى لَوِ انْتَسَبَتْ لكُنتُ لهَا نَقيبَا
ولَمّا قَلّتِ الإبْلُ امْتَطَيْنَا إلى ابنِ أبي سُلَيْمانَ الخُطُوبَا

مَطايـــا لا تَـــذِلّ لَمَـــنْ عَلَيْهَـــا ولا يَبغـــي لَهَـــا أحَـــدٌ رُكُـوبَـــا
وتَرْتَـــعُ دونَ نَبْـــتِ الأرْضِ فينـــا فَـــما فارَقْتُهـــــا إلاّ جَـــــدِيبَا
إلى ذي شِـــيمَةٍ شَـــغَفَتْ فُـؤادي فلَـــوْلاهُ لقُلْـــتُ بهـــا النّســـيبَا
تُنـــازِعُني هَواهـــا كـــلّ نَفْـــسٍ وإنْ لم تُشْـــبِهِ الرّشَـــأ الرّبيبَـــا
عَجيـــبٌ في الزّمـــانِ ومـــا عَجيـــبٌ أتَـــى مِـــنْ آلِ سَـــيّارٍ عَجيبَـــا
وشَيْخٌ في الشّـبابِ ولَـيس شَـيخاً يُسَـــمّى كـــلّ مَـــن بَلَـــغَ المَشـــيبَا
قَسَـــا فالأُسْـــدُ تَفْـــزَعُ مِـــن يَدَيْـــهِ وَرَقّ فـــنَحنُ نَفـــزَعُ أن يَـــذوبَا
أشَـــدُّ مـــنَ الرّيـــاحِ الهُـــوجِ بَطشـــاً وأسرَعُ في النّـــدى منهـــا هُبُوبَـــا
وقـــالوا ذاكَ أرْمَـــى مَـــنْ رَأيْنَـــا فقُلْـــتُ رَأيْـــتُمُ الغَـــرَضَ القَريبَـــا
وهَـــلْ يُخْطـــي بأسْـــهُمِهِ الرّمَايَـــا ومـــا يُخْطـــي بـــما ظَـــنّ الغُيُوبَـــا
إذا نُكِبَـــتْ كَنائِنُـــــهُ اسْـــتَبَنّا بأنْصُـــلِها لأنْصُـــلِها نُـــدُوبَا
يُصـيبُ ببَعْضِـها أفـواقَ بَعـضٍ فلَـــوْلا الكَسرُ لاتّصَـــلَتْ قَضِـــيبَا
بكُـــلّ مُقَـــوَّمٍ لم يَعْـــصِ أمْـــراً لَــــهُ حتـــى ظَنَنّــــاهُ لَبيبَـــا
يُريـــكَ النّـــزْعُ بَـــينَ القَـــوْسِ منْـــهُ وبَـــينَ رَمِيّـــهِ الهَـــدَفَ اللّهِيبَـــا
ألَستَ ابـنَ الأُلى سَـعِدوا وسـادوا ولم يَلِـــدوا امـــرَأً إلاّ نَجِيبَـــا
ونـالُوا مـا اشْـتَهَوْا بـالحَزْمِ هَوْنـاً وصـــادَ الـــوَحشَ نَملُهُـــمُ دَبِيبَـــا
ومـا ريـحُ الرّيـاضِ لهَـا ولَكِـنْ كَســاها دَفــنُهُمْ في الــتُّرْبِ طِيبَــا
أيَـا مَـنْ عـادَ رُوحُ المَجْـدِ فيـهِ وصـــارَ زَمانُـــهُ البـــالي قَشـــيبَا

تَيَمّمَنــي وكيلُـــكَ مادِحـــاً لي وأنْشَـــدَني مِـــنَ الشّـــعرِ الغَريبَـــا
فـــآجَرَكَ الإلـ؟ـهُ عـــلى عَليـــلٍ بَعَثْـــتَ إلى المَســـيحِ بـــهِ طَبِيبَـــا
ولَسْـــتُ بمُنكِـــرٍ مِنْـــكَ الهَـــدايَا ولكِـــنْ زِدْتَنـــي فيهـــا أدِيبَـــا
فـــلا زالَـــتْ دِيـــارُكَ مُشرِـــقاتٍ ولا دانَيـــتَ يـــا شَـــمسُ الغُرُوبَـــا
لأُصْـــبِحَ آمِنـــاً فيـــكَ الرّزايـــا كـــمَا أنَـــا آمِـــنٌ فيـــكَ العُيُوبَـــا

وأنا ألح عليك بذكر القصيدة كلها لتسلس لك ناصية البيان فالبيان لـيس في القاعدة ، وليس في التعليق عليها وتحليل الشاهد فيها إنما البيان العربي كلـه في اللسان العربي الفصيح ، في الشعر الجاهلي ، في الاية القرآنية والحديث الشريف ، وحين ينقاد لك البيان ، وتقف على هذا الذوق الرفيع فلقد عرفت البلاغة وأمها ، وفُتِحَت لك الخزائن البلاغية بأسرها ، لذلك تراني أنقل لـك الشاهد كـاملا بسياقه كله ، **والشاهد الذي معنا هنا قول المتنبي :**

ولَمّـــا قَلّـــتِ الإبْـــلُ امْتَطَيْنَـــا إلى ابْـــنِ أبي سُـــلَيْمانَ الخُطُوبَـــا

حيث تحولت الخطوب ،وهي المصاعب والأهوال ، تحولت إلى مطايا فلا بد من الوصول إلى الممدوح ، ولا حظ هذه الـدرر الكامنـة ، لقـد ذكـره المتنبـي بكنيته (ابن أبي سليمان) ليصل بـك إلى عـدة معـاني ، منهـا : أن أبـا سـليمان في الذاكرة الإسلامية هو داوود عليه الصلاة والسـلام وهـو خليفـة الأرض (يـا داوود إنا جعلناك خليفة في الأرض) ، ومنها : ذكر سليمان والذي أوتي

ملكا لم يحظ به أحد من بعده ، وكل ذلك فواتح لخزائن العطاء والجود ومحرضات على البذل والإنفاق ، وكيف الحال إذا رأيت من يمتطي المنايا والخطوب ليصل إليك ، وفي يدك الخزائن الجسام ؟ !! تخيل هذا وراجع الصورة مرة أخرى لترى المتنبي وهو يحكم استخدام أدواته الباعثة على العطاء .

"الاستعارة المكنيّة".

وهي الصورة الأخرى المقابلة للاستعارة التصريحية ، ففي التصريحية يصرح باللفظ المستعار ، أما في المكنية فيذكر شيئا من لوازمه فقط ، ويحذف اللفظ المستعار ، الذي كان في الأصل مشبها به ، مثل أن تقول : سمعت زئيره وأدبت أشباله ، ودخلت عرينه ، وأنت تريد من وراء ذلك استعارة لفظ الأسد للممدوح ، وفي قول الله تعالى :

﴿يُقَلِّبُ ٱللَّهُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُوْلِي ٱلْأَبْصَٰرِ ٤٤﴾ [سورة النور:٤٤]

لاحظ كيف تحول الليل والنهار إلى صفحات تقلَّب ، وصور تتغير كل وقت ، وكيف أثبتت الآية لليل والنهار صفة خاصة بالمشبه به ، وتلك طبيعة الاستعارة المكنية ،فالاستعارة المكنية تثبت صفة المشبه به للمشبه ، فالتقليب صفة للصفحات المقروءة في كتاب ، فأخذت هذه الصفة وأثبتت لليل والنهار وتلك إشارة إلى أن الليل والنهار الذي تعيشه إذا طوي فلن يعود ، إنما يعود غيره ، فصفحة الليل والنهار قلبت وجاء غيرها ،وتلك إشارة إلى فناء كل شيء وانتهائه ،وعدم ثبوت أي شيء تراه ،فالكل متغير ، والبقاء لله وحده .

ومن شواهد الاستعارة المكنية ما أخرجه الإمام مسلم (عَنِ ابْنِ شِمَاسَةَ الْمَهْرِيِّ، قَالَ: حَضَرْنَا عَمْرَو بْنَ الْعَاصِ، وَهُوَ فِي سِيَاقَةِ الْمَوْتِ، يَبْكِي طَوِيلًا وَحَوَّلَ وَجْهَهُ إِلَى الْجِدَارِ، فَجَعَلَ ابْنُهُ يَقُولُ: يَا أَبَتَاهُ، أَمَا بَشَّرَكَ رَسُولُ اللهِ ﷺ بِكَذَا؟ أَمَا بَشَّرَكَ رَسُولُ اللهِ ﷺ بِكَذَا؟ قَالَ: فَأَقْبَلَ بِوَجْهِهِ، فَقَالَ: إِنَّ أَفْضَلَ مَا نُعِدُّ شَهَادَةُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللهِ، إِنِّي قَدْ كُنْتُ عَلَى أَطْبَاقٍ ثَلَاثٍ، لَقَدْ رَأَيْتُنِي وَمَا أَحَدٌ أَشَدَّ بُغْضًا لِرَسُولِ اللهِ ﷺ مِنِّي، وَلَا أَحَبَّ إِلَيَّ أَنْ أَكُونَ قَدِ اسْتَمْكَنْتُ مِنْهُ، فَقَتَلْتُهُ، فَلَوْ مُتُّ عَلَى تِلْكَ الْحَالِ لَكُنْتُ مِنْ أَهْلِ النَّارِ فَلَمَّا جَعَلَ اللهُ الْإِسْلَامَ فِي قَلْبِي أَتَيْتُ النَّبِيَّ ﷺ، فَقُلْتُ: ابْسُطْ يَمِينَكَ فَلْأُبَايِعْكَ، فَبَسَطَ يَمِينَهُ، قَالَ: فَقَبَضْتُ يَدِي، قَالَ: «مَا لَكَ يَا عَمْرُو؟» قَالَ: قُلْتُ: أَرَدْتُ أَنْ أَشْتَرِطَ، قَالَ: «تَشْتَرِطُ بِمَاذَا؟» قُلْتُ: أَنْ يُغْفَرَ لِي، قَالَ: «أَمَا عَلِمْتَ أَنَّ الْإِسْلَامَ يَهْدِمُ مَا كَانَ قَبْلَهُ؟ وَأَنَّ الْهِجْرَةَ تَهْدِمُ مَا كَانَ قَبْلَهَا؟ وَأَنَّ الْحَجَّ يَهْدِمُ مَا كَانَ قَبْلَهُ؟»

وَمَا كَانَ أَحَدٌ أَحَبَّ إِلَيَّ مِنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ، وَلَا أَجَلَّ فِي عَيْنِي مِنْهُ، وَمَا كُنْتُ أُطِيقُ أَنْ أَمْلَأَ عَيْنَيَّ مِنْهُ إِجْلَالًا لَهُ، وَلَوْ سُئِلْتُ أَنْ أَصِفَهُ مَا أَطَقْتُ؛ لِأَنِّي لَمْ أَكُنْ أَمْلَأُ عَيْنَيَّ مِنْهُ، وَلَوْ مُتُّ عَلَى تِلْكَ الْحَالِ لَرَجَوْتُ أَنْ أَكُونَ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ، ثُمَّ وَلِينَا أَشْيَاءَ مَا أَدْرِي مَا حَالِي فِيهَا، فَإِذَا أَنَا مُتُّ فَلَا تَصْحَبْنِي نَائِحَةٌ، وَلَا نَارٌ، فَإِذَا دَفَنْتُمُونِي فَشُنُّوا عَلَيَّ التُّرَابَ شَنًّا، ثُمَّ أَقِيمُوا حَوْلَ قَبْرِي قَدْرَ مَا تُنْحَرُ جَزُورٌ وَيُقْسَمُ لَحْمُهَا، حَتَّى أَسْتَأْنِسَ بِكُمْ، وَأَنْظُرَ مَاذَا أُرَاجِعُ بِهِ رُسُلَ رَبِّي) فلفظ (يهدم) مستعار لمحو الذنوب وهو قرينة الاستعارة المكنية ، يقول المناوي في

فيضى القدير (شبه الخصال الثلاث في قلعها الذنوب من محلها بما يهدم البناء من أصله ثم أثبت للإسلام ما يلائم المشبه به من الهدم .

وقوله : " الحج يهدم ما قبله " أبلغ في إرادة المبالغة من الهجرة لأنه دونها فإذا هدم الحج الذنوب فبالأولى أن يهدمها الهجرة ؛ لأنها مفارقة الوطن والأحباب .. وتكرير الفعل " يهدم " في كل من الخصال دلالة على استقلال كل منهما بالهدم)(١).

وفي قول النبي ﷺ (والصدقة تطفئ الخطيئة كما يطفئ الماء النار) جعل الخطيئة نارا ،كما جعل الصدقة ماءً ، وجعل محو السيئات أشبه بعملية الإطفاء لتكتمل الصورة التخييلية ، والأصل أن الصدقة **تذهب الخطيئة لقوله تعالى** :

" إن الحسنات يذهبن السيئات ، لكن حضور الماء والنار ، والإطفاء في المشهد يأخذك سريعا إلى عالم الآخرة و وحضور النار فيه بقوة ، ورغبة المعذبين في شرب الماء ، وإفاضة الماء عليهم حين يقولون : " أفيضوا علينا من الماء " فالمشهد في هذه الظلال أوقع في الدفع إلى الصدقة ، والتحفيز عليها .

وفي مشهد معبر عن توالي المصائب ، وتعدد البلايا ، يقول أبو الطيب المتنبيِّ :

رماني الدهرُ بالأرْزاءِ حتى … فؤادي في غِشاء من نِبالِ

فصِرْتُ إذا أصابتْني سِهامٌ … تكسّرتِ النِّصالُ على النِّصالِ

---

١ - فيض القدير ١/ ٤٢.

انظر إلى هذا الرامي ، وهو رام لا يخطيء في رمية ، ومتى كان الدهر لا يصيب رميه ؟ ! لكن اللافت للنظر **عدة أمور** :

أولها : تصوير الدهر على أنه صائد محنك ، وتلك استعارة مكنية .

ثانيها : تصوير المصائب على أنها سهام ، وتلك استعارة تصريحية أصلية .

ثالثها :تصوير تتابع المصائب بتتابع السهام حتى يتكسر بعضها فوق بعض .

ومن صور الاستعارة المكنية قوله تعالى :

﴿إِذْ تَلَقَّوْنَهُۥ بِأَلْسِنَتِكُمْ...... ﴾ [سورة النور:١٥]

فالآية جعلت الألسن أداة للتلقي ، والمعلوم لدى الناس أن التلقي يكون بالآذان ، أو بالأسماع ، لكن الآية تشير إلى غاية أخرى ، وهي سرعة النشر بمجرد الوصول ، فكأن الخبر لا يرد على الآذان بل تتلقفه الألسنة ، وتنقله دون نظر ، أو فهم ، فالعقول مغيبة ، ولعل حال الإعلام المصري اليوم لا يخرج عن هذه الحالة ، إذا يأخذون الأخبار ممن لهم مصلحة في ترويج الأكاذيب وينقلونها للناس دون نظر ، فترى الخبر المكذوب الواحد على كل قناة ، وكأنما ألقي الخبر على ألسنة الجميع فأخرجوه للناس مباشرة ، وياويل مصر من هذا الإعلام الذي عقله في لسانه ،وليس في أذنيه .

وفي خطبة الحجاج في أهل العراق يهددهم ، يقول :

(إني أرى رؤوسا قد أينعت وحان قطافها وإني لصاحبها) تراه جعل من رؤس العراقيين ثمارا يانعة تحتاج إلى قطف ، ولا أدري أي دعوة استجيبت في أهل العراق حتى صارت رؤوسهم في كل زمان ثمارا يانعة ، يتكالب علي

قطفها المجرمون ، وفي البيت حذف المشبه بـه ، وهـو الـثمار ، ورمـز إليـه بالنضج والينع ، والوصول إلى مرحلة القطاف ، على سبيل الاستعارة المكنية .

ومن النماذج التي ينبغي أن تشيع في زماننا هذا ، ويتدارسها طلاب العلـم لما فيها من صور بيانية عالية ، وبخاصة الصور الاستعارية : قصيدة ابن النحوي يوسف بن محمد بن يوسف التوزري الأصل، التلمساني، أبو الفضـل، المعـروف بـابن النحـوي.[١] فـالأحوال التـي نعيشـها ، والأوضـاع التـي تحـيط بالعـالم الإسلامي تلح على العقل والقلب ترداد هذه القصيدة ، ولقـد وضـعتها هنـا لمـا فيها من استعارات خلابة ، بل إنك لا تكاد تمر على بيت إلا وتلمح فيه اسـتعارة من مثل (آذن ليلك بالبلج) (يغشاه أبو السرج) (حكم نُسِجَتْ بيد حكمت) .... وغير ذلك كثير ، وأريد ألا أقتصر على بعض الأبيات ، بل سأدع لك قراءة

١ - يوسف بن محمد بن يوسف التوزري التلمساني أو أبو الفضل ٤٣٣ هـ - ٥١٣ هـ/ ١٠٤١ - ١١١٩ م، عرف بابن النحوي التوزري نسبة إلى توزر مسقط رأسه في الجنوب التونسي. وكانت توزر في عصره بها أعلام كثيرة مثل " عبد الله بن محمد الشقراطسي " الذي كان اماما في الحديث والعربية والفقه ، أديبا شاعرا وهو من شيوخ ابن النحوي . ثم رحل أبو الفضل إلى ولاية صفاقس بالجنوب الشرقي التونسي للأخذ عن شيخ فقهاء عصره الشيخ " أبو الحسن اللخمي" فقرأ عليه كتاب " التبصرة " وروى عنه صحيح البخاري. وأخذ عن الامام المازري فقرأ عليه أصول الفقه، وعلم الكلام . وابن النحوي من أهل تلمسان. أصله من توزر، سكن سجلماسة. كان ابن النحوي مثل شيخه اللخمي مائلا إلى الاجتهاد في الفقه، ومتمكن من أصول الدين والفقه مثل الامام المازري ، شاعرا وأديبا لغويا مثل شيخه الشقراطسي. ولقد لقي ابن النحوي المتاعب والمقاومة من فقهاء ورؤساء الدولة المرابطية، في الخلاف القائم حول كتاب إحياء علوم الدين، زمن استقراره بالمغرب الأقصى عندما اقرأ علم الكلام وعلم اصول الفقه. وكان ابن النحوي فقيها يميل إلى الاجتهاد، قال الزركلي: والمنفرجة شرحها كثيرون، وخمّسها بعضهم، وفي نسبتها إلى صاحب الترجمة خلاف. توفي بقلعة بني حماد قرب بجاية. ... وهذه القصيدة من بحر الخبب ، وسماها : الشيخ : تاج الدين السبكي (بالفرج بعد الشدة

النص كاملا ، ثم أعقبه في الهامش بشرح العلامة زكريا الأنصاري ،

وإليك النص ليوسف بن النحوي :

إِشْــــتَدِّي أزمَـــةُ تَنفَرِجــــي	**قَـــد آذَنَ لَيلُـــكِ بِـــالبَلَجِ(١)**
وَظَـــلامُ اللَّيــــلِ لَـــهُ سُرُجٌ	**حَتّـــي يَغشَـــاهُ أَبُـــو السُرُـــجِ(٢)**

---

١ - هذه القصيدة شرحها الإمام زكريا بن محمد بن أحمد بن زكريا الأنصاري، زين الدين أبو يحيى السنيكي (المتوفى: ٩٢٦هـ)

وقد نقلت لك هذا الشرح في الهامش لتعود إليه ، لكشف بعض الغموض الذي يعترضك أمام بعض الأبيات ،
وَهذه القصيدة من بحر الخبب وتفعيلته: فاعلن. ثَمَان مَرَّات، وسمى بالخبب، لقصر أَجْزَائِهِ، وتقطيع أبياته؛ يحاكى فِي السّمع ركض الْخَيل وخببها. . وزحافه " الخبن " وَهُوَ: حذف الثَّانِي السَّاكِن. . وَإِن سكنت عينه، فَقيل: بالإضمار بعد الخبن، وَقيل: بِالْقطعِ، وَقيل: بالتشعيث على مَا هُوَ مُبين مَعَ الصَّحِيح مِنْهَا فِي مَحَله، وَهَذِه القصيدة سَمَّاهَا الشَّيْخ تَاج الدِّين السبكى ب " الْفرج بعد الشدَّة " قَالَ: وهى مجربة لكشف الكروب، وَأَن كثيرا من النَّاس يَعْتَقِدُونَ أَنَّهَا مُشْتَمِلَة على " الِاسْم الْأَعْظَم " وَأَن مَا دعى بهَا أحد إِلَّا اسْتُجِيبَ لَهُ. قَالَ: وَكنت أسمع الإِمَام الْوَالِد إِذا أَصَابَهُ أزمة ينشدها. ثمَّ قَالَ مُخَاطبا لما لَا يعقل بعد تَنْزِيله منزلَة من يعقل، كَقَوْلِه تَعَالَى: {اَ أَرض ابلعى ماءك وَيَا سَمَاء أقلعي }

اشتدي أزمة أَي الشدَّة وَهُوَ مَا يُصِيب الْإِنْسَان من الْأُمُور المقلقة من الْأَمْرَاض وَغَيرهَا تنفرجي بِالْجَزْم جَوَابا لِلْأَمْرِ أَي تذهبي بِمَعْنى يذهب همك عَنَّا قد آذن بِالْمدِّ وَفتح الْمُعْجَمَة أَي أعلم ليلك بالبلج أَي ضِيَاء الصُّبْح وَهُوَ اسْتِعَارَة لِلْفَرجِ لاشْتِرَاكهمَا فِي الإذهاب والتحصيل لِأَن الضياء يذهب الظلمَة والفرج يذهب الْحزن وَيحصل بِكُل مِنْهَا السرُور وَخص اللَّيْل بالذكر لاشتداد الكرب فِيهِ واستعقابه للضياء وَهُوَ كِنَايَة عَن الكرب لِأَنَّهُ لَازم لَهُ كَقَوْلِه تَعَالَى {وَلمن خَافَ مقَام ربه جنتان} أَي خَافَ ربه وَبِمَا تقرر علم أَنه لَيْسَ المُرَاد حَقِيقَة أَمر الشدَّة بالإشتداد وَلَا نداءها بل المُرَاد طلب الْفرج لتزول الشدَّة لَكِن لما يثبت بالأدلة أَن اشتداد الشدَّة يسبب الْفرج كَقَوْلِه تَعَالَى {إِن مَعَ الْعسر يسرا} وَقَوله {وَهُوَ الَّذِي ينزل الْغَيْث من بعد مَا قنطُوا} وَقَوله وَإِن الْفرج مَعَ الكرب وَإِن مَعَ الْعسر يسرا أمرهَا وناداها إِقَامَة للسبب مقَام الْمُسَبّب. . وَفِيه تَسْلِيَة وتأنيس بِأَن الشدَّة نوع من النِّعْمَة لما يَتَرَتَّب عَلَيْهَا ، وَقد للتحقيق وللتقريب لِأَنَّهُ طلب من الشدَّة انفراجها بمضمون الْجُمْلَة الْمَذْكُورَة فَكَأَنَّهُ قَالَ إِنَّمَا طلبت مِنْك ذَلِك لتحقيق حُصُوله وقربه عِنْد اشتدادك. . وَإِسْنَاد الْإِعْلَام إِلَى اللَّيْل مجَاز عَقْلِي كَمَا فِي أنبت الرّبيع البقل وليله قَائِم وَفِي الْبَيْت من أَنْوَاع البديع وبراعة المطلع وهى سهولة اللَّفْظ وَحسن السبك ووضوح الْمَعْنى وتناسب المصراعين وَعدم تعلق الْبَيْت بِمَا بعده وبراعة الاستِهْلَاك وهى أَن يكون المطلع دَالا على مَا بنيت عَلَيْهِ القصيدة وَنَحْوهَا كَمَا بنى قصيدته على بَيَان سلوك الْآخِرَة بتصفية الْقلب ورياضة النَّفس إِذْ مَضْمُون الْبَيْت أَن الشدَّة يعقبها الْفرج فقد أنبأ عَن قَصده لِأَن سلوك طَرِيق الْآخِرَة فِيهِ على النَّفس أعظم مشقة يعقبها أتم فرج والاقتباس وَهُوَ أَن يضمن الْكَلَام شَيْئا من الْقُرْآن أَو الحَدِيث خَاصَّة لَا يُنَبه على أَنه مِنْهُ وَهُوَ هُنَا فِي المصراع الأول فقد روى أَنه من الحَدِيث والطباق فِي المصراعين وَهُوَ أَن يجمع بَين مُتَقَابلين كَمَا جمع بَين الاشتداد والانفراج وَبَين اللَّيْل وَالنَّهَار

٢ - (وَظَلامُ اللّيلِ لَهُ سرُجٌ) وهى الْكَوَاكِب غير الشَّمْس يَمْتَد نورها (حتّى يَغْشَاهُ أَبُو السُّرُج) وهى الشَّمْس وَجعلت أَبَاهَا لِأَنَّهَا الأَصْل إِذْ بنورها يذهب نور تِلْكَ وَلِأَن نور الْقَمَر الَّذِي هُوَ أقوى من نور بَقِيَّة الْكَوَاكِب الليلية مُسْتَفَاد من نورها على مَا قَالَه أهل الْهَيْئَة وَالْمرَاد أَن الكروب الشَّدِيدَة لابد فِي أَثْنَائِهَا من ألطاف تخف مَعهَا الآلام حَتَّى يتفضل الله تَعَالَى بالفرج التَّام الَّذِي لَا ألم مَعَه وَلَا كرب كالليل المظلم جعل الله فِيهِ الْكَوَاكِب يقل بهَا ظلامه ويخف بهَا قَبضه حَتَّى يدْخل النَّهَار فَيذْهب بظلامه وتنبسط النَّفس بضوئه وَفِي الْبَيْت الجناس التَّام وَهُوَ أَن يتَّفق اللفظان فِي أَنْوَاع الْحُرُوف وأعدادها وهيآتها وترتيبها ورد الْعَجز على الصَّدْر وَهُوَ إِعَادَة اللَّفْظَة بِعَينهَا أَو مَا تصرف مِنْهَا فِي آخر المصراع الثَّانِي بعد ذكرهَا فِي صَدره أَو فِي حشوه أَو فِي الأول وَكِلَاهُمَا فِي سرج مَعَ السرج

وَسَحَابُ الخَيرِ لَه مَطَرٌ فَإِذَا جَاءَ الإِبّانُ تَجي (١)

وَفَوائِدُ مولانا جُمَلٌ لِسُرُوجِ الأَنفُسِ والمُهَجِ (٢)

وَلَهَا أَرَجٌ مُحيي أَبَدا فَاقصُد مَحيَا ذاكَ الأَرَجِ (٣)

---

١ - وسحاب الْخَيْر وَهُوَ الْغَيْم لَهَا وفى نُسْخَة لَهُ مطر فَإِذا جَاءَ الإبان وَهُوَ بِكَسْر الْهمزَة وَتَشْدِيد الْمُوَحدَة الْوَقْت وَالْمرَاد وَقت السَّحَاب تجى بِالْقصرِ للْوَقْف أَي السَّحَاب لما سلى ذوى الشدائد ورجاهم بِأَنَّهَا وَإِن عظمت فَفِي أثنائِهَا ألطاف تمتد إِلَى الْفرج التَّام أَشَارَ إِلَى الْحَث على الْتِزَام الصَّبْر فِي أزمنة تِلْكَ الشدائد لِأَنَّهَا لَا تنْقَضِي إِلَّا بانْقِضَاء زمانها وَلَا يَأْتِي الْفرج إِلَّا فِي زَمَانه الْمُقدر كالسحاب الَّذِي يكون عَنْهَا الخصب بنزول الْمَطَر فِي وَقت مقدر لَا يتَقَدَّم وَلَا يتَأَخَّر فالعاقل لَا يسعهُ إِلَّا الصَّبْر وَالتَّسْلِيم لله تَعَالَى وَحسن الظَّن بِهِ وَلَا يَنْفَعهُ الْجزع لِأَنَّهُ منحة للقلب بِلَا فَائِدَة . وَفِيه سخط الرّب وَلَعَلَّ الْفَوَائِد فِي الشدائد قَالَ تَعَالَى {وَعَسَى أَن تكْرهُوا شَيْئا وَهُوَ خير لكم وَعَسَى أَن تحبوا شَيْئا وَهُوَ شَرّ لكم} وَقَالَ {فَعَسَى أَن تكْرهُوا شَيْئا وَيجْعَل الله فِيهِ خيرا كثيرا} وَفِي الْبَيْت رد الْعَجز على الصَّدْر وَهُوَ فِي جَاءَ وتجي .

٢ - فَوَائِد مَوْلَانَا أى ناصرنا تَعَالَى وَهُوَ جمع فَائِدَة وَهِي مَا حصل من الْأَشْيَاء النافعة فِي الدّين وَالدُّنْيَا يُقَال مِنْهُ فادت لَك فَائِدَة أَي أتتك جمل أَي كَثِيرَة من أَنْوَاع لَا تحصى قَالَ تَعَالَى {وَإِن تعدوا نعْمَة الله لَا تحصوها}(لِسُرُوح الْأَنْفُس والْمهج) بالسِّين والحاء الْمُهْمَلَتَيْنِ من سرحت الدَّابَّة سروحا بِالْغَدَاةِ ضد الرواح بالْعَشي أي لسروح الْأَنْفس والأرواح لطلب مَنْفَعَة معاش أَو معاد وَالْإِضَافَة فِيهِ من إِضَافَة الصّفة إِلَى الْمَوْصُوف كسحق عِمَامَة أي الْأَنْفس والأرواح السوارح وَفِي رِوَايَة بالشين الْمُعْجَمَة أَي عطاياه تَعَالَى كَثِيرَة معدة لشرح الْأَنْفس والأرواح بإذهاب أحزانها فَكيف ييئس الْعَاقِل عِنْد اشتداد الأزمة وَقد روى البُخَارِيّ خبر (مَا يُصِيب الْمُؤمن من وصب وَلَا نصب وَلَا حزن حَتَّى الْهم يهمه إِلَّا كفر الله بِهِ سيئاته وَخبر مَا من مُسلم يشاك بشوكة فَمَا فَوْقهَا إِلَّا كتب الله لَهُ بهَا دَرَجَة ومحيت عَنهُ بهَا خَطِيئَة) وَخبر (من يرد الله بِهِ خيرا يصب مِنْهُ) وكل ذَلِك مَبْنِيّ على الصَّبْر وَهُوَ أَرْبَعَة أَنْوَاع ١ - صَبر على الطَّاعَة ٢ - صَبر عَن الْمعْصِيَة وهما أساس طرق الاسْتقَامَة ٣ - صَبر عَن فضول الدُّنْيَا وَهُوَ أساس الزّهْد ٤ - صَبر على المصائب والمحن وَهُوَ أساس الرضى وَالتَّسْلِيم لله تَعَالَى وَحسن الظَّن وَهُوَ أشق الْأَنْوَاع على النَّفس فَلذَلِك أفرده النَّاظِم بِالذكر فرجى أولا بانْقِضَاء الشدَّة . وآنس النَّفس بالمحن ثَانِيًا وَأمر بِالصبرِ ثَالِثا كَمَا تقرر ثمَّ أَشَارَ إِلَى كرمه تَعَالَى وَكَثْرَة عطاياه لمن طلبَهَا من بَابهَا على وَجههَا بِالصبرِ وَالْأَدب وَحسن الظَّن والمهج جمع مهجة قَالَ الْجَوْهَرِي وَهِي الدَّم وَقيل دم الْقلب وَقيل الرّوح وَهُوَ المُرَاد هُنَا كَمَا شرحت عَلَيْهِ وَالْمَشْهُور أَن الرّوح هِيَ النَّفس فالمسوغ لعطفها عَلَيْهَا اخْتِلَاف اللَّفْظ كعطف رَحْمَة على صلوَات فِي قَوْله تَعَالَى {أُولَئِكَ عَلَيْهِم صلوَات من رَبهم وَرَحْمَة} وَحَقِيقَة الرّوح . لم يتَكَلَّم عَلَيْهَا النَّبِي فنمسك عَنْهَا وَلَا نعبر عَنْهَا بِأَكْثَرَ من مَوْجُود قَالَ الْجُنَيْد وَغَيره الخائضون .... وَفِي الْبَيْت الإيغال وَهُوَ ختم الْكَلَام بِمَا يُفِيد نُكْتَة يتم الْمَعْنى بِدُونِهَا وَهِي فِي المهج

٣ - وَلها أَي للفوائد أرج من أرج الطّيب أرجا وأريجا إِذا فاح وانتشر مُحي بِضَم الْمِيم من الْإِحْيَاء وَهُوَ إِعْطَاء الْحَيَاة وَهِي صفة تَقْتَضِي الْحس وَالْحَرَكَة الإرادية أَي مُحي النُّفُوس الزكية بِأَن يُحْيِيهَا الله بِهِ أبدا أَي دَائِما فاقصد محيا بِفَتْح الْمِيم من الْحَيَاة أَي فأت زمَان أَو مَكَان ذَاك الأرج وَالْمرَاد قصد ذَاك الأرج الشريف فِي زَمَانه أَو مَكَانَهُ إِلَّا أَنه كني عَنهُ بِقصد محياه أَي زَمَانه أَو مَكَانَهُ لِأَنَّهُمَا لَا زمَان لَهُ وَالْمعْنَى الَّذِي ذكره منتزع من كتاب الله تَعَالَى كَقَوْلِه {وَلَو أَن أهل الْقرى آمنُوا وَاتَّقوا لفتحنا عَلَيْهِم بَرَكَات من السَّمَاء وَالْأَرْض} وَقَوله {وَمن يتق الله يَجْعَل لَهُ مخرجا وَيَرْزقهُ من حَيْثُ لَا يحْتَسب} وَفِي الْبَيْت رد الْعَجز على الصَّدْر وَقد مر والتتميم وَهُوَ أَن يُؤْتِي فِي كَلَام لَا يُوهم خلاف المُرَاد بفضله لنكتة وَهُوَ هُنَا فِي أبدا والجناس المحرف وَهُوَ مَا اخْتلفت كَلِمَاته فِي هَيْئَة الْحُرُوف وتوافقت فِي نوعها وعددها وترتيبها وَهُوَ هُنَا فِي مُحي ومحيا وَإِذا امتثلت أَمْرِي

فَلَـــــرُبَّتَمَا فـــــاضَ المحيَـــــا ببِحُـــورِ المَـــوجِ مِـــنَ اللُّجَـــجِ(١)

وَالخَلـــــقُ جميعـــــاً في يَـــــدِهِ فَـــــذَوُو سِـــعَةٍ وَذَوُو حَـــرَجِ(٢)

---

١ - فلربتما أَي وَقت فاض أَي كثر فِيهِ الْمحيا بِفَتْح الْمِيم أَي مَكَان الْحَيَاة بحور الموج وَهُوَ الْمُرْتَفع من المَاء من أجل اللجج جمع لجة وَهُوَ مُعظم المَاء شبه الْمحيا فِي كَثْرَة الْأَنْوَار والمعارف بواد فِيهِ مَاء ملأَهُ وارتفع على جوانبه وَالْجَامِع بَينهمَا الْمَحَلِّيَّة وَهِي كَون الْوَادي محلا للْمَاء والمحيا محلا للأنوار والمعارف وطوى ذكر الْمُشبه بِهِ وأتى بلازمه وَهُوَ الْفَيْض فتشبيه الْمحيا بالوادي اسْتِعَارَة بِالْكِنَايَةِ وَإِثْبَات الْفَيْض لَهُ اسْتِعَارَة تخييلية ثمَّ ذكر أَن الفائض من ذَلِك الْمحيا بحور بِمَعْنى أَنه انبسط على الْجَوَارِح وَسَائِر الْجَسَد من الْمحيا الْمُشبه بالوادي أنوار عَظِيمَة وأسرار كَثِيرَة شَبِيهَة فِي كثرتها وانتشارها وتراكمها بالبحور . وَهَذَا تشبيه آخر فِي الفائض على حد الِاسْتِعَارَة الْأَصْلِيَّة المصرحة ثمَّ رشحها بالموج واللجج مُبَالغَة وإلحاقا لَهَا بِالْحَقِيقَةِ حَتَّى يَبْنِي عَلَيْهَا مَا يَبْنِي على الْحَقِيقَة وَحَاصِل الْمَعْنى أَنَّك إِذا امتثلت الْأَمر الْمَذْكُور فقد غمرك فضل الله فِي الدَّاريْنِ فيفيض عَلَيْك خيرا كثيرا كالبحور المتلاطمة أمواجها من كثرتها وَفِي رب سَبْعُونَ لُغَة ضم الرَّاء وَفتحهَا مَعَ تَشْدِيد الْبَاء وتخفيفها مَفْتُوحَة فِي الضَّم وَالْفَتْح أَو مَضْمُومَة فِي الضَّم . كل من السِّتَّة مَعَ تَاء التَّأْنِيث سَاكِنة أَو مَفْتُوحَة أَو مَضْمُومَة أَو مَعَ مَا أَو مَعهَا أَحْوَال التَّاء أَو مُجَرّدَة مِنْهَا . فَذَلِك ثَمَان وَأَرْبَعُونَ وَضمّهَا وَفتحهَا مَعَ إسكان الْبَاء كل مِنْهُمَا مَعَ التَّاء مَفْتُوحَة أَو مَضْمُومَة أَو مَعَ مَا أَو مَعَهُمَا بحالتي التَّاء أَو مُجَرّدَة فَذَلِك ثِنْتَا عشر . وربتما بِضَم الرَّاء وَفتحهَا كل مِنْهُمَا مَعَ إسكان الْبَاء أَو فتحهَا أَو ضمهَا مُخَفّفَة أَو مُشَدّدَة فِي الْأَخيرين . فَذَلِك عشرَة فالجملة سَبْعُونَ وَإِن نظرت إِلَى تَحْرِيك التَّاء بِالْكَسْرِ كَمَا اقْتَضَاهُ تَعْبِير من عبر فِيهَا بتحريكها بدل فتحهَا زَادَت اللُّغَات على ذَلِك سِتا قَالَ ابْن هِشَام وَلَيْسَ مَعْنَاهَا التقليل دَائِما خلَافًا لِابْنِ درسْتَوَيْه وَجَمَاعَة . بل ترد للتكثير كثيرا وللتقليل قَلِيلا انْتهى وَقيل لَا تدل على شَيْء مِنْهُمَا إِلَّا بقرينه وَفِي الْبَيْت الائتلاف وَهُوَ الْجمع بَين المتناسبات لَا بالتضاد وَهُوَ فِي الموج واللجج والإيغال والتتميم ، وهما فِي قَوْله من اللجج .

٢ - والخلق بِمَعْنى الْمَخْلُوق حَالَة كَونه جَمِيعًا أَي مجموعا فِي يَده أَي قوته أَو نعْمَته فذوو سَعَة أَي يسَار وذوو حرج أَي ضيق وَفِي نُسْخَة من ذِي سَعَة أَو ذِي حرج نبه بذلك على جلال الله وَكَمَال إحاطته بعالم الْغَيْب وَالشَّهَادَة وبفضيلة لَا يعلم كنهه إِلَّا الله قَالَ تَعَالَى {وَمَا يعلم جنود رَبك إِلَّا هُوَ} وَدلّ تَنْوين سَعَة وحرج على تنويعهما وتكثيرهما . فيشملان الْغَنِيّ وَالْفَقِير وَالْعلم وَالْجهل والجاه وَغَيرهَا وسعة بِفَتْح سينها لفظا وَكسرهَا تَقْدِيرا لِأَن الْمُضَارع مِنْهَا بِالْكَسْرِ لِأَنَّهُ فتح لحرف الْحلق وَأَصلهَا وسعة بِكَسْر الْوَاو فأعلت تبعا للمضارع بِحَذْف الْوَاو لوقوعها فِيهِ بَين يَاء مَفْتُوحَة وكسرة مقدرَة وَفِي الْبَيْت الْجمع والتفريق وَهُوَ أَن يجمع شَيْئَانِ فِي حكم ثمَّ يفرق بَينهمَا كَمَا جمع النَّاظِم الْخلق فِي نُفُوذ قدرَة الله تَعَالَى فيهم ثمَّ فرق بَينهم بِأَن فصلهم إِلَى موسع عَلَيْهِ ومضيق عَلَيْهِ والتتميم وَقد مر وَهُوَ فِي جَمِيعًا والطباق وَقد مر وَهُوَ فِي المصراع الثَّانِي والترديد وَهُوَ أَن تعلق لَفْظَة بِمَعْنى ثمَّ بآخر كَمَا علق ذَوُو أَولا بِالسَّعَةِ وَثَانِيا بالحرج وَمِنْه قَوْله تَعَالَى {حَتَّى نؤتى مثل مَا أُوتِيَ رسل الله الله أعلم} وَقَوله {لَا يَسْتَوِي أَصْحَاب النَّار وَأَصْحَاب الْجنَّة أَصْحَاب الْجنَّة هم الفائزون} .

وَنَـــــزُولُهُمُ وَطُلُـــــوعُهُمُ   فَـــــإلى دَرَكٍ وَعَـــــلَى دَرَجِ (١)

وَمَعائِشُـــــهُم وَعَـــــواقِبُهُم   لَيسَـــت في المَشيِ عَـلى عِــوَجِ (٢)

حِكَـــمٌ نُسِـجَت بِيَـدٍ حَكَمَـت   ثُـــمَّ انتَسَـــجَتُ بِالمُنتَسَـــجِ (٣)

---

١ - وَأما نزولهم أَي الْخلق من علو إِلَى سفل حسا أَو عقلا أَعنِي برتبة وطلوعهم من سفل إِلَى علو كَذَلِك فعلى دَرك فِي الأول وعَلى درج فِي الثَّانِي وَفِي نُسْخَة فَإِلَى دَرك وَإِلَى درج يُقَال النَّار دركات وَالْجنَّة دَرَجَات والمناسبة ظَاهِرَة نبه بِهَذَا الْبَيْت وَمَا بعده على طلب الْخَوْف والرجاء والتوكل وَالتَّسْلِيم لأمر الله تَعَالَى تَأْكِيدًا لأمر الصَّبْر الَّذِي هُوَ أساس التَّقْوَى وَقد شبه مَا حصل للْعَبد من محسوس ومعقول بالدرك والدرج بِجَامِع الْمَحَلِّيَّة لِأَن الدَّرك والدرج محلان لمن حلا فيهمَا فِي وَقت مَخْصُوص كَمَا أَن الِانْتِقَالَات فِي الأحيان واكتساب الْمعَانِي السفلية والعلوية مَحل لكسبه مقدرَة بمقادير وصفات مَخْصُوصَة. . وَأطلق اسْم الْمُشبه بِهِ على الْمُشبه كَمَا أطلق اسْم النُّزُول والطلوع على اكتسابهما مُبَالغَة بالاستعارة التحقيقية وَفِي الْبَيْت الطباق فِي المصراعين والمناسبة اللفظية فيهمَا هِيَ الْإِتْيَان بكَلِمَات مرتبات مقفيات كَمَا فِي الأول أَو غير مقفيات كَمَا فِي الثَّانِي واللف والنشر وَهُوَ أَن يَأْتِي بأَشْيَاء ثمَّ تقَابل بأَشْيَاء بعددها يرد كل مِنْهَا إِلَى مَا يُنَاسِبه من غير تعْيين ثِقَة بفهم السَّامع والترديد فِي على والجناس اللَّاحِق وَهُوَ مَا اخْتلفت كَلِمَاته بِحرف بعيد فِي الْمخْرج وَهُوَ فِي دَرك ودرج كَمَا فِي قَوْله تَعَالَى {وَإِنَّهُ على ذَلِك لشهيد وَإِنَّهُ لحب الْخَيْر لشديد}.

٢ - ومعايشهم فِي الدُّنْيَا من مطاعم وملابس وَنَحْوهَا وعواقبهم فِي الْآخِرَة من سَعَادَة وشقاوة لَيست فِي الْمَشْي إِلَيْهِم على عوج بل مُسْتَقِيمَة فَإِنَّهَا مُرَادة مقدورة لله تَعَالَى تتَوَجَّه إِلَيْهِم فِي أَوْقَاتهَا الْمَخْصُوصَة كنزولهم وطلوعهم وهمز معائش شَاذ لِأَن ياءها عين للكلمة بِخِلَاف صَحَائِف فَإِن ياءها زَائِدَة وَقد شبه المعايش والعواقب لحصولها شَيْئا فَشَيْئًا بالماشي وَأثبت لَهَا الْمَشْي فتشبيهها بالماشي اسْتِعَارَة بِالْكِنَايَةِ وَإِثْبَات الْمَشْي لَهُ اسْتِعَارَة تخييلية وَفِيه إِشَارَة إِلَى الْإِجْمَال فِي الطّلب وَفِي الْبَيْت الْمُنَاسبَة اللفظية والطباق وَالْجمع وَهُوَ أَن يجمع شيآن فِي حكم فِي قَوْله تَعَالَى {المَال والبنون زِينَة الْحَيَاة الدُّنْيَا} وَتلك الْمَذْكُورَات من السعَة والحرج وَالنُّزُول والطلوع والمعايش والعواقب.

٣ - حكم من الله جمع حِكْمَة وَهِي صَوَاب الْأَمر وسداده لِأَنَّهُ تَعَالَى يتَصَرَّف فِي عبيده بِمَا يَشَاء وَافق غرضهم أَو لَا يخلق مَا يَشَاء ويختار لَا يسْأَل عَمَّا يفعل وهم يسْأَلُون وحظ العَبْد يَا مَالك يَوْم الدّين إياك نعْبد وَإِيَّاك نستعين نسجت تِلْكَ الحكم بيد أَي بِقُوَّة الله تَعَالَى حكمت أَي قَضَت فِي كل الْأُمُور وَلَا راد لما قضى ثمَّ انتسجت تِلْكَ الحكم أَي التحمت بالمنتسج أَي المؤتلف وَالْمرَاد بِهِ العَبْد الْمقْضِي عَلَيْهِ بالمقادير شبه تِلْكَ الْأُمُور فِي تعلقهَا بالعبيد وتناسبها لَهُم مَعَ تأثرهم بهَا ارتفاعا وانخفاضا بخيوط تنسج وَأثبت لَهَا النسج فتشبيهها بالخيوط اسْتِعَارَة بِالْكِنَايَةِ وَإِثْبَات النسج اسْتِعَارَة تخييلية وَذكر الْيَد ترشيح للاستعارة فَنَاسَبَ النسج والخيوط لكَونه بهَا وَفِيه تَنْبِيه للعاقل على تلقي الْمَقَادِير بِالْقبُولِ وَتَسْلِيم الْأَمر لله تعال للْعلم بِأَنَّهُ لَيْسَ للْعَبد شَيْء من الْأَمر وَإِن الْأَمر مُرْتَبِط بِمَشِيئَة الله تَعَالَى ارتباطا يخرج عَن حد المعقولات والمألوفات وَالْمرَاد بالحكم الْمَقَادِير المصورة بِصُورَة الخيوط المنسوجة. . وانتسج مُطَاوع نسج والنسج الإلحام وَثمّ للتعقيب بِمَعْنى الْفَاء كَمَا فِي قَول الشَّاعِر (كهز الرديني تَحت العجاج ... جرى فِي الأنابيب ثمَّ اضْطربَ) أَو للتراخي الرتبي لِأَن الإنتساج مُتَأَخّر عَن النسج رُتْبَة تَأَخّر الْمَعْلُول عَن علته وَفِي الْبَيْت الجناس المحرف وَقد مر وَهُوَ هُنَا فِي حكم وحكمت والائتلاف وَهُوَ هُنَا فِي نسجت مَعَ يَد وَشبه الجناس وَهُوَ أَن يجمع اللَّفْظَيْنِ الِاشْتِقَاق أَو شبهه وَهُوَ هُنَا فِي نسجت وانتسجت والمنتسج وَشبه الازدواج وَهُوَ أَن يُؤْتى بجمل متعاطفة بِغَيْر الْوَاو مُرَتّب بَعْضهَا على بعض وَهُوَ هُنَا فِي نسجت وانتسجت والجناس تشابه اللَّفْظَيْنِ فِي التَّلَفُّظ والازدواج توالي كَلِمَات الجناس وَمِنْه قَوْلهم من طلب شَيْئا وجد وجد ورد الْعَجز على الصَّدْر فِي الْفِعْل الأول مَعَ الثَّانِي وَمَعَ اسْم الْفَاعِل والتتميم فِي حكمت والتسميط وَهُوَ أَن يصير الشَّاعِر الْبَيْت أَرْبَعَة أَقسَام ثَلَاثَة مِنْهَا على سجع وَاحِد وَهُوَ فِي الْأَفْعَال الثَّلَاثَة وَإِذا كَانَت الْمَذْكُورَات حكما كَمَا ذكر

فَـــإِذا اقتَصَـــدت ثُـــم انعَرَجَـــت   فَبِمقتَصِـــــــدٍ وبِمُنعَـــــــرِجِ (١)

شَـــــهِدتَ بِعَجائِبَهـــا حُجَـــجٌ   قامَـــت بِـــالأَمرِ عَـــلى الحُجَـــجِ (٢)

---

١ - فَإِذا اقتصدت: أَي توسّطت فِي نظر الْعقل ثمَّ انعرجت: أَي مَالَتْ فِيهِ فبمقتصد: أَي فاقتصادها وانعراجها كائنان بمقتصد وبمنعرج بِكَسْر الصَّاد فِي قَوْله: فبمقتصد وَالرَّاء فِي قَوْله وبمنعرج وَهُوَ الْعَبْد المقضى عَلَيْهِ بهَا فَيصير باقتصادها فِي نظرها مقتصداً وبانعراجها فِيهِ منعرجاً. . كَمَا يصير باكتمالها فِيهِ مكتملاً فيتعرّف إِلَيْهِ الْحق فِي الْأَحْوَال الثَّلَاثَة فيتعرّف إِلَيْهِ فِي حَال اكتمالها باسمه الْجواد الْمُنعم الْكَرِيم الْغَنِيّ. . وَفِي حَال اقتصادها باسمه الْحَكِيم اللّطيف وَفِي حَال انعراجها باسمه القاهر الْعدْل الحكم وتبدّل هَذِه الاحوال من آثَار الْقدر الَّذِي اسْتَأْثر الله بِعِلْمِهِ وأخفاه عَن خلقه. . وَالْوَاجِب تَسْلِيم الْأَمر لمن لَهُ الْخلق وَالْأَمر لَا إِلَه إلاّ هُوَ وَأجر على على هَذَا بَاقِي مَعَاني أَسْمَائِهِ تَعَالَى قَالَ ابْن عَطاء الله: إنّ آدم عَلَيْهِ السَّلَام لمّا تعرّف إِلَيْهِ الحقّ سُبْحَانَهُ بالإيجاد فناداه آدم يَا قديم ثمّ تعرّف إِلَيْهِ بتخصيص الْإِرَادَة فناداه يَا مُرِيد ثمّ تعرّف إِلَيْهِ بحكمِهِ لمّا نَهَاهُ عَن أكل الشّجرة فناداه يَا حَكِيم ثمَّ قضى عَلَيْهِ بأكلها فناداه يَا قاهر ثمَّ لم يعالجه بالعقوبة إِذْ أكلهَا فناداه يَا حَلِيم ثمَّ لم يَفْضَحهُ فِي ذَلِك فناداه يَا ستّار ثمَّ تَابَ عَلَيْهِ فناداه يَا توّاب ثمَّ أشهده أَن أكله من الشَّجَرَة لم يقطع عَنهُ ودّه فناداه يَا ودود ثمَّ أنزلهُ إِلَى الأَرْض ويسّر لَهُ أَسبَاب الْمَعيشَة فناداه يَا لطيف ثمَّ قوّاه على الَّذِي اقْتَضَاهُ مِنْهُ فناداه يَا معِين ثمَّ أشهده سر النهى وَالْأكل وَالنُّزُول فناداه يَا حَكِيم ثمَّ نَصره على العدوّ الكائد لَهُ فناداه يَا نصير ثمَّ ساعده على أعباء تكاليف الْعُبُودِيَّة فناداه يَا ظهير قَالَ فَمَا أنزلهُ إِلَى الأَرْض إلاّ ليكمل لَهُ وُجُوه التعرّف ويقيمه فِي وظائف التَّكْلِيف فكملت فِيهِ العبوديتان عبودية التَّعْرِيف وعبودية التَّكْلِيف فعظمت منّة الله عَلَيْهِ وتوفر إحسانه لَدَيْهِ بعد أَن كَانَ فِي الْجنَّة متعرفا إِلَيْهِ بالرزق وَالعطَاء وَالْإِحْسَان فَأَرَادَ الْحق سُبْحَانَهُ من خفى لطفه فِي تَدْبيره أَن يَأْكُل من الشَّجَرَة ليتعرّف إِلَيْهِ فِي الأَرْض بِمَا تقدم لِأَن الدُّنْيَا محلّ الوسائط والأسباب وَالْجنَّة مَحل مُشَاهدَة الإنعام ونبّه النّاظم ب ثمَّ على أَن الانعراج متراخ عمّا قبله فِي الرُّتْبَة لقلته وَكَثْرَة مَا قبله تفضّلا من تَعَالَى لِأَن مُعَامَلَته لخلقه بِمُقْتَضى رحمانيته أَكثر وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى { .عَذَابي أُصِيب بِهِ من أَشَاء ورحمتى وسعت كل شَيْء ... } وَقَالَ فِيمَا حَكَاهُ عَن ربه إِن رَحْمَتي سبقت غَضَبي والانسان يعدّ أَيَّام المحنة وَلَا يعد أَيَّام النِّعْمَة ، وَفِي الْبَيْت الطباق والمناسبة اللفظية بالتقفية وبدونها واللّفّ والنّشر وَشبه الجناس وردّ الْعَجز على الصَّدْر والإرصاد وَهُوَ أَن يَجْعَل قبل الْعَجز من الْفَقْرَة أَو من الْبَيْت مَا يدل عَلَيْهِ إِذا عرف الروي وَمِنْه قَوْله تَعَالَى {وَمَا كَانَ الله ليظلمهم وَلَكِن كَانُوا أنفسهم يظْلمُونَ}

٢ - شهدت بعجائبها إِلَيّ الحكم أَو أَنْوَاع الْمَخْلُوقَات حجج بِضَم الْحَاء أَي أدلّة كَمَا شهدت بِكَمَال وجود صانعها قَامَت أَي استقامت أَو دَامَت أَو ظَهرت أَو غلبت وَفِي نُسْخَة فاقت بِالْأَمر وَاحِد الْأُمُور أَي الشَّأْن أَو الْوَصْف أَو وَاحِد الْأَوَامِر أَي القَوْل الطَّالِب للْفِعْل. . وكل مِنْهَا مُرَاد أَي قَامَت الْحجَج [إن الْمُؤثر فِي كل أَمر هُوَ الله تَعَالَى كَمَا هُوَ مُقَرر فِي محلّة وَقيل المُرَاد الشَّأْن أَو الْوَصْف أَي قَامَت بشأن الربوبية أَو بوصفها على ممر الْحجَج بِكَسْر الْحَاء أَي السنين وَقيل بضمها أَي الْأَدِلَّة الدَّالَّة على أَن الْمُؤثر الْعُقُول أَو نَحْوهَا كدليل الفلاسفة وَدَلِيل الطبائعيين والمنجمين وَغَيرهم وَفِي كَلَامه اسْتِعَارَة إِمَّا بالتبعية بِأَن شبّه دلَالَة الْحجَج فِي كَمَال وضوحها بِالشَّهَادَةِ ثمَّ اشتق الْفِعْل مِنْهَا وَإِمَّا بِالْكِنَايَةِ بِأَن شبه الْحجَج فِي إفادتها الْمَدْلُول بالشهود وَأثبت لَهَا الشَّهَادَة فتشبيهها بالشهود اسْتِعَارَة بِالْكِنَايَةِ وَإِثْبَات الشَّهَادَة لَهَا اسْتِعَارَة تخييلية وَفِي الْبَيْت رد الْعَجز على الصَّدْر وَإِن ضمت حاء الْحجَج والجناس المحرف إِن كسرت والتتميم والإيغال.

وَرِضَـــاً بِقَضَــاءِ اللهَ حِجــىً　　فَعَـــلَى مَركُوزَتِهَـــا فَعُـــجِ (١)

وَإِذا انفَتَحَـــت أَبــوَابُ هُـــدًى　　فاعجِـــل بخزائِنِهَـــا وَلِـــجِ (٢)

---

١ - ورضا بِقَضَاء الله تَعَالَى حجا بِفَتْح الْحَاء مَعَ فتح الْجِيم وَكسرهَا أَي حقيق على كل مُؤمن ليصون بِهِ إيمَانه وَسَائِر طاعاته وبكسرها مَعَ فتح الْجِيم أَي عقل بِحَذْف مُضَاف أَي ثَمَرَته أَو جعله الْعقل مُبَالغَة لِأَنَّهُ سَبَب للسعادة الدِّينِيَّة والدنيوية فَجعله الْعقل الَّذِي هُوَ أشرف مَا منحه الله الْإِنْسَان وَالله علم على الذَّات الْوَاجِب الْوُجُود الْمُسْتَحق لجَمِيع المحامد وَالْقَضَاء هُوَ الحكم بالكليات مجملة فِي الْأَزَل وَالْقدر هُوَ الحكم بِوُقُوع جزيئاتها مفصلة فِيمَا لَا يزَال قَالَ تَعَالَى {وَإِن من شَيْء إِلَّا عندنَا خزائنه وَمَا ننزله إِلَّا بِقدر مَعْلُوم} وَيقرب من ذَلِك قَول بَعضهم الْقَضَاء إِيجَاد جَمِيع الْمَخْلُوقَات فِي اللَّوح الْمَحْفُوظ مجملة وَالْقدر إيجادها فِي الْأَعْيَان مفصّلة قَالَ تَعَالَى {... وَخلق كل شَيْء فقدّره تَقْديرا} أَي فأبرزه على مَا سبق فِي علمه وَيُطلق الْقَضَاء على الْمقْضِي وَمِنْه مَا فِي الْبُخَارِيّ اللَّهُمَّ إِنِّي أعوذ بك من دَرك الشَّقَاء وَسُوء الْقَضَاء وشماتة الْأَعْدَاء وَهَذَا لَا يجب الرِّضَا بِهِ مُطلقًا بل إِن كَانَ وَاجِبا كالإيمان وَجب الرضاء بِهِ أَو مَنْدُوبًا ندب أَو مُبَاحا أُبِيح أَو مَكْرُوها كره أَو حَرَامًا حرم بِخِلَاف الْقَضَاء بِالْمَعْنَى الأول يجب الرِّضَا بِهِ مُطلقًا فالمقضي عَلَيْهِ بِمَعْصِيَة من كفر أَو غَيره يحرم عَلَيْهِ الرِّضَا بهَا من حَيْثُ إِنَّهَا مكتسبة لَهَا ومنهي عَنْهَا . وَيجب عَلَيْهِ الرِّضَا بهَا من حَيْثُ أَنَّهَا خلق الله تَعَالَى وإيجاده لِأَنَّهُ مَتى سخطها كَأَن قَالَ لم فعل بِي هَذَا أَو أَنا لَا أستحقه كَانَ ذَلِك كفرا أَو مَعْصِيّة أُخْرَى بِحَسب حَاله لخَبر إِن الله يَقُول من لم يرض بقضائي وَلم يصبر على بلائي وَلم يشْكر نعمائي فليتخذ إِلَهًا سواي وَالرِّضَا قِسْمَانِ قسم يكون لكل مُكَلّف فَهُوَ مَا لابد مِنْهُ فِي الْإِيمَان . وَحَقِيقَته أَلا يعْتَرض على حكم الله وَتَقْدِيره وَهُوَ مَا أَشَارَ إِلَيْهِ النَّاظِم بِمَا مر وَقسم لَا يكون إِلَّا لأرباب المقامات وَذَوي النهايات وَحَقِيقَته ابتهاج الْقلب وسروره بالمقضي قَالَت رَابِعَة رَضِي الله عَنْهَا وَقد سُئِلت مَتى يكون العَبْد رَاضِيا فَقَالَت إِذا سرته الْمُصِيبَة كَمَا سرته النِّعْمَة وَاخْتلفُوا فِي هَذَا هَل من المقامات أَو هُوَ من الْأَحْوَال فَقَالَ أهل خُرَاسَان بِالْأولِ وَمَعْنَاهُ أَنه مكتسب للْعَبد وَهُوَ نِهَايَة التَّوَكُّل . وَأهل الْعرَاق بِالثَّانِي وَلَيْسَ مكتسبا بل يحل بِالْقَلْبِ كَسَائِر الْأَحْوَال ، قَالَ بَعضهم وَيُمكن الْجمع بَينهمَا بِأَن بداية الرِّضَا مكتسبة فَهُوَ من المقامات ونهايته غير مكتسبة فَهُوَ من الْأَحْوَال وَإِلَى هَذَا الْقسم مَعَ التَّنْبِيه على أَنه من المقامات وَإِن الْقسم الأول أساسه أَشَارَ النَّاظِم بقوله وعَلى مركوزته أَي لَا على غَيرهَا فعج أَي فاعطف يُقَال عجت الْبَعِير أعوجه عوجا ومعاجا إِذا عطف رَأسه بزمامه . أَي لكَون الرِّضَا حَقِيقا على كل مُؤمن أَو لكَونه أجل مطالبه فاعطف على أَعْلَاهُ وأشرفه الَّذِي هُوَ فِي شرفه ومدار صِحَة الْإِيمَان عَلَيْهِ والتوصل إِلَيْهِ من جَمِيع جهاته وأسبابه كمركز الدائرة وَبِهَذَا علم أَنه شبة الرِّضَا بالدائرة وَأَعْلَاهُ وأشرفه بمركزها وَرشح هَذِه الِاسْتِعَارَة باستعارة العوج الَّذِي هُوَ الْعَطف للطلب الْكَائِن من جَمِيع الْجِهَات والأسباب وَفِي الْبَيْت الْمُنَاسبَة اللفظية من رضَا وحجا بوزنه والاتساع وَهُوَ أَن يَأْتِي الشَّاعِر بِبَيْت يَتَّسِع فِيهِ التَّأْوِيل.

٢ - وَإِذا انفتحت لَك أَبْوَاب هدى أَي الْهدى بِأَن خلقه الله فِيك فاعجل أَي فأسرع لخزائنها جمع خزانَة بِكَسْر الْخَاء ولج أَي ادخل فِيهَا اسْتعَار الانفتاح لارْتِفَاع الْمَوَانِع الحسية وانكشاف الْحجب النفسية وَزَوَال العوالق المعنوية الْمَانِعَة من نيل المقامات والمعارف واستعار الْأَبْوَاب لتِلْك الْمَوَانِع والحجب والعلائق لِأَنَّهَا مَانِعَة من الْهدى فَلَا يحصل فِي مَحَله إِلَّا بزوالها كالأبواب لَا يتَوَصَّل إِلَى مَا وَرَاءَهَا إِلَّا بِفَتْحِهَا والعجلة كِنَايَة عَن الْجد فِي الطّلب وَقُوَّة الْعَزْم ومجاز عَنْهُمَا والولوج كِنَايَة عَن الثُّبُوت فِي تِلْكَ المقامات والمعارف وَالْحَاصِل أَنه شبه فِي الصَّدْر الْهدى المتضمن لما اكْتَسبهُ العَبْد من المقامات والمعارف بخزائن لَهَا أَبْوَاب مغلقة بِجَامِع أَن الْمُشبه مَظَنَّة للقرب من الله الَّذِي هُوَ أعظم مَطْلُوب والمشبه بِهِ مَحل للأموال النفسية فالتشبيه اسْتِعَارَة بِالْكِنَايَةِ وَإِثْبَات الْأَبْوَاب للهدى اسْتِعَارَة تخييلية ورشحهما بالانفتاح الملائم للأبواب ثمَّ اشتق مِنْهُ الْفِعْل فَهُوَ اسْتِعَارَة تَبَعِيَّة ثمَّ رتب على ذَلِك الْعجز كَمَا تقرر وتضمن كَلَامه التَّنْبِيه على أصل عَظِيم فِي السلوك وَهُوَ مُخَالفَة النَّفس فِي شهواتها والتحقق بِمَا ذكر لِأَن طبعها الْميل إِلَى ترك الْعِبَادَة وَإِلَى حظها من فعلهَا وَلِهَذَا قَالَ الْعلمَاء مُخَالفَة النَّفس رَأس الْعِبَادَة وَمن نظر إِلَيْهَا باستحسان شَيْء مِنْهَا فقد أهلكها بمهلكاتها كالكبر وَالْعجب والحسد وَطول الأمل وَكَيف يَصح لعاقل الرِّضَا عَن النَّفس وَالله تَعَالَى يَقُول {إِن النَّفس لأمارة بالسوء إِلَّا مَا رحم رَبِّي} وَالْهدى قد يكون لَازِما بِمَعْنى الاهتداء وَهُوَ وجدان الطَّرِيق الْموصل للمطلوب كَمَا مرت الْإِشَارَة إِلَيْهِ ويقابله الضلال وَهُوَ فقدان الطَّرِيق الْموصل . وَقد يكون مُتَعَدِّيا بِمَعْنى الدّلَالَة على الطَّرِيق عَن أهل الْحق وعَلى الطَّرِيق الْموصل للبغية عِنْد الْمُعْتَزلَة ويقابله الإضلال بِمَعْنى الدّلَالَة على

وَإِذا حاوَلـــــــتَ نِهايَتَهـــــا فاحـــذَر إِذ ذاكَ مِـــنَ العَـــرَجِ (١)
لِتَكُـــــونَ مِــــنَ السُـــبَاقِ إِذا مـــا جِئـــتَ إِلى تِلـــكَ الفُـــرَجِ (٢)
فَهُنَـــــاكَ العَـــــيشُ وَبَهجَتُـــــهُ فَلِمُبـــــــتَهِجٍ وَلِمُنـــــــتَهِجِ (٣)

خِلَافه كأضلني فلَان عَن الطَّرِيق أَو عَن الطَّرِيق الْموصل للبغية وَالْهدى إِنَّمَا يسْتَعْمل فِي الْخَيْر لِأَنَّهُ لُغَة الدّلَالَة بلطف وَأما قَوْله تَعَالَى {فاهدوهم إِلَى صِرَاط الْجَحِيم} فوارد على طَرِيق التهكم وَفِي الْبَيْت التَّمْكِين وَهُوَ أَن يمهد الناثر لسجعته والناظم لقافيته تمهيدا بِهِ ياتي بِكُل مِنْهَا متمكنة فِي مَكَانهَا غير نافرة وَلَا قلقة وَلَا مستدعاة لما لَا تعلق لَهُ بالفقرة أَو الْبَيْت

١ - وَإِذا حاولت أَي طلبت نهايتها أَي الْأَبْوَاب أَو الْهدى فَإِنَّهُ يذكر وَيُؤَنث وَلِأَنَّهُ بِمَعْنى الخزانة وَالْمعْنَى إِذْ طلبت الِانْتِقَال إِلَى مقَام أَو حَال فاحذر إِذْ ذَاك من العرج أَي فالتزم فِيهِ حسن الْأَدَب من الثَّبَات عَلَيْهِ وموافقة مُرَاد الله تَعَالَى وَلَا تختر الِانْتِقَال عَنهُ حَتَّى ينقلك الله إِلَى مَا هُوَ أرفع مِنْهُ فَإِن تشوقت إِلَى الِانْتِقَال بِنَفْسِك لتبلغ الْغَايَة فقد بلغت غَايَة الْجَهْل بِرَبِّك وأسأت الْأَدَب فِي حَقه وَلَا تصل إِلَى مطلوبك فَكُن كَمَا قَالَ ابْن عَطاء الله كن عبد الله فِي كل شَيْء عَطاء ومنعا وَعزا وذلا وَوِلَايَة وعزلا وغنا وفقرا وقبضا وبسطا وفقدا ووجدا وَشدَّة ورخاء وفناء وَبَقَاء إِلَى غير ذَلِك من مختلفات الْآثَار وتنقلات الأغيار وكنى عَن عدم الْوُصُول بالعرج أَو شبه بِهِ عدم دوَام الاسْتقَامَة لِأَن كلا مِنْهُمَا لَا يُوصل مَعَه إِلَى مقصد قَرِيبا أَو لَا يُوصل إِلَيْهِ الْبَتَّة وتضمن كَلَامه مَعَ ذكر التحذير من حظوظ النَّفس وَمن التحذير الركون إِلَى غير الله فِي أثْنَاء السلوك .... ثمَّ علل قَوْله فاحذر إِلَى آخِره بقوله في البيت الذي يليه : لتكون من السباق .

٢ - لتَكون من السباق إِلَى فرج الْجنَّة إِذا مَا مَا زَائِدَة للتَّأْكِيد جِئْت مَعَهم إِلَى تِلْكَ الْفرج أَرَادَ بالمجيء السّير لَا تنقل الْأَقْدَام بل بنَظَر الْقلب فَشبه النّظر فِي المعقولات الموصلة إِلَى الْمَطْلُوب بالمجيء الحسّي وشبّه المنظور فِيهِ - وَهُوَ المعقولات - بالأمكنة لِأَنَّهَا مَحل حَرَكَة النّظر كَمَا أَن تِلْكَ الْأَمْكِنَة مَحل لحركة الْأَقْدَام. . وَأطلق اسْم المشبّه بِهِ على الْمُشبه على طَرِيق الِاسْتِعَارَة التحقيقية وَإِلَى متعلّق بالسباق فَإِن وصلت إِلَى تِلْكَ الْفرج(فَهُنَاكَ العَيْشُ وَبَهجَتُهُ .

٣ - فهناك أَي لَا فِي غَيره الْعَيْش وهجته أَي الْحَيَاة الْكَامِلَة وحسنها فلمبتهج أَي مسرور بِمَا حصل لَهُ من لذّة التجلّي على اخْتِلَاف رتبها ولمبتهج من النّهج وَهُوَ الطَّرِيق واستعير للتقوى فَالْمُرَاد ولمتّق وانتهاجه بانتقاله فعلا وَحَالا فِي مَعَاني التَّقْوَى الظَّاهِرَة والباطنة الموصلة إِلَى صفو الْيَقِين الْمُوجب للابتهاج أَي فاعجبوا لهذين الصفتين العظيمتين من بَين النَّاس لِأَن مَا عداهما إِمَّا هَالك أَو فِي الْخطر. . والتنوين فِيهَا للتعظيم والتنويع وَلما اخْتلفَا فِي الْمقَام اخْتلفَا فِي التَّعْبِير عمّا فِي الضَّمِير فالمبتهج يَقُول مخبرا بذوقه
(ذكرتك إِنِّي لَا نسيتك لمحة ... وأيسر مَا فِي الذّكر ذكر لساني)(وكدت بِلَا وَجه أَمُوت من الْهوى ... وهام على الْقلب بالخفقان)
(فَلَمَّا أَرَانِي الوجد أَنَّك حَاضر ... شهدتك مَوْجُودا بِكُل مَكَان)(فخاطبت مَوْجُودا بِغَيْر تكلم ... وَلَا حظت مَعْلُوما بِغَيْر عيان)
والمنتهج يَقُول مخبرا عَن حَال سيره ومجاهدة نَفسه بمراقبة ربه
(كَأَن رقيبا مِنْك. . برعى خواطري ... وَآخر يرْعَى ناظري ولساني)(فَمَا رمقت عَيْنَايَ بعْدك منْظرًا ... لغيرك إِلَّا قلت قد رمقاني)
(وَلَا خطرت فِي السِّرّ منى خطرة ... لغيرك إِلَّا عرجاً بعنانى) (وإخوان صدق قد بنيت حَدِيثهمْ ... وعرّجت عَنْهُم خاطري ولساني).
(وَمَا الدَّهْر أسلو عَنْهُم غير أننى ... وَجَدْتُك مشهوداً بِكُل مَكَان).
وَاعْلَم أَن كل من وصل إِلَى صفو الْيَقِين بطرِيق الذَّوْق والوجدان فَهُوَ ذُو رُتْبَة فِي الْوُصُول وَإِن تفاوتوا فِيهَا كالملائكة فَمنهمْ من يجد الله بطرِيق الْأَفْعَال فيفنى عَن فعله وَفعل غَيره لوقوفه مَعَ فعل الله تَعَالَى. . وَيخرج فِي هَذِه الْحَالة من التَّدْبِير والاختبار وَهَذَا تجلى بطرِيق الْأَفْعَال وَمِنْهُم من يُوقف فِي مقَام الهيبة والأنس بِمَا يُكَلف قلبه من مطالعة الْجمال والجلال وَهَذَا تجل بطرِيق الصَّفَا وَمِنْهُم من يترقى إِلَى مقَام الفناء مُشْتَمِلًا على بَاطِنه أنوار الْيَقِين والمشاهدة ففنى فِي شُهُوده عَن وجوده وَهَذَا ضرب من تجلي الذَّات لخواص المقربين والمقربون هم الَّذين أخذُوا حظوظهم وإراداتهم واستعملوا فِي الْقيام بِحُقُوق مَوْلَاهُم عبودية لَهُ

فَهِـــجِ الأَعْـــمَالَ إذا رَكَـــدَت   فَـــإذا مـــا هِجـــتَ إذاً تَهِـــجِ (١)
وَمَعـــــاصِي اللهَ سَـــــماجَتُها   تَـــزدَانُ لِـــذِي الخُلُـــقِ السَـــمِجِ (٢)
وَلِطَاعَتِـــــهِ وَصَـــــباحَتِها   أنـــوَارُ صَـــبَاحٍ مُنـــبَلِجِ (٣)

وطلبا لمرضاته وهم العارفون أهل صفو الْيَقِين واليهم أَشَارَ النَّاظِم بالمبتهج والأبرار هم الَّذين بقوا مَعَ حظوظهم وإلراداتهم وَأقِيمُوا فِي الْأَعْمَال الصَّالِحَة ومقامات الْيَقِين ليجزوا على مجاهدتهم برفيع الدَّرَجَات وهم الزاهدون وإليهم أَشَارَ بالمنتهج وَمَعَ الْأَحْوَال الْمَذْكُورَة يَنْبَغِي للْعَبد أَن يعلم أَنه لم يصل إِلَى شَيْء فَأَيْنَ الْوُصُول هَيْهَات أَولا ترى أَن النَّبِي َانَ يسْتَغْفر فِي الْيَوْم مئة مرّة واستغفاره إِنَّمَا هُوَ بِحَسب اخْتِلَاف رتب التجلي لَهُ حَتَّى يرى أَن كل تجل بِالنِّسْبَةِ إِلَى مَا فَوْقه مُوجب للاستغفار وَلذَلِك قَالَ لَا أحصي ثَنَاء عَلَيْك أَنْت كَمَا أثنيت على نَفسك.

وَفِي الْبَيْت الجناس اللَّاحِق والازدواج وَشبه الجناس ورد الْعَجز على الصَّدْر والمناسبة اللفظية والطباق وَإِذ ثَبت أَن الْعَيْش الْكَامِل وبهجته فِي الْجنَّة وَمن الْمَعْلُوم انه لَا يحصل ذَلِك عَادَة إِلَّا بِالْأَعْمَالِ الصَّالِحَة .

١ - فهج الْأَعْمَال وَفِي نُسْخَة وهج بِالْوَاو وَيُقَال هاج فلَان الشَّيْء هيجا وهياجا وهيجانا إِذا أثاره وحركته وهاج الشَّيْء إِذا أثاره وتحرك. . يتعدّى وَلَا يتَعَدَّى. . وَقد استعملها النَّاظِم أَي أثر الْأَعْمَال وحركها وَالْمعْنَى أدمها إِذا ركدت أَي سكنت وَالْمرَاد قلت لِأَنَّهُ كَانَ عمله دِيمَة وَلقَوْله (أحب الْعَمَل إِلَى الله أَدْوَمه وَإِن قل) فَإِذا مَا مَا زَائِدَة للتَّأْكِيد هجت أَي أدمت الْأَعْمَال إِذا بِالتَّنْوِينِ أَي حِين إِذْ قلت تهج أَي تدم وَفِي الْبَيْت الطباق ورد الْعَجز على الصَّدْر والترديد وَشبه الجناس والجناس اللَّاحِق والإرصاد والتعطّف وَهُوَ أَن تعلّق لَفْظَة أَو تصرف مِنْهَا بِمَعْنى فِي الصَّدْر ثمَّ بِمَعْنى آخر فِيمَا سوى الضَّرْب من الْعَجز. . وَهُوَ هُنَا فِي هج وهجت فَشبه المصراعين فِي انعطاف أَحدهمَا على الآخر بالعطفين فِي كَون كل مِنْهُمَا يمِيل إِلَى الْجَانِب الَّذِي يمِيل إِلَيْهِ الآخر والتخلص وَهُوَ الْخُرُوج مِمَّا شيب الْكَلَام بِهِ إِلَى الْمَقْصُود مَعَ رِعَايَة الملاءمة بَينهمَا والناظم قد شيّب كَلَامه أَولا بِذكر أَحْوَال أهل النورانيات من المبتهجين والمنتهجين ثمَّ ختمه بِالْإِشَارَةِ إِلَى الْوُصُول ثمَّ حضّهم على دوَام الْأَعْمَال ثمّ خرج من ذَلِك إِلَى ذكر أَحْوَال أهل البدايات مَعَ رِعَايَة الملاءمة بَينهمَا من حَيْثُ أَن هَؤُلَاءِ يخاطبون بابتداء الْأَعْمَال وَأُولَئِكَ بدوامها ثمَّ أَشَارَ إِلَى مقَام التَّوْبَة بتقبيح الْمعْصِيَة فَقَالَ :

٢ - ومعاصي الله تَعَالَى سماجتها من سمج بِالضَّمِّ أَي قبح تزدان أَي تتزين وتحسن لذِي الْخلق بِضَم الْخَاء وَاللَّام مَا طبع عَلَيْهِ الْإِنْسَان بِلَا تكلّف كالكرم والشجاعة السمج أَي الْقَبِيح وسماجتها بدل اشْتِمَال من الْمُبْتَدَأ قبله أَو مُبْتَدأ خَبره تزدان وَهُوَ مَعَ خَبره خبر الأول وتزدان أَصله تتزين بِوَزْن تفتعل من الزين تحركت الْيَاء وَانْفَتح مَا قبلهَا قلبت ألفا وَوَقعت تَاء الافتعال وَهِي من الْحُرُوف الرّخوة بعد الزَّاي الشَّدِيدَة فتنافرتا فأبدل من التَّاء دَالا وأبقيت بِحَالِهَا وَيجوز قَلبهَا زاياً وإدغامها فِي الزَّاي قبلهَا وَيجوز قلب الزَّاي دَالا وإدغامها فِي الدّال المبدلة وَفِي الْبَيْت الطباق وردّ الْعَجز على الصَّدْر ثمَّ أَشَارَ إِلَى ترغيب ذَوي النهايات فِي مداومة الْأَعْمَال فِي الطَّاعَة وَقَالَ .

٣ - لطاعته أَي طَاعَة الله وصباحتها أَي جمَالهَا (أنوار صباح منبلج) أَي أضواء ظَاهِرَة ظُهُور ضوء الصَّباح الْوَاضِح وَبهَا تذْهب ظلمات الْجَهْل عَن الْقلب وظلمات الْقلب عَن الرّوح ويفوز الْمُطِيع بالهناء من النَّعيم الَّذِي مِنْهُ النّظر إِلَى وَجهه الْكَرِيم وَالطَّاعَة غير الْقرْبَة وَالْعِبَادَة لِأَنَّهَا امْتِثَال الْأَمر وَالنَّهْي والقربة مَا تقرب بِهِ بِشَرْط معرفَة المتقرب إِلَيْهِ وَالْعِبَادَة مَا تعبد بِهِ بِشَرْط النِّيَّة فِي معرفَة المعبود فالطاعة تُوجد بِدُونِهَا فِي النّظر الْمُؤَدِّي إِلَى معرفَة الله تَعَالَى إِذْ مَعْرفَته إِنَّمَا تحصل بتمَام النُّور. . والقربة تُوجد بِدُونِ الْعِبَادَة فِي الْقرب الَّتِي لَا تحْتَاج إِلَى نِيَّة كَالْعِتْقِ وَالْوَقْف وَظَاهر كَلَامه أَن للطاعة أنوار وَإِن كَانَ الْمُطِيع فَاسِقًا وَهُوَ كَذَلِك قَالَ ابْن عَطاء الله وَيَكْفِي فِي تَعْظِيم الْمُؤمن وَلَو كَانُوا عَن الله غافلين قَوْله تَعَالَى {ثمَّ أَوْرَثنَا الْكتاب الَّذِي اصْطَفَيْنَا ... } الْآيَة أثبت لَهُم الاصطفاء بِالْإِيمَان وَإِن كَانُوا ظالمين وَفِي الْبَيْت التتميم والإيغال وَشبه الجناس ثمَّ أَشَارَ إِلَى ترغيب ذَوي البدايات فِي فعل الطَّاعَة بتشويقهم إِلَى نسَاء الْجنَّة لِأَنَّهُ أمثل بحالهم فَقَالَ :

مَــن يَخطِــب حُــورَ الخُلــدِ بِهــا ... يَحظَـــى بِـــالحُور وَبـــالِغنج(١)

فَكُـــنِ المَـــرضِيَّ لَهـــا بِتُقـــىً ... تَرضَـــاهُ غَـــداً وَتَكُـــونَ نَجِـــى (٢)

واتـــلُ القُـــرآنَ بِقَلـــبٍ ذِي ... حَـــزَنٍ وَبِصَـــوتٍ فيـــهِ شَـــجِي (٣)

وَصَـــلاةُ اللَّيـــلِ مَســـافَتُها ... فاذهَـــب فِيهَـــا بِـــالفَهمِ وَجِـــي (٤)

---

١ - وَمن يخْطب بِالْجَزْمِ بمن الشّرطِيَّة من الْخطْبَة بِكَسْر الْخَاء وَهِي طلب التَّزْوِيج أَي من طلب من الله تَعَالَى حور الْخلد أَي نسَاء الْجنَّة وَفِي نُسْخَة حور الْعين بهَا أَي بِالطَّاعَةِ ويوف بهَا يظفر بِالْجَزْمِ بِمن أَي يفز بالحور الكاملات الْحسن اللائي لَا يُوجد مِثْلهنَّ فِي الدُّنْيَا وبالغنج بِضَم الْغَيْن مَعَ النُّون وإسكانها وَفتحهَا حسن الشكل بِالْكَسْرِ أَي الدل يُقَال امْرَأَة ذَات شكل أَي دلّ وغنج وَيجوز فِيهِ تَقْدِير مُضَاف أَي بذوات الغنج فَيكون من عطف الصِّفَات الدَّال على اجتماعها فِي ذَات وَاحِدَة مثل قَول الشَّاعِر
(إِلَى الْملك القرم وَابْن الْهمام ... وَلَيْث الكتيبة فِي المزدحم) وَسميت نسَاء الْجنَّة بالحور الْعين لِأَنَّهُنَّ شبهن بالظباء وَالْبَقر من الْحور بِفَتْح الْحَاء وَالْوَاو وَهُوَ شدَّة بَيَاض الْعين فِي شدَّة سوادها وَسميت الْجنَّة بالخلد لِأَنَّهَا دَار الْبَقَاء الدَّائِم السَّالِم من المحنة وَفِي الْبَيْت الترديد والتتميم والإيغال وَإِذا أردْت الظفر بالحور الْعين .

٢ - فَكُن الكفو المرضي لَهَا تبقى بِمَعْنى التَّقْوَى وتاؤها بدل من الْوَاو وواو تقوى بدل من الْيَاء بِدَلِيل الْوِقَايَة فيهمَا أَي بِسَبَب تقى مِنْك ترضاه بِأَن ترَاهُ مَقْبُولًا أَي مثابا عَلَيْهِ لموافقته الشَّرْع غدا أَي يَوْم الْقِيَامَة وَأَصله غدو حذفت واوه بِلَا عوض وَفِي نُسْخَة هوى أَي هَوَاك تكون بِهِ هُنَاكَ نجي بِالْوَقْفِ بِحَذْف الْحَرَكَة وَالْألف على لُغَة ربيعَة أَي نجيا من المكروهات ... وَجعل السَّبَب فِيمَا ذكر التَّقْوَى لِأَنَّهَا أعظم الْخِصَال وأنفعها وَلِهَذَا وصّى الله بهَا الْأَوَّلين والآخرين فَقَالَ {وَلَقَد وصينا الَّذين أُوتُوا الْكتاب من قبلكُمْ وَإِيَّاكُم أَن اتَّقوا الله} وَفِي الْخَبَر جَاءَ رجل إِلَى النَّبِي فَقَالَ أوصني فَقَالَ عَلَيْك بتقوى الله فَإِنَّهَا جماع كل خير وَعَلَيْك بِالْجِهَادِ فَإِنَّهُ رَهْبَانِيَّة الْمُسلم وَعَلَيْك بِذكر الله فَإِنَّهُ نور لقلبك وحقيقتها اجْتِنَاب مَا يخَاف مِنْهُ ضَرَر فِي الدّين وَفِي الْبَيْت التتميم فِي غدا وَشبه الجناس وَلما رغب فِي فعل الطَّاعَة بِمَا مر بِتِلَاوَة الْقُرْآن وَغَيرهَا فَقَالَ

٣ - واتل الْقُرْآن متدبرا بِهِ بقلب أَي فؤاد ذِي حزن بِفَتْح الْحَاء وَالزَّاي أَي حَزِين وَفِي نُسْخَة ذِي حرق جمع حرقة أَي محترق ومحسنا لَهُ بِصَوْت فِيهِ شج أَي حَزِين بِمَعْنى رَقِيق من قَوْلهم فلَان يقْرَأ بالتحزين إِذا أرق صَوته وَذَلِكَ لقَوْله تَعَالَى {ورتل الْقُرْآن ترتيلا} وَلخَبَر التِّرْمِذِيّ يَقُول الله عز وَجل من شغله الْقُرْآن وذكري عَن مَسْأَلَتي أَعْطيته أفضل مَا أعطي السَّائِلين وَفضل كَلَام الله على سَائِر الْكَلَام كفضل الله على جَمِيع خلقه وَخبر أبي دَاوُد وَغَيره زَينُوا الْقُرْآن بِأَصْوَاتِكُمْ قَالَ الْخطابِيّ مَعْنَاهُ زَينُوا أَصْوَاتكُم بِالْقُرْآنِ كَمَا فسره غير وَاحِد من أَئِمَّة الحَدِيث قَالَ وَقد رُوِيَ كَذَلِك وَهُوَ الصَّحِيح وَمَعْنَاهُ أشغلوا أَصْوَاتكُم بِالْقُرْآنِ والهجوا بِهِ واتخذوه شعارا وزينة انْتهى وَلِأَن ذَلِك أقرب إِلَى توقير الْقُرْآن واحترامه بقوله شج وصف على فعيل بِمَعْنى مفعول أَو فَاعل فَيكون مشددا لكنه خففه للوزن وَيحْتَمل أَن يكون فعلا كعمي أَو مصدرا وعَلى الْأَوَّلين يكون صفة لصوت وَفِيه حَالا أَي فِي حَال تِلَاوَة الْقُرْآن وعَلى الثَّالِث يكون على يَجْعَل مُبْتَدأ وَفِيه خَبره أَي فِي الصَّوْت شجى أَي حزن وَفِي الْبَيْت التَّكْمِيل وَهُوَ أَن يَأْتِي الناثر والناظم بِمَعْنى من مدح أَو غَيره ثمَّ يرى أَنه غير كَاف فَيَأْتِي بِمَعْنى آخر فيزيده تكميلا

٤ - وَصَلَاة وَفِي نُسْخَة وَقيام اللَّيْل نافلته وَهِي أفضل من نَافِلَة النَّهَار مسافتها أَي مَسَافَة التِّلَاوَة فِيهَا فَاذْهَبْ فِيهَا بالفهم أَي الْعلم وجي قَالَ تَعَالَى {من أهل الْكتاب أمة قَائِمَة يتلون آيَات الله آنَاء اللَّيْل وهم يَسْجُدُونَ} وروى الطَّبَرَانِيّ وَغَيره خبر شرف الْمُؤمن قِيَامه اللَّيْل وَيكرهُ قيام كل اللَّيْل دَائِما وَأَن يضر فِيهِ نَفسه والناظم شبه الصَّلَاة بالمسافة لِأَنَّهَا مَحل لِكَثْرَة التِّلَاوَة كَمَا أَن الْمسَافَة مَحل لِكَثْرَة السّير أَي صَلَاة اللَّيْل مَحل لإكثار التِّلَاوَة فاخصص التِّلَاوَة فِيهَا بمزيد حُضُور وَتَأمل ليتم لَك لَذَّة الْمُنَاجَاة وَيفِيض عَلَيْك المعارف وَفِي الْبَيْت الطباق والإرصاد والتتميم والإيغال .

وَتَأَمَّلهـــــا وَمَعانِيهَــــــا   تـــأتِ الفَـــردَوسَ وَتَفـــترجِ (١)

وَاشرَب تَســـــنيمَ مَفُجَّرِهـــا   لا مُمتزِجـــــاً وَبممتـــــزِجِ (٢)

مُـــدِحَ العَقـــلُ الآتِيــهِ هُـــدىً   وهَـــوىً مُتَـــوَلٍّ عَنــهُ هُجـــى (٣)

---

١ - وتأملها أَي صَلَاة اللَّيْل وَتَأمل مَعَانِيهَا أَي مقاصدها الدِّينِيَّة والدنيوية الْوَارِدَة فِي الْأَخْبَار كَخَبَر عَلَيْكُم بِقِيَام اللَّيْل فَإِنَّهُ دأب الصَّالِحين قبلكُمْ ومقربة لكم إِلَى ربكُم ومكفرة للسيئات ومطردة للداء عَن الْجَسَد ومنهاة عَن الْإِثْم // (رَوَاهُ التِّرْمِذِيّ وَغَيره) // تأت الفردوس فَهُوَ حديقة أَعلَى الْجنَّة وأوسطها لخَبر البُخَارِيّ إِذا سألتموا الله فَاسْأَلُوهُ الفردوس فَإِنَّهُ أَوسط الْجنَّة وَأَعْلَى الْجنَّة وفوقه عرش الرَّحْمَن وَمِنْه تفجر أَنهَار الْجنَّة وتنفرج من الْهم وَالْغَم وَيجوز أَن يكون ذَلِك مجَازًا عَن كَمَال لَذَّة الْمعرفَة الراسخة الْحَاصِلَة من التَّأَمُّل وَالْمعْنَى إِذا كررت التَّأَمُّل فِي الصَّلَاة كثرت معارفك وأنوارك اللدنية الشبيهة فِي كمالها ورسوخها بالفردوس أَو الموصلة إِلَيْهِ وَيجوز عود الضَّمِير إِلَى الْآيَات المتلوة المفهومة مِمَّا مر وَالْفِعْل الْمُضَارع إِذا وَقع بعد أَمر وَقصد بِهِ السَّبَبِيَّة يجْزم كَمَا فِي الْبَيْت. . بِخِلَاف مَا إِذا لم يقْصد بِهِ السَّبَبِيَّة فَإِنَّهُ يرفع سَوَاء وَقع صفة كَقَوْلِه تَعَالَى {فَهَب لي من لَدُنْك وليا يَرِثنِي وَيَرِث من آل يَعْقُوب} على قِرَاءَة الرّفْع حَالا أم استئنافا كَقَوْلِه تَعَالَى {ثمَّ ذرهم فِي خوضهم يَلْعَبُونَ} فَإِنَّهُ يحْتَمل الْوَجْهَيْنِ وَيحْتَمل الْأَوْجه كلهَا قَوْله تَعَالَى {فَاضْرب لَهُم طَرِيقا فِي الْبَحْر يبسا لَا تخَاف دركا} وَقد قرئَ لَا تخف وَفِي الْبَيْت التتميم والإيغال

٢ - واشرب بطاعتك تسنيم مفجرها بِفَتْح الْجِيم المشدد أَي مفجر الفردوس وَهُوَ المَاء المجري من فجرت المَاء أجريته والتسنيم عين فِي الْجنَّة يشرب مِنْهَا المقربون من سنمت الشَّيْء رفعته سميت بِهِ لِأَن شرابها أرفع شراب فِي الْجنَّة أَو لِأَنَّهَا تأتيهم من فَوق على مَا رُوِيَ أَنَّهَا تجْرِي فِي الْهَوَاء متسنمة فتنصب فِي أوانيهم فيشربون مِنْهَا مَا يريدونه حَالَة كَونه لَا ممتزجا أَي مختلطا بغَيْرهَا وَهَذَا للمقربين وبممتزج بِغَيْرِهِ وَهُوَ للأبرار قَالَ تَعَالَى {يسقون} أَي الْأَبْرَار {من رحيق} أَي خمرة خَالِصَة من الدنس ثمَّ قَالَ ومزاجه أَي مَا يمزج بِهِ {من تسنيم عينا يشرب بهَا المقربون} أَي مِنْهَا أَو ضمن يشرب معنى يلتذ. . وَفسّر فِي الْآيَة التسنيم بقوله {عينا} إِلَى آخِره ونصبه بأعنى مُقَدرا أَو بالحالية من تسنيم وَحَاصِله أَنَّك تجمع اللذتين العجيبتين لَذَّة التسنيم الصّرْف وَلَذَّة التسنيم الممتزج وَالْكَلَام على ظَاهره وَيحْتَمل أَنه شبه مَا يظْهر من مَعَاني التِّلَاوَة من المعارف والأنوار بالتدبر والتفهم فِي تأثر النَّفس بِهِ اسْتِحْسَانًا وكمالا بِالْمَاءِ الْمَذْكُور خَالِصا وممتزجا وَأمر بِقبُول تِلْكَ المعارف والأنوار بقوله واشرب أَي تلق بِالْقبُولِ فَهُوَ اسْتِعَارَة أَو كِنَايَة أَو اشرب أَمر بَاقٍ على مَعْنَاهُ كَمَا تقرر فيعطف على جَوَاب الْأَمر السَّابِق وَفِي الْبَيْت الطباق ورد الْعَجز على الصَّدْر والجناس التَّام فِي لَا ممتزجا وبممتزج .

٣ - مدح الْعقل الآتيه أَي الَّذِي أَتَى مَا مر من الطَّاعَة وَغَيرهَا من المقامات وَجعلهَا معرفَة الله الَّتِي بهَا سَعَادَة الدَّاريْنِ والتهيؤ لمناجاته وَفهم خطابه هدى أَي دلَالَة على الطَّرِيق وَهُوَ مفعول لَهُ أَو حَال من فَاعل آتيه أَو من مَفْعُوله أَو مِنْهُمَا وَالْعقل لُغَة الْمَنْع وَاصْطِلَاحا يُقَال بالاشتراك كَمَا قَالَ الْغَزالِيّ لأربعة معَان أَحدهَا غريزة يتهيأ بهَا لدرك الْعُلُوم النظرية قَالَ وَكَأَنَّهُ نور يقذف فِي الْقلب بِهِ يستعد لإدراك الْأَشْيَاء ثَانِيهَا بعض الْعُلُوم الضرورية ثَالِثهَا عُلُوم تستفاد من التجارب بمجاري الْأَحْوَال رَابِعهَا انْتِهَاء قُوَّة تِلْكَ الغريزة إِلَى أَن تعرف عواقب الْأُمُور وتقمع الشَّهْوَة الداعية إِلَى اللَّذَّة العاجلة وتقهرها قَالَ وَيشْتَبه أَن يكون الِاسْم لُغَة واستعمالا لتِلْك الغريزة وَإِنَّمَا أطلق على الْعُلُوم مجَازًا من حَيْثُ إِنَّهَا ثَمَرَتهَا كَمَا يعرف الشَّيْء بثمرته فَيُقَال الْعلم هُوَ الخشية وَالرَّابِع هُوَ مُرَاد النَّاظِم وَعبر عَن أَولهَا الإِمَام الرَّازِيّ بِأَنَّهُ غريزة يتبعهَا الْعلم بالنظريات عِنْد سَلامَة الْآلَات وعرفه الشَّيْخ أَبُو إِسْحَاق الشِّيرَازِيّ بِأَنَّهُ صفة يُمَيّز بهَا بَين الْحسن والقبيح وَهُوَ معنى قَول الشَّافِعِي إِنَّه آلَة التَّمْيِيز وعرفه أَكثر الْحُكَمَاء بِأَنَّهُ جَوْهَر مُجَرّد غير مُتَعَلق بِالْبدنِ تعلق التَّدْبِير وَالتَّصَرُّف وَبَعْضهمْ بِأَنَّهُ جَوْهَر مُجَرّد عَن الْمَادَّة فِي ذَاته مُقَارن لَهَا فِي فعله وَهُوَ النَّفس الناطقة الَّتِي يُشِير إِلَيْهَا كل وَاحِد بقوله أَنا وَذَلِكَ عِنْد أَكثر الْحُكَمَاء والمعتزلة ويخصهم بِأَنَّهُ جَوْهَر لطيف فِي الْبدن ينبعث شعاعه فِيهِ كالسراج فِي الْبَيْت وَمحله الدِّمَاغ عِنْد أَكثر الْحُكَمَاء وَبَعض الْفُقَهَاء وَالْقلب عِنْد أَكثر الْفُقَهَاء وَبَعض الْحُكَمَاء وَنقل عَن الشَّافِعِي وَهُوَ الصَّحِيح قَالَ الشَّارِح وَهُوَ الَّذِي قَالَ يدل عَلَيْهِ نُصُوص الشَّرِيعَة قَالَ تَعَالَى {وَلَكِن تعمى الْقُلُوب الَّتِي فِي الصُّدُور} وَأما فَسَاده لفساد الدِّمَاغ فَلَا يدل على أَنه مَحَله لجَوَاز أَن يكون سَلَامَة الدِّمَاغ شرطا فِي اتصاف الْقلب بِهِ عَادَة وَهوى مُبْتَدأ وَهُوَ ميل النَّفس إِلَى الشَّهْوَة حَلَال أَو

وَكِتَـــابُ اللهَ رِياضَـــــتُهُ   لِعقــول النـــاسِ بِمُنْـــدَرِجِ(١)

وَخِيـــارُ الخَلـــقِ هُـــداتُهُمُ   وَسِـــوَاهُمْ مِـــن هَمَـــجِ الهَمَـــجِ(٢)

حرَام متول أَي معرض عَنهُ أَي عَن مَا مر من الطَّاعَة وَغَيرهَا من المقامات عَن الْهدى مُضَاف إِلَى متول أَي مَوْصُوف بِهِ هجي خبر الْمُبْتَدَأ أَي ذمّ من هجوته هجوا أَو هجاء وتهجاء انقلبت الْوَاو يَاء فِي الْمَبْنِيّ للْمَفْعُول لتطرفها وانكسار مَا قبلهَا وَفِي الْبَيْت التتميم فِي هدى والمقابلة وَهِي أَن تجمع أُمُور مُخْتَلفَة ثمَّ تقَابل بضد كل مِنْهُمَا كَمَا قَابل الْمَدْح بالذم والإتيان بالتولي وَالْهدى ب الْهوى وكما فِي قَوْله تَعَالَى {فليضحكوا قَلِيلا وليبكوا كثيرا} والطباق .

١ - وَكتاب الله تَعَالَى رياضته أَي تَعْلِيمه وتأديبه بِأَمْرِه وَنَهْيه ووعده ووعيده ووعظه وَضرب أَمْثَاله لعقول الْخلق كِنَايَة بمندرج أَي بطرِيق وَاضِحَة ينْدَرج النَّاس فِيهَا لصحتها ووضوحها من درج الْقَوْم واندرجوا مضوا فِي سبيلهم وَالْمرَاد بدلائل وَضرب الْأَمْثَال وآيات واضحات لَا قدح فِيهَا وَلَا فِي مقدماتها كالطرق المسلوكة لأمنها واتضاحها والرياضة من رضت الدَّابَّة أَي علمتها السّير وإضافتها إِلَى ضمير الْكتاب من الْإِسْنَاد الْمجَازِي كَقَوْلِهِم طَرِيق سَائِر ونهر جَار لِأَن الْمعلم والمؤدب حَقِيقَة وَهُوَ الله لَكِن بِأَلْفَاظ الْكتاب فَكَأَنَّهَا الرائضة لعقول الْخلق. . فَفِي ذَلِك تَشْبِيه الْعُقُول بالدابة فِي حَاجَة التَّعَلُّم على طَرِيق الِاسْتِعَارَة بِالْكِنَايَةِ وطوي ذكر الْمُشبه بِهِ وَاكْتفى بلازمه وَحده وَخص الْكتاب بِالذكر لِأَنَّهُ مرجع الْأَدِلَّة وَالْآيَة الْكُبْرَى وَالنعْمَة الْعُظْمَى فِي بَيَان مَا لَا تهتدي إِلَيْهِ الْعُقُول فِي الِاعْتِصَام من الْفِتَن لخَبر أَنه سَيكون فتن كَقطع اللَّيْل المظلم قيل فَمَا النجَاة مِنْهَا يَا رَسُول الله قَالَ كتاب الله فِيهِ نبأ من قبلكُمْ وَخبر مَا بعدكم وَحكم مَا بَيْنكُم وَهُوَ فصل لَيْسَ بِالْهَزْلِ من تَركه تجبرا قصمه الله وَمن ابْتغى الْهدى فِي غَيره أضلّهُ الله وَهُوَ حَبل الله المتين وَنوره الْمُبين وَالذكر الْحَكِيم والصراط الْمُسْتَقيم وَهُوَ الَّذِي لَا تزِيغ بِهِ الْأَهْوَاء وَلَا تتشعب مَعَه الآراء وَلَا تشبع مِنْهُ الْعلمَاء وَلَا تمله الأتقياء من علمه سبق وَمن عمل بِهِ أجر وَمن حكم بِهِ عدل وَمن اعْتَصَمَ بِهِ هدي إِلَى صِرَاط مُسْتَقِيم وَقَوله رياضته بدل اشْتِمَال من الْمُبْتَدَأ قبله أَو مُبْتَدأ ثَان خَبره بمندرج وَهُوَ مَعَ خَبره خبر الأول وَاللَّام زَائِدَة لتقوية الْعَامِل لضَعْفه بالفرعية وتنوين مندرج للتكثير والتنويع .

٢ - وَخيَار الْخلق وَفِي نُسْخَة النَّاس أَي أفضلهم هداتهم إِلَى طَرِيق الْحق وهم الْعلمَاء الْعَامِلُونَ يُقَال هديته الطَّرِيق وللطريق وَإِلَى الطَّرِيق أَي دللته عَلَيْهِ وَيدل لما قَالَه أَدِلَّة كَثِيرَة كَقَوْلِه تَعَالَى {شهد الله أَنه لَا إِلَه إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَة وَأولُوا الْعلم قَائِما بِالْقِسْطِ ... } فَبَدَأَ بِنَفسِهِ وثنى بملائكته وَثلث بأولي الْعلم دون غَيرهم وناهيك بِهِ شرفا وَقَوله {يرفع الله الَّذين آمنُوا مِنْكُم وَالَّذين أُوتُوا الْعلم دَرَجَات} قَالَ ابْن عَبَّاس رَضِي الله عَنْهُمَا لَهُم دَرَجَات فَوق الْمُؤمنِينَ بِسبع مئة دَرَجَة مَا بَين الدرجتين مسيرَة خمس مئة عَام وَقَوله {إِنَّمَا يخْشَى الله من عباده الْعلمَاء} فحصر خَشيته فيهم وَأعظم بِهِ شرفا لِأَن مَعْرفَته سَبَب خَشيته وَقَوله من سلك طَرِيقا يَبْتَغِي بِهِ علما سهل الله لَهُ طَرِيقا إِلَى الْجنَّة وَإِن الْمَلَائِكَة لتَضَع أَجْنِحَتهَا لطَالب الْعلم رضَا بِمَا يصنع وَإِن الْعَالم ليَسْتَغْفِر لَهُ من فِي السَّمَوَات وَمن فِي الأَرْض حَتَّى الْحيتَان فِي المَاء وَإِن فضل الْعَالم على العابد كفضل الْقَمَر على سَائِر الْكَوَاكِب وَفِي رِوَايَة كفضلي على أدناكم وَإِن الْعلمَاء وَرَثَة الْأَنْبِيَاء وَإِن الْأَنْبِيَاء لم يورثوا دِينَارا وَلَا درهما إِنَّمَا ورثوا الْعلم فَمن أَخذه فقد أَخذ بحظ وافر // (رَوَاهُ أَبُو دَاوُد وَالتِّرْمِذِيّ) (وَسِوَاهُمْ مِنْ هَمَجِ الْهَمَجِ) خير النَّاس رجلَانِ عَالم ومتعلم وَسَائِر النَّاس همج لَا خير فيهم // (رَوَاهُ ابْن ماجة) // بِلَفْظ الْعَالم والمتعلم شريكان فِي الْخَيْر وَلَا خير فِي سَائِر النَّاس والهمج جمع همجة وَهِي الشَّاة المهزولة والذباب الصَّغِير الَّذِي يسْقط على وُجُوه الْغنم وَالْحمير شبه بذلك غير الهداة فِي قلَّة الهمة وخسة الْقُلُوب ثمَّ بَالغ بِأَن جعلهم من همج الهمج. . على على طَرِيق التَّجْرِيد التشبيهي الَّذِي هُوَ أبلغ أَنْوَاع التَّجْرِيد. . تَنْبِيها على ذمّ الْعلم الَّذِي لَا ينفع صَاحبه عِنْد الله بِأَن قصد بِهِ حظا أَو جاها دنيويا فيأثم بِخَبَر أَشد النَّاس عذَابا يَوْم الْقِيَامَة عَالم لم يَنْفَعهُ علمه // (رَوَاهُ الطَّبَرَانِيّ وَالْبَيْهَقِيّ) // وَخبر لَا يكون الْمَرْء عَالما حَتَّى يكون بِعِلْمِهِ عَاملا // (رَوَاهُ ابْن حبَان والبهيقي) // مَوْقُوفا على أبي الدَّرْدَاء وَفِي الْبَيْت الجناس ورد الْعَجز على الصَّدْر والمقابلة وَهِي أَن يوتى بمعنيين متوافقين أَو أَكثر ثمَّ بِمَا يُقَابل ذَلِك على التَّرْتِيب كَمَا قَابل خِيَار الْخلق ب سواهُم وهداتهم ب همج الهمج فَكَمَا فِي قَوْله تَعَالَى {فليضحكوا قَلِيلا وليبكوا كثيرا} والتجريد وَهُوَ أَن ينتزع من متصف بِصفة آخر مثله فِيهَا لأجل الْمُبَالغَة فِي كمالها فِيهِ ... مِثَاله فِي التَّشْبِيه لَئِن لقِيت زيدا لتلْقين مِنْهُ بحرا ولتلقين بِهِ أسدا يعنون نفس زيد والناظم جرد غير الهداة من همج الهمج بعد التَّشْبِيه مُبَالغَة فِي الذَّم وَلما أَشَارَ إِلَى عظم خطر الْعلم وَالْعَمَل فِيمَن قصد مِنْهَا قصدا مذموما أَشَارَ إِلَى الْأَمر بالجد فيهمَا وَالصَّبْر عَلَيْهِمَا ليسلم الآني بهما من الْخطر فَقَالَ :

فَـــإذا كُنـــتَ المِقـــدَامَ فَـــلا تجـزَع في الحَـربِ مِـنَ الـرَّهَج(١)

وَإذا وَإذا أَبصَرتَ مَنَـارَ هُـدىً فَـاظهَر فَـرداً فَـوقَ الثَّـبَجِ (٢)

اشـتاقَت نَفـسٌ وَجَـدَت أَلَمـاً بالشَّـوقِ المُعـتَلِجِ(٣)

---

١ - وَإِذا كنت الْمِقْدَام أَي الْكثير الْإِقْدَام على الْعَدو لشجاعتك وأل فِيهِ للْعهد العلمي على سَبِيل الادعاء أَي الْكَامِل فِي الْإِقْدَام أَو الِاسْتِغْرَاق الْمجَازِي الْجَامِع لخصائص جنس الْمِقْدَام كَمَا فِي قَوْلك أَنْت الرجل علما فَلَا تجزع إِي تضطرب وَفِي نُسْخَة فَلَا تلوي أَي تعرض فِي الْحَرْب أَي الْقِتَال من أجل الرهج أَي الْغُبَار أَي كن فِي جدك ونشاطك قوي الْقلب بِاللَّه نَافِذ الْعَزْم فِيمَا تطلب. كالمقدام الَّذِي لَا يردهُ عَن مقْصده راد وَإِن عظم وَإِذا كنت كَذَلِك فَلَا تجزع فِي مجاهدتك الشَّيْطَان وَالنَّفس ومخلفتها الشبيهة بِالْحَرْبِ من الْعَوَارِض الشبيهة بالرهج فِي الدناءة. كوسوسة الشَّيْطَان وَهوى النَّفس لِأَنَّهُمَا يَقُولَانِ لَك إِن كنت خلقت سعيدا لم يَضرك ترك الْعلم وَالْعَمَل أَو شقيا لم ينفعاك وادفع هَذِه الشُّبْهَة بِأَن تَقول إِنَّمَا أَنا عبد الله وعَلى الْعَبْد الِامْتِثَال لعبوديته والرب يحكم مَا يَشَاء وَيفْعل مَا يُرِيد وَلِأَن الْعلم وَالْعَمَل ينفعاني كَيفَ مَا كنت لِأَنِّي إِن كنت سعيدا ازددت بهما ثَوابًا أَو شقيا فَلَا أَلوم نَفسِي وَلِأَن الله لَا يعاقبني على الطَّاعَة بِكُل حَال وَلَا تضرني على أَنِّي إِن دخلت النَّار وَأَنا مُطِيع أحب إِلَيّ من أَن أدخلها وَأَنا عَاص فَكيف ووعده حق وَقَوله صدق. وَقد وعد على الطَّاعَة الثَّوَاب وَبِمَا تقرر ظهر لَك إِن الْحَرْب مستعارة لمجاهدة الشَّيْطَان وَالنَّفس بِجَامِع الْمَشَقَّة وَإِن الرهج مستعار للخواطر الْوَارِدَة على الْقلب مِنْهُمَا بِجَامِع الدناءة وَهَذِه الِاسْتِعَارَة مرشحة للأولى لِأَن الرهج من لَوَازِم الْمُسْتَعَار مِنْهُ وَهُوَ الْقِتَال فتشبيه المجاهدة بِالْحَرْبِ اسْتِعَارَة تصريحية وَإِثْبَات الرهج لَهَا ترشيح وَفِي الْبَيْت الإيغال.

٢ - وَإِذا أَبْصرت بعد جدك فِي الْعلم وَالْعَمَل وإعراضك عَن الْعَوَارِض الدنيئة منار هدى أَي الطَّرِيق الْمُسْتَقيم فاظهر فَردا أَي فَاعل مُنْفَردا فَوق الثبج بِفَتْح الْبَاء أَي الْوسط أَو الْمُعظم من منار الْهدى لتصير من المختصين بِهِ المتمكنين مِنْهُ والمنار مفعل من النُّور وَهُوَ مَا يحل فِيهِ النُّور وَهُوَ أَيْضا الْعلم الَّذِي ينصب فِي الطَّرِيق للاهتداء بِهِ واستعار الإبصار وَهُوَ رُؤْيَة الْعين للْعلم لِأَن المحسوس أجلى من الْمَعْقُول فشبهه بِهِ فِي الْجلاء واستعار بعد تَشْبِيه الْهدى بالمنار والنور للدليل الْوَاضِح الْمُفِيد للْعلم وَالْعَمَل أَو للشَّيْخ الْمُفِيد لذَلِك فقد قَالُوا من لم يكن لَهُ شيخ فالشيطان شَيْخه وَقَالَ الشَّيْخ أَبُو مَدين من لم يَأْخُذ أدبه من المتأدبين أفسد من يتبعهُ وَقَالَ أَيْضا الشَّيْخ من هذبك بأخلاقه وأدبك بإطراقه أنار باطنك بإشراقه فتشبيه الْهدى بالنور اسْتِعَار بِالْكِنَايَةِ وَإِثْبَات الْمنَار لَهُ اسْتِعَارَة تخييلية واستعار الثبج لأقوى وأشرف أَدِلَّة الْعلم وَأَسْبَاب الْعَمَل لِأَن وسط كل شَيْء خِيَاره ومعظمه أقواه وأل فِيهِ لتعريف الْعَهْد الْخَارِجِي لتقدم مَا يسْتَلْزم مصحوبها وَهُوَ منار هدى وَفِي الْبَيْت التتميم فِي فَردا والاتساع.

٣ - وَإِذا اشتاقت نفس أَي مَالَتْ إِلَى مطلوبها ميلًا تحرق بِهِ الأحشاء بِحَيْثُ لَا يسكن باللقاء والتنوين للتكثير والتنويع أَي نفوس كَثِيرَة صَادِقَة فِي الْمحبَّة راسخة فِي الْمعرفَة وجدت ألما تنوينه للتكثير والتنويع أَيْضا بالشوق أَي شوقها المعتلج أَي الشَّدِيد وأل فِي الشوق لتعريف الْعَهْد الْخَارِجِي لتقدم مَا يسْتَلْزم مصحوبها والاشتياق أَعلَى من الشوق لِأَنَّهُ لَا يسكن باللقاء كَمَا مر. بِخِلَاف الشوق قَالَ ابْن عَطاء الله والمحبة أَعلَى من الشوق أَيْضا لِأَنَّهُ ينشأ عَنْهَا وَيَأْخُذ مِنْهُ أَنَّهَا أَعلَى من الاشتياق أَيْضا وَفِي كل مِنْهُمَا وَقْفَة وَالْوَجْه حمله على الطَّالِب لذَلِك. فَإِذا قصد الشوق فتحصيل الْمحبَّة أَعلَى مِنْهُ فِي حَقه لِأَن الثَّمَرَة إِنَّمَا تكون عَن مثمر والاعتناء بالمثمر قبل الثَّمَرَة أولى أما بعد حصولهما فَظَاهر أَن الشوق أَعلَى كمعرفة الله تَعَالَى مَعَ النّظر المحصل لَهَا. والمحبة تنشأ عَن قُوَّة الْعلم بالمحبوب فَمن قوي علمه بِاللَّه كَانَت محبته لَهُ أَكثر وَمن عرف فضل الْعلم وَالْعَمَل أحبهما. وَهِي لكَونهَا ميل الْقلب إِلَى الشَّيْء يَسْتَحِيل فِي حق الله تَعَالَى بِهَذَا الْمَعْنى فَالْمُرَاد لَازمه فمحبته تَعَالَى لعَبْدِهِ عصمته لَهُ وتوفيقه للقرب مِنْهُ وثناؤه عَلَيْهِ بِمَا يرقيه وتفضله عَلَيْهِ بِمَا يرقيه

وغايتها كشف الْحجب عَن قلبه حَتَّى يرَاهُ بِهِ فَيكون إِذْ ذَاك من أجل الواصلين المقربين كَمَا نبه عَلَيْهِ فِيمَا حَكَاهُ عَن ربه من قَوْله فَإِذا أحببته كنت سَمعه الَّذِي يسمع بِهِ وبصره الَّذِي يبصر بِهِ ... الحَدِيث وَسبب ذَلِك التجرد لله والانقطاع إِلَيْهِ والإعراض عَن غَيره بصفاء الْقلب وَإِصْلَاح الحركات والسكنات وَلَا ريب أَن هَذِه مرتبَة ينشأ عَنْهَا الشوق إِلَى لقاءه وَحب الْمَوْت وجدت مَأْخُوذ من وجد مَطْلُوبه وجودا ظفر بِهِ بعد أَن لم يكن ظافرا أَو من وجد ضالته وجدانا بِكَسْر الْوَاو ظفر بهَا بعد ذهابها عَنهُ أَو من وجد وجدا حزن أَي حزنت من ألم الشوق. وَالْأول هُوَ الْمُتَبَادر وَفِي الْبَيْت التتميم والإيغال والاتساع والتعطف وَشبه الجناس

وَثَنايـــا الحَســـــنا ضـــاحِكَةً　　　وَتَمـــامُ الضِّـــحكِ عَـــلى الفَلَـــجِ (١)

وَغيـــابُ الأَسرَارِ اجتَمَعَـــــت　　　بأَمانَتِهـــا تحَّـــتَ السُّـــــرجِ (٢)

---

١ - وثنايا الْمَرْأَة الحسنا بِالْفَتْح وَالْقصر للوزن. . وبالضم مؤنث أحسن ككبرى وأكبر وَهِي أَربع ثِنْتَانِ من أَعلَى وثنتان من أَسْفَل ضاحكة صاحبتها وَتَمام الضحك مِنْهَا بِكَسْر الضَّاد وَإِسْكَان الْحَاء لُغَة فِي الضحك بِفَتْح الضَّاد مَعَ كسر الْحَاء وإسكانها وبكسرهما كَائِن على الفلج مِنْهَا بِفَتْح اللَّام من فلج بِكَسْرِهَا وَهُوَ تبَاعد منابت الْأَسْنَان وَهُوَ حسن فِيهَا أَي وأدلة الْعلم وَأَسْبَاب الْعَمَل وَاضِحَة حَسَنَة لَا لبس فِيهَا يخَاف مِنْهَا الْهَلَاك والوقوع فِي الضلال وَإِنَّمَا يخَاف مِمَّا يعرض للسالك من جِهَة الشَّيْطَان وَالنَّفس وَتَمام وضوحها بوضوح أَصْلهَا لِأَنَّهُ وضع من لَا ينْطق عَن الْهوى فَشبه دَلَائِل الْعلم وَأَسْبَاب الْعَمَل بثنايا امْرَأَة حسناء وكنى بِكُل من الثنايا والفلج عَن الْمَرْأَة فِي الْحور الْعين وبالضحك عَن الرِّضَا وَالسُّرُور أَي الْحَوْرَاء راضية مسرورة بزوجها الْمجد فِي الْعلم وَالْعَمَل لَا تبغي بِهِ بَدَلا إِن كَانَ غَيره أجل مِنْهُ وَأحسن. . وَتَمام رِضَاهَا وسرورها مَعَ حسن ذَاتهَا أَي أَن رِضَاهَا وسرورها أَمر جبلت عَلَيْهِ فِي ذَاتهَا الْحَسْنَاء السليمة من كل نقص لم تتكلفه لأمر تخَاف على نَفسهَا أَن يرغب بِهِ زَوجهَا عَنْهَا من نقص ذَاتهَا لسوء خلقهَا وَنَحْوهمَا وعَلى للتَّعْلِيل أَو للمصاحبة أَو للاستعانة وَالْجُمْلَة الْأَخِيرَة معطوفة على الَّتِي قبلهَا أَو حَال من ضمير ضاحكة وَفِي الْبَيْت الاتساع والتعطف وَشبه الجناس والتكميل والاحتراس فِي الْعَجز على تَقْدِير أَن ذَلِك كِنَايَة وَهُوَ أَن يُؤْتى فِي الْكَلَام الَّذِي يُوهم خلاف المُرَاد بِمَا يدْفع الْإِيهَام وَمِنْه قَوْله تَعَالَى {اسلك يدك فِي جيبك تخرج بَيْضَاء من غير سوء} فاحترس بقوله {من غير سوء} عَن إِمْكَان أَن يدْخل فِي الْبيَاض البرص والبهق .

٢ - وعياب جمع عَيْبَة وَهِي وعَاء من الْجلد تصان فِيهِ الْأَمْتِعَة كالثياب وَيُطلق مجَازًا على من هُوَ محلّ سرّك من رجل أَو امْرَأَة. . وَمِنْه الْأَنْصَار كرشي وعيبتي الْأَسْرَار جمع سر وَهُوَ مَا يكتم وَفِي نُسْخَة وعياب السِّرّ قد اجْتمعت أَي عياب الْأَسْرَار بأمانتها أَي عَلَيْهَا أَو مَعهَا وَالْأَمَانَة ضد الْخِيَانَة. . وَالْمرَاد مَا يؤتمن عَلَيْهِ تَحت الشرج بِفَتْح الشين وَالرَّاء أَي عرى العياب وَأَرَادَ بالأسرار أسرار الله فِي خلقه مِمَّا حجبهم عَنهُ وَلم يطلع عَلَيْهِ أحدا إلاّ من شَاءَ مِمَّن اصطفاه فَشبه حجب الْأَسْرَار الغيبية فِي مَنعه الْخلق عَنْهَا إلاّ مَا يسّر لَهُ بعيبة مَمْلُوءَة شدّت بعراها شدا وثيقا حَتَّى لَا يخرج مِنْهَا شَيْء وَلَا يطلع على مَا فِيهَا إِلَّا من أذن لَهُ فِي حلّ عراها فيصل إِلَى مَا فِيهَا من الْأَمَانَات والأسرار قَالَ بعض العارفين الْعلم بِمَنْزِلَة الْبَحْر أجْرى مِنْهُ وَاد ثمَّ من الْوَادي نهر ثمَّ من النَّهر جدول ثمَّ من الْجَدْوَل ساقية فَلَو جرى الْبَحْر إِلَى النَّهر أَو الْوَادي إِلَى الْجَدْوَل لغرّقه وأفسده وَهُوَ المُرَاد بقوله تَعَالَى {أنزل من السَّمَاء مَاء فسالت أَودِيَة بِقَدرِهَا ... } فبحور الْعلم عِنْد الله أعْطى الرُّسُل مِنْهَا أَودِيَة ثمَّ أَعطَتْ الرُّسُل من أَوديتهَا الْعلمَاء أَنهَارًا ثمَّ أَعْطَتْ الْعلمَاء من انهارها الْعَامَّة جداول بِقدر طاقتهم وَالْمُنَاسِب أَن تقيّد الْعَامَّة بالمتفقهة وَيُقَال ثمَّ أَعْطَتْ المتفقهة من جداولها غيرهم سواقي وَسبب ذَلِك أَن الْعُقُول الضعيفة لَا تحْتَمل الْأَسْرَار القوية كَمَا لَا يبصر الخفاش نور الشَّمْس وَمِمَّا أخفاه الله تَعَالَى عَن خلقه رِضَاهُ عَنْهُم فَهُوَ وَإِن كَانَ فِي الطَّاعَة لَكِن الطَّاعَة الَّتِي يعلم الْعَبْد أَن الله يرضى عَنهُ بفعليها وَحدهَا غيب لَا يعلمهَا إلاّ من أطلعه الله عَلَيْهَا لئلاّ يحتقر الْمُكَلف مِنْهَا شَيْئا وَكَذَا غَضَبه عَلَيْهِم مخفي فِي مَعْصِيَته لذَلِك وَكَذَا ولَايَة الله تَعَالَى مخفية فِي خلقه قَالَ ابْن عَطاء الله أَوْلِيَاء الله الله قَلِيل من يعرفهُمْ قَالَ وَسمعت الشَّيْخ أَبَا الْعَبَّاس المرسي يَقُول معرفَة الْوَلِيّ أصعب من معرفَة الله تَعَالَى فَإِنَّهُ تَعَالَى مَعْرُوف بِكَمَالِهِ وجماله وَمَتى تعرف مخلوقا مثلك يَأْكُل كَمَا تَأْكُل وَيشْرب كَمَا تشرب؟ ! قَالَ وَإِذا أَرَادَ الله أَن يعرّفك بوليّ لَهُ طوى عَنْك وجود بشريته واشهدك وجود خُصُوصِيَّة انْتهى ، فوجود البشرية كالعيبة المشرجة على أمانتها وَهِي وجود الخصوصية المستورة بهَا وَحِكْمَة هَذَا الْإِخْفَاء حسن الظَّن بَين الْخلق وَهُوَ من أجل القربات وَالْمَقْصُود من هَذَا الْبَيْت أَن مَا أُخْفِي عَن الْعَالم الراسخ والعارف المكاشف أَكثر مِمَّا عرفه لِأَن كَا أحد إِنَّمَا يعلم مَا فتح الله بِهِ عَلَيْهِ وَالله تَعَالَى يَقُول {وَمَا أُوتِيتُمْ من الْعلم إِلَّا قَلِيلا} {وَللَّه غيب السَّمَوَات وَالْأَرْض وَإِلَيْهِ يرجع الْأَمر كُله ... } { ... وَلَا يحيطون بِشَيْء من علمه إلاّ بِمَا شَاءَ ... } فَإِذا ارتضى الله أحدا من خلقه أطلعه على بعض تِلْكَ الْأَسْرَار المغيبة اللدنيّة كَمَا قَالَ فِي حق الْخضر {وعلمناه من لدنا علما} وَفِي الْبَيْت الإيغال .

والرِّفــقُ يَــدُومُ لِصَــاحِبِهِ	وَالخِــرقُ يَصيــرُ إلى الهَــرَجِ([1])
فــإذا ضــاق أمــر فــاهتف	اشــتدي أزمــة تنفرجــي
صَــلوَاتُ اللهِ عَــلى المَهــدِيِّ	ألهــادِي النــاسِ إلي الــنَّهْجِ

١ - والرفق وَهُوَ التَّوَسُّط واللطافة فِي الْأَمر وَالْفِعْل من الأول رفق بِالْفَتْح وَمن الثَّانِي بِالْفَتْح وَالضَّم يَدُوم بِهِ الْعَمَل لصَاحبه والخرق بِفَتْح الْخَاء مصدر خرق بضَم الرَّاء وَيُقَال بِكَسْرِهَا ضد الرِّفْق وبضم الْخَاء اسْم للحاصل بِالْفِعْلِ يصير إِلَى الْهَرج بِإِسْكَان الرَّاء الْفِتْنَة وَكَثْرَة الْفساد وَبِفَتْحِهَا تحيّر الْبَصَر. لكنه على الأول فتحهَا أَيْضا للوزن وَهُوَ بالمعنيين كِنَايَة عَن انْقِطَاع الْفِعْل لِأَن الْفِتْنَة والتحيّر لَا يَدُوم مَعَهُمَا فعل أَي من سلك فِي كلّ مَا مرّ من المطالب العلمية والعملية الرِّفْق مَعَ النَّاس فِي تَحْصِيلهَا وَلم يجْهد نَفسه. دَامَت لَهُ فاستفاد وَأَفَاد وهدي واهتدى وَمن كلف نَفسه فَوق طاقتها وعامل النَّاس بصلابة الْجَانِب لم تدم لَهُ لجهله فضل وأضل وَمَا ذكره فِي الْبَيْت // (رَوَاهُ ابْن حبَان فِي صَحِيحه) // بِلَفْظ مَا كَانَ الرِّفْق فِي شَيْء قطّ إِلَّا زانه وَمَا كَانَ الْخرق وَفِي رِوَايَة الْفُحْش فِي شَيْء قطّ إِلَّا شانه وَإِن الله رَفِيق يحب الرِّفْق وروى الْبُخَارِيّ خبر إِن الله يحب الرِّفْق فِي الْأَمر كُله وَخبر إِن الدّين يسر وَلنْ يشاد الدّين أحد إِلَّا غَلبه فسددوا وقاربوا وَأَبْشِرُوا وَفِي الْبَيْت الْمُقَابلَة وَالْعقد هُوَ أَن ينظم نثرا قُرْآنًا أَو حَدِيثا أَو مثلا أَو غَيره لَا على وَجه الاقتباس وَالْفرق بَينهمَا أَن الاقتباس نظم قُرْآن أَو حَدِيث خَاصَّة بِلَفْظِهِ أَو بتغيير يسير وَلَا يُنَبه على أَنه مِنْهُمَا كَمَا مر بِخِلَاف الْعقد فِي جَمِيع ذَلِك وبراعة الختام وَهِي سهولة اللَّفْظ وَحسن السبك بِحَيْثُ يرتسم فِي النَّفس ويتلقاه السّمع ويستلذه وَيجْبر مَا وَقع فِيمَا سبق من التَّقْصِير إِن كَانَ وَلَا ريب أَن هَذَا الْبَيْت كَذَلِك وَهُوَ أَجود بَيت يحسن السُّكُوت عَلَيْهِ بل على كل مصراع مِنْهُ لتَضَمّنه مَا ورد فِي الْخَبَر كَمَا عرف وَلما فرغ من التَّنْبِيه على التصفية القلبية والتزكية النفسية وعَلى المقامات العلمية وَالْحكم النَّبَوِيَّة ختم ذَلِك بِالدُّعَاءِ للنَّبِي الْوَاضِع لتِلْك المسالك ولأصحابه الْأَرْبَعَة الْخُلَفَاء الحافظين طَرِيقَته الكاشفين لما أشكل من ذَلِك رَضِي الله عَنْهُم وَعَن سَائِر الصَّحَابَة فَقَالَ٣٦ - (صَلَوَاتُ اللهِ عَلَى المَهْدِيِّ ... الهَادِي النَّاسِ إِلى النَّهَج) صلوَات الله تَعَالَى جمع الصَّلَاة بِاعْتِبَار أَنْوَاعهَا وَهِي من الله رَحْمَة وَمن الْمَلَائِكَة اسْتِغْفَار وَمن الْآدَمِيّ تضرع وَدُعَاء كائنة على النَّبِي مُحَمَّد بن عبد الله بن عبد الْمطلب بن هَاشم واسْمه عَمْرو ابْن عبد منَاف بن قصي بن كلاب بن مرّة بن كَعْب ابْن لؤَي بن غَالب بن فهر بن مَالك بن النَّضر بن كنَانَة بن خُزَيْمَة ابْن مدركة ابْن إلْيَاس بن مُضر بن نزار بن معد بن عدنان الْمهْدي بِفَتْح الْمِيم أَي الرشيد الْمُوفق بِخلق الْهدى فِيهِ لوُجُوب عصمته الْهَادِي أَي المرشد النَّاس من الْإِنْس وَالْجِنّ بِالنّصب بالمفعولية وبالجر بِالْإِضَافَة إِلَى النهج بِفَتْح الْهَاء فِي لُغَة وَفِي لُغَة إسكانها أَي الطَّرِيق الْمُسْتَقيم قَالَ تعال {وَإِنَّك لتهدي إِلَى صِرَاط مُسْتَقِيم} أَي الدّين الشبيه فِي وضوحه وأمنه بالطَّرِيق الْوَاضِح فاستعير النهج فِي النّظم والصراط فِي الْآيَة لما أَتَى بِهِ النَّبِي من الدّين الْمُسْتَقيم وَالْجُمْلَة خبرية لفظا إنشائية معنى. عدل مِنْهَا إِلَيْهَا للْمُبَالَغَة فِي وُقُوع الصَّلَوَات فَكَأَنَّهَا ثَابِتَة أخبر عَنْهَا بالحصول وَكَانَ حَقه ذكر السَّلَام أَيْضا لِأَنَّهُ يكره إِفْرَاد الصَّلَاة عَنهُ وَبِالْعَكْسِ لعِلَّة ذكره لفظا وَفِي الْبَيْت شبه الازدواج وَشبه الجناس والتتميم والإيغال وتدبيج الِاشْتِرَاك وَهُوَ اشْتِرَاك المصراعين فِي كلمة وَاحِدَة وَهِي هُنَا الْمهْدي الْهَادِي لِأَن آخِره الأول مِنْهُمَا الْيَاء المدغمة وَأول الثَّانِي المدغم فِيهَا.

وَأَبِي بكــــــرٍ فِي سِــــــيرَتِهِ　　　　وَلِسَـــــانِ مَقَالَتِـــــهِ اللَهَـــجِ(١)

وَأَبِي حَفــــــصٍ وَكَرَامَتِــــــهِ　　　　فِي قِصـــــةِ ســـــارِيَةِ الخَلَـــجِ (٢)

وَأَبِي عَمــــــرٍ ذِي النُّــــــورَينِ　　　　المســـــتهدي المســـتَحيَا الـــبَهِجِ(٣)

---

١ - (وأَبِي بكْرٍ فِي سِيرَتِهِ ... وَلِسَانِ مَقَالَتِهِ اللَّهَجِ)وعَلى الإمَام أبي بكر وَهُوَ أفضل الصَّحَابَة واسْمه عبد الله بن أبي قُحَافَةَ عُثْمَان بن عَامر بنِ عَمْرو ابْن كَعْبِ بن سعد بن تيم بن مرّة الْقرشِي التَّيْمِيّ يلتقي مَعَ النَّبِي فِي مرّة وَيُقَال لَهُ عَتيق لعتاقة وَجهه أي جماله وَقيل أنه قَالَ فِيهِ من سره أن ينظر إِلَى عَتيق من النَّار فَلْيَنْظر إِلَى هَذَا وصديق لمبادرته إِلَى تَصْدِيق النَّبِي فِي جَمِيع مَا جَاءَ بِهِ فَهُوَ صَادِق فِي سيرته أي طَرِيقَته الَّتِي مِنْهَا مبادرته لِلْإِسْلَام مَعَ وجاهته ورياسته وَمِنْهَا إِنْفَاقه مَا أسلم عَلَيْهِ من مَاله وَهُوَ أَرْبَعُونَ ألفا فِي سَبِيل الله وعَلى نبيهوإعتاقه سَبْعَة مِمَّن كَانَ يعذب فِي ذَات الله كبلال وعامر بن فهَيْرَة وَفِي لِسَان مقَالَته اللهج بِكَسْر الْهَاء أي المثابر على الصدْق من لهج بِهِ يلهج لهجا مثل فَرح يفرح فَرحا وَفِي قَول لِسَانه فاللهج صفة اللِّسَان وَيجوز أن يكون صفة لأبي بكر وَبَالغ فِيمَا قَالَه فَجعل لِسَان قَوْله ظرفا للصدق فَلَا يَتَحَرَّك إِلَّا بِهِ كَمَا قَالَ إِن سيرته ظرف للصدق فَاسْتَوَى ظَاهره وباطنه لِأَن الْأَفْعَال والأقوال دَلَائِل السرائر وَذَلِكَ غَايَة الْكَمَال وَفِي هُنَا وَفِيمَا يَأْتِي للظرفية أَو للسَّبَبِيَّة أَو للمصاحبة وَفِي الْبَيْت التَّكْمِيل

٢ - (وَأَبِي حَفْصٍ وَكَرَامَتِهِ ... فِي قِصةِ سَارِيَةَ الخُلُجِ) وعَلى الإِمَام أبي حَفْص عمر بن الْخطاب بن نفَيْل بن عبد الْعُزَّى بن رَبَاح ابْن عبد الله بن قرط بن رزاح بن عدي بن كَعْب الْقرشِي الْعَدوي يلتقي مَعَ النَّبِي فِي كَعْب وكرامته أي الْمَعْرُوفَة الظَّاهِرَة. . إِذْ لَهُ كرامات أخر وَفِي نُسْخَة وفراسته فِي قصَّة سَارِيَة بن حصن أَو الْحصين أَو زنيم الديلمي من أَنه كَانَ يَوْم الْجُمُعَة يخْطب بِالْمَدِينَةِ فَرَأى الْعَسْكَر بنهاوند وَجعل يَصِيح يَا سَارِيَة الْجَبَل الْجَبَل فَصَعدَ سَارِيَة وجنده الْجَبَل وقاتلوا الْكفَّار وهزموهم وَكَتَبُوا بذلك إِلَى عمر رَضِي الله عَنهُ وجاءه البشير بعد شهر وأضاف سَارِيَة إِلَى الخلج بِضَم الْخَاء وَاللَّام قوم من الْعَرَب من عدوان فألحقهم عمر بن الْخطاب بِالْحَارِثِ ابْن مَالك بن النَّضر بن كنَانَة . وَسموا بذلك لأَنهم اختلجوا من عدوان أَي اقتطعوا قَالَه الْجلَال السُّيُوطِيّ رَحمَه الله تَعَالَى اختلجوا من عدوان وبفتحهما أَن يشتكي الرجل عِظَامه من عمل أَو طول مشي وتعب وبفتح الْخَاء وَكسر اللَّام المشتكي من ذَلِك تَنْبِيها على عظم الْأَمر وشدّة الكرب كَقَوْلِهِم فِي جد النَّبِي شيبَة الْحَمد لِكَثْرَة حمد النَّاس لَهُ بالأمور وَقَوْلهمْ فِي طَلْحَة الصَّحَابِيّ طَلْحَة الْخَيْر لِكَثْرَة خَيره وَيجوز جعله نعتاً لسارية وَإِن كَانَ مصدرا بِتَقْدِير فتح اللَّام لِأَن الْمصدر ينعَت بِهِ على الْمُبَالغَة أَو لتأويله بِالْوَصْفِ. . والكرامة أَمر خارق للْعَادَة على يَد ولي غير مُقَارن لدعوى النبوّة مِنْهُ وفيهَا تثبيت لَهُ وَلِهَذَا رُبمَا وجدهَا أهل البدايات فِي بدايتهم وفقدها أهل النهايات فِي نهايتهم لِأَن مَا هم عَلَيْهِ من الرسوخ والتمكن لَا يَحْتَاجُونَ مَعَه إِلَى تثبيت وَلذَلِك قل ظُهُورهَا على يَد السّلف الصَّالح من الصَّحَابَة وَالتَّابِعِينَ وَاعْلَم أَن الْأَمر الخارق للْعَادَة بِالنِّسْبَةِ إِلَى النَّبِي معْجزَة سَوَاء ظهر من قبله أم من قبل آحَاد أمته وبالنسبة إِلَى الْوَلِيّ كرامه لخلوه عَن دَعْوَى نبوة من ظهر ذَلِك من قبله وبالنسبة إِلَى غيرهمَا خذلان واستدراج وَالنَّبِيّ لابد من علمه بِأَنَّهُ نَبِي وَمن قَصده إِظْهَار الخوارق وَمن حكمه قطعا بِمُوجب المعجزات بِخِلَاف الْوَلِيّ وَصَاحب الْكَرَامَة لَا يسْتَأْنس بهَا بل يشْتَد خَوفه مَخَافَة أَن يكون ذَلِك استدراجاً والمستدرج يسْتَأْنس مِمَّا ظهر عَلَيْهِ وَعند ذَلِك يستحقر غَيره وينكر عَلَيْهِ وَيحصل لَهُ الْأَمْن من مكر الله وعقابه فَإِذا ظهر شَيْء من هَذِه الْأَحْوَال على من ظهر عَلَيْهِ ذَلِك دلّ على أَنه اسْتِدْرَاج لَا كَرَامَة وَلذَلِك قَالَ الْمُحَقِّقُونَ أَكثر مَا اتّفق من الِانْقِطَاع عَن حَضْرَة الرب إِنَّمَا وَقع فِي مقَام الكرامات وَلذَلِك كَانُوا يخَافُونَ مِنْهَا كَمَا يخَافُونَ من أَشد الْبلَاء وَفِي الْبَيْت التلميح من لمحه إِذا نظره وَهُوَ أَن يُشِير فِي الْكَلَام إِلَى قصَّة أَو شعر أَو مثل سَائِر من غير أَن يبين وَاحِدًا مِنْهَا فِيهِ كَمَا أَشَارَ إِلَى قصَّة سَارِيَة وَلم يبينها .

٣ - وعَلى الْأَمَام أبي عَمْرو وَيُقَال لَهُ أَبُو عبد الله وابو ليلى عُثْمَان بن عَفَّان بن أبي الْعَاصِ بن أُميَّة بن عبد شمس بن عبد منَاف بن قصيّ الْأمَوِي يلتقي مَعَ النَّبِي فِي عبد منَاف ذِي النورين لِأَنَّهُ تزوج بِنْتي النَّبِي رقية ثمَّ أم كُلْثُوم رَضِي الله عَنْهُمَا وَبعد مَوتهَا قَالَ لَهُ النَّبِي لَو كَانَ لي غَيرهَا لزوجتكها المستحي والمستحيا بِكَسْر يَاء أَحدهمَا وَفتح يَاء الْأُخْرَى لِأَن النَّبِي كَانَ جَالِسا بحافة بِئْر وَهُوَ مَكْشُوف الْفَخْذ فَدخل أَبُو بكر فَلم يغطّ فَخذه وَدخل عمر فَلم يغطّه وَدخل عُثْمَان فغطاه {وَقَالَ أَلا نستحي مِمَّن استحيت مِنْهُ الْمَلَائِكَة؟} // (رَوَاهُ البُخَارِيّ) // وَغَيره وَرُوِيَ أَنه قَالَ // (عُثْمَان أَحْيَا أمتِي وَأَكْرمهَا) // وَفِي نُسْخَة المستهدي المستحيي وَفِي أُخْرَى المستحيي المحي بِكَسْر يَاء الأول أَو فَتحه وَفتح يَاء الثَّانِي إِشَارَة إِلَى أَنه شَهِيد فَهُوَ حَيّ بِنَص الْقُرْآن

وَأَبِي حَسَـــــنٍ فِي العِلـــــمِ إذا   وافى بِسَـــــحائِبِهِ الخُلُـــــجِ(١)

وعـــلى الســـبطين وأمهـــا   وجميـــــع الآل بمنـــــــدرج

وصـــــحابتهم وقـــــرابتهم   وقفـــاة الأثـــر بـــلا عـــوج

وعـــلى تبّـــاعهم العلـــماء   بعــــوارف ديـــــنهم الـــــبهج

يـــارب بهـــم وبـــآليهم   عجـــل بالنصرـــ وبـــالفرج

وارحـــم يـــا أكـــرم مـــن رحـــم   عبـــدا عــــن بابـــك لم يعُـــج

واخــــتم عمـــلي بخواتمهـــا   لأكـــون غـــدا في الحشرـــ نجـــي

لكنـــي بجـــودك معـــترف   فاقبـــل بمعـــاذيري حججـــي(٢)

البهيج بالموحّدة أَي حسن الْخلق والخَلق قَالَ ابْن عبد البرّ كَانَ جميلاً طَوِيل اللِّحْيَة حسن الْوَجْه وَقَالَ فِي مَوضِع آخر كَانَ ربْعة حسن الْوَجْه رَقِيق الْبشرَة عَظِيم اللِّحْيَة أسمر اللَّوْن كَانَ يصفّر لحيته ويشد أَسْنَانه بِالذَّهَب! وَفِي نُسْخَة النّهج بالنُّون مَعَ نهج الطَّرِيق أَي وضح أَو من نهج وأنهج أَي بلي أَو من نهجت الطَّرِيق وأهجته أَي أوضحته فَيكون على الأول إِشَارَة إِلَى اشتهار فضل عُثْمَان ووضوحه كوضوح الطَّرِيق المسلوكة وعَلى الثَّانِي إِشَارَة إِلَى مَا أُصِيب بِهِ فِي ذَات الله تَعَالَى من انتهاك حرمته لِأَن بلَاء الثَّوْب إِنَّمَا يكون غَالِبا بقلة المبالاة فِي استِعْمَاله وعَلى الثَّالِث إِشَارَة إِلَى إيضاحه طَرِيق الْإِسْلَام لتمييز الْقُرْآن عَن غَيره وَجمعه لَهُ فِي الْمَصَاحِف وتوجيهها لأمصار الْمُسلمين وَفِي الْبَيْت الجناس المحرف .

١ - وعَلى الإِمَام أبي حسن عَليّ بن أبي طَالب واسْمه عبد منَاف بن عبد الْمطلب جد النَّبِي وَيُقَال لَهُ شيبَة الْحَمد كَمَا مرّ ابْن هَاشم بن عبد منَاف بن قصي الْقرشِي الْهَاشِمِي يفزع إِلَيْهِ فِي الْعلم إِذا وافى بسحائبه جمع سَحَابَة وَهِي الْغَيْم كَمَا مر الخلج بِضَم الْخَاء وَاللَّام جمع خلوج بِفَتْح الْخَاء السَّحَاب المتفرق وَيُقَال السحابة المتفردة الْكَثِيرَة المَاء استِعَار لأنواع علومه السحائب ورشّح هَذِه الِاسْتِعَارَة مُبَالغَة بالخلج أَي يفزع إِلَيْهِ فِي مشكلات الْعلم لتعليمه إِيَّاه إِذا أَتَى بِعُلُومِهِ الْكَثِيرَة النَّفْع للنَّاس فِي كل فن وكل نَاحيَة كالسحائب المتفرقة النافعة بِمَائِهَا وَقَامَ الْإِجْمَاع على غزارة علمه وَمَا احتجّ بِهِ من خبر أَنا دَار الْحِكْمَة وَفِي رِوَايَة مَدِينَة الْعلم وَعلي بَابهَا قَالَ التِّرْمِذِيّ إِنَّه مُنكر وَالنَّوَوِيّ إِنَّه بَاطِل لَكِن قَالَ الْحَافِظ أَبُو سعيد العلائي الصَّوَاب أَنه حسن بِاعْتِبَار طرقه وَبِه أفتى شَيخنَا حَافظ عصره الْعَسْقَلَانِي وَمن كَلِمَاته الغر تسع كَلِمَات . ثَلَاث فِي المناجات وَهِي كفاني فخراً أَن تكون لي رَبًّا وكفاني عزا أَن أكون لَك عبدا وَأَنت كَمَا أحب فَاجْعَلْنِي كَمَا أحب وَثَلَاث فِي الْحِكْمَة وَهِي قيمَة كل امْرِئ مَا يحسن وَمَا هلك امْرُؤ عرف قدر نَفسه والمرء مخبوء تَحت لِسَانه وَثَلَاث فِي الْأَدَب وَهِي استغن عَمَّن شِئْت فَأَنت نَظِيره وتفضّل على من شِئْت فَأَنت أميره واضرع لمن شِئْت فَأَنت أسيره فَهَذِهِ من مفاريد كَلِمَاته ليستدل بهَا على مَا لم نذكرهُ مِنْهَا وباء بسحائبه للمصاحبة مثلهَا فِي جَاءَ زيد بِعِلْمِهِ وبثيابه أَي ملابسا سحائبه وفضائل الْأَئِمَّة الْأَرْبَعَة مَذْكُورَة فِي محالها وَإِنَّمَا اقتصرت على مَا ذكر لكَون النَّاظِم أَشَارَ إِلَيْهِ وَفِي الْبَيْت التتميم والإيغال وَفِي نُسْخَة بدل الخلج البلج وَبعد ذَلِك(وصحابته وقرابته ... وقفاة الْأَثر على نهج)(وَإِذا بك ضَاقَ الذرع فَقل ... اشتدي أزمة تنفرجي).

الاستعارة المفردة

الاستعارة إما أن تكون للفظ ، وإما أن تكون لتركيب ، فإن استعرت لفظا مفردا ، سميت استعارة مفردة ، وإن استعرت تركيبا كاملا ، أو صورة كلية كانت الاستعارة مركبة .فالمفردة تكون للفظ المفرد الواحد ، حين تجعله بديلا عن اللفظ المراد ، وانت لا تستعيرهبكامل صفاته إنما تستعيره لصفته الأشهر فتستعير الغيث لصفة عموم الكرم ، وتستعير الأسد لصفته الأشهر الشجاعة وتستعير الظبي لصفته الأشهر الجمال الوادع ، وتستعير البدر لصفته الأشهر البهاء والنور ، إذا هذه الألفاظ إنما تستعار لتحل محل المشبه بذاتها في الاستعارة التصريحية ، أو بلازمها في الاستعارة المكنية .

أما الاستعارة المركبة فتكون للجملة ، أو الصورة ذات الأجزاء ، حيث تستعير صورة لصورة ، أو تركيبا لتركيب ، أو معنى كليا لمعنى كلي .

وإليك بعض النماذج لكل نوع ، **في قوله تعالى:-**

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُوا۟ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تِجَٰرَةً لَّن تَبُورَ ﴿٢٩﴾ ﴾ [سورة فاطر:٢٩]

حيث صورت الأعمال الصالحة ، – من تلاوة لكلام الله تعالى ، وصلاة ،ونفقة – على أنها تجارة ، مع وصفها بعدم البوار، وهذه الصورة صورة استعارية استعيرت فيها لفظة التجارة من عالم الأسواق ، والبيع والشراء ،إلى عالم الأعمال الصالحة على سبيل الاستعارة التصريحية ، وفي هذا من الدفع والترغيب ما فيه حيث ترى تعامل العبد مع ربّه بالأعمال الصالحة تُشْبِه التجارة الرابحة إذْ هُو ت

عَامُلٌ مضمون الرّبح، مأمون الخسارة ، فهو بمثابة التجارة التي لنْ تكسد ولن تخسر ولن تضيع.

وفي قوله تعالى :

﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ①﴾ [سورة الفتح:١]

استعيرت لفظة الفتح للنصر والتمكين ، مع أن الفتح في الأصل إزالة السد الحاجز دون المراد كجدار ، أو صخرة ، أو نحو ذلك لكنه استعير هنا للتمكين للإسلام ، ولذلك سميت جميع الانتصارات التي حققها المسلمون لتوصيل الدين فتوحات ، لأن غاية هذه الحروب التي خاضها المسلمون إنما هو توصيل الدين ، وإزالة العقبات التي كانت تحول دونه .

وقول الشاعر :

حيتك عنا شمال طاف طائفها بجنة نفحت روحا وريحانا

هبت سحيرا فناجى الغصن صاحبه سرا بها وتداعى الطير إعلانا

فالشاعر هنا شبه الشمال بالرسول حيث يحمل كل منهما الرسالة إلى الغير وكل من المشبه والمشبه به لفظ مفرد،وتحليل مثل هذه النماذج من الاستعارات وبيان ماذا حدث في الجملة التشبيهية حتى تحولت إلى جملة استعارية أمر مهم يجعل القارئ يدخل إلى عقل المتكلم ليتعرف على العملية التحويلية للمعنى التشبيهي ، وكيف انقلبت إلى صورة أخرى ، وهذه الصورة تبين عناصر الاستعارة الأساسية ، وكيف تحولت ، وهذا التحليل يطلق عليه إجراء الاستعارة ، **ولكي تتعرف على هذه الخطوات إليك الآتي .**

أولا : عليك أن تعيّن المشبه ، والمشبه به ، والعلاقة بينهما .

ثانيا : عليك أن تعين نوع الاستعارة ، ونوع القرينة ، وهل هي لفظية أو معنوية

ولنضرب لذلك مثلاً : **يقول ابن المعتز** :

جمع الحق لنا في إمام قتلَ البخلَ وأحيا السماحا

فقول الشاعر : (قتل البخل) أراد به أزاله ومحاه ، واستبدله بغيره من الجود والكرم ، لكن هذا المحو ، وتلك الإزالة عبر عنها بالقتل ، وكأن بين الممدوح وبين البخل ثأراً ، والذي يعنيني هنا تلك الصورة التي شبهت محو البخل بقتله ، فالمحو يشبه القتل ، **وعندما تجري الاستعارة تقول** :

أولا : شبه محو البخل بالقتل ، بجامع الإزالة.

ثانيا : استعار القتل للمحو ، على سبيل الاستعارة التصريحية التبعية .

وهذا الإجراء في (قتل البخل) يقال مثله في عبارة (أحيا السماحا) وفي **قول آخر** :

وإذا المنية أنشبت أظفارها ألفيت كل تميمة لا تنفع

حيث شبه الشاعر المنية بحيوان مفترس ، له أظفار قاتلة ، إذا غرستها في فريسة ، فاعلم أن الموت قد حل بها ، ولا ينفع مع هذا طب ، ولا دواء ، ثم حذف اسم هذا الحيوان ، ورمز إليه بجملة : أنشبت أظفارها ، وحين يحذف المشبه به فاعلم أن الاستعارة استعارة مكنية.

الاستعارة المركبة " التمثيلية "

ما مضى كانت الاستعارة فيه للفظ المفرد ، لكن أهل البلاغة تحدثوا عن الاستعارة للتركيب التام ، مكان تركيب آخر ، فكان من المهم الإشارة إليه وإفرادة بقسم خاص ، يسمى : الاستعارة التمثيلية .

وعرفوها فقالوا : (هي تركيب استُعمل في غير ما وضع له ، لعلاقة المشابهة مع قرينة مانعة من إرادة معناه الأصلي) ، فاللَّفْظُ المستعار فيها كلامٌ مركبٌ من عدّة ألفاظ مفردة ، وجملة لها معنى تام ، بحيث تشكل صورة كاملة مستعارة لصورة أخرى ، لوجود علاقة المشابهة بين المعنى الأصليّ ، والمعنى المستعار .

كما تقول :لكلِّ جوادٍ كبْوَة ، ولِكُلِّ صَارِمٍ نَبْوَة ، والمعنى أن الخطأ وارد والتعثر لا عيب فيه ، لأن من طبع البشر الخطأ ، ومن كبا فلا لوم عليه إنما اللوم على العناد والتمادي في الخطأ ، وكل هذه المعاني لا يمكن أن تكون من كلمة مفردة ، إنما هي من التركيب كله ، حيث استعير التركيب كله من عالم الخيول ، وجريها وكبوتها ثم قيامها لتواصل سيرها وعدوها ، إلى عالم الإنسان وأخطائه ، التي تعرض له أثناء المسير ، فالكبوة هناك يتبعها قيام ومتابعة وكذلك الخطأ ، أو السقوط في عالم الإنسان ينبغي ألا يوقفك ، وألا تكون سقطتك نهاية سيرك ، بل يجب عليك أن تواصل مشوارك ،وأن تتابع مقصودك حتى تحققه ، ولا تنس أن هذا مشروط بأن تكون جوادا ، أما ما دون الجياد فإنهم يُربطون حيث يراد بهم ، ومن أمثلة الاستعارة المركبة أيضا **قول المتنبي** :

ومـن يـك ذا فـم مـرٍّ مـريض   يجـد مـرًّا بـه المـاء الـزلالا

وهذه صورة مستعارة من عالم المرض إلى عالم الشعر وتذوقه ، فالمريض في فمه لا يمكنه تذوق الماء ولا استساغة الحلاوة ، كذلك من كان في فهمه عطب لا يستسيغ الشعر الجيد ،فالمتنبي شبه حال من يعيبون شعره ، بحال المريض الذي يشعر بمرارة الماء العذب ، لأن في فمه مرض ، فالسقم في الطرفين لكنه عند المريض سقم حقيقي ، وعند من يجهل الشعر الجيد سقم مجازي ثم استعار المتنبي سقم الفم الحقيقي للسقم المجازي على سبيل الاستعارة التمثيلية .

وكذلك الحال في قولهم : "أَعْطِ الْقَوْسَ بارِيها " حيث استعير هذا التركيب من عالم آلات الحرب وصنعها ، وتجويدها ، والاعتناء بها ، إلى عالم آخر يمثل إسناد كل صنعة إلى من يحسنها ، ويتقن حرفتها ، ويبدع فيها ، ويوم أن يسند الأمر إلى أهله وجدت التقدم ، والرقي ، ولقد جعل رسول الله ﷺ هذا الأمر من باب الأمانات ، ومخالفته تضييعاً لهذه الأمانات ، بل هي باب شر خطير يدفع إلى فساد العالم ، بل إلى قيام الساعة ، وهذه الاستعارة يستعملها الناس في مخاطباتهم وأمثالهم الدارجة، في فصيح الكلام العربي، وفي اللِّسان العامّي الَّذي يتخاطبُ عامَّةُ الناس به ، ومن ذلك قول الناس فيمن يتعب في غير فائدة : (يَنْفُخُ في غير فحم)و (ويصرخ في واد) و (وينادي في مالطة)...إلخ .

ومن نماذج الاستعارة التمثيلية قول الرسول ﷺ:

"لاَ يُلْدَغُ المؤمن من جُحْرٍ مرَّتَيْن"

فهذه العبارة النبوية ترى فيها صورة الرجل الذي أصيب مرة من مكان ثم يأخذ حذره حين يتعرض له مرة أخرى كي لا يصاب منه ثانية ، تماما مثل الرجل الذي لدغ من عقرب ، أو حية في جحر مرة ، فإذا مرَّ ثانية على هذا الجحر أخذ حذرة ، وتجنب الاقتراب منه كي لا يلدغ ثانية ، فالصورة صورة تحذير وتنبيه لكل من يتعرض للأذى من مكان واحد أكثر من مرة، **وفي قول الشاعر:**

يزدحم الناس على بابه والْمَشربُ الْعَذْبُ كَثيرُ الزِّحَام

تلحظ هذا البيت يستعمله كل كريم حين يتوافد الناس على بابه يرجون نواله ، وهباته ، فهو قول يستعمل على سبيل **"الاستعارة التمثيليّة"** ، لأنه شبه توافد الناس على بابه يرجون نواله ، ومقابلة ذلك منه بإعطائه كل من يرد فلا يرد طالباً ، ولاينهر سائلا ، أقول : شبه هذه الصورة بصورة المورد العذب من الماء الذي يزدحم عليه الناس ، فيأخذ كل منهم قدر طاقته ، ولا يبخل المورد على أحد ، ولا تظن أن الصورة في البيت صورة تشبيهية ، بل هي صورة استعارية ، لأن ازدحام الناس على الباب خالية من المراد ، وهو (المشرب العذب) لكن الجملة المستعارة في الشطر الثاني هي التي عللت للزحام في الشطر الأول ، وحولت الصورة من صورة تشبيهية إلى صورة استعارية على سبيل الاستعارة التمثيلية ،**وفي قول المتنبي:**

أُعِيـذُهَا نَظَـرَاتٍ مِنْـكَ صَـادِقَةً ... أَنْ تَحْسَبَ الشَّحْمَ فِيمَنْ شَـحْمُهُ وَرَمُ

ترى عبارة تُقال لِمَنْ ينخدع بظواهر الأمور ، ويظن أن فيها النفع ، فإذا تحقق وجد الأمر على خلاف ما يظن ، ويرى الخبث في المكان الذي يظنه الطهر ويرى المرض في المكان الذي يعتقده الصحة والسلامة ، فالصورة هنا صورة المرء الذي يرى ظواهر الأشياء ويحكم عليها من خلال هذه المظاهر ، فيكون حكمه خاطئا ، حيث يشبه تماما صورة من ينظر إلى ورم وانتفاخ أحد الناس فيظن أن ذلك ربيب النعمة ، وأن ما فيه نضرة النعيم ، ويا بعد ما بين الحالين والذي يجمع الصورتين المظاهر الخادعة ، والصور الموهمة ، ووقوع الناس في هذا الشرك ، وما أكثر هذا في زماننا .

وفي قول العرب "أَدْلِ دَلْوَكَ في الدِّلاَءِ" :

عبارة تقال لمن يستشار ، ويستفتى في أمر قال فيه الجميع رأيهم ، فهذا من الاستعارة التمثيلية لأنه لا يوجد دلْوٌ، ولا ترى بئرا ، فاستعير مشهد الدلو ووضع الأيادي فيه ، لمشهد الأمور المهمة التي تحتاج إلى رأي الجميع .

ويقولون أيضا :

"إِنَّ الحَدِيـدَ بِالْحَدِيـدِ يُفْلَـحُ"، ويقولـون : لا يفـل الحديـد إلا الحديـد " يريدون : تصوير الأمور الصعبة وصعوبة التعامل معها ، وأن ذلك لا بد فيه من الشدة ، فلا يمكن التعامل مع الشدائد إلا بما يناسبها ، وشأن الطبطبة لا يصلح في سياسة الناس ، فالناس لا ينصلحون إلا بالحزم والحسم ، والذي يضيع البلاد والعباد أن تتعامل مع الذئاب بمنطق راعي الغنم ، **وشبيه بهذا قول القائل :**

والجهل إن تلقه بالحلم ضـقت بـه زرعـا وإن تلقـه بالجهــل ينحســم

مما يعني أن الصورة التي معنا استعيرت من عالم الحديد ،لأنه أشد المعادن إلى عالم الأمور الشديدة القوية ،التي تحتاج إلى عزم متين ، وإذا كـان الحديـد لا يُقطَع بغير الحديد فإن الشدائد لا تعالج إلا بالشدائد .

وتقول العرب أيضا : عن كل إنسان يجَازى بعمله ، ولو بعد حين : "يَدَاكَ أَوْكَتَا وَفُوكَ نفخ".

أَوْكَتَا: أي: ربطتا فتحة القربة بالخيط الذي يقال له الوكاء ، و قوله : فـوك نفخ : أي فمك هو الذي ملأ القربة ، وأصل المثل في جماعـة أرادوا عبـور النهـر وكان مع كل واحد منهم قربة تحتاج إلى أنتملأ بالهواء حتى تحملـه إلى الشـاطيء الآخر ، فنفخ الجميع قربهم وأحكموا وكاءها ، وألقوا بأنفسهم في المـاء وعـبروا النهر لكن واحدا منهم أشرف على الغرق ، وأخذ يتهم الآخرين ويلقي علـيهم اللوم لفراغ قربته من الهواء أثناء العبور فما كان منهم إلا أن قالوا هذا المثل :

يداك أوكتا وفوك نفخ ، وهم يقصدون أن ما حـدث هـو نتـائج عملـك وثمرة صنعك ، وعاقبة أفعالك ، وما حل بك ليس إلا من عند نفسـك، وهـذه الصورة صورة اسـتعارية تقـال لكـل زارع شر ، ولكـل بـاذر شـوك ، فالعاقبـة وخيمة ، وثمار السوء لا يكون إلا سوءا ، ويجسد هذا المعنى **قول الله تعالى** :

﴿ لَّيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَآ أَمَانِيِّ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ ۗ مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا يُجْزَ بِهِۦ وَلَا يَجِدْ لَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿١٢٣﴾ ﴾ [سورة النساء:١٢٣]

وتقول العرب : (فلان حاطب ليل)حيث يستعيرون هذا التركيب لكـل إنسان ، ينقل مالا يعقل، ويكتب مالا يفهم ،ويرسل مالا يعلم ، **وتقول العرب أيضا:**

ومن ملك البلاد بغير حرب يهون عليه تسليم البلاد

" قبل الرماء تملأ الكنائن "

"قَبْلَ أَنْ ترفع بناءَكَ أَرْسِ أُسُسَه ودَعَائِمه".

"أَحَشَفاً وَسُوءَ كِيلَة".

"إنَّ الْبَغَاثَ بِأَرْضِنَا يَسْتَنْسِرُ".

"الصَّيْفَ ضَيَّعْتِ اللَّبَنَ".

"الصَّيْفَ ضَيَّعْتِ اللَّبَن" فسَارَتْ عبارتُه مثلاً.

"أَنْ تَسْمَعَ بِالْمُعَيْدِيّ خَيْرٌ مِنْ أَنْ تَرَاهُ".

وفي كلام ﷺ :"اِعْقِلْهَا وَتَوَكَّلْ".

وهذه الصور في البيان العربي كثيرة ،ولقد أفردت لها المجلدات ، ومن أراد المزيد فليرجع إلى كتب الأمثال

الاستعارة المطلقة والمجردة والمرشحة

تنقسم الاستعارة بالنظر إلى اقترانها بما يلائم المستعار منه **"وهو المشبه به"** أو المستعار له "وهو المشبّه" أو عدم اقترانها بشيء من ذلك إلى ثلاثة أقسام واقتران الاستعارة بهذا الملائم لأحد الأطراف يعكس صورة اتحاد المشبه بالمشبه به في ذهن المتكلم ، فإذا ارتبطت الصورة بما يلائم المشبه فهذا يعني أن الصورة أقرب إلى التشبيه منها إلى الاستعارة ، وإذا ارتبطت بما يلائم المشبه به فهي أدخل وأعمق في باب الاستعارة ، وكأن المتكلم يريدك أن تعرض عن التشبيه ، وأن تلتفت فقط إلى الاستعارة فلقد تحول الأمر بالكلية إلى عالم الاستعارة ، ولا مجال

هنا لأن تعود إلى عالم التشبيه ، وهذا بلا شك أعلى في التصـوير ، وأقـرب إلى الجمال ، لكن الأمر إذا لم يرتبط بواحد من الأمور التي تناسب هذا أو ذاك أو ارتبطت الصورة بما يناسب الطرفين ، فأنت على الحياد ، وإليـك الشـواهد التـي توضح لك القواعد :

١ - "الاسـتعارة الْمُطْلَقة".

وهي الاستعارة التي لم تقترن بشيء يلائم المستعار ، أو المستعار منه وقيل: هي ما اقترنت بها يلائم كلا منهما ، و**من ذلك قول الله تعالى** :

﴿إِنَّا لَمَّا طَغَا الْمَاءُ حَمَلْنَاكُمْ فِي الْجَارِيَةِ (١١)﴾ [سورة الحاقة:١١]

حيث جاء لفظ الطغيان ليرسم صورة التجـاوز ، والزيـادة الفائقـة للـماء تلك الزيادة التي فاقت الحدود ، فشبهت الزيادة بالطغيـان ، واسـتعير الطغيـان للزيادة على سبيل الاستعارة التصريحية التبعية ، ولفظ المـاء يقـف ليكـون قرينـة مانعة من المعنى الحقيقي ، والاسـتعارة هنـا لم تقـترن بشيـء يلائـم المسـعار أو المستعار منه ، لذلك فهي استعارة مطلقة ، **ومـن نماذجها قـول المتنبي لسـيف الدولة :**

يا بـدر ، يـا بحـر ، يـا غمامـة ، يـا ليـث الشرـى يـا حمـام ، يـا رجـل

حيث استعار (البـدر ، والبحـر ، والغمامـة ، وليـث الشرـى ، والحـمام) للممدوح ، والنداء قرينة مانعة من إرادة المعنى الحقيقـي ، ولم يصرـح في البيـت بصفة تلائم المشبه أو المشبه به ، حيث اقتصر على نداء اللفظ المستعار دون زيـادة **وفي قول الشاعر :**

قـــوم إذا الشرــ أبـــدى ناجزيـــه **طـــاروا إليـــه زرافـــات ووحـــدانا**

استعار الشاعر لفظة الشر للحيوان المفـترس ، الـذي يهجـم مكشرـا عـن أنيابه ، بعد أن وجد بين الشر والحيوان شبها كبـيرا ، فكـل مـنهما يصـيب هدفـه ويعمل فيه سهامه ، وأنيابه ، مما صـح معـه التشـبيه ، واسـتعارة أحـدهما مكـان الآخر ، ولم يذكر الشاعر شيئا يلائم المشبه أو المشبه به ، وهذا يجعـل الصـورة في دائرة الاستعارة المطلقة ، وهنا نماذج أخرى اقترنت فيها الاسـتعارة بـما يناسـب الطرفين ، وتعد أيضا من الاستعارة المطلقة ، **ومن ذلك قول جميل بثينة** :

رمتني بسهم ريشه الكحل لم يَضِر ظواهر جلـدي وهـو للقلـب جـارح

حيث شبه نظرتها إليه بالسهم الصائب للقلوب ، بجامع التأثير في الهـدف في كل ، واستعار السهم للنظرة القاتلة عـلى سـبيل الاسـتعارة التصرـيحية ولـو نظرت إلى الصورة لوجدت أن الشاعر ذكر فيها ما يناسب كلا من المشبه والمشبه به ، فالذي يناسب النظرة هـو قولـه " الكحـل " والـذي يناسـب السـهم قولـه "ريشه " فلما ذكرت قرائن تلائم المشبه والمشبه بـه ألحقـت الصـورة بالاسـتعارة المطلقة ولم تلحق بالمجردة ، ولا المرشحة ، ثم إن الشاعر نقلك بصورته مـن أول لفظة حين قال (رمتني) إلى عالم الميدان ، وأشعرك أنـه أمـام عـدو يرمـي ، ولا طاقة للشاعر بمجابهته إلا الدعاء عليه ، وهذا ما بدأ به في أول مقطوعتـه **حيـث قال** :

رمى الله، في عيني بثينـةَ، بالقـذى وفي الغـرِّ مـن أنيابهـا، بـالقوادحِ

رَمَتني بسهمٍ، ريشُهُ الكُحلُ، لم يَضِرْ- ظواهرَ جلدي، فهوَ في القلب جارحي
أَبُوءُ بذَنبي، انّني قد ظَلَمْتُها، وإني بباقي سِرّها غيرُ بائحِ

وراجع هذا الموقف ، ودعاءه عليها ، وقد استقبحه بعض النقاد ، لأنه لا يناسب مقام الغزل ، والعرب تستعمل هذه الصورة كثيرا ، أعني رمي الحبيب بعين الحبيب فيصيب فؤاده ، وكم من قتيل منذ القدم بهذه السهام ومن أولهم امرؤ القيس حيث يقول :

رَمَتْني بسَهْمٍ أصَابَ الفُؤادَ غَدَاةَ الرّحِيلِ فَلَمْ أنْتَصِرِ
فأسبَلَ دَمعي كَفَضّ الجُمَانِ أوالدرّ رقراقِه المنحدر

٢- الاستعارة المجردة :

وهي ما ذكر معها ما يلائم المشبه ، أو ما يلائم المستعار له ، وهذا الأمر يعد إضعافا لصورة الاستعارة ، وتقريبًا من الصورة التشبيهية ، أو بمعنى آخر تقربًا من المشبه ، والمعلوم سلفًا أن من مهام الاستعارة تناسي التشبيه ، أو تناسي المشبه ، ومن هنا فإن ذكر ما يتناسب مع المشبه يعيدنا إلى التشبيه ، ويباعدنا عن الاستعارة ، ومن نماذج ذلك قول الشاعر :

وَعَدَ البدر بالزيارة ليلا فإذا ما وفى قضيت نذوري

فالاستعارة هنا استعارة تصريحية أصلية ، حيث شبه المحبوب بالبدر فكل منهما جميل ، ثم استعار البدر للمحبوبة ، على سبيل الاستعارة التصريحية الأصلية ، وأتى بقرينة لفظية ، وهي كلمة : " وعد " لأن البدر لا يَعِد ، ثم ذكر ما يلائم المشبه ، وهو المحبوبة ، وذلك قوله : بالزيارة ، فالزيارة من خصائص المشبه ، وهذا يعيد الصورة خطوة إلى الخلف ، ويقربها من عالم التشبيه مع أنها

قد دخلت عالم الاستعارة ،وأطلق مصطلح التجريد على هذا النوع من الاستعارات ، لأنها جردت من المبالغة التي هي أخص سمات الاستعارة ، وإنما تكون المبالغة عند قوة الاتحاد ، وتناسي التشبيه بالكلية .

وفي القرآن الكريم نماذج لهذه الصورة كما في قوله تعالى:

﴿ وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ ٱللَّهِ فَأَذَٰقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلْجُوعِ وَٱلْخَوْفِ بِمَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ ﴾

[سورة النحل:١١٢]

حيث جاء قوله تعالى (لباس الجوع) فجعل من الجوع لباسا ، والمعنى فعذبها بالجوع ، وعذبها بالخوف فجعل الجوع والخوف لباسًا يحيط بهم كما يحيط اللباس بصاحبه ، وجعله هذا اللباس كالأطعمة التي تذاق ليكون العذاب دائما محسوسا ، غير غائب ، وأصل التشبيه أنه جعل العذاب كاللباس المحيط الدائم الذي لا ينفك عن صاحبه ، وقرن الصورة بما يلائم المستعار له وهو فأذاقها المعبر بها عن التعذيب ، فكان ذلك من قبيل التجريد وهو أبلغ من الترشيح هنا لأن ذكر ما يناسب المشبه يستحضر الألم الدائم بالجوع ، والذل المستمر بالخوف ولو قيل " فكساها " لكان ذلك ترشيحا ، ولما ناسب السياق .

٣- "الاستعارة المرشحة".

وهي الاستعارة التي اقترنت بما يلائم المستعار منه ، ومعنى مرشحة : أنها اقترنت بما يقويها ويرشحها ، وذلك لأن المشبه به هو العمدة في الصورة العربية

وهو الذي إذا ذكر في الاستعارة سميت استعارة تصريحية لأنها صرحت بالأقوى ، فإذا ذُكِر شيء يناسبه في الجملة الاستعارية سميت الاستعارة : مرشحة ،ومن نماذج هذه الاستعارة المرشحة **قول الله تعالى** :

﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشۡتَرَوُاْ ٱلضَّلَٰلَةَ بِٱلۡهُدَىٰ فَمَا رَبِحَت تِّجَٰرَتُهُمۡ وَمَا كَانُواْ مُهۡتَدِينَ ١٦ ﴾

[سورة البقرة:١٦]

فقوله " اشتروا " مستعار للاختيار والإيثار ، إيثار الضلالة على الهدى وقد ذكر مع هذه الاستعارة ما يناسب المشبه به ، أعني ما يناسب الشراء ، وهو قوله : ربحت تجارتهم " فربح التجارة يناسب قوله (اشتروا) ، ومن أمثلة الاستعارة المرشحة **أيضا قول الفرذدق** :

(إذَا مـا الـدَّهْرُ جَـرَّ عَـلى أُنـاسٍ كَلاكِلَـهُ أنـاخَ بآخَرينَـا)

(فقُـلْ لِلشَّـامِتينَ بِنـا أفيقُـوا سَـيَلْقَى الشَّـامِتونَ كـمَا لَقِينَـا)

حيث شبه الدهر بالجمل الذي يجر على قوم فيزيل ما بهم من نعم ، ويلين ويخضع للآخرين فيبقي عليهم النعم ويزيدها ، وحذف المشبه به ، ورمز إليه بقوله " كلاكله " وهو لفظ يلتصق بالجمل ، ويدل عليه ، ثم ذكر في الصورة ما يناسب المشبه به ، وهو جملة " أناخ بآخرين " لتلتحق هذه الصورة بالاستعارة المرشحة ، **وفي نموذج آخر يقول بشّار بن بُرْد:**

بعثْـتُ بِـذِكْرِهَا شِـعْرِي وقـدَّمتُ الهـوى شركـا

فلـمَّا شـاقها قـولي وشَـبَّ الحـبُّ فاحْتُنِكَـا

أَتَتْنِـي الشَّـمْسُ زائِـرَةً ولم تَـكُ تَـبْرَحُ الفَلَكَـا

تقــــول وقـــد خلـــوتُ بهـــا		تكلـــــم وأكفنـــــي يـــــدكا
وجــدْتُ العــيْشَ في "سُــعْدَى "		وكـــان العــــيْشُ قـــدْ هَلَكَـــا

شبه محبوبته بالشمس ، واستعار الشمس لها ثم جاء بالشطر الثاني كله ترشيحاً للاستعارة ، حيث أراد أنها لا تخرج من بيتها أبدا ، لكنها خرجت من أجله ، وكأن الشمس تركت فلكها وغيرت مسارها ، وفي هذا من العجب ما لا يخفى .والذي ينبغي أن تكون على ذكر منه أن النقاد القدماء رفعوا هذا النوع من الاستعارات فوق غيره ، وجعلوا الاستعارة المرشحة هي أجل أنواع الاستعارات ، حتى قال ابن حجة الحموي في خزانة الأدب : (والذي اتفق عليه علماء البديع أن الاستعارة المرشحة هي المقدمة في هذا الباب وليس فوق رتبتها في البديع رتبة)(١).

الاستعارة الوفاقية والاستعارة العنادية

إذا كان هناك من يغمز مثل هذه التقسيمات(٢)، ويرفع من شأن تقليل الأقسام في الأبواب البلاغية ، فإني أرى أن كثرة التقسيمات في ألوان البيان ، وفي الاستعارة خاصة لا تعاب ، – وإن كانت تعاب في علوم أخرى، أو أبواب أخرى – لأن كثرة التقسيمات في باب الاستعارة تكشف عن جوانب النفس التي أبانت ، وتفلسف للفكر الذي صور الصورة ، والتقط أطرافها ، وتحاول الكشف عن مذاقات كل صورة ، وحين قسّم البيانيُّون الاستعارة هذه

١ - ١/ ١١١.
٢ - من كلامهم في هذا (كثرة التقسيمات يحصل بها التشويش، ومعلوم أن التقسيم مقصوده في الأصل التسهيل، فإذا أكثرنا التفصيل انفرط العقد) انظر شرح العقيدة الطحاوية لخالد المصلح ص ١١.

التقسيمات إنما أرادوا ذلك ، فنظروا مثلا إلى إمكانية اجتماع الطرفين ، أو عدم إمكانية ذلك فقسموها إلى وفاقية وعنادية ، وأرادوا الكشف عما في ذهن البليغ حين صاد الصورة من عالمه الخاص ، وأن المستعار منه والمستعار له اجتمعا أولا في قلبه ثم استبدل أحدهما بالآخر ، وهذا يبرهن على الصدق الفني في رسم الصورة ، وفرق كبير بين أن ترى الناس يصورون فتصور على شاكلتهم ، وأن تعيش أنت التجربة ثم تعبر عنها ، وإمكانية اجتماع المستعار منه والمستعار له يرسم بعداً آخر ، وهو اقتراب الاستعارة بعض الشيء من عالم الواقع وحضورها كثيرا في لسان الناس ، ولذلك تراها أكثر من العنادية ، التي قد لا تجتمع إلا عند قائلها .**يقول السيوطي في عقود الجمان :**

إِلَى الْوِفَاقِيَّةِ أَنْ يَجْتَمِعَا ... فِي مُمْكِنٍ وَذِي الْعِنَادِ امْتَنَعَا

وإليك بعض التوضيح :

الاستعارة الوفاقيَّة :

وهي التي يمكن اجتماع طرفيها ، المستعار منه والمستعار له في شيءٍ واحد فالواحد من الناس يكون حيًا (الحياة الحسية) وحيًا بالإيمان بالله تعالى والقرآن عبر عن ذلك بقوله :

﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا ۚ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْكَٰفِرِينَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٢٢﴾﴾

[سورة الأنعام:١٢٢]

فجملة " أحييناه " لا تعني أن الموت الحسي كان قد سبق ، ولكنها تعني هنا : الكفر والضلال ، فالكفر والضلال موت ، فأحياه الله بالإيمان ،فاجتمعت حياته الحسية بحياته الإيمانية ، والعقل لا ينكر ذلك فكانت الاستعارة وفاقية بمعنى صحة اجتماع المعنى المستعار مع المعنى المستعار له في وقت واحد . **ومنه قول عتبة بن بجير الحارثي :**

ولقد سموت بهمتي وسما بها ... طلبي المكارم بالفعال الأفضل

لأنال مكرمة الحياة وربما ... عثر الزمان بذي الدهاء الأحول

فقوله (مكرمة الحياة) يعني بها حسن الذكر بين الناس ، أثناء الحياة وجعل بقاء الذكر حياة ، ولا شك أن الذكر الحسن ، والحياة الحسية يجتمعان في وقت واحد ، مما يعني أن المستعار منه ، وهو الحياة ، والمستعار له يجتمعان في وقت واحد ، وهذا من باب الاستعارة الوفاقية .

"الاستعارة العناديَّة".

وهي التي لا يمكن اجتماع طرفيها ، في شيء واحد ، أو في وقت واحد ومن ذلك ما جاء في الآية السابقة في قوله تعالى : (أومن كان ميتا) ففي قوله " ميتا " استعارة عنادية حيث شُبه الضلال بالموت ، فكل منهما لا يترتب عليه نفع ، ثم استعير الموت للضلال ، ثم اشتق من لفظة الموت التي تعني الضلال لفظة (ميتا) بمعنى ضالا بجامع ترتب نفي الانتفاع في كلٍ. واستعير الموت للضلال، واشتق من الموت بمعنى الضلال ، ميتا بمعنى ضالا ، ولما كان الموت

والضلال لا يجتمعان كانت الصورة صورة استعارة عنادية ، لأنك لا تطلق على الميت أنه ضال ، ولا يصح وصفه بذلك بعد الموت ، فالضلال صفة الحي مثل الهداية أيضا ، مما يعني أن اجتماع الضلال والموت غير ممكن ، فالاستعارة عنادية .

ومن ذلك أيضا قول عنترة:

وَسَيْفِي كَانَ فِي الْهَيْجَا طَبِيباً   يُدَاوِي رَأْسَ مَنْ يَشْكُو الصُّدَاعا

فعنترة استعار دواء الرأس لقطعها ، فشبه أولا قطع الرءوس بالدواء الناجع لها بجامع ترتب الراحة على كل ، ثم استعار الدواء للقطع ، وحين تنظر إلى قطع الرءوس تراه لا يجتمع بحال مع تداويها ، مما يعني أن الاستعارة عنادية ومن صور الاستعارة العنادية ما يطلق عليه : الاستعارة التهكمية ، ويراد بها استعارة اللفظ لضده ، أو تشبيه الشي ءبضده ، على معنى التهكم والسخرية ومن ذلك قول عمرو بن معدي كرب: "تَحِيَّةُ بَيْنِهِمْ ضَرْبٌ وَجِيعُ".

فقد استعار التحيَّة للإهانة ، واستعار مظاهر الاحتفاء لمظاهر الذل والاستهزاء ، وهما طرفان متعاندان متعاكسان ، يقصد المتكلم من ورائه السخرية ، كما تقول سلم عليه بالرفس ، واستقبله بالشتم ، وأكرمه بالضرب وبشره بالعذاب ... إلخ .

ومنه قوله تعالى :

﴿.... وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣٤﴾﴾ [سورة التوبة:٣٤]

حيث بشرهم مع أن السياق سياق تهديد وزجر ، بدلا من أن ينذرهم لكن الآيات أرادت أن تسخر منهم فبشرت بالعذاب ، وهي تعلم أنهم حين يسمعون (فبشرهم) سيزداد ألمهم ، وحسرتهم ، حيث زيد فوق العذاب تهكم واستهزاء .

ومن ذلك مخاطبة قوم شعيب له وقولهم كما حكى القرآن الكريم عنهم:

﴿ قَالُوا۟ يَٰشُعَيْبُ أَصَلَوٰتُكَ تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَآ أَوْ أَن نَّفْعَلَ فِىٓ أَمْوَٰلِنَا مَا نَشَٰٓؤُا۟ ۖ إِنَّكَ لَأَنتَ ٱلْحَلِيمُ ٱلرَّشِيدُ ﴿٨٧﴾ ﴾ [سورة هود:٨٧]

فقولهم (إنك لأنت الحليم الرشيد) جاء على سبيل الاستعارة التهكمية لأنه لو كان عندهم الحليم الرشيد لانتصحوا بنصائحه ، لكنهم عاندوه ، مما يعني أن قولهم هذا استهزاء وسخرية .

ومن ذلك أيضا قوله تعالى :

﴿ .... فَٱهْدُوهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْجَحِيمِ ﴿٢٣﴾ ﴾ [سورة الصافات:٢٣]

فالهداية تكون إلى النعيم ، أما الهداية إلى الجحيم فتهكم ، وسخرية والشباب في زماننا يستخدمون مثل هذه الاستعارة فيقولون لمن يريدون السخرية منه : خفيف ، أو ظريف ، أو ذكي ، أو شاطر .إلخ هذه الألفاظ التي يريدون ضدها .

فالاستعارة التهكمية في كل ذلك نُــزِّل فيها التضاد منزلة التناسب بسبب التهكم والسخرية .

أما الاستعارة التمليحية : فإنها على شاكلة التهكمية ، لكنك تريد من ورائها إشاعة البهجة ، واستنطاق من حولك بالضحكات ، مثل أن ترى قزما فتقول : جاء المارد ، أو تُنادي على عجوز بـ (ياصبية) أو تسمي البخيل حاتمًا ،ونحو ذلك مما يرسم على الشفاه البسمة ، فهذا الأسلوب يقال له الاستعارة التمليحية ، لأن فيها ملاحة وظرفا ، يقول أبو البقاء في الكليات (التمليح بتقديم الميم هو إتيان بما فيه ملاحة وظرافة ، يقال : ملح الشاعر إذا أتى بشعر مليح ، والفرق بينه وبين التهكم بحسب المقام فإن كان الغرض مجرد الملاحة والظرافة من غير قصد إلى استهزاء فتمليح وإلا فتهكم) (١).

الصورة الكلية للاستعارة

الذي سبق كله كان من النوع الذي امتلأت به كتب البلاغة والأدب والنقد ، لكن هناك صورا أخرى للاستعارة أراها أرفع قدرا ، وأعلى منزلة وأحرى بأن تدرس في حلقات الدرس العلمي ، وهي الصور الكلية للاستعارة وأعني بالصورة الكلية أن تتشعب أجزاء الصورة داخل النص الواحد ، فلا تستطيع اقتناصها إلا إذا أحطت بالنص كله ، واستحضرت أوله مع آخره وآخره مع أوله ، ورتبت الصورة ترتيبا كترتيب الأجزاء المتشعبة ، ونظرت إليها على أنها جسد واحد ، وإن تفرقت أعضاؤه في النص الكبير، حتى تنتهي إلى رسم الصورة الكلية كأنها لوحة متكاملة واضحة ، وإليك واحدة من هذه

---

١ - الكليات لأبي البقاء الكفومي ١ / ٤٦٢.

الصور الكلية ، **يقول عمرو بن معدي كرب في هجاء قيس بـن مكشـوح حين رفض دعوته للوفادة :**

١ – تمناني عَلى فَرَسٍ ... عَلَيهِ جالِساً أَسَدُه

٢ – عَليّ مَفاضَةٌ كَالنَهي ... أخلصَ ماءَه حَدَدُه

٣ – تردّ الرمحَ مَثني السِّـ ... ـنان عَوائِراً قِصَدُه

٤ – فَلَو لاقَيتَني لِلقيـ ... ـتَ لَيثاً فَوقَهُ لِبَدُه

٥ – تلاقي ضَيْغماً شَثْنَ الـ ... ـبَراثنِ ناشِزاً كَتِدُه

٦ – يُسامي القِرْنَ إِن قَر نٌ ... تَيمّمَه فَيعتَضِدُه

٧ – فَيَأخذه فيَرفَعُه ... فَيخفضُهُ فَيقتصده

٨ – فَيدمغه فيخطِمه ... فيخضِمه فَيزدرده

٩ – ظَلومُ الشركِ فيما أَحـ ... ـرَزت أَنيابُهُ وَيَدُه

ولقد رقمت لك الأبيات لتراجـع البيـت الأول ، ومـا يليـه وتعلـم أن الأبيـات الأول والثاني والثالث يرسم فيها الشاعر هيأة الأسد ، وقوته ومخالبـه ، ويرسـم المكان الذي ستدور فيه المعركة ، وهو غدير عليه حـاجز للـماء ، ويرسـم درعـه الواسعة ولينها مما يجعلها قابلـة لامتصـاص الطعنـات ، وهـذا التصـوير يهـيء المتلقي لاستقبال المشاهد العنيفة القادمة بين أسدين فاتكين ، ثم تنتقل إلى البيت الرابع الذي تبدأ فيه المعركة ، حيث تجد الصورة تنقلب من صورة متحركة إلى حركة الصورة ، فالصورة المتحركة ترصد لك المشاهد بداية من الأسد الممتطي صهوة الفرس وكتفيه ومخالبه ، فصورة الغدير والالتواءات التي علي الماء

مما يعطي صوتا لحركة الماء ، ثم تنقلك إلى حركة الصورة التي تثبت لـك مشـهدا واحدا يتحرك ، مشهد الأسدين ، وبداية الحركة مـن قولـه (قـرن تيممـه) وفي التيمم معنى القصد والتوجه إليه للنـزال ، فهـو البـادي ، وتلـك لفتـة تكسـب الشاعر معنى أخلاقيا أنه لا يعتدي على أحـد ، ولكـن إن قصـده معتـدٍ ، فعليـه تدور الدوائر ، ولاحظ هذه السرعة في الأخذ ، ففي الوقت الذي يريـد البـاغي البدأ في بغيه ترى سرعة هذا الأسد في المعركة (فيعتضده) أي يمسك بعضـديه وتتابع حركة الصورة ، فتجد خفضـا ورفعـا وعضـا ، فـدمغا فخطـما وتقطيعـا فازدراد ، وكل ذلك بحرف الفاء الذي يسرع بالحركة ، وبالفعل المضارع الـذي يصورها أمام عينيك ، بإيقاع متسارع ، لا يترك شيئا إلا ويرصده أثناء النزال مما جعل الأبيات لوحة فنية ، تكونت من أجزاء استعارية ،وكونت في الختام صورة كلية مبنية على الاستعارة .

والحديث عن الصورة الكلية يحتـاج إلى نـماذج كثـيرة ، حتـى يرسـخ في ذهن القاريء ، لأن الجمال البلاغي لايتبين إلا من خلال الصورة الكلية .

بلاغة الاستعارة

للاستعارة قيمة فنية عالية ، فهي الركن الثاني من أركان البيان ، وهي التطور الأعلى للصورة التشبيهية .

قال عنها الإمام عبد القاهر الجرجاني : (إنها تبرز البيان أبدا في صورة مستجدة تزيد قدره نبلا ، وتوجب له بعد الفضل فضلا ، وإنك لتجد اللفظة الواحدة قد اكتسبت فيها فوائد ، حتى تراها مكررة في مواضع ، ولها في كل واحد من تلك المواضع شأن مفرد ، وشرف منفرد ، إنها تعطيك الكثير من المعاني باليسير من اللفظ ،حتى تُخرج من الصدفة الواحدة عدة من الدرر وتجني من الغصن الواحد أنواعا من الثمر) ،وتحتل الاستعارة هذه المنزلة **لعدة أسباب** :

١ - الإيجاز الشديد :

فإذا كان التشبيه يوجز الكلام ، إلا أنه لا يرقى إلى حد في الإيجاز ، حيث يُحذف أحد أركانه ، ويُتناسى التشبيه ، وتتحول العبارة إلى عالم آخر غير عالم الطرفين ، فليس هناك إلا طرف واحد اتحد به الطرف الآخر ،**ففي قوله تعالى :**

﴿وَلِلَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴿٦﴾ إِذَا أُلْقُوا فِيهَا سَمِعُوا لَهَا شَهِيقًا وَهِيَ تَفُورُ ﴿٧﴾ تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ الْغَيْظِ كُلَّمَا أُلْقِيَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ ﴿٨﴾﴾ [سورة المُلك:٦-٨]

فالشهيق ، والفوران ، والتميّز من الغيظ ، كلها ألفاظ مستعارة لحالة الأصوات والحركات التي تصدر من النار ، فتنخلع لها القلوب ، حيث لا يمكن لأحد أن يتحمل ، ولو أنك حاولت أن تعبر عن هذه المعاني لقلت الكثير .

٢ – القوة في تصوير المعنى :

لأن الاستعارة تريد توصيل معنى الاتحاد بين المشبه والمشبه به ، فتضع هذا في صورة محسوسة ، وتجسده لك تجسيدا ، حتى تتعرف عليه من خلال حواسك الخمسة ، وهذا يعطيه قوة لا تراها في غيره ، **وانظر إلى قول الله تعالى :**

﴿ فَٱصۡدَعۡ بِمَا تُؤۡمَرُ.... ﴾ [سورة الحِجر:٩٤]

حيث أريد الجهر بالدعوة ، وإعلانها في الناس ، لكن التعبير عن هذا بالصدع وهو انشقاق الصخر ، وبروز ما بداخله أحال المعنى إلى شيء آخر حيث حمل قوة الظهور ، ووضوح الخارج من تحت الصدع ، كما يصور مدى الحاجز الذي انكسر وتهتك ، وكيف كان يكتم الحق .... إلخ ولذلك (ذكر أبو عبيدة أن أعرابيا سمع رجلا يقرأ " فاصدع بما تؤمر " فسجد ، وقال : سجدت لفصاحته وكأن موضع التأثير في هذه الجملة هو كلمة (اصدع) في إبانتها عن الدعوة ، والجهر بها ، والشجاعة فيها، كسر الحواجز دونها وكلمة " بما تؤمر " في إيجازها وجمعها) .

٣ – البيان والإيضاح :

وما سمي هذا العلم الذي تنتمي إليه الاستعارة إلا بهذا الاسم : علم البيان ، فالغرض الرئيس من أغراض الصورة البيانية هو الإيضاح ، وكشف الخطوط التي تتوارى في النفوس ، وهذه تراها في الاستعارة بعينك ، حتى إنها لتجسد لك المعنى تجسيدا ، واسمع – مثلا – **إلى قول الله تعالى:**

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُقَدِّمُواْ بَيۡنَ يَدَيِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٞ ١﴾ [سورة الحُجُرات:١]

حيث صور من يترك أوامر رسول الله – ﷺ – بهيئة من يتقدم عليه في المسير ، ومن يسبقه على الطريق ، وحين ترى هذا لا بد ان تنتفض لتعيده إلى الوراء ليكون تابعا ،لأن الذي يسير ويقود الصف هو رسول الله – ﷺ –يقول الخطيب القزويني :

(فإنه لما كان التقدم بين يدي الرجل خارجا عن صفة المتابع له صار النهي عن التقدم متعلقا باليدين مثلا للنهي عن ترك الاتباع .

وكذلك قوله تعالى: (والأرض جميعا قبضته يوم القيامة) إذ المعنى والله أعلم أن مثل الأرض في خضوعها ومن عليها لأمر الله تعالى مثل الشيء القليل الضعيف يكون في يد القوي الجبار ، فراجع هذا لتعرف حال الأرض ومن عليها يوم القيامة .

٤ – قدرتها على التأثير في النفوس :

فالوصول إلى التأثير البالغ في النفس هدف من أهداف البيان ، وهذا ما تفعله الاستعارة حيث تأسرك أسرا ، وراجع قول أريط بن أنيف ، وهو يلوم قومه بني تميم لخزلانهم له :

لو كنتُ من مازن لم تستبحْ إبلي ... بنو اللقيطة من ذهل بن شبانا

إذاً لقام بنصري معشرٌ خشنٌ ... عند الحفيظة إنْ ذو لوثة لانا

قومٌ إذا الشر أبدى ناجذيه لهم طاروا إليه زرافات ووحدانا
لا يسألون أخاهم حين يندُ بهم في النائبات على ما قال برهانا
لكنَّ قومي وإنْ كانوا ذوي عددٍ ليسوا من الشر في شيء وإنْ هانا
يجزون من ظلمْ هل الظلم مغفرةً ومن إساءة أهل السوء إحسانا
كأنَّ ربك لم يخلق لخشيته سواهم من جميع الناسِ إنسانا
فليت لي بهم قوماً إذا ركبوا شنوا الإغارة، فرسانا وركبانا

وانظر إلى هذا الشر الذي صوره في هيئة حيوان له نواجز يبديها عند الغضب ، وكأن قومه لا نواجز لهم ، ثم جعل سرعتهم سرعة الطيور ، وجريهم طيرانا ، لمقابلة العدو ، وليس عدوهم هم ، بل عدو جارهم ، اللائذ بهم ، وهذا يجعلك تعجب من نجدتهم.

٥ - تريك العالم الجديد :

فالاستعارة هي الفن الوحيد الذي ينقلك إلى عالم آخر ، مختلف عن عالمك ويريك النماذج الأخرى مما يعيشه المبدعون (كقولهم في استعارة الأعضاء لما ليس من الحيوان : رأسُ الأمرِ، رأسُ المال، وجهُ النَّار، عين الماءِ، حاجِبُ الشَّمس، أنفُ الجبل، أنفُ الباب، لِسانُ النَّارِ، رِيقُ المُزْنِ، يَدُ الدَّهرِ، جَناحُ الطَّريقِ ، كَبِدُ السَّماءِ، ساقُ الشَّجَرَةِ.

وكقولهم في التَّفرُّق: انْشَقَّتْ عَصاهُمْ، شالَت نَعامَتهم، مرُّوا بين سمع الأرض وبَصرِها ، فَسا بينَهم الظِّربان،وكقولهم في اشتداد الأمر: كَشَفَتِ الحَرْبُ عن ساقِها ، أبدى الشَّرُّ عن ناجِذَيه ، حَمِيَ الوَطيسُ، دارَتْ رحى الحَربُ.

وكقولهم في ذكر الآثار العُلويّة: افترَّ الصُبْحُ عن نواجِذَهُ ، ضَرَبَ بِعَمـوده سُلَّ سَيفُ الصُّبْحِ من غِمد الظّلام، نَعَرَ الصُّبحُ في قفا الليل بـاحَ الصُّـبحُ بِسرِّهِ وهي نطاق الجوزاء، انحَطَّ قِنْديلُ الثُّرَيَّا، ذَرَّ قَرْن الشَّمس/ ارتَفع النَّهار ترحَّلت الشَّمس، رَمَتِ الشَّمس بِجَمَرات الظَّهيرَةِ، بَقَـلَ وجـهُ النَّهـار ، خَفقَـتْ رايـاتُ الظَّلام، نَوَّرت حدائِقُ الجوِّ، شـابَ رأسُ الليـل، لَبِسَـت الشَّـمس جِلبابها قـام خَطيب الرَّعد، خَفَقَ قَلب البَرق، انحَلَّ عِقْدُ السَّماء، وَهَى عِقـد الأنـداد انْقَطَـعَ شِريان الغَمام، تَنفَّسَ الرَّبيع، تَعَطَّرَ النَّسيمُ، تَبَرَّجَت الأرضُ، قَوِيَ سلطان الحـرِّ، آنَ أن يَجيشَ مِرْجَلُهُ، ويثـورَ قَسْـطُلُه، انْحَسَرَ قِنـاع الصَّـيف، جاشَـت جُيـوشُ الخَريفِ، حَلَّت الشَّمس الميزان، وعَدَل الزَّمان، دبَّت عَقاربُ البردِ، أقدمَ الشِّـتاء بِكَلْكَلِه، شابَت مَفارِقُ الجِبالِ، يوم عبوسٌ قَمْطَرير، كشَّرَ عن نابِ الزَّمْهَرير.

وكقولهم في محاسن الكلام: الأدَبُ غِذاءُ الـرُّوح، الشَّـباب بـاكورَةُ الحَيـاةِ الشَّيب عنوان الموت، النَّار فاكهة الشِّتاء، العِيال سوسُ المال، النَّبيذُ كيمْياء الفَرَح الوحدة قَبر الحيِّ، الصَّبر مفْتـاحُ الفَـرَج، الـدَّين داء الكـرم، الـنَّمّام جسرُ الشرِّ الإرجافُ زَندُ الفِتنةِ، الشُّكرُ نسيمُ النَّعيم، الرَّبيع شـبابُ الزَّمـان، الولَـدُ رَيحانَـةُ الروحِ، الشَّمس قَطيفَةُ المساكين، الطِّيب لسانُ المُروءة)(١).

وتستطيع أن تقول : إن الاستعارة تزداد بهاءا ، وبلاغة ، حـين تتـوفر فيهـا الأمور الآتية :

- ❖ البعد بالذهن عن الصورة التشبيهية .

١ - كيف تعبر العرب عن المسميات لأبي مالك ، انظر أرشيف منتدى الفصيح ٢على شبكة النت .

- ❖ أن يكون مناط الجمع بين المستعار منه والمستعار له لطيفاً جديدا . وهو ما يعبر عنه بوجه الشبه .
- ❖ البعد عن الصور المتداولة على الألسنة ، والتي فقدت بريقها من كثرة الاستعمال .
- ❖ أن تكون الاستعارة ذات تفصيلات وتفريعات مبنيَّة عليها.
- ❖ أن تقترن بالترشيح الذي يقوِّيها .

المجاز المرسل

المجاز المرسل هو الوجه الآخر لاستعمال لفظ مكان لفظ ، دون أن يكون الرابط بين اللفظين تشابه ، ولاشك أن الاعلاقة بين الألفاظ ليست محصورة في التشابه ، فلكل لفظ عائلة ينتمي إليها ، ورابطة تشده إلى عائلته الكبيرة التي هو جزء منها ، ولكل لفظ زمان ، ومكان ، وسبب ، وماض ، ومستقبل إلى آخر هذه العائلة التي لا تكاد تنتهي ، وحين يرتبط اللفظ بواحد من هذه العائلة يسمى مجازاً مرسلاً ، **ويعرف البلاغيون المجاز المرسل فيقولون :**

هو اللّفظ المستعمل في غير ما وُضع له لعلاقة غير المشابهة ، مع قرينة مانعة من إرادة المعنى الحقيقي .

والعلاقات مادامت قد خرجت عن دائرة المشابهة فإنها كثيرة ، ولذلك سمي هذا المجاز (مرسلا) لأنه أطلق ، وفك من قيد المشابهة ، فكل علاقة مصححة لاستخدام لفظ مكان لفظ دون المشابهة فهي من قبيل المجاز المرسل والمقصودُ من العلاقة : ما يعبّر عنه أحياناً بالمُلاَبَسَة ، أو الارْتباط بين معنَيْين مما

يجيز إطلاق لفظ وإرادة آخر ، لغرض بلاغي ، والعلاقة تعني أن اللفظ المذكور هو الذي يوصلك إلى اللفظ المراد ، فاللفظ المراد لا يوجد في الجملة ، إنما الذي يوجد هو الوسيلة ، والطريق الذي يوصلك إليه ، فانظر إلى هذا اللفظ المذكور وتتبعه حتى يصل بك إلى اللفظ المراد ، لأنه إما أن يكون سببه الذي أوجده أو نتيجته التي انتهى إليها ، أو محله الذي وقع فيه ، أو حاله الذي كان عليه أو ما سيؤول إليه بعد حين من الوقت ، أوما كان عليه قبل الساعة .... إلخ.

المهم أن اللفظ الذي تقرأه في العبارة سيأخذ بيدك إلى اللفظ المراد ،ثم اعلم أن هذه الصلة بين اللفظين متنوعة ، ومتعددة ، لكنها غير المشابهة ، فلا تشابه بين معنى اللفظين ، وإلا صارت الصورة من قبيل الاستعارة ، وقد مر ذكرها واعلم أن اللفظ المذكور إنما أوثر بالظهور في العبارة دون اللفظ المراد لغاية لابد أن تقف عليها ، وعلة لا بد أن تستوثق منها وإلا صار العدول عن لفظ إلى لفظ آخر من قبيل اللغو ، وليس هذا في المجاز المرسل فقط ، بل في كل عدول عن لفظ إلى لفظ ، أو صياغة إلى صياغة أخرى ، والبليغ هو الذي يدرك قيمة هذا العدول حين يعرضه على السياق والمقام .

علاقات المجاز المرسل

١ - السببية :

وأعني بها أن يكون اللفظ المستعمل سببا مؤديا للفظ المراد ، فالعرب تستعمل لفظ (النكاح) ويريدون به : الوطء ، فجاء الإسلام واستعمل اللفظ في الزواج ، وقيل : عقد النكاح ، أي العقد الذي يزوج الرجل بالمرأة ، على

شريعة الإسلام ، والإسلام حين استعمل النكاح ، إنما أريد أنه السبب الشرعي للوطء ، فلفظ النكاح فيه مجاز مرسل علاقته السببية ، أي : أن النكاح هو السبب الشرعي للوطء ، وإلا عد من الزنا ، ومن إطلاق العرب النكاح على الوطء، **قول الفرزدق:**

وذات حليل أَنْكَحَتها رماحُنا حلال لمن يبنى بها لم تطلق

فالشاعر هنا يتحدث عن السبايا في الحروب ، ونكاحها بمعنى وطؤها بملك اليمين ، فاستعمل لفظ النكاح وأراد الوطء ، (وكان الفرزدق يجلس إلى الحَسن البَصريّ، وجرير يجلس إلى ابن سِيرين، لتباعد ما بين الرَّجلين، وكان موتُهما في عام واحد، وذلك سنة عشر ومائة. فبينما الفرزدق جالس عند الحَسن إذ جاءه رجل فقال: يا أبا سَعيد: إنّا نكون في هذه البُعوث والسرَّايا فنُصيب المرأة من العدوّ وهي ذاتُ زَوْج، أفتحلّ لنا من غير أن يُطلّقها زوجُها؟ قالت الفرزدق: قد قلتُ أنا في مثل هذا في شعري. قال له الحسن: وما قلت؟

قال: قلتُ:

وذات حَلِيل أَنكحْتها رماحُنا حَلالاً لمن يبني بها لم تُطلَقِ)[1]

ومنه قوله:

إذا سقى اللهَّ قومًا صوب غادية فلا سقى اللهَّ أهل الكوفة المطرا

التاركين على طهر نساءهم والناكحين بشطي دجلة البقرا

1 - العقد الفريد لابن عبد ربه ٢ / ٢٤٥.

ونكاح البقر على شاطئ دجلة لا يمكن أن يراد به العقد ، بل المراد به الوطء ، وعليه فلفظ النكاح مجاز مرسل حيث استعمل السبب للفظ المراد وهذا ما يطلق عليه : علاقة السببية .

ومن إطلاق السبب أيضا قول المتنبي :

لَهُ أَيَادٍ عليّ سَابِغَةٌ أَعُدُّ مِنْهَا وَلاَ أُعَدِّدُهَا

يريد له نعم كثيرة ، وهذه النعم إن طلب مني عدها لا أستطيع ، وكل ما يمكنني فعله أن أذكر منها بعضها ، أما إحصاؤها فلا أستطيع ، وهو يبالغ في كثرة هذه النعم ، لكنه ترك لفظ النعم ، واستخدم لفظ (الأيادي) والعرب تعرف ان النعم تصل إلى الناس من خلال الأيادي ، فهي السبب ، في وصول النعم للطالبين لها .

ومنه قول النبي – ﷺ – لنسائه حين سألنه عن أفضلهن عنده ،فقال :

" أسرعكن لحوقا بي أطولكن يدا " إذ ليس المراد طول الجارحة التي يتم بها الأخذ والعطاء ، فهذا مما لا تفاضل فيه ، وإنما أريد الصدقة ، وكثرة العطاء فأكثرهن عطاء ، وأكثرهن جُودًا هي الألحق برسول الله – ﷺ – وهذا من إطلاق السبب ، وإرادة المسبب ، فالعلاقة هي السببية .

ومنه ما رواه سيدنا أنس بن مالك رضي الله عنه قال :

(كانت الريح الشديدة إذا هبت عرف ذلك في وجه النبي) فقوله :

" عرف ذلك " أي : هبوبها ، أي أثره ، يعني : تغير وجهه وظهر فيه علامة الخوف ، والحاصل أنه أطلق السبب وأراد المسبب ، إذ الهبوب سبب

الخوف من أن يكون عذابا سلطه الله على أمته ، قيل : كان النبي ﷺ أن تصيبهم عقوبة ذنوب العامة كما أصاب الذين قالوا هذا عارض ممطرنا)(١).

ويقول شاعر من شدة ضجره بامرأته ، وتمنيه الموت لها :

(دِمَشْقُ خُذيهَا وَاعلَمي أنّ لَيْلَةً تَمُرُّ بِعُودَيْ نَعْشِها لَيْلَةُ القَدْرِ)
(أكَلْتُ دَماً إنْ لمْ أرُعْكِ بضَرّةٍ بَعيدَةِ مَهْوى القُرْطِ طَيِّبَةِ النَّشْرِ)

فالشاعر ينادي دمشق أن تعجل بتخليصه منها ،وأن أسعد لياليه ليلة يرى هذه المرأة محمولة على النعش ، ثم يقسم ، ويدعو على نفسه بفقد أعز الناس عليه إن لم يتزوج عليها ، ويتسبب في إضرارها بضرة ، أي زوجة ثانية جميلة طيبة الرائحة ،ومنه **أيضا قول الشاعر :**

ألا لا يجهلن أحد علينا فنجهل فوق جهل الجاهلين

حيث أراد بالجهل في الشطر الثاني الجزاء على الجهل الذي عومل به ، لأن الجهل الذي صدر منه سبب له ، ولاشك أن السبب له دور كبير في حصول المعنى ، وذكر السبب تعبيرا عن المسبب أمر مستقر في سوس النفس ، وحقيقة الطبع .

٢ – المسببية :

---

١ - عمدة القاري ١٠ / ٤٧٧.

وهي ان يكون المعنى الأصلي مسببا عن المعنى المقصود ، فيذكر المسبب ويراد السبب ، **ومن أمثلة ذلك قول الله تعالى :**

﴿ هُوَ ٱلَّذِى يُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُنَزِّلُ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ رِزْقًا ۚ وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَن يُنِيبُ ﴾ [سورة غافر:١٣]

فعبر عن الماء الذي ينزل من السماء بالرزق ، إذ هو مسبب عنه ، وكأن ما ينزل من السماء رزق مكتمل ، من طعام ولباس ، وغير ذلك ، لأن الماء يتحول إلى هذا الرزق ، ويدخل في تكوينه ، فما من طعام ، ولا لباس إلا والماء أصل فيه ومن هنا عبر عن الماء بالرزق ، وفي ذلك من الحكمة ما فيه ، لأن السياق سياق تعداد للنعم ، وهذا التعداد يحسن فيه التبشير ، فذكر الرزق تعجيلا بالبشر وإسراعا بالخير .

ومن ذلك قوله تعالى :

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلْيَتَٰمَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِى بُطُونِهِمْ نَارًا ۖ وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا ﴿١٠﴾ ﴾ [سورة النساء:١٠]

فأكل النار لا يتصور ، لكن أكل أموال اليتامى يؤدي إلى أكل النار، فأطلق لفظ النار وهي مسببة ونتيجة ، وأراد سببها وهو أكل أموال اليتامى ، وفي هذا التعبير من الزجر ما فيه ، لأن صورة آكل النار صورة منفرة جدا ، فاستخدمت هنا لصرف الظالمين عن أفعالهم .

ومنه قوله تعالى :

﴿ وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٖ سَيِّئَةٞ مِّثۡلُهَاۖ ..... ﴾ [سورة الشورى:٤٠]

فالسيئة الأولى حقيقة ، والسيئة الثانية يراد بها العقوبة والجزاء ، وأطلق عليها لفظ " سيئة " لأنها نتيجة ومسببة عن السيئة ،**ومنه قول الشاعر** :

شَرِبْتُ الإِثْمَ حتى ضَلَّ عَقْلي كذاكَ الإِثْمُ يَذْهَبُ بالعُقولِ

هو قد شرب الخمر ، لكن شرب الخمر يفضي إلى الوقوع في الإثم ، فكان الإثم مسببا عن الخمر ، والشاعر هنا ينفر من شرب الخمر لذلك استعمل اللفظ المنفر منها وهو الإثم ، وأتبعه بقوله (حتى ضل عقلي) لتكتمل صورة التنفير ولعلك تدرك الفرق بينه وبين من يطلقون على الخمر في أيامنا ألفاظا تقربها من النفوس ، وتضفي عليها سيماء الحسن ، فيروجون لها ، ويحببونها للناس !!.

٣ - الكلية :

وهي ذكر الكل وإرادة البعض،كما في قوله تعالى :

﴿ أَوۡ كَصَيِّبٖ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فِيهِ ظُلُمَٰتٞ وَرَعۡدٞ وَبَرۡقٞ يَجۡعَلُونَ أَصَٰبِعَهُمۡ فِيٓ ءَاذَانِهِم مِّنَ ٱلصَّوَٰعِقِ حَذَرَ ٱلۡمَوۡتِۚ وَٱللَّهُ مُحِيطُۢ بِٱلۡكَٰفِرِينَ ١٩ ﴾ [سورة البقرة:١٩]

أي: يجعلون أناملهم ، فذكر الأصابع ، وأريد الأنامل ، إذ لا يمكن إدخال الأصابع كلها في الأذن ، لكن التعبير بهذا اللفظ يوضح مدى الرغبة في إغلاق الآذان حتى لا يصل إليها الصوت الصاعق ، مما يشي بشدة الإعراض ودفع الأصوات عن الآذان .

ومن النماذج أيضا هنا ما جاء في الحديث القدسي ، وفيه (قِيلَ لأَبِى هُرَيْرَةَ إِنَّا نَكُونُ وَرَاءَ الإِمَامِ. – أي لا نستطيع قراءة الفاتحة – فَقَالَ اقْرَأْ بِهَا فِى نَفْسِكَ ، فَإِنِّى سَمِعْتُ رَسُولَ اللهَّ – ﷺ – يَقُولُ :

« قَالَ اللهَّ تَعَالَى قَسَمْتُ الصَّلاَةَ بَيْنِى وَبَيْنَ عَبْدِى نِصْفَيْنِ وَلِعَبْدِى مَا سَأَلَ فَإِذَا قَالَ الْعَبْدُ (**الْحَمْدُ للهَّ رَبِّ الْعَالَمِينَ**)قَالَ اللهَّ تَعَالَى : حَمِدَنِى عَبْدِى .

وَإِذَا قَالَ (**الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ**). قَالَ اللهَّ تَعَالَى : أَثْنَى عَلَىَّ عَبْدِى.

وَإِذَا قَالَ : (**مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ**). قَالَ : مَجَّدَنِى عَبْدِى – وَقَالَ مَرَّةً فَوَّضَ إِلَىَّ عَبْدِى – فَإِذَا قَالَ : (**إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ**). قَالَ : هَذَا بَيْنِى وَبَيْنَ عَبْدِى وَلِعَبْدِى مَا سَأَلَ.

فَإِذَا قَالَ (**اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلاَ الضَّالِّينَ**). قَالَ هَذَا لِعَبْدِى وَلِعَبْدِى مَا سَأَلَ ».) أخرجه الشيخان .

فلفظ الصلاة هنا أطلق ، وأريد به الفاتحة كما بيّن الحديث ، وجعلت الفاتحة هي الصلاة لأنها الركن الركين ، وعمود الصلاة ، وافتتاحها ، وتعلق القبول عليها ،ونظيره قوله تعالى " ولا تجهر بصلاتك " يعني : بقراءتك للقرآن الكريم .

ومنه قوله تعالى :

﴿ ....**يَضَعْنَ ثِيَابَهُنَّ** .... ﴾ [سورة النور: ٦٠]

فالثياب هنا لا تطلق على جميع ما يستر الجسد ، وإنما المراد وضع ما يلبس خارج المنزل ، ولا يؤثر خلعها على كشف العورة ، فأطلق الثياب على إطلاقها وأريد بعضها ، وهذا مجاز مرسل علاقته الكلية .

ومنه أيضا ما روته السيدة عائشة رضي الله عنها قالت :كان رسول الله ﷺ يكثر أن يقول في ركوعه وسجوده: سبحانك اللهم ربنا وبحمدك، اللهم اغفر لي، يتأول القرآن)].ولم لا وهو الذي كان خلقه القرآن ، يأتمر بأوامره ويجتنب نواهيه ، وهذا النص يشرح حاله ﷺ بعد أن نزلت صورة النصر ولفظة (القرآن) يقصد بها صورة النصر ، فأطلق الكل وأريد سورة واحدة .

ومنه أيضا ما رواه عبد اللهَّ بْنِ عَبَّاسٍ : أَنَّ رَسُولَ اللهَّ - ﷺ - رَأَى خَاتَمًا مِنْ ذَهَبٍ فِى يَدِ رَجُلٍ فَنَزَعَهُ فَطَرَحَهُ وَقَالَ :« يَعْمِدُ أَحَدُكُمْ إِلَى جَمْرَةٍ مِنْ نَارٍ فَيَجْعَلُهَا فِى يَدِهِ ». فَقِيلَ لِلرَّجُلِ بَعْدَ مَا ذَهَبَ رَسُولُ اللهَّ - ﷺ - : خُذْ خَاتَمَكَ انْتَفِعْ بِهِ. فَقَالَ : لاَ وَاللهَّ لاَ آخُذُهُ أَبَدًا ، وَقَدْ طَرَحَهُ رَسُولُ اللهَّ -صلى الله عليه وسلم-) أخرجه الشيخان.

فقوله : فيجعلها في يده ، يقصد (في أصبعه) لكن صورة الجمرة في اليد أشد زجرا ، وأقوى دلالة من التعبير بالأصبع ، لأن وضع الجمرة في اليد سيحرقها كلها ،وهذا المعنى لا تراه عند التعبير بالأصبع ، فاستعمل لفظ اليد ليكون أشد في الزجر ، وأريد الأصبع ، لعلاقة الكلية .

٤ - الجزئية :

وهي استعمال الجزء ، وإرادة الكل ، بمعنى أن يكون اللفظ المستعمل جزءا من المعنى المراد ، وذلك كما في قوله تعالى :

﴿ وَٱلَّذِينَ يُظَٰهِرُونَ مِن نِّسَآئِهِمۡ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُواْ فَتَحۡرِيرُ رَقَبَةٖ مِّن قَبۡلِ أَن يَتَمَآسَّاۚ ذَٰلِكُمۡ تُوعَظُونَ بِهِۦۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٞ ٣ ﴾ [سورة المجادلة:٣]

أي: فعتْقُ عبد أو أمة ، والمعروف أن العبد إذا أعتق أعتق كله ، لكنه عبر بالرقبة ، لأن الصورة القديمة للعبد تصوره وهو مربوط من رقبته ، ومقيد من عنقه ، فإذا حل القيد عن العنق فهذا إشارة للحرية ، وإمارة على العتق .

ومنه أيضا قول الله تعالى :

﴿ وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٖ فَبِمَا كَسَبَتۡ أَيۡدِيكُمۡ وَيَعۡفُواْ عَن كَثِيرٖ ٣٠ ﴾ [سورة الشورى:٣٠]

حيث أطلق لفظ الأيدي ، وأراد بها كسبتم ، لكن لما كان الكسب منوطا بالأيدي غالبا ، استعملت للكسب عامة **ومنه أيضا قول الشاعر** :

كم بعثنا الجيش جرا   را وأطلقنا العيونا

حيث استعمل لفظ " العيون " وأراد الجواسيس ، والعلاقة أن الجاسوس يستخدم عينه غالبا في معرفة الأخبار ، فكأن المرسَل عينٌ ، وليس إنسانا ،ومنه أيضا قوله تعالى:

﴿ ۞ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلۡوَٰلِدَيۡنِ إِحۡسَٰنًاۚ إِمَّا يَبۡلُغَنَّ عِندَكَ ٱلۡكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوۡ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفّٖ وَلَا تَنۡهَرۡهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوۡلٗا كَرِيمٗا ٢٣ ﴾

[سورة الإسراء:٢٣]

فلفظة " أف " تشمل كل ما فوقها ، فهي أقل لفظ يعبر عن التضجر فعبر به ليشمل ما فوقه .

ومنه قوله تعالى :

﴿لَعَلِّيٓ أَعۡمَلُ صَٰلِحٗا فِيمَا تَرَكۡتُۚ كَلَّآۚ إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَآئِلُهَاۖ وَمِن وَرَآئِهِم بَرۡزَخٌ إِلَىٰ يَوۡمِ يُبۡعَثُونَ ١٠٠﴾ [سورة المؤمنون:١٠٠]

فقوله : { إِنَّهَا كَلِمَةٌ } يراد بها الجملة السابقة ، وهي " رب ارجعون لعلي أعمل صالحا فيما تركت " وهذه ليست كلمة بل عبارة كبيرة ، لكن العرب تطلق الكلمة وتريد الكلام الكثير ، ولذلك جاء في حديث النبي ﷺ :

" أصدقُ كلمةٍ قالها شاعرٌ كلمةُ لبيدٍ » يريد قوله (ألا كلُّ شيءٍ ما خلا اللهَ باطِلُ) ،وكذلك قوله ﷺ : " إذا دخل أحدكم المسجد فليركع ركعتين " أي فليصل ، وهذا كثير مشهور في البيان ، فيقال ركع ركعتين ، أو سجد سجدتين ، والمقصود أنه صلى لله تعالى .

والناس تستخدم مثل هذه المجازات فيقولون :فلان عنده مائة رأس يقصدون مائة بقرة ، وفي الموقف توجد ثلاث عجلات ، والمقصود ثلاث سيارات ، وكل ذلك من باب المجاز المرسل .

٥ – اعتبار ماكان :

وهو تسمية الشيء بالنظرُ إلى الماضي ، أيْ تسميةُ الشيءِ باسم ما كانَ عليه نحو قوله تعالى :

﴿وَءَاتُواْ ٱلۡيَتَٰمَىٰٓ أَمۡوَٰلَهُمۡۖ....﴾ [سورة النساء:٢]

وكذلك قوله :

﴿وَٱبۡتَلُواْ ٱلۡيَتَٰمَىٰ ....﴾ [سورة النساء:٦]

أي الذين كانوا قبل ذلك يتامَى ثم كبروا ،فلا يتم بعد البلوغ وفي الشريعة الغراء أمر صريح بإعادة الأموال إلى الأولاد الذين بلغوا الرشد ليكون لهم وحدهم حق التصرف الكامل فيها ، ولما كانت النفوس تتململ من التخلي عن الأموال التي في حوزتها – حتى وإن لم تكن ملكا لها – ذُكِّرت هذه النفوس بأن الأموال أموال يتامى ، حتى تسارع بدفعها ، فذِكرُ لفظ (اليتامى) إنما هو من باب التحريض ، والإثارة حتى تمتثل ، فاليتامَى: مجازٌ مرسلٌ، علاقتُه (اعتبارُ ما كانَ) .

ومنه قوله تعالى:

﴿وَٱلَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَٰجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا .....﴾

[سورة البقرة:٢٣٤]

فلفظ الزوج لا يتصور بعد الموت ، لكن الآية عبرت به ، لما يحمله من معاني الوفاء الذي يتبعه انتظار المرأة في وقت العدة في حالة من الحزن الذي يتبعه المكث في البيت .

ومنه قوله تعالى :

﴿إِنَّهُۥ مَن يَأْتِ رَبَّهُۥ مُجْرِمًا فَإِنَّ لَهُۥ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ ﴿٧٤﴾﴾ [سورة طه:٧٤]

لأن يوم القيامة لا يقال لأحد إنه مجرم إلا باعتبار ماكان في الدنيا ، وذكر هذا اللفظ في هذا السياق ، كأنه تعليل لما سيلحقه من عذاب ، ودفعا لشفاعة من لا يعلمون من الخلق ، **ومنه قول إيليا أبي ماض:**

نسي الطين ساعة أنه طين حقير فصال تيها و عربد

و كسى الخزّ جسمه فتباهى ، وحوى المال كيسه فتمرّد
يا أخي لا تمل بوجهك عنّي ، ما أنا فحمة و لا أنت فرقد
أنت لم تصنع الحرير الذي تلبس و اللؤلؤ الذي تتقلّد
أنت لا تأكل النضار إذا جعت و لا تشرب الجمان المنضّد
أنت في البردة الموشّاة مثلي في كسائي الرديم تشقى و تسعد
لك في عالم النهار أماني ، ورؤى و الظلام فوقك ممتد
و لقلبي كما لقلبك أحلام حسان فإنّه غير جلمد

فالمقصود بالخطاب في كل هذا هو الإنسان الذي كان في يوم من الأيام طينا ، لكنه نسي . فلفظة الطين مجاز مرسل علاقته : اعتبار ما كان .

٦ – اعتبار ما يكون :

على العكس مما سبق تأتي هذه العلاقة ، حيث يعبر عن اللفظ بلفظ آخر يؤول إليه ، وكأن المتكلم ينظرُ إلى المستقبلِ، ومثال ذلك قول الله تعالى :

﴿ وَدَخَلَ مَعَهُ ٱلسِّجْنَ فَتَيَانِۖ قَالَ أَحَدُهُمَآ إِنِّيٓ أَرَىٰنِيٓ أَعْصِرُ خَمْرًاۖ .... ﴾

[سورة يوسف:٣٦]

أي: عنباً ، لأن الخمر لا يُعصر ، إنما يعصر العنب ، ثم يترك حتى يصير خمرا ، فقوله : (أعصر خمرا) استعمل لفظ الخمر وأريد ما سيصير إليه العنب لكنه قفز فوق الجملة وانتهى إلى الخمر ، ليوضح ما في نفس هذا السجين وقت العصر ، فهو لم يكن يعصر عنبا ، وإنما يعصر ما يكون خمرا ، ولفظة الخمر هنا

تعطي المفتاح لسيدنا يوسف ، لأن البيئة التي يكون فيها الخمر غالبا هي بيئة المترفين ، ولم يكن وقتها إلا قصر الملك ، فأول رؤياه أنه سيعصر ويقدم الخمر للملك .

ومنه أيضا قوله تعالى حكاية عن دعوة سيدنا نوح على قومه :

﴿.....وَلَا يَلِدُوٓاْ إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا ﴿٢٧﴾﴾ [سورة نوح:٢٧]

فالمولودُ حين يولدُ، لا يوصف بكفر ولا فسق ، لكنه لما عَلِم من الله تعالى ذلك ، صرح بأن هؤلاء سيكونون على هذه الشاكلة ، فاستدعى ما سيؤولون إليه ، فقال يلدون فاجرا ، ويلدون كُفَّاراً ، وهذا أدعى لاستجابة الدعاء .

ومنه أيضا قوله تعالى لنبيه ﷺ :

" إنك ميت ، وإنهم ميتون " فهذا كله على اعتبار ما سيكون ، لكن التعبير بما سيكون هنا غرضه انتزاع مالا يمكن دفعه ووضعه أما العيون لتراه وهذه لفتة تبين وجه التعبير بهذا على هذا النحو ، وإذا كان رسول الله ﷺ لا ينسى هذا ، ولا يعمل عملا يناقضه ، فإن الناس يعيشون على الأرض وكأنهم لا يموتون ، ويعملون الأعمال التي تظهر استشعارهم الخلود ، فكأن قوله : (إنك ميت) تمهيد لقوله (وإنهم ميتون) فهي المقصد من العبارة وهي العظة التي يراد توصيلها (إنكم ميتون) فاعملوا لذلك .

ومنه أيضا قوله تعالى :

﴿فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لَا تَخَفْ وَبَشَّرُوهُ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ (٢٨)﴾ [سورة الذاريات:٢٨]

فلفظة (عليم) فيها مجاز مرسل علاقته اعتبار ما سيكون ، لأن التبشير بالغلام شيء مستقل عن كون هذا الغلام سيكون في المستقبل عليما ، لكن الآية جعلت من البشرى بشرتين ، كونه سيرزق بغلام ، ثم سيكون عند الكبر عليما فاكتملت الفرحة بهذا .

٧ – الحالية :

وهي أن يعبر بالشيء ويراد المكان الذي يحل فيه ، أو إطلاق الحال وإرادة المحل ، ولا شك أن بين الأمرين ملازمة عقلية ، **ففي قوله تعالى :**

﴿وَأَمَّا الَّذِينَ ابْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ فَفِي رَحْمَةِ اللَّهِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (١٠٧)﴾

[سورة آل عمران:١٠٧]

المرادُ من (الرحمةِ) الجنةُ التي يحل فيها المؤمنون ،فهم يحلون حيث تحلُّ الرحمةُ ، ففي الكلام مجاز مرسلُ ، علاقتُه الحاليةُ ، ولك أن تتخيل المكان الذي تسكنه وقد تحول إلى رحمة ، فلا يؤذيك ، ولا يضايقك ، ولا تشعر فيه بملال .

ومن نماذج ذلك أيضا قوله تعالى :

﴿يَا بَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ﴾ [سورة الأعراف:٣١]

فالآية استعمل فيها لفظ " الزينة " ، وأريد بها محل الزينة وهي" الثياب " الجميلة الساترة للعورة ، وكذلك الحال في لفظ المسجد حيث قيل : " عند كل مسجد " والمراد عند كل صلاة ، فالأرض كلها مسجد وطهور .

ومنه قوله تعالى :

﴿إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ ﴿١٣﴾ وَإِنَّ ٱلْفُجَّارَ لَفِى جَحِيمٍ ﴿١٤﴾﴾ [سورة الانفطار:١٣-١٤]

فالنعيم حال أطلق ، وأوثر على اللفظ المقصود وهو الجنة ، لأن كل من في الجنه حاله النعيم ، والهناء ، والأريحية التي لا تعلوها متاع .

٨ - المحلية :

وهي التعبير بالمحل والمقصود من يحل فيه ، أو التعبير بالمكان ويُقصَد من ينزل في هذا المكان ، **وذلك نحو قول الله تعالى**

﴿ وَسْـَٔلِ ٱلْقَرْيَةَ :.... ﴾ [سورة يوسف:٨٢]

حيث أريد السؤال لأهل القرية ، وليس للقرية ، لكن لما كان المـراد اسـأل من تقابله فيها ، صغيرا كان أو كبيرا ، رجلا أو امرأة ، قيل اسأل القرية ليستشعر القارئ هذا العموم ، وليدخل إلى الذهن صدقهم .

وكذلك قوله تعالى :

﴿ فَلْيَدْعُ نَادِيَهُۥ ﴿١٧﴾﴾ [سورة العلق:١٧]

حيث إن الدعوة توجه للناس ، وليس للنادي ، فالنادي هو المحـل الـذي يتنادى إليه القوم ، فلما أريد دعوة كل من في النادي قيل : فليدع نادية،ومنه **وقل الشاعر :**

لا أركب البحر إني	**أخاف منه المعاطب**
طين أنا ، وهو ماء	**والطين في الماء ذائب**

فعبر الشاعر بركوب البحر ، وهو يقصد السفينة ، فالبحر محل ، والسفينة تحل فيه .

٩- الآلية :

وتعني : تسمية الشيء باسم آلته ، ومن نماذج ذلك قوله تعالى :

﴿ رَبِّ هَبْ لِي حُكْمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ ﴿٨٣﴾ وَاجْعَل لِّي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ ﴾

[سورة الشعراء:٨٤]

ولسان الصدق الذي يقصده سيدنا إبراهيم هو الذكر الطيب ، الذي ينتقل من جيل إلى جيل ، والسيرة الحسنة التي يتوارثها زمان بعد زمان ، وهذا الذكر ، وتلك السيرة تنتقل باللسان ، فهو الآلة التي تحمل الكلام ، فعبر بالآلة وأريد الكلام ومضامينه ، وسر البلاغة في هذا التشديد على أهمية تنقية اللسان من كل عيب حتى يصير لسان صدق ، **ومنه أيضا قوله تعالى :**

﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِ .... ﴾ [سورة إبراهيم:٤]

فقد ذكر اللسان وأريد اللغة التي يتكلم بها الرسول ، إذ لا بد أن تكون لغة الرسول هي لغة القوم الذين أرسل إليهم ، والعلة كما وضحت الآية " ليبين لهم " .

وكذلك قوله تعالى :

﴿ قَالُوا فَأْتُوا بِهِ عَلَىٰ أَعْيُنِ النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ ﴿٦١﴾ ﴾ [سورة الأنبياء:٦١]

فالأعين هنا يقصد بها رؤية الناس ومعاينتهم لما يجري ، فالمعنى : فأتوا به على مشهد من الناس ، وآلة المشاهدة هي العين فقيل : على أعين الناس " فلفظة (أعين) فيها مجاز مرسل علاقته الآلية .

١٠ – المجاورة :

وهذه العلاقة تبين مدى الارتباط بين الأشياء ، ووجة استعمال اللفظ لأنه يجاور أخاه ، في الوجود ومن ذلك قول عنترة :

(ولقد خَشِيتُ بأن أموتَ ولم تَدُرْ	لحرب دائرةٌ على ابنَيْ ضَمْضَم)
(الشَّاتِمَيْ عِرْضِي ولم أشتُمْهما	والنَّاذِرَيْنِ إذا لَمَ القهما دمي)
(ولقد شَفَى نفسي وأبرأ سُقْمَها	قِيل الفوارسِ وَيْكَ عنترُ فاقدُم)
(ما زِلتُ أرميهم بثُغْرة نَحْرِه	ولَبَانِه حتى تَسَرْبلَ بالدَّم)
(هَلاَّ سألتِ الخيلَ يابنةَ مالكٍ	إن كنتِ جاهلةً بما لم تَعْلَمي)
(يُخْبِرْكِ مَنْ شَهِد الوَقِيعةَ أَنَّني	أَغْشَى الوَغَى وأعفُّ عند المَغْنَم)
(يَدْعُون عَنْتَرَ والرِّماحُ كأنّها	أشْطانُ بئرٍ في لَبَان الأدهمِ)
(فشكَكْتُ بالرُّمح الطويلِ ثيابَه	ليس الكريمُ على القَنَا بمحرَّمِ)
(فإذا شَرِبتُ فإنني مستهلِكٌ	مالي وعِرْضِي وافرٌ لم يُكْلَم)
(وإذا صحوتُ فما أُقَصِّر عن نَدًى	وكما علمتِ شمائلي وتكرّمي)

فقوله " فشككت بالرمح الأصم ثيابه " استعمل الشاعر لفظ الثياب وأراد الجسد ، لأنه لا معنى يحمد في شق الثياب أثناء المعركة ، لكن عنترة استعمل هذا اللفظ وأراد ما يلاصقه من جسد ، وفي لفظ الثياب معنى القدرة والاختيال في الضرب ، كما تقول لمن يعاديك سأوذيك ، وأنت تريد سأقتلك وسآتي بيتك ، وأنت تريد اقتحامه ، وسأحضر إليك، وأنت تريد سأغزوك

فهذا كله تعبير بالمعنى الأول ، الذي يتحول إلى المعنى الثاني ، تماما مثل التعبير عن الجسد بالثياب .

١١ - الضّدِّية :

ومعناها إطلاق اللّفظ للدلالة به على ضدّ معناه ، ومن الأغراض الداعية لهذا الإِطلاق الاستهزاء والسخرية والتهكم، **مثل قوله تعالى** :

﴿ ذُقۡ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡكَرِيمُ ﴿٤٩﴾ ﴾ [سورة الدخان:٤٩]

فالمقصود إنك أنت الذليل المهان ، ومنه قول الله تعالى مخاطبا المشركين حيث كانوا يسألون الله الفتح ضدّ الرسول والذين آمنوا معه قبل موقعه بدر فجاء الأمر على خلاف ما طلبوا ، **فقيل لهم** :

"إِن تَسْتَفْتِحُواْ فَقَدْ جَآءَكُمُ الفتح "

أي: إنْ تسْتَنْصِرُوا باللهَّ على الرسول، فقد جاءكُمُ نَصْرُ- الله للرسول والمؤمنين ، فحلَّتْ بكُمُ الهزيمة ،فهذا من استعمال الضدّ للدلالة به على ضدّه.

بلاغة المجاز المرسل

تكمن قيمة المجاز المرسل في دلالاته الكثيرة التي تحملها العلاقات المتنوعة ، لكن المجاز المرسل لا يخلو من دلالات الصورة بوجه عام ،ومن أهم هذه الدلالات :(الإيجاز الشديد،والمبالغة في توكيد المعاني ، وكثرة الإيحاءات التي يحملها السياق والمقام) وإليك بعض الشواهد ؛ لتُخرج منها أنت المجاز المرسل وعلاقته **قال الله تعالى** :

﴿إِذْ دَخَلُوا۟ عَلَيْهِ فَقَالُوا۟ سَلَٰمًا قَالَ إِنَّا مِنكُمْ وَجِلُونَ ﴿٥٢﴾ قَالُوا۟ لَا تَوْجَلْ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَٰمٍ عَلِيمٍ ﴿٥٣﴾﴾ [سورة الحِجر:٥٣]

﴿....فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَٱعْتَدُوا۟ عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ ....﴾ [سورة البقرة:١٩٤]

﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَٰشِعَةٌ ﴿٢﴾ عَامِلَةٌ نَّاصِبَةٌ ﴿٣﴾ تَصْلَىٰ نَارًا حَامِيَةً ﴿٤﴾﴾ [سورة الغاشية:٤]

﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاعِمَةٌ ﴿٨﴾ لِّسَعْيِهَا رَاضِيَةٌ ﴿٩﴾ فِى جَنَّةٍ عَالِيَةٍ ﴿١٠﴾﴾ [سورة الغاشية:١٠]

﴿....لَهُۥ فِى ٱلدُّنْيَا خِزْىٌ ۖ وَنُذِيقُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ﴿٩﴾﴾ [سورة الحج:٩]

﴿ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿١٨٢﴾﴾

[سورة آل عمران:١٨٢]

﴿وَلْيَسْتَعْفِفِ ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا حَتَّىٰ يُغْنِيَهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ....﴾ [سورة النور:٣٣]

﴿وَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٣٥﴾ فَأَزَلَّهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ ۖ وَقُلْنَا ٱهْبِطُوا۟ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ۖ وَلَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٣٦﴾﴾

[سورة البقرة:٣٥-٣٦]

﴿وَقَالَ نُوحٌ رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ دَيَّارًا ﴿٢٦﴾ إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا۟ عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوٓا۟ إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا ﴿٢٧﴾﴾ [سورة نوح:٢٧]

• ومن الشعر :

كَفَـــى بِــــالْمَرْءِ عَيْبـــاً أَنْ تَـــرَاهُ   لَـــهُ وَجْـــهٌ ولَـــيْسَ لَـــهُ لِسَـــانُ
إِذَا نَـــزَلَ السَّـــمَاءَ بـــأَرْضِ قَـــوْمٍ   رَعَيْنَـــــاهُ وَإِنْ كَـــــانُوا غِضَـــــابَا
رَمَوْهَا بِـأَثْوابٍ خِفَـافٍ فَـلاَ تَـرَى   لَهَـــا شَـــبَهاً إِلاَّ النَّعَـــامَ الْمُنَفَّـــرَا
أَلاَ لاَ يَجْهَلَـــنْ أَحَـــد عَلَيْنَـــا   فَنَجْهَـــلَ فَـــوْقَ جَهْـــلِ الْجَاهِلِينَـــا
أَغَـــرَّك مِنّـــي أَنَّ حُبَّـــكِ قـــاتِلِي   وأَنَّـــكِ مَهْـــمَا تَـــأْمُرِي الْقَلْـــبَ يَفْعَـــلِ

الكناية

مدخل :

من أركان علم البيان الصورة الكنائية ، والكناية : من كنى عن الشيء بمعنى لم يصرح به ، يقولون :كَنَى عن الأَمر بغيره يَكني كِناية ، يعني : تكلم بغير لفظه الصريح ، وهذا كثير في كلام العرب ، حيث اعتادت العرب التكلّم بالشيءِ وإرادة غيره ، كما يُقَالُ: تَكنَّى إذَا تَسَتَّرَ ، مِنْ كَنَى عَنْهُ إذا وَرَّى ،... فأصل الكناية تَرْكُ التصريح بالشيء، وسَتْرُهُ بحجابٍ ما ، بصورة فيها إخفاءٌ ، أما الكناية في عرف البلاغيين **فهي :**

(لفظ أريد به لازم معناه ، مع جواز إرادة معناه حينئذ)

كقولك: فلان طويل النجاد ، أي طويل القامة ، وفلانة نؤوم الضحى أي مرفهة مخدومة.) ويرى الإمام عبد القاهر أن الكناية هي : ترك المعنى الصريح والتعبير بردفه وتاليه.

فلكل معنى سطحي معنى يليه ويتبعه ، وهو المعروف في النقد الحديث بالبنية العميقة والبنية السطحية ، فالبنية السطحية هي المعنى المعبر به أما المقصود والمراد فهو البنية العميقة ، وهذه إحدى سمات الأدب الرفيع الذي يبتعد عن التصريح ، ويأتيك من حيث لا تحتسب ، ولذلك قيل : الكناية أبلغ من التصريح " فلو قلت " فلان كريم " أتيت بالمعنى مجردًا عن التأثير والتأثير هو الأدب ، والفن والجمال والبراعة ... ، بل إن لغة العرب قائمة على وسائل التأثير ، ومن أعظم وسائل التأثير أن تأتي بالدليل على معناك الذي تريده ، فتقول في كرم فلان : " **فلان ناره مشتعلة** " ، أو كثير الصحون ، أو بيته

واسع ، أو غير ذلك من المعاني التي تدلل على الكرم ، وساعتها أنت قلت إنه كريم أيضا ، لكن ليس بصورة مجردة ، بل بالدليل الدامغ على مرادك ، فالمعاني التي ذكرتها تعني أنه كثير الطبخ ، وكثير الضيوف ، ولا يرد أحدا .... إلخ وكل هذا براهين على الكرم .

معنى ذلك أنك لو أردت أن تصف أحدا بصفة ما ، وسألك سائل : ما الدليل على ادعائك ؟

فجئت بالدليل كان ذلك أظهر وأبين ، وأجلى وأعلى من ذكر المعاني مجردة فإذا أردت أن تصف إنسانا بالقوة ، فقيل لك : مالدليل ؟ تقول : عضلاته مفتوله ، فهذه كناية عن قوته ، وتريد وصفه بالعزم .. فنقول: فنقول إذا سارَ لا يلتفت ، فهذه كناية عن عزمه ، وتريد أن تصفه بالحسن فتقول : تفتن به النساء .، فهذه كناية عن شدة حسنه ... وهكذا .

وانظر مثلا إلى قول الشاعر :

وتضحى فتيت المسك فوق فراشها نؤم الضحى لم تنتطق عن تفضل

حيث ترى الغنى مصاحبا للرقة والعذوبة ، والكسل المعهود في كل مخدومة ، حتى أنها تنام إلى الضحى ، فإذا قامت شممت من فراشها المسك ففي الصورة تتجلى مظاهر الغنى مصاحبة لمظاهر الجمال .

وفي قوله تعالى :

﴿وَتَحۡمِلُ أَثۡقَالَكُمۡ .....﴾ [سورة النحل:٧]

يفهم منه أن الأنعام تحمل الأثقال ، ومن بينها الناس ، فالمعنى : وتحملكم وتبلغكم أيضا ، فترك المعنى الصريح والمجيء بردفه ينقلك من المعنى إلى دليله فكأن الكناية تحدثك عن المعنى من خلال البرهان ، وتذكر لك المراد من خلال الدليل ، **لذلك قيل في بلاغتها** :

إنها تأتيك بالمعنى مصحوبا بالدليل ، فحين تريد التعبير عن كرم خالد فلا تقل خالد كريم ، ولكن قل : خالد بابه مفتوح دائما وهذا التعبير يحمل كرم خالد والدليل عليه ، لأن فتح الباب دائما يعني أن كل محتاج سيلج عليه دون بواب ، وسيفد عليه كل جائع ، ويدخل عليه كل سائل وهذا كله أدلة دامغة على كرمه ، فأنت تعبر عن الكرم بدليله ، وتصرح بالمراد من خلال برهانه وتقول : (فلانٌ ثَوْبُه طويل) فأنت مباشرة تصل من طول الثياب إلى طول القامة ، وحين تقول : (فلان لا يغلق بيته) ، فأنت تصل من معنى فتح الباب دائما إلى معنى الكرم ، بدون وسائط ، ولا صعوبة ، **وقولهم** :

(هذه الحسناء بعيدة مهوى القرط) كناية عن طول العنق ، فمهوى القرط، هو المسافة بين الكتف والأذن ، وطول هذا المسافة يفهم منه أن العنق طويل بلا حاجة إلي تأمل أو طول فكر ، وذلك لوضوح اللزوم ، بين طول المسافة بين الأذن، والكتف ، وطول العنق .

قرب الكناية وبعدها :

القرب والبعد لفظان التصقا بالكناية ، فالكناية القريبة يقصد بها القريبة من المعنى الصريح ، أي التي تلامس التصريح ، وسبب هذا القرب أن انتقالك من المعنى الملفوظ إلى المعنى المراد سريع ومباشر ، ولا صعوبة فيه ، فمثلا

في المثال السابق في قوله تعالى عن الأنعام :

" وتحمل أثقالكم " ودلالة هذه العبارة على أنها تحملهم أيضا ، لأنها ما دامت تحمل الأثقال فهي تحمل البشر أيضا ، وانتقال الذهن من حمل الأثقال إلى حمل الرجال انتقال سريع ، لأن قوله بعد ذلك (لم تكونوا بالغيه إلا بشق الأنفس). أفاد هذا المعنى صراحة .

فالكناية القريبة هي التي تتوصل إلى المعني المراد منها دون كد الذهن بكثرة الوسائط ، بل إنك ترى أكثر الناس يقفون عليها دون عنت ، كأن تفهم من وجود النعيم والعذاب يوم القيامة وجود البعث ، وأن تفهم من كثرة الضيفان كرم المضيف وتفهم من كثرة الجراح كثرة المعارك ،وهكذا .

وفي كلام العامة يقولون : (فلان يده طويلة) ، يقصدون أنه سارق (وفلان عينه فارغة) يقصدون أنه ينظر إلى كل النساء ،(وفلان لا يغبّر رجله) يقصدون أنه لايزور أحدا ، وكل هذه المعاني تعارف عليها الناس واقتربت من أفهامهم ، المهم أنك كلما توصلت إلى المعنى دون وسائط كثيرة قرُبت الكناية وسهل الوصول إلى مراد المتكلم .

وألحق بالكناية القريبة الكناية الخفية التي تحتاج إلى قليل من التأمل ، ومن ذلك قوله تعالى :

﴿وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِۦ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَىٰ مَآ أَنفَقَ فِيهَا وَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَيَقُولُ يَٰلَيْتَنِى لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّىٓ أَحَدًا ﴿٤٢﴾﴾ [سورة الكهف:٤٢]

حيث كان الانتقال بين المعنيين يحتاج إلي شيء من التفكير وبعض التأمل فتقليب الكفين كناية عن الحزن والندم ، والحسرة العميقة ، بعد أن تكبر واغتر بما تحت يديه من نعيم وخير ، ولم يخشع قلبه لمن وهبه هذا النعيم ، وأسبغ عليه العطاء ، فدمر الله جنته وعصف بزرعها وثمارها ، وجعلها أثراً بعد عين . وما أن أبصر ما حل به من كارثة فادحة تملكه الشعور بالحسرة والندم ، فقلب كفيه نادما والانتقال من هذا الفعل إلى فهم الحسرة والندم يحتاج إلى قليل من التأمل فهذا كله من الكناية القريبة ، أما إذا أعيتك اللوازم ، وكثرت عليك الطرق الموصلة ، واحتجت إلى كد الذهن لتصل إلى المراد ، فاعلم أنك أمام كناية بعيدة ومن ذلك المثال المشهور ، **وهو قولَ العبَاسِ بن الأحنف:**

سَأَطْلُبُ بُعْدَ الدَّارِ عَنْكُمْ لِتَقْرُبُوا وَتَسْكُبُ عَيْنَايَ الدُّمُوعَ لِتَجْمُدا

فالشاعر يريد أن يقترب بالبعاد ، وهذا غريب ، فالبعاد يولد الجفاء ويريد أن يسعد عن طريق استنفاذ ما في العين من دموع ، ونفاد الدموع دليل عن شدة الحزن ، وعظم المصيبة ، فالأسلوب التوى على الشاعر ، وفر المقصود من تحت يديه فلميحكم التعبير عنه ، ولو أنه أشار إلى هذا كما فعل الربيع بن خيثم حين صلى ليلةً حَتّى أصْبَح ، فقيل له : أَتْعَبْتَ نفْسَكَ.

فقال: " راحَتَهَا أَطْلُبُ " لكان أحسن وأجاد وقرب المعنى إلى سامعه وتوصل إلى الراحة من خلال التعب سريعا ، ودون تأويلات ، أو إن شئت قل : دون تمحلات ، ولي أعناق الكلام ليتوافق مع المراد .

إن التكلف في كل شيء مذموم ، والإغراب في كل أمر مكروه ، وأولى بالمبدع

إذا خانه التعبير أن يقول أخطأت بدلا من التمحل في التقدير ، ومن نماذج الكناية البعيدة ، وأنا أسميها (سقطة الشاعر) **قول أبي تمام** :

جَذَبتُ نَداهُ غدوة السَّبتِ جذْبةً   خرَّ صريعاً بين أيدِي القصائد

وما أقبح أن ترى الندى صريعا ، لأن الندى الصريع مذمة ، وليس مكرمة والشاعر أراد أن يمدح فذم .

فالكناية البعيدة هي الكناية الّتي تعددت الوسائط بين اللفظ والمعنى المراد فصعب على المخاطب الوصول إليه سريعا ، واحتاج الأمر إلى كثرة تأويلات حتى يتم الوصول إلى المراد ، وكثير من هذا في التعقيد المعنوي في باب الفصاحة فارجع إليه إن أردت المزيد في علم المعاني .

أقسام الكناية

قسّم البيانيُّون الكناية إلى :

١ - كناية عن صفة ، مثل قولك : " طويل النجاد " .

٢ - كناية عن موصوف، مثل قولك:"جاء القابض يده ، تعني : جاء البخيل .

٣ - كنَاية عن نسبة ، كقولك : " أينما حللت حل السخاء " تعني أنه سخي .

والحديث عن كل لون من هذه الألوان يتضح من خلال الشواهد وتحليلها .

الكناية عن الصفة :

وفيها يصرح المتكلم بالموصوف والنسبة ، ولا يصرح بالصفة ، **ومن ذلك قول الله تعالى :**

﴿ وَيَوْمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَـٰلَيْتَنِى ٱتَّخَذْتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلًا ﴿٢٧﴾ ﴾

[سورة الفرقان:٢٧]

فالموصوف في الآية هو الظالم ، والنسبة شاخصة في نسبة العض إليه ولكن ما الصفة التي يريد إثباتها ؟ إنها الندم الشديد ، المصور في هذه الصورة المعبرة ، صورة الرجل وهو قاضم على يديه حسرة .

وصورة أخرى تراها في قوله تعالى :

﴿ وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِۦ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَىٰ مَآ أَنفَقَ فِيهَا وَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَيَقُولُ يَـٰلَيْتَنِى لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّىٓ أَحَدًا ﴿٤٢﴾ ﴾ [سورة الكهف:٤٢]

فتقليب اليد ، بعد أن أحيط بثمره ، يجسد لك مفهوم الندم ، والذهول والمفاجأة ، وكل ما من شأنه أن يصف لك هذا الرجل بعد أن حل به ما حل .

ومن أروع الصور أيضا قوله تعالى :

﴿ وَلَمَّا سُقِطَ فِىٓ أَيْدِيهِمْ وَرَأَوْا۟ أَنَّهُمْ قَدْ ضَلُّوا۟ قَالُوا۟ لَئِن لَّمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا وَيَغْفِرْ لَنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَـٰسِرِينَ ﴿١٤٩﴾ ﴾ [سورة الأعراف:١٤٩]

حيث ترسم جملة " سقط في أيديهم " شدة الندم ، **يقول الزمخشري :**

(من شأن من اشتد ندمه وحزنه أن يعض يده غمّا فتصير يده مسقوطا فيها ، لأن فاه قد وقع فيها ، وقيل : من عادة النادم أن يطأطئ رأسه ، ويضع

ذقنه على يده معتمدا عليها ، ويصير على هيئةٍ لو نُزِعت لسقط على وجهه فكأن اليد مسقوط فيها)(١).

ومن نماذج الكناية عن صفة أيضا قوله تعالى :

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمۡۚ إِنَّ زَلۡزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَيۡءٌ عَظِيمٞ ١ يَوۡمَ تَرَوۡنَهَا تَذۡهَلُ كُلُّ مُرۡضِعَةٍ عَمَّآ أَرۡضَعَتۡ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمۡلٍ حَمۡلَهَا وَتَرَى ٱلنَّاسَ سُكَٰرَىٰ وَمَا هُم بِسُكَٰرَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ ٱللَّهِ شَدِيدٞ ٢﴾ [سورة الحج:١-٢٢]

وراجع هذا المشهد وما فيه من هول ، وانشغال كل إنسان بما قدم فالكناية هنا تصور لك حجم الفزع ،ووصوله إلى الأم الرءوم حيث تترك ساعتها وليدها من شدة الفزع ، **ومن نماذج الشعر قول الشاعر :**

وما يك فيّ من عيب فإني   جبان الكلب مهزول الفصيل

فقوله : جبان الكلب ، ومهزول الفصيل كنايتان عن صفة الجود ، لأن من عادة الكلاب النباح كلما رأت الأغراب ، فإذا كان الضيفان لا ينقطعون عن الدخول والخروج ، وَلَّد هذا اعتياد الكلب عليهم ، وصار البيت للجميع فأصبح النباح أنساً واعتيادا على الناس ، ومن أجل ذلك ترك النباح ، فعبر عن ترك النباح بالجبن ، ليصور معنى كثرة الضيفان ، واستمرار ولوجهم عليه ونشأ من وراء كل ذلك دلالة الكرم والجود ، وفي جملة **" مهزول الفصيل "** تسلسل في المعاني، لأن هزال الفصيل ناتج عن فقدان الأم التي ذُبحت للضيفان **ومن الشعر أيضا قول نصيب مادحا عبد العزيز بن مروان :**

---

١ - الكشاف ١/ ٢٣٤.

لعبـــد العزيـــز عـــلى قومـــه وغـــــيرهم مـــــنن ظـــــاهرة
فبابـــــك أســـــهل أبـــــوابهم ودارك مأهولـــــــة عـــــامرة
وكلبـــــك آنـــــس بالزائريـــــــ ــــن مـــن الأم بابنتهـــا الزائـــرة

ولعلك تلحظ ظاهرة جبن الكلب ، وأنسه بالزائرين في كثـير مـن الشـعر العربي ، وفي الصورة التي هنا مشهد آخر ، مشهد يصور سهولة البـاب ، وكثـرة المترددين عليه ، حتى آنسهم الكلب أنسا أشد من أنس الأم بابنتها الزائرة ، بعـد غيبة طويلة ، وقال آخر في شأن أنس الكلب بالزائرين ، **وتودده :**

يكاد إذا ما أبصرـ الضـيف مقبلا يكلمـــه مـــن حبـــه وهـــو أعجـــم

وكل هذه الصور أراد الشـعراء مـن خلالهـا الوصـول إلى كـرم الممـدوح ووجدوا في هذا الحارس الأمين مدخلا يتوصلون من خلاله إلى المدح ، لأنه أول من يقابلهم ، وآخر من يودعهم أثنـاء الزيـارة ، والـذهن متعلـق كثـيرا بأوائـل الأشياء وخواتيمها .

ومن استعمالات الناس للكناية قولهم : (فلان كبـير الـبطن) ، يقصـدون أنه يأكل المال الحرام ، ويقولون : (هو عـلى السرـير الأبـيض) ، يقصـدون أنـه مريض ،(وهو عريض القفا) أي: أنه غبي . وهو (نظيف اليد) يقصدون أنه لا يأكل الحرام ،**ومن نماذج الكناية عـن صـفة قـول المتنبـي في مـدح سـيف الدولـة الحمداني :**

وَإنْ يَكُ سيفَ دَوْلَةِ غيرِ قيسٍ ... فَمِنْهُ جُلُودُ قَيسٍ والثِّيابُ
وَتَحْتَ رَبَابِهِ نَبَتُوا وَأَثّوا ... وَفي أيّامِهِ كَثُرُوا وَطابُوا
وَتحتَ لِوائِهِ ضَرَبُوا الأعَادي ... وَذَلّ لهُمْ مِنَ العَرَبِ الصّعابُ
وَلَوْ غَيرُ الأميرِ غَزَا كِلاباً ... ثَنَاهُ عَنْ شُمُوسِهِمِ ضَبَابُ
وَلاقَى دونَ ثَأيِهِمِ طِعَاناً ... يُلاقي عِنْدَهُ الذّئْبَ الغُرابُ
وَخَيْلاً تَغْتَذي ريحَ المَوَامي ... وَيَكْفيها مِنَ المَاءِ السّرَابُ
وَلَكِنْ رَبُّهُمْ أسْرَى إلَيْهِمْ ... فَمَا نَفَعَ الوُقُوفُ وَلا الذّهابُ
وَلا لَيْلٌ أجَنّ وَلا نَهَارٌ ... وَلا خَيْلٌ حَمَلْنَ وَلا رِكَابُ
رَمَيْتَهُمُ ببَحْرٍ مِنْ حَديدٍ ... لَهُ في البَرّ خَلْفَهُمُ عُبَابُ
فَمَسّاهُمْ وَبُسْطُهُمُ حَريرٌ ... وَصَبّحَهُمْ وَبُسْطُهُمُ تُرَابُ
وَمَنْ في كَفّهِ مِنْهُمْ قَنَاةٌ ... كمَنْ في كَفّهِ مِنهُمْ خِضابُ
بَنُو قَتْلى أبِيكَ بأرْضِ نَجْدٍ ... وَمَنْ أبْقَى وَأبْقَتْهُ الحِرابُ
عَفَا عَنهُمْ وَأعْتَقَهُمْ صِغاراً ... وَفي أعناقِ أكثرِهمْ سِخابُ
وَكُلّكُمُ أتَى مَأتَى أبِيهِ ... وَكُلُّ فَعَالِ كُلّكُمُ عُجَابُ
كَذا فَلْيَسْرِ مَنْ طَلَبَ الأعادي ... وَمثلَ سُراكَ فَلْيَكُنِ الطِّلابُ

يقول أبو العلاء المعري في معجز أحمد : (وفاعل " مساهم وصبحهم "

ضمير البحر الذي هو الجيش.

يقول : أتاهم ليلاً جيشك ، وهم على فرش الديباج ، فأغار عليهم وسلب أموالهم ، فأصبحوا جلوساً على التراب، فصار فراشاً لهم !

وقيل: أراد أنهم انهزموا ، فتبدلوا بعد بسط الحرير ، الجلوس على التراب. وهذا قريب من الأول... قال ابن جني : أراد أن جيشه مسّاهم ، فقتلهم فأصبحوا وقد تزملوا بالتراب ، وصار بسطهم تراباً بعد ما كان حريراً)(١).

فالبيت الذي كتب بالمداد الغامق فيه كنايتان عن صفة ، الأولى وبُسْطُهُمُ حَرِيرٌ" ، وهي كناية عن أَنَّهُمْ كَانُوا في عزّةٍ وسيادة قبل الحرب وملاقاة العدو لأنهم قوم أثرياء أعزاء ينامون في السلم على الحرير .

أما قوله : "وبُسْطُهُم تُرَاب" فهي كناية عن حالة الذُّلّ والمهانة التي وصَلُوا إليها بعد أن حاربهم سيف الدولة بجيش جرار ، ففاجأهم وهم نيام ، فقلب بسطهم التي كانت حريرا ، قلبها إلى تراب ، حيث المهانة والذل في ساحات الوغى .

وهناك كنايتان في البيت الذي يليه لكنهما كنايتان عن موصوف ،لأنه شبه الرجال منهم بالنساء التي تضع الخضاب ، فكنَّى عن النساء بالوصف الذي يتصف به عادة نساء عصره، وكنَّى عن الرّجال بالوصف الخاصّ بهم

---

١ - معجز أحمد لأبي العلاء المعري ،١/ ٣٢٠ وكان المعري كان يسمي ديوان المتنبي بهذا الاسم، أي (معجز أحمد) قال: (وكان إذا خلا ممن لا يوثق إليه قال: ناولوني معجز أحمد، يعني ديوان أبي الطيب، وإذا كان في غير الخلوة يقول: الشاعر). قال ابن خلكان بعد كلامه على اللامع العزيزي: (واختصر ديوان أبي تمام وشرحه وسماه (ذكرى حبيب) وديوان البحتري وسماه (عبث الوليد) وديوان المتنبي وسماه (معجز أحمد) راجع بطاقة الكتاب لزهير ظاظا على الشاملة.

وهو الحرب ، والإمساك بالحراب دائما .

ومن نماذج الكناية عن صفة ما أبدعته الخنساء في أخيها صخر ، وجاء في قصيدتها ما يلي :

وإنّ صَخراً لَوالِينا وسيِّدُنا — وإنّ صَخْراً إذا نَشْتو لَنَحّارُ
وإنّ صَخْراً لِمقْدامٌ إذا رَكِبوا — وإنّ صَخْراً إذا جاعوا لَعَقّارُ
إنّ صَخراً لتَأتَمّ الهُداةُ بِهِ — كَأنّهُ عَلَمٌ في رأسِهِ نارُ
جلدٌ جميلُ المحيَّا كاملٌ ورعٌ — وَللحروبِ غداةَ الرَّوعِ مسعارُ
حَمّالُ ألوِيَةٍ هَبّاطُ أودِيَةٍ — شَهّادُ أنْدِيَةٍ للجَيشِ جَرّارُ
فقلتُ لما رأيتُ الدّهرَ ليسَ لَهُ — معاتبٌ وحدهُ يسدي وَنيَّارُ
لقدْ نعى ابنُ نهيكٍ لي اخاً ثقة — كانتْ ترجَّمُ عنهُ قبلُ اخبارُ
فبتُّ ساهرةً للنَّجمِ ارقبهُ — حتى أتى دونَ غَورِ النّجمِ أستارُ
لم تَرَهُ جارَةٌ يَمشي بساحَتِها — لريبةٍ حينَ يخلِي بيتهُ الجارُ

فقولها :(حمال ألوية كناية عن قيادته للجيوش) فحامل اللواء هو القائد الذي يتبعه الآخرون ، وقد يكون كناية عن الشجاعة والجراءة ، لأن حامل اللواء مطمع كل أحد من الأعداء ، ولا يقبل حمل اللواء إلا من أيقن القتل وفي قولها (هباط أندية) كناية أخرى شجاعته الفائقة حيث ينازل كل داع إلى المبارزة ، والعرب كانت تبدأ حروبها بالمبارزة في الأودية قبل التقاء الجيشين

وكان لا يقوم إلى المبارزة إلا أشجع الرجال في الفريقين ، وفي قولها (شهاد أندية) كناية عن صفة أخرى في السياق نفسه ، وهي صفة علو الشأن في قومه ، حيث يشهد اجتماعاتهم التي يقررون فيها الحرب ، ويشهد كذلك اجتماعاتهم التي تتخذ فيها القرارات المصيرية ، ولا يشهد مثل هذه الأندية إلا علية القوم ، ثم الكناية الأخيرة في البيت وهي قولها : (للجيش جرار) أي أنه متبوع ، وليس تابعا ، مسموع الكلمة وليس سامعا ، دائما في الأمام والناس من خلفه ، يقود الجيوش ، ويصرفها حيث يرى ، ويذهب بها يمينا وشمالا كما يفعل الجرار للقاطرة ، وكما يفعل الإمام بالمأمومين . وكل هذه الكنايات كنايات عن صفة تصور فيها الخنساء منزلة أخيها صخر بين قومه ، وبخاصة في حالات الحرب .

الكناية عن موصوف :

وهي التي تذكر فيها الصفة و النسبة ، ويكنى عن الموصوف ، فلا يذكر في الكلام ، وعلى القارئ أن يحدده من خلال الكلام ، ومثال ذلك قول الله تعالى :

﴿ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَٰنِ مَثَلًا ظَلَّ وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴿١٧﴾ ﴾

[سورة الزُّخرُف:١٧]

فالآية كنَّت عن الأنثى بجملتين وهما " بما ضرب للرحمن مثلا " ، حيث نسبوا لله تعالى الإناث ، ثم جملة " من يُنَشَّأ في الحلية " والحلية سَمتُ النساء وعالمهن ، ولا يخفى ما في الجملتين من إشارات الضعف ، والدعة ، وانتقاص القدر في عيون الجاهليين عن الرجل.

ومن النماذج أيضا قوله تعالى : " وحملناه على ذات ألواح ودسر " كناية عن السفينة ، حيث تتكون من الألواح والمسامير ، وفي اصطفاء لألواح والدسر ما يشير إلى ضعفها ، وهوان شأنها مما يوحي بأن يد القدرة هي التي حملت وهي التي حفظت .

ومنه قوله تعالى في آية الدين :

﴿.....**وَلَا يَأْبَ كَاتِبٌ أَن يَكْتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ ٱللَّهُ** .....﴾ [سورة البقرة:٢٨٢]

فالمعنى : (يكتب ما يعتقده ، ولا يحجب ، ولا يواري ؛ لأن الله تعالى ماعلَّم إلا الحق ، وهو المستقرّ في فطرة الإنسان ، وإنما ينصرف الناس عنه بالهوى فيبدلون ، ويغيرون ، وليس ذلك التبديل بالذي علمهم الله تعالى ، وهذا يشير إليه قول النبي – ﷺ :

" استفت نفسك ، وإن أفتاك الناس "

وهذا يفيد أن جملة " كما علمه الله " جملة كنائية ، فهي كناية عن موصوف وهو الحق الذي ودعه الله تعالى في فطرة كل إنسان ، لكنه عبّر عن هذا الحق بتاليه وردافه ، وهو : ما علمه الله ؛ لأن الله تعالى حين خلق الحق أودعه في نفوس البشر ؛ ليكون مرجعاً ، وملاذاً يلوذ به الناس حين تختلط المعايير .

ودمج الصورة التشبيهية بالصورة الكنائية تشعر الكاتب بفضل الله تعالى عليه ، ورفع قدره بهذا العلم الذي لا يجيده كل أحد ؛ مما يستوجب عليه شكر

هذه النعمة بإعطاء الحقوق والمواثيق كل العناية ؛ حتى تخرج في صورةٍ يرضى عنها الله تعالى) (١).

وفي الشعر كتب ابن طيفور في كتابه :

" بلاغات النساء" عن (أبي زيد قال : خرج رجل في بغاء بعير أضلّه فسقط على امرأة في فناء ظلها، قال : لم أر لها شبيهاً ، فقالت ما أوطأك رحلنا يا عبد الله ؟ قلت : بعير لي أضللته فأنا في التماسه ، قالت : أفلا أدلك على من هو أجدى عليك بعيرك منا ؟ قلت : بلى ، قالت : الله . فادعه دعاء واثق لا مختبر قال : فشغلتني بقولها عن وجهها فقلت : يا هذه أذات بعل أنت ؟ قالت : كان فمات – يرحمه الله – فقلت : هل لك في بعل لا يعصيك ؟ فأكبت على الأرض طويلاً ، ثم رفعت رأسها **فقالت:**

كنا كغصنين في أرض غذاؤهما ... ماء الجداول في روضات جنات

فاجتث خيرهما من أصل صاحبه ... دهر يكر بأحزان وترحات

وكان عاهدني ان خانني زمن ... ان لا يواصل انثى بعد مثواتي

وكنت عاهدته أيضاً فشط به ... ريب المنون لمقدار وميقات

فاصرف عنانك عمن ليس يصرفه ... عن الوفاء خلابات التحيات

وراجع قولها (ألا يواصل أنثى) وهي تكني عن الزواج ، لأنه لا حديث للزوجين وقت التصافي إلا في مثل هذه المداعبات ، فتقول له إذا مت فلا تتزوج بغيري ،ويقول لها مثل ذلك ، والله أعلم بما يكون .

١ - البلاغة العالية في ية المداينة ص ٦٤ مكتبة الآداب بالقاهرة .

لكن الذي أريده هنا أن قولها : " ألا يواصل أنثى " كناية عن الزواج وهي كناية عن موصوف .

وفي قول الشاعر :

الضاربين بكل أبيض مِخْذَمٍ والطاعنين مجامع الأضغان

كنايتان عن موصوف ، ففي الشطر الول كنى عن السيف بالأبيض المخدم وفي الشطر الثاني كنى عن القلوب بمجامع الأضغان . ، والعرب تكني عن القلوب بهذا وبغيره **مثل قول أبو نواس واصفا الخمر** :

فلما شربناها ودب دبيبها إلى موطن الأسرار قلت لها : قفي

مخافة أن يسطو عليّ شعاعها فيطّلع ندماني على سرّي الخفي

فأبو نواس كنى عن قلبه بقوله: " موطن الأسرار ، وصور صنيع الخمر وتسللها إلى العقل ، الذي هو صندوق السر ، وخزينة المخفيات ، ورغبتها في كشف هذه الأستار ، وفتح هذه المغاليق ، لذلك تصدى لها وأوقفها قبل أن يشيع أمره ، ويعرف ندماؤه ما يخفيه ، **ومن شعر أبي تمام يقول** :

ومن في كفه منهم قناة كمن في كفه منهم خضاب

وهذه كناية عن موصوف أيضا حيث أراد الشاعر أن يهجوهم ، فجعل رجالهم وهم (من في كفه قناة) شبيهاً بالنساء ، وهم (من في كفه خضاب) فعبر عن الرجال والنساء بما يكون في كف كل منهما .

وتراهم يقولون : (الناطقينَ بالضادِ) كناية عن العربِ ، (وبنت عـدنان) كناية عن اللغة العربية ، ويقولون (دارُ السَّلام) وهم يقصدون بغدادَ ، وشددت الرحال إلى طيبةُ ، كنايةٌ عن المدينةِ المنورةِ ، وملك الغابة ، يقصـدون الأسـد... إلخ ، ومن شعر البحتري الرائق الذي أجاد فيه في وصـف حالـه مـع الـذئب ، والذي أود منك أن تتابع فيه الكنايات ، **وتستخرجها وحدك قوله** :

سَلامٌ عَلَيْكُمْ، لا وَفَـاءٌ وَلاَ عَهْـدُ، أمـا لَكُـمُ مـن هَجـرِ أحبـابكُمْ بُـدُّ

أأحبَابَنـا قَـدْ أنجـزَ البَـينُ وَعْـدَهُ وَشـيكاً، وَلمْ يُنْجَـزْ لنَـا مـنكُمُ وَعْـدُ

أأطْـلالَ دارِ العَامِرِيّـةِ بـاللّوَى، سَقَتْ رَبعَكِ الأنوَاءُ، ما فعلَتْ هندُ؟

أدَارَ اللّوَى بَينَ الصريمَةِ والحمَـى، أمَا للهَوَى، إلاّ رَسيسُ الجَوَى قَصْـدُ

بنَفْسِيَ مَـنْ عَـذّبْتُ نَفسِي بحُبّـهِ، وإنْ لمْ يكُـنْ منـهُ وِصَـالٌ، وَلاَ وِدّ

حَبيبٌ مَنِ الأحبابِ شطّتْ بـهِ النّوَى، وأيُّ حَبيـبٍ مـا أتَـى دونَـهُ البُعْـدُ

إذا جُزْتَ صَحْرَاءَ الغُـوَيْرِ مُغَرِّبـاً، وَجَازَتْكَ بَطْحَاءُ السّـوَاجيرِ يـا سَـعْدُ

فقُلْ لبَني الضّحّاكِ: مَهْـلاً، فـإنّني أنا الأُفْعُوَانُ الصِّـلُّ والضّـيغَمُ الـوَرْدُ

بَني واصلٍ مَهْلاً، فإنّ ابنَ أُخـتكم لَـهُ عَزَمـاتٌ هَـزْلُ آرَائهَـا جِـدّ

متى هِجْتُمُوهُ لا تَهيجوا سـوَى الـرّدى، وإنْ كـانَ خِرْقـاً مـا يُحَـلُّ لَـهُ عَقْـدُ

مَهيباً كَنَصْلِ السّيفِ لوْ قذفت بهِ ذُرَى أجـإٍ ظَلّـتْ وأعلامُـه وَهْـدُ

يَوَدُّ رِجَالٌ أنّني كُنتُ بَعضَ مَـنْ طَوَتْـهُ المنايـا، لا أرُوحُ وَلا أغـدُو

وَلَـوْلا احـتمَالي ثِقْـلَ كُـلّ مُلمّـةٍ، تَسُوءُ الأعادي، لم يَـوَدّوا الـذي وَدّوا

ذَرِيني وإيّاهُمْ، فحَسبي صَرِيمَتي	إذا الحَــرْبُ لمْ يُقــدَحْ لمُخْمِـدِها زَنْـدُ
وَلي صَاحبٌ عَضْبُ المَضَـارِبِ صَـارِمٌ،	طَوِيــلُ النِجَـادِ، مـا يُفَـلُّ لَـهُ حَـدّ
وَبَاكِيَــةٍ تَشْــكُو الفــرَاقَ بــأدْمُعٍ	تُبَادِرُهــا سَــحّاً، كَـمَا انتَثَـرَ العِقْــدُ
رَشَــادَكِ لا يُحْزِنْـكِ بَـينُ ابـنِ همّـةٍ	يَتُــوقُ إلى العَلْيَــاءِ لَــيسَ لَــهُ نِــدّ
فَمَنْ كَانَ حُرّاً فَهْوَ للعَـزْمِ والسُّرَى،	وَللّيــلِ مــن أفعالِــهِ، والكَـرَى عَبـدُ
وَلَيْـلٍ، كـأنّ الصّـبحَ في أُخرَيَاتـهِ،	حُشَاشَــةُ نَصْـلٍ، ضَـمّ إفرِنـدَهُ غِمـدُ
تَسَرْبَلْتُهُ والـذّئبُ وَسْـنانُ هـاجِعٌ،	بعَينِ ابنِ لَيـلٍ، مـا لـهُ بـالكَرَى عهـدُ
أُثيرُ القَطـا الكُـدْرِيَّ عَـنْ جَثَماتـهِ،	وَتــألَفُني فيــهِ الثّعَالــبُ، والرُّبْــدُ
وأطْلَسَ مِلْءِ العَـينِ يَحمـلُ زَوْرَهُ،	وأضْـلاعُهُ مـنْ جَانبَيْـهِ شَـوًى نَهْـدُ
لَـهُ ذَنَـبٌ مثـلُ الرِّشَـاءِ يَجُـرّهُ،	وَمَـتنٌ كَمَـتنِ القَـوْسِ أعـوَجُ، مُنْـأدّ
طَوَاهُ الطّوَى حَتّى اسـتَمَرّ مَرِيـرُهُ،	فَـما فيـهِ إلاّ العَظْـمُ والـرّوحُ والجِلْـدُ
يُقَضْقِضُ عُصْلاً، في أسِرّتها الـرّدى،	كَقَضْقَضَــةِ المَقْــرُورِ، أرْعَــدَهُ الــبَرْدُ
سَمَا لي، وَبي منْ شدّةِ الجوعِ ما بـه،	ببَيــداءَ لمْ تحسَــسْ بهــا عَيشَــةٌ رَغْــدُ
كلانــا بهــا ذِئْــبٌ يُحَـدّثُ نَفْسَــهُ	بصَــاحبِهِ، والجَــدُّ يُتْعِسُــهُ الجَــدّ
عوَى ثمّ أقْعَى، فارتَجَزْتُ، فهِجْتُه،	فأقْبَــلَ مثْــلَ الــبَرْقِ يَتْبَعُــهُ الرّعْــدُ
فأوْجَرْتُهُ خَرْقَـاءَ، تَحسـبُ رِيشَـها	عـلى كوْكـبٍ يَـنقَضُّ واللّيـلُ مُسـوَدّ
فَـما ازْدادَ إلاّ جُـرْأةً وَصَرَامَــةً،	وأيْقَنْــتُ أنّ الأمْــرَ منْــهُ هــوَ الجِـدّ
فأتْبَعْتُهَا أُخرَى، فأضْلَلْتُ نَصْلَهَا	بحَيثُ يكونُ اللُّبُّ والرُّعـبُ والحِقْـدُ

فَخَـرّ وَقَـدْ أوْرَدْتُـهُ مَنهَـلَ الـرّدَى ... عـلى ظَمَـإٍ، لَـوْ أنّـهُ عَـذُبَ الـوِرْدُ
وَقُمْتُ فجَمّعتُ الحَصَى، فاشتَوَيتُه ... عَلَيْـهِ، وللرّمضَـاءِ مِـن تحتـه وَقْـدُ
وَنِلْـتُ خَسيسـاً منـهُ، ثـمّ ترَكْتُـهُ، ... وأقْلَعْـتُ عَنـهُ، وَهْـوَ مُنْعَفِـرٌ فَـرْدُ
لَقَدْ حَكَمَتْ فينا اللّيالي بجَوْرِهـا، ... وَحُكمُ بَنـاتِ الـدّهرِ لَـيسَ لَـهُ قَصْـدُ
أفي العَدلِ أنْ يَشقَى الكَريمُ بجَوْرِها، ... ويأخُذَ منهـا صَـفوَها القُعـدُدُ الوَغْـدُ
ذَرِيني مِن ضَرْبِ القِداحِ علـى السُّرَى، ... فعَزْمِـيَ لا يَثنيـهِ نَحـسٌ، ولا سَـعدُ
سـأحمِلُ نَفْسِي عنـدَ كـلّ مُلمّـةٍ ... على مثلِ حـدّ السّـيفِ أخلَصَـهُ الهنـدُ
ليَعْلَمَ مَنْ هَابَ السُّرى خَشيةَ الرّدى ... بـأنّ قَضَـاءَ الله لَـيسَ لَـهُ رَدّ
فإنْ عشتُ محموداً فمثلي بغَى الغنى ... ليَكسِـبَ مـالاً، أو يُنَـثَّ لَـهُ حَمْـدُ
وإنْ مُتُّ لمْ أظفَرْ، فلَيسَ على امرِىءٍ ... غَـدا طالبـاً، إلاّ تَقَصّـيهِ، والجُهْـدُ

الكناية عن نسبة :

وهي ما صرح فيه المتكلم بالموصوف والصفة ، وإضمار النسبة بينهما ليستخرجها المتلقي وحده ، وكأن هناك تفاعلا بين المتكلم والسامع ، ومن أجمل ما قيل في ذلك قول الشاعر في وصف مصر وواليها :

إذا لم تزر أرض الخصيب ركابنا ... فأي فتى بعد الخصيب تزور
فتى يشتري حسن الثناء بماله ... ويعلم أن الدائرات تدور
فما جازه جود ولا حل دونه ... ولكن يصير الجود حيث يصير

فلشاعر صرح بالجود ، وصرح بالموصوف ، وهو الخصيب أمير مصر- لكنه لم يصرح بنسبة الجود إليه ، ولكن فقط : يصير الجود حيث يصير ، وتخيل معي الممدوح والجود بجواره ، لا يتعداه ، ولا يحل دونه ، بل هو في ركابه، فماذا يقصد الشاعر ؟ لا شك أنه يقصد أنه جواد ، لكنه لم يصرح بهذه النسبة ، بل جمع لك الجود ، والممدوح في قبة واحدة ، وترك لك نسبة الجود إليه .

وفي قول آخر يصف عفة امرأة :

يبيت بمنجاة من اللوم بيتها إذا ما بيوت بالملامة حفت

فالصفة هي العفة ، أو البراءة من اللوم ، والموصوف هو لفظ المرأة ولكن الغائب هو العقد والرباط ، والنسبة بين الصفة والموصوف ، الذي رمى به الشاعر ناحية أخرى ، حيث نسب البراءة إلى البيت ، وهو يقصد صاحبة البيت ،لأن البيوت لا توصف ببراءة ولا غيرها ،وتقول : العرب لا تفعل هذا تخاطب به العربي كأنك تقول : أنت لا تفعل هذا ، وينسحب أيضا على العائلات ، فتقول : عائلة فلان لا ينقضون عهدا ،تقصد أنه لا ينقض العهد وتقول : أقرانه بلغوا ، تعني أنه بلغ .

قيمة الكناية في الأدب :

تعد الكناية من أعلى صور البيان ، وأوسعها دلالة ، وأقدرها على حمل المعاني ، وأقربها إلى النفوس ، ولو راجعت الأمثال العربية القديمة ، بل والشعبية المعاصرة لوجدتها قائمة على الأسلوب الكنائي ، فالكناية أسلوب يسهل استخدامه في التعبير عن المعاني الدارجة ، لأنك تنتقل من الحقيقة إلى ما

يليها في الدلالة ، فهي أقرب الأساليب إلى الحقيقة ، بل هناك من أدخلها في عالم الحقيقة .

و مزية الكناية عند ابن سنان تكمن فى "**زيادة المعنى والمبالغة فيه**" فهي تصل بالمعنى إلى غايته ، ولذلك حين وقفت امرأة على قيس بن سعد بن عبادة وقالت: أشكو إليك قلة الجرذان ، قال: ما أحسن هذه الكناية .. املئوا لها بيتها خبزاً ولحماً وسمناً وتمراً ، وما ذلك إلا لأن الجرذان لا تهجر بيتا إلا وقد انعدمت فيه أسباب المعيشة ، فوجود الجرذان يعني وجود ما يؤكل ، وإن قل ، والمرأة لم تجد صورة تعبر بها عن انعدام ما يقتات به أفضل من خلو البيت من الجرذان ومتى هجرت الجرذان البيوت فما فوقها أشد هجرانا وأكثر جوعا !!!.

وتعلو قيمة الكناية كلما كان المقصد إلى إخفاء المعاني الأول ، لسبب من الأسباب ، **ففي قول الله تعالى** :

﴿مَّا ٱلۡمَسِيحُ ٱبۡنُ مَرۡيَمَ إِلَّا رَسُولٞ قَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلِهِ ٱلرُّسُلُ وَأُمُّهُۥ صِدِّيقَةٞۖ كَانَا يَأۡكُلَانِ ٱلطَّعَامَ.... ﴾ [سورة المائدة:٧٥]

جاءت الكناية عن الإخراج ، وقضاء الحاجة بأكل الطعام ، وذلك رغبة عن استحضار مشهد إخراج الطعام ، وما يحمله من دلالات ، لا تناسب الحديث عن كلمة الله ﷺ ، لكن إثبات المعنى لهم يدحض كل فكرة تقول بخروجه عن دائرة البشر، فأثبت المعنى وأجمل في التعبير .

كما أن الكناية أشد تأثيرا في النفوس مما يفتح لها الباب أمام قلوب المخاطبين **وراجع قوله تعالى :**

﴿ ....وَإِن كُنتُم مَّرْضَىٰٓ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ جَآءَ أَحَدٌ مِّنكُم مِّنَ ٱلْغَآئِطِ أَوْ لَٰمَسْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَلَمْ تَجِدُواْ مَآءً فَتَيَمَّمُواْ صَعِيدًا طَيِّبًا .....﴾ [سورة النساء:٤٣]

تجد جملة " لا مستم النساء " توصلك إلى المعنى الذي تحمر منه الخدود ، فترك التصريح به ، وجاء بما يتضمن المراد دون خجل ، وبخاصة أن هذا القرآن سيتلى على مسامع الناس جميعا رجالا ونساء ، فكان لفظ الملامسة أدل على المراد وأحفظ للخصوصية .

وتعالج الكناية جميع المعاني سواء حسن ذكرها ، أم لم يحسن ، فمثلا في **قوله تعالى :**

﴿ وَعِندَهُمْ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ عِينٌ ﴿٤٨﴾ ﴾ [سورة الصافات:٤٨]

المعنى المكنى عنه هو العفاف ، **لكن في قوله سبحانه:**

" كانا يأكلان الطعام " كناية عن قضاء الحاجة ، وهو معنى لا يعبر عنه في اللسان العربي إلا بمثل هذه الكنايات التي تضفي على المعاني من العذوبة والرقة الكثير .

زد على ذلك كله ما تحمله الكناية من إرادة الإيضاح مع قوة الاختصار ففي الكناية ترى المعنى بكامل هيئته ، مع الإيجاز الشديد ، **واسمع هنا إلى قول طرفة بن العبد :**

أنا الرجل الضرب الذي تعرفونه خشاش كرأس الحية المتوقد

والخشاش يعني الصغير الرأس ، والضرب يعني الخفيف اللحم ، وراجع البيت وتعرف على منطق القوم الذين يعتبرون خفة اللحم إمارة القوة ويعتبرون صغر الرأس أمارة الذكاء ..

وفي قول الشاعر :

أَوَ مَا رَأَيْتَ الْمَجْدَ أَلْقَى رَحْلَهُ في آلِ طَلْحَةَ ثُمَّ لَمْ يَتَحَوَّلِ

ما يشير إلى قدرة الكناية على حمل المعاني الكثيرة في اللفظ القليل .

وقول آخر :

الضَّارِبِينَ بكُلِّ أَبْيَضَ مِخْذَمٍ والطَّاعِنِينَ مَجَامِعَ الأَضْغَانِ

وللكناية لطائف وبدائع تستنبط من السياق والمقام ، فهي تصون الأسماء وتدخل إلى المعاني بسهولة ، وتلغز حين يحتاج السياق إلى بعض الغموض .

التعريض

التعريض في اللّغة: أن تقول كلاماً لا تُصرّح فيه بالمراد ، وهو من الفعل : عَرَضَ ، أي جاء بعرض الكلام ، وكأن عرض الكلام يخالف طوله وكأن في طول الكلام دلالة مباشرة وصريحة ، وفي عرض الكلام دلالة ضمنية خفية لأن العرض دائما أضيق من الطول ،فهو يضغط المعنى ويمسك بوسطه والعرب تقول : عرّض لي فلانٌ تعريضاً: أي: قال فلم يُبَيِّن بصراحة اللفظ.

أما أهل البلاغة فلقد عرفوه بأنه :(المعنى الحاصل عند اللفظ لا به أو المعنى المفهوم من خلال السياق) وراجع ثانية هذا التعريف تجد أن التعريض يكاد يدخل الحقيقة والمجاز والكناية ، وفي الوقت نفسه يغاير التعريض الدلالات الثلاث ، وإذا كان الأمر على هذا النحو فالتعريض ليس هذه الثلاثة وليس غيرها ، بل هو قسم مستقل .

ولقد ارتبط أسلوب التعريض بأسلوب الكناية ، لأن كلا منهما فيه عدول عن التصريح ، وأسلوب التعريض أعم من الكناية ، لأنه يأتي متوشحا ثوب الكناية تارة ، وثوب المجاز أو الحقيقة أخرى ، ولقد فرق ابن الأثير بين الكناية والتعريض **فقال** : (التعريض : هو اللفظ الدال على الشيء من طريق المفهوم لا بالوضع الحقيقي ولا بالمجازي ، فإنك إذا قلت لمن تتوقع معروفه وصلته بغير طلب : أنا محتاج ، ولا شيء في يدي ، وأنا عريان والبرد قد آذاني ، فإن هذا وأشباهه تعريض بالطلب ، وليس اللفظ موضوعا للطلب ، لا حقيقة ولا مجازا وإنما يدل عليه من طريق المفهوم ، وعلى هذا ورد تفسير التعريض في خطبة النكاح كقولك للمرأة : أنت جميلة ، أو : إنك خلية ، وأنا عزب ، فإن هذا وشبهه لا يدل على طلب النكاح بالحقيقة ولا بالمجاز والتعريض أخفى من الكناية ، لأن دلالة الكناية وضعية من جهة المجاز ، ودلالة التعريض ليست وضعية ، وإنما يسمى التعريض تعريضا لأن المعنى فيه يفهم من عرض اللفظ المفهوم أي من جانبه) (١).

---

١ - المثل السائر لابن الأثير ٢/ ١٨٢.

والعرب تكثر من التعريض في كلامها ، وبخاصة في مقام الذم ، مثل قول الشاعر :

يا قوم إن سعيداً من يكون له — من رأيه عن ركوب الغي مزدجر
لا تبطروا لبلاء الله عندكم — فقبلكم شان أهل النعمة البطر
ما غيّر الله من نعماء أنعمها — على معاشر حتى تبدأ الغير

بل إنه أَخفى من الكنايةِ ، حيث لا يشترط فيه علاقة مثل المجاز ولا لزوم ذهني مثل الكناية ، ولا مصاحبةٌ، ولا مُلابسة ما بين الكلام وما يُرادُ الدّلالة به عليه ، إنّما فقط يفهم المعنى من قرائن الحال، وبهذا يظهر الفرق بين الكناية والتعريض.

وأزيدك هنا بيانا في الفرق بين الكناية والتعريض ، حيث إن الكناية تكون في اللفظ المفرد وفي الجملة ، أما التعريض فلا يكون إلا في التراكيب – يعنى مستقل بالجمل ، لأن المعنى في التعريض يستدل عليه من العلاقات بين الألفاظ .

ويدخل في دائرة التعريض (التلويح ، والرمز ، والإيماء ، والإشارة) وهذا ما قاله السكاكي ، وسواء كانت هذه المصطلحات داخلة في الكناية أم خارجة عنها ، فإن من الأهمية هنا وضع الخطوط الفاصلة بين حدودها ، ليتبين لنا متى نقول هنا إشارة إلى معنى كذا أو تلويح بمعنى كذا ، أو رمز إلى معنى كذا ؟

عرفت أن التعريض في اللغة خلاف التصريح ، وهو معنى مرتبط بالسياق أكثر من ارتباطه بالمفرد أو الجملة ، فإذا قلت في حضرة من سفك الدماء :

(المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده) فأنت تعرِّض بهذا القاتل وتنزع عنه صفة الإسلام الحق لأن يده سفكت الدم ، ولسانه استباح العرض وإذا رأيت أهل البغي وقد اجتمعوا على شيء ، فقلت : الطيور على أشكالها تقع فأنت تعرض بهم ، وحين تسمع المتنبي يقول :

حَبَبْتُكَ قَلْبي قَبلَ حُبّكَ من نأى ... وَقد كانَ غَدّاراً فكُنْ أنتَ وَافِيَا

وَأعْلَمُ أنّ البَينَ يُشكيكَ بَعْدَهُ ... فَلَسْتَ فُؤادي إنْ رَأيْتُكَ شَاكِيَا

فإنّ دُمُوعَ العَينِ غُدْرٌ بِرَبّهَا ... إذا كُنّ إثْرَ الغَادِرِين جَوَارِيَا

إذا الجُودُ لم يُرْزَقْ خَلاصاً من الأذَى ... فَلا الحَمدُ مكسوباً وَلا المالُ باقِيَا

وَللنّفْسِ أخْلاقٌ تَدُلّ على الفَتى ... أكانَ سَخاءً ما أتَى أمْ تَسَاخِيَا

أقِلَّ اشتِياقاً أيّهَا القَلْبُ رُبّمَا ... رَأيْتُكَ تُصْفي الوُدّ من ليسَ صافيَا

خُلِقْتُ ألُوفاً لَوْ رَجعتُ إلى الصِّبَى ... لَفارَقتُ شَيبي مُوجَعَ القلبِ باكِيَا

فتجده يعرض بأناس يصطنعون الكرم وليسوا بكرماء ، ويتصنعون الجود والجود منهم برئ ، فهذا كله من باب التعريض ، المهم أن التعريض دلالة تلتقطها وأنت في حال معين ، مع لفظ معين ، فحين يجتمع اللفظ والحال يحضر المعنى ، فيكون التعريض .

أما التلويحُ: فهو من لَوَّحتْه الشمسُ: إذا غيرت لونَه ، ولَوَّحت النارُ الشيءَ: أي أحرقته ولَوَّحه بالنار: أي أحرقه ، ولَوَّح بثوبه : أي أشار به ، فكأن التلويح هو الإشارة عن بعد ، ويقال في بعض الأمثال:

«من لم يعرف التلويح لم يعرف التصريح»

وهذا البعد هو الذي يميز التلويح ، ففي قول الشاعر :

ومـا يـكُ فيَّ مِـن عيـبٍ فـإنِّي جَبَـانُ الكلـبِ مَهْـزولُ الفصـيلِ

تجد مجموعة من الوسائط ، ينقلك كل واحد منها إلى غيره حتى تصل إلى كرم الممدوح ، مما يعنى وجود صعوبة في الوصول إلى المعنى بسرعة ويقترب من التلويح ما يطلق عليه الرمز .

والرمزُ: كما يقول الأصفهاني: (إشارة بالشفة ، والصوت الخفى والغمز بالحاجب ، **قال تعالى:**

﴿ **قَالَ رَبِّ ٱجْعَل لِّيٓ ءَايَةً قَالَ ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمْزًا .....** ﴾

[سورة آل عمران:٤١]

ويقولون : ما ارماز أي : لم يتكلم رمزا ، وكتيبة رمازة : لا يسمع منها رمز من كثرتها) (١).

ولما كان من خصائص الرموز الاختصار ، كان الإيجاز الشديد للمعاني ضربا من الرمز ، والاكتفاء بحركات الوجه والجسد للدلالة على المعاني ضربا من الرمز ، وارتباط بعض المعاني ببعض الحركات هو نوع من الرمز ، والدلالة على المعاني برموز حياتية هو أيضا ضرب من الرمز، مثل دلالة (عرض الوسادة)

١ - مفردات غريب القرآن للأصفهاني ١/ ٢٠٣ .

على قلة الفطنة ، ودلالة اكتناز اللحم على القوة ، ودلالة طول الجسد على البلاهة .... إلخ.

أما الإيماءُ والإشارةُ فهي حركات بالجسد يفهم منها المعنى ، وقد تكون هذه الإشارة أو الإيماءة يراد منها أن تنظر في بدايات الكلام ، أو في أعطافه التي سبقت وتبني الكلام القادم على الكلام السابق ، **و من لطيف ذلك قولُ بعض الشعراء :**

سألتُ النَدَى والجُودَ ما لي أراكُما ... تبـدَّلتُما ذلاً بعـزٍّ مؤبـدِ

وما بالُ رُكنِ المجدِ أمسَى مهدَّماً ... فقالا أُصبنَا بابن يحيى محمَّدِ

فقلتُ: فهلا متُّما عندَ موتِهِ فقدْ ... كنتما عبدَيهِ في كلِّ مَشْهدِ

فقالا: أقمنَا كي نُعزَّى بفقدِه ... مسافةَ يومٍ ثمَّ نتلوهُ في غدِ

فقوله (ثم نتلوه في غد) إشارة إلى ما سبق من قوله (فهلا متما عند موته) والمعنى : أقمنا كي نعزى بعده مسافة يوم ، ثم نموت كما مات في الغد ، **ومثله قول الشاعر :**

سألتُ الندى: هل أنت حرٌّ؟؛ فقال: لا ... ولكنني عبدٌ ليحيى بن خالدِ

فقلتُ شراءً ؟ قال : لا ، بل وراثةً ... توارثني عن والدٍ بعدَ والدِ

فقوله : (شراء) يشير إلى ما سبق من قوله : ولكنني عبد ، أي : هل عبوديتك تمت عن طريق البيع والشراء ؟ ... وكذلك قوله : (توارثني) إشارة

إلى قوله من قبل ، (بل وراثة) فالإشارة والإيماء إنما يعيدك إلى كلام مضى ليجيب عنه ، أو يوضح شيئا فيه ، أو نحو ذلك .

المهم أن أسلوب التعريض يتيح لك الخروج من تبعات التصريح ، ونسمع في كلام أهل العلم : التعريض بالزواج ، والتعريض بالذم ، والتعريض بالشكوى ، والقصد إلى عدم التصريح لغاية من الغايات وهو الهدف من أسلوب التعريض .

ويلتقي التعريض مع الكناية في كثير من الأغراض ، مثل إخفاء المقصود الصريح ،ومثل الغضب ، أو الاتهام ، ومثل ستر ما لاينبغي كشفه ، أو توجيه الخطاب لجماعة من خلال وسيط **مثل قول الله تعالى :**

﴿ **وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ** (٦٥) ﴾ [سورة الزُّمَر:٦٥]

فهذا الخطاب بلا شك يراد به غيررسول الله ﷺ ، لأن توقع الشرك منه خارج نطاق التصور ، فهذا من باب " إياك أعني واسمعي ياجارة " ، والعدول عن التصريح أعلى بيانا من مخاطبتهم بهذا ، لأن الظاهر من العدول هو : إذا كان المعصوم يقال له هذا ،فما بالكم بغيره ؟

وحين تقرأ قول الله تعالى :

﴿....إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ١٩﴾ [سورة الرعد:١٩]

﴿....وَلِيَذَّكَّرَ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ٥٢﴾ [سورة إبراهيم:٥٢]

﴿...وَذِكْرَىٰ لِأُوْلِى ٱلْأَلْبَٰبِ ٤٣﴾ [سورة ص:٤٣]

﴿...كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْأَيَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ٣٢﴾ [سورة الأعراف:٣٢]

﴿...إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَأَيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ١١﴾ [سورة النحل:١١]

﴿....قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْأَيَٰتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ ٩٨﴾ [سورة الأنعام:٩٨]

في هذا كله ترى الحمل والتبكيت على كل من لا يفهم ، ولا ينظر ولا يتعظ ، ولا يتفكر ، ولا يؤمن .... إلخ .

وفي قول الله تعالى عن موسى:

﴿ وَلَمَّا وَرَدَ مَآءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ ٱلنَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِن دُونِهِمُ ٱمْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ قَالَ مَا خَطْبُكُمَا قَالَتَا لَا نَسْقِى حَتَّىٰ يُصْدِرَ ٱلرِّعَآءُ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ ٢٣ فَسَقَىٰ لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّىٰٓ إِلَى ٱلظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّى لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَىَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ ٢٤ فَجَآءَتْهُ إِحْدَىٰهُمَا تَمْشِى عَلَى ٱسْتِحْيَآءٍ قَالَتْ إِنَّ أَبِى يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا فَلَمَّا جَآءَهُۥ وَقَصَّ عَلَيْهِ ٱلْقَصَصَ قَالَ لَا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ٢٥﴾

[سورة القصص:٢٣-٢٥]

تجد الدعاء بأن يرزقه الله المال ، والبيت ، والزوجة مخبوءا تحت جملة : ﴿رَبِّ إِنِّي لِمَآ أَنزَلۡتَ إِلَيَّ مِنۡ خَيۡرٖ فَقِيرٞ﴾ فاستجيب له فرزق – صلى الله عليه وسلم – ذلك كله .

وبعد : فإن أسلوب التعريض وما يحمله من صور دلالية فيها التلويح والإيماء والإشارة والرمز يفتح الباب أمام الذائقة البلاغية لتنظر من خلاله إلى كثير من النصوص ، كما يفتح الباب على كثير من الدلالات التي يحسن سترها بهذا الستر الجميل ، وستظل الكناية والتعريض من أغمض أبواب البلاغة ، وفي الوقت نفسه من أشدها إمتاعا ، وألقا .

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم

أد / سعيد أحمد جمعة